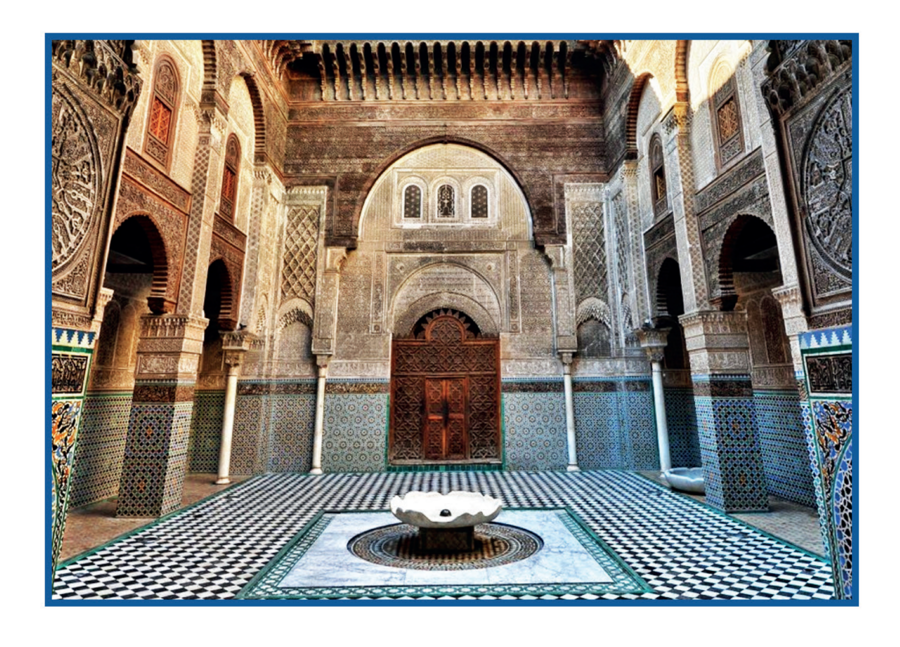
سلسلة أطروحات ورسائل 18

العمل الاجتماعي
في عهد الدولة المرينية

1244م-1465م



الدكتور عبد اللطيف بن رحو







كتاب: العمل الاجتماعي في عهد الدولة المرينية (1244م-1465م)

تأليف: الدكتور عبد اللطيف بن رحو

الناشر: مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)

ردمك: ISBN : 978-9920-576-04-8

الطبعة الأولى: 1443هـ / 2022م

التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

العمل الاجتماعي في عهد الدولة المرينية

(1244م-1465م)

الدكتورعبد اللطيف بن رحو

بسم الله الرحمن الرحيم




إهداء

إلى روح والدي

إلى أمي الحنون حفظها الله

إلى من تقاسمت معي نعمة ومرارة الحياة زوجتي

إلى ابني أشرف

إلى الأستاذ الفاضل الدكتور عمر آجة

إلى الأخ والصديق بوبكر سوغو

أهدي ثمرة هذا العلم




مقدمة

الحمد لله رب العالمين تعاظم ملكوته فاقتدر، وتعالى جبروته فقهر، وأعز من شاء ونصر، ورفع أقواما وخفض أقواما، فسبحانه الذي لا يرى بالبصر ويستدل عليه بالآيات والعبر وخلق كل شيء بقدر. والصلاة والسلام الأتمان الأنوران الأكملان الأزهران الأعتران المشرقان المضيئان على ولد عدنان سيدنا محمد ﷺ وعلى صحابته أجمعين ومن سار على نهجه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعد...

برز الإسلام إلى الناس بمشروعه الحضاري، واستند إلى قدسية الوحي، واعتمد قدرته الفائقة على مخاطبة الكيان البشري وعلى تحريك طاقة النفس المؤمنة إلى القيام بالعمل الاجتماعي، الذي ينبني على دعائم وأسس ومبادئ، وفق شروط محكمة ومضبوطة، في منظومة القيم والتعاون بين كل مقومات المجتمع. والعمل الاجتماعي في الإسلام بمفهومه العام ودلالاته الواسعة كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وإن كان العمل الاجتماعي قد ظهر قبل الإسلام عند أهل الكتاب الذين تعاملوا مع الوحي، غير أنه لم يكن مكتملا، ولما جاء الإسلام قعّد للعمل الاجتماعي، وتعامل معه بأصوله وقواعده، وبمنهج حكيم ورشيد، ليستمر عبر العصور ويكون ثابتا غير متغير، فالخير في المجتمع الإسلامي لا ينقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الشريعة الإسلامية جاءت بنظام شامل، وميزتها أنها كذلك فقاربت جميع قضايا الإنسان، والخاطئ كل من ظن أن الشريعة جاءت قصد التعبد فقط، بل قاربت كل قضايا الإنسان فخصت عنايتها بالعمل الاجتماعي وصانته وجعلت منه منظومة منضبطة وفق شروط يلتزم بها أفراد المجتمع ومكوناته. لقد أصل القرآن الكريم العمل الاجتماعي وبذلك جاءت الآيات الكريمة واضحة الدلالة مفسرة المعاني ومرتبة لشعائره وأحكامه، ومن العمل الاجتماعي ما يدخل في باب الوجوب والإلزام، وما يدخل في باب التطوع، فهو بحر واسع ومداده لا يفنى مادامت خيوط الخير معلقة بأثواب أهل الخير والإحسان.

وجاءت السنة النبوية موازية بما جاء به القرآن الكريم، ودعت إلى وضع اللبنات الأساسية للعمل الاجتماعي وأن تتجه النفس المؤمنة إلى تأسيس ثقافة مجتمعية. في دائرة التشارك من أجل نجاحه، وأن يعيش الإنسان في المجتمع عيشة كريمة غير محروم ولا مقهور. ثم إن الأحاديث النبوية نصت صراحة على إقامة العمل الاجتماعي لما له من دور في المجالات الإنسانية والاقتصادية والثقافية والتعليمية، حتى تنهض الأمة يدا واحدة يجمعها عرق واحد في بناء متماسك.

لقد قدم العمل الاجتماعي عبر التاريخ إنجازات كبرى غطت جهات الخير والنفع العام.

ومن ذلك ما دأب عليه الخلفاء الراشدون الذين ساروا على المنهج النبوي الشريف خصوصا عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي عُرف بالعمل الاجتماعي في مختلف المجالات وقد سجل لنا التاريخ محطات ووقفات هذا العهد بمداد من ذهب.

وبعد توسع رقعة الدولة الإسلامية بفعل الفتوحات، انتشر فعل العمل الاجتماعي بين الأمصار والبلدان، وأحب الناس العمل الخيري، بل وتسابقوا لإنجازه وعمله، تيمنا وتأسيا بالمنهج النبوي، خصوصا أن النبي ﷺ دعا إلى خفض جناح الرحمة لكل فقير ومعسر ويتيم وأرملة وصاحب الحاجة، ونيل درجات الإحسان والثواب من الله عز وجل.

ومن المواقف التي دونت في كتب تاريخ الإسلام، الأعمال الجليلة التي ذكرت عن الخليفة الأموي عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، والتي انصبت في رحاب العمل الاجتماعي، والتي ما يزال صداها ينبعث عند كل من يقرأ تلك النفحات.

لا شك أن العمل الاجتماعي يحتاج إلى الجماعة والتكتل والتعاون، ترى ذلك جليا في بيان الصلوات الخمس والجمع والأعياد، كل ذلك ليؤصل فينا أهمية الاجتماع على الخير دائما، فهو صورة تطبيقية وعملية لما يأمر به ديننا الحنيف، من خلال الكتاب العظيم والسنة النبوية الشريفة.

ومن خلال الاستمرارية والدعوة إلى جعل المجتمع الإسلامي كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا في كل الظروف، ليستمر هذا العمل الاجتماعي عبر الحقب التاريخية على نفس

المنهج النبوي الشريف بوتيرة التعاقب خصوصا بعد توسع الفتوحات الإسلامية في كل بقاع الأرض.

وبعد فتح بلدان شمال إفريقيا وصولا إلى أرض الأندلس كما هو معروف في كتب التاريخ، استقر الإسلام دينا معترفا به، وانطلقت الدعوة إلى التمسك بالدين الحنيف، فكان المغرب الأقصى من بين الدول التي اعتنق أهلها الدين الإسلامي، والتزموا بأحكامه وشرائعه السمحة، رغم تخلفهم عن حكم المشرق واستطاعت أن تكون دولة المغرب الأقصى دولة إسلامية مستقلة بذاتها، خصوصا حينما بايع البربر الأمير إدريس الأكبر أول خليفة حاكما للبلاد، ومن هنا انطلقت أول نواة للحكم الإسلامي بالمغرب الأقصى على المنهج النبوي، خصوصا أنه من آل البيت. وبذلك تدعمت وقويت أطراف الدولة المغربية، وكان لها صيتها وباعها على كل مَن توارث سلطة الحكم بها.

وكان لزاما على كل من تعاقب على حكم الدولة المغربية سواء من الأدارسة، أم المرابطين، أم الموحدين، أم المرينيين، أم الوطاسيين، أم السعديين، وصولا إلى العلويين، أن يلتزموا بأحكام الشريعة الإسلامية بغض النظر عن منظومة الصراعات السياسية والعسكرية، وقد خص العمل الاجتماعي بعناية حيوية وشاملة، نظرا للاهتمام الذي لقيه من طرف السلاطين الذين تعاقبوا على حكم الدولة المغربية خصوصا الدولة المرينية موضوع بحثنا.

فالحضارة الإسلامية في العهد المريني بالمغرب لها أهمية خاصة، لأنها شهدت نهضة علمية وثقافية وازدهرت فيها المساجد والمدارس والخزانات والمارستانات. إلى جانب أعمال الخير والمبرات والاحسانات المتنوعة، وبذلك رفعت من شأن العمل الاجتماعي وأعطت آيات في القيم والتضامن والتلاقي والتعاون والتآزر، سواء من قبل السلاطين أم أهل البر والإحسان من المجتمع.

ولما انتقلت السلطة إلى بني مرين وسيطروا على بلاد المغرب الأقصى قاموا بتأصيل العمل الاجتماعي وفق ضوابط معلومة، بل أخذت الدولة على عاتقها صيانة الفئات المكْلومَة وحمايتها، وشاركت مشاركة عارمة حينما اقتنعت أن ما تدعو إليه من صلب الشريعة الإسلامية، وحملوا على أكتافهم مسؤولية الرعاية الاجتماعية، لتكون نبراسا، فنذر المرينيون جهودهم صوب العمل الخيري وخدمة الإسلام من باب العمل الاجتماعي. ودعت

الفئات الغنية والمقربة من السلطة بالمشاركة والمساندة لتكتمل الدائرة، وتتسع مداخيل المساهمة في هذا الجانب الخيري.

والعمل الاجتماعي هو عمل في سبيل الله يمتد أثره ويدوم في أي أمر من أمور الخير والإحسان والنفع العام، الذي يقصد به أجر الله تعالى وثوابه المستمر والذي لا يزال صداه ممتدا إلى يومنا.

والحديث عن العمل الاجتماعي في العهد المريني حديث هام من تاريخ المغرب الأقصى، ومنعطفا جديدا، الْتُمست فيه الحلول والمعالجات لمشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. فالتحمت السلطة مع رعيتها في إقرار العمل الاجتماعي الخيري، واعتباره مجالا تنبعث منه روح الحضارة المغربية التي اكتسبت ثقافة واسعة ونمطا فكريا في مجال الإحسان والبر والخير وتكريس أهميته في الحياة الاجتماعية.

وتعددت وتنوعت وسائل العمل الاجتماعي واختلفت وتباينت في عهد بني مرين، فقد مثلت صفحة جديدة ومهمة في هذا الجانب، ويتبين ذلك من خلال المنجزات العظيمة التي تم تقديمها نمطا مستمرا، وخدمة شاملة في المجتمع خلال تلك الحقبة. وبذلك كان العمل الاجتماعي في العهد المريني حلقة وصل بين السلطة وشعبها من جهة، وبين الأغنياء والفقراء من جهة ثانية.

كما سجلت الحوالات الحبسية منطلقا آخر، ومنعطفا جديدا في تدوين أنواع البر والخير من طرف الدولة أو القضاة، فالسلطان أبو عنان المريني وضع للمال المحبس قُفْلَيْن أحدهما بيد القاضي، والآخر بيد القيم على ذلك. كل ذلك كان دلالة واضحة بأن منظومة العمل الاجتماعي شكلت الوعاء الأساس، الموازي للقيم الموروثة عن مبادئ الدين الحنيف.

ومن هنا جاء هذا البحث ليعزز الدراسات التي حظيت بها الدولة المرينية في باب العمل الاجتماعي، الذي ساهم في واقع الدولة في مختلف الجوانب التي تهم المجتمع خصوصا الجانب الديني ويوثقها، من خلال بناء المساجد والزوايا، التي كانت موضع استقطاب الناس دينا ودنيا. وهناك جانب آخر مرتبط بالجانب الفكري والعلمي والثقافي الذي يعتبر سراجا وهاجا للأمة باعتباره أداة المعرفة والتقدم والرقي. وصولا إلى جانب الصحة الذي خصته

الدولة المرينية بعناية فائقة لما له من دور بارز في حماية صحة رعيتها ومواطنيها، فأنشأت المارستانات لأجل التطبيب والتداوي والعلاج من الأمراض.

كما ساعدت المداخيل الموسعة، والأوقاف والأحباس والصدقات المتنوعة، الاعتناء بالفئات الضعيفة كالشيوخ واليتامى والأرامل والسجناء وذوي الاحتياجات الخاصة وغيرهم التي تماهت في بحر الفقر والحاجة.

على الرغم من الدور الذي أدته الدولة المرينية في تعزيز العمل الاجتماعي وإعطائه الأهمية، إلا أنها لم تحظ بدراسة مستوفية كاملة البناء خلال فترة حكمها الذي استمر زهاء القرنين وعشرين سنة.

جاءت هذه الأعمال الجليلة مشتتة في كتب التاريخ التي أرَّخت للدولة المرينية أو ما كتبه أهل الرحلة وأسالوا مداد وصفهم لما شاهدوه من أعمال جليلة بقيت محفورة في أذهانهم، أو ما كتب ضمن مقالات أو ندوات علمية كانت نتاجا لاجتهاد. ليبقى الغموض يحوم حول الكثير من الأعمال والبناءات التي شيدت في عهدهم. وأضيف إلى أن هناك العديد من الأعمال الخيرية لم تُدَوَّن في الكتب التاريخية وبقيت حبيسة مدفونة في ثنايا من عايَشوا الدولة المرينية.

ومن هنا يمكن أن نقف موقف إجلال وعظمة للدولة المرينية سلطة وشعبا لما أسدته من مواقف جبارة تستحق عليها التنويه، فهذه الدراسة كشفت لنا الكثير من المواقف عن هذه الدولة، خصوصا العمل الاجتماعي، فكان عملا نابعا عن رؤية متكاملة لآفاق الفعل الاجتماعي فصارت له واجهات متعددة إذ اندمج وتداخل فيه الفعل الاحساني حتى صار ورشا نافعا. ويمكننا القول بدون تحيز ولا زيف، إن الدولة المرينية كان لها فضل السبق إلى مأسسة العمل الاجتماعي على أصوله وقواعده.

أسباب اختيار الموضوع:

إن من أسباب اختياري لهذا الموضوع أنني لا أعلم فيما اطلعت عليه أن هذا الموضوع على أهميته يوجد في كتاب مستقل أو خصه باحث برسالة علمية أكاديمية غير الذي كتبه العلامة محمد المنوني كمقالات ضمن مجلات أشار فيها إلى مَبرات إحسانية خلال العهد

المريني باعتبار العلامة رحمه الله متخصص في الحقبة التاريخية لبني مرين. أو ما ذكره الدكتور عبد الهادي التازي في كتابه «جامع القرويين» أو بعض الذين ألفوا للحقبة المرينية أو ما جاء ضمن منشورات عند بعض الباحثين (خصوصا مجلة دعوة الحق) الذين أفْرَدُوا جانبا من أعمال الدولة المرينية فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي والديني والثقافي. أو بعض البحوث المقدمة للمؤتمرات والندوات.

مما دفعني لدراسة هذا الموضوع أولا من الجانب التاريخي، وثانيا من الجانب الاجتماعي للدولة المرينية.

-الرغبة في خوض غمار إنجاز دراسة أكاديمية جادة ومتميزة، وذلك من خلال البحث عن الإنجازات التي تم تحقيقها في الحقبة الزمنية لبني مرين، والتي كانت من صلب العمل الاجتماعي، محاولا إخراج بحث جامع للأعمال الخيرية التي رصدت في العهد المريني باعتماد المصادر الموثوقة وأقوال المؤرخين.

-محاولة إظهار أن الدولة المرينية عرفت نمطا جديدا ومتغيرا عن سابقيها ممن تولوا حكم المغرب، فهي السباقة إلى إنجاز مشاريع جديدة في باب العمل الاجتماعي لم تكن معروفة عند سابقيها، وكان لها فضل السبق في إخراجها للوجود.

-إبراز وجه التجديد في دراسة العمل الاجتماعي، من خلال تتبع المصادر والمراجع التي تطرقت للحقبة المرينية.

أهمية الموضوع:

إن دراستي لموضوع العمل الاجتماعي في العهد المريني سلط الضوء على الجانب الخيري والإحساني في مختلف المسائل الاجتماعية، سواء الدينية أم العلمية أم الصحية وغيرها من مبرات الخير والنفع العام. وإبراز مواقف السلاطين وجهودهم في مجال تحقيق العمل الاجتماعي، ورصدهم الأموال اللازمة لذلك والوقوف على مختلف المشاريع الخيرية بأنفسهم وهذا ما سيتضح من خلال استقراء النصوص التاريخية وتتبعها، وبيان ما كتبه بعض المؤرخين أمثال ابن مرزوق وابن جزي عن سيرهم (السلاطين).

كما كان سعي في هذا البحث توضيح العمل الاجتماعي وجوانبه، خصوصا أن الدولة المرينية من الدول التي تَفَوقت على من سبقوها في جانب الرعاية الاجتماعية وتحقيق الرفاهية للرعية. وكانت الرغبة ملحة في الوصول إلى الخبايا المستعصية وإخراجها للوجود إلا ما وجدناه صعب المنال.

وتتجلى أيضا أهمية الموضوع، في كونه جامعا لفصول أعمال الخير على قدر المستطاع خلال فترة الدولة المرينية.

والاهتمام بالعمل الاجتماعي في هذه الفترة من القضايا ذات الصدارة التي تحتاج إلى بحث معمق، ودقة متناهية، ومفاتيح وآليات خاصة لأجل إخراج تلك الأعمال وتصنيفها ضمن دوائر معرفية ومؤسسات اجتماعية.

منهج البحث:

-حاولت في هذا البحث أن أعتمد على المنهج الاستقرائي والاستنباطي والوصفي، لرصد الأحداث والوقائع التاريخية، وذلك من خلال تتبع الموضوع في أمهات المصادر التاريخية وكذلك الدراسات المعاصرة، بغرض كشف الحقائق وبيان الملابسات التي تعتري البحث، وإخراج أمور جديدة إلى ظاهر الواقع.

-التزمت في هذا البحث بالنصوص التاريخية وجعلتها هي الحكم في تدعيم كل حدث وقول، لأسلك بذلك الموضوعية ما استطعت.

-عرض الأعمال الخيرية كما جاءت في الكتب التاريخية والرحلات دون خلفية التعصب والتحيز أو تأييد فكرة مسبقة.

-عزو الآيات الواردة في البحث، وتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية وغالبا ما أكتفي عند توثيق الحديث إذا كان له تخريجات عدة بتخريج صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله.

أما الفهارس فقد خصصت فهرسا للآيات القرآنية مرتبة حسب ترتيب السور والآيات في المصحف على رواية الامام ورش، واعتمدت في البحث عن الآيات على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للدكتور فؤاد عبد الباقي، وفهرسا مرتبا للأحاديث النبوية الشريفة ترتيبا ألفبائيا. وفهرسا للأبيات الشعرية، وفهرسا للأعلام، وفهرسا للبلدان والأماكن، وفهرسا

للمصادر والمراجع والمجلات والمواقع الالكترونية ترتيبا ألفبائيا، والتي وصل عددها الإجمالي ثلاثمائة وثمانية وخمسين.

عر اقيل البحث:

صاحبتني في موضوع البحث بعض المشاكل خصوصا شق الباب الثاني، الذي يتمحور عن قضية العمل الاجتماعي ومنها:

أولا: قلة المصادر التاريخية التي عنيت بالعمل الاجتماعي، فجل المصادر والمراجع جاء الحديث فيها بشكل مسهب عن قضية تأسيس الدولة والمنظومات السياسية ودواليب الحرب والسلم. فلم أجد فيما اطلعت عليه ما يشفي الصدر ويثلج القلب إلا بجهد كبير وعناء مرير ووقت طويل.

ثانيا: الإشارات القليلة دفعتني مرات عديدة إلى قراءة كتاب تاريخي أو كتاب للرحلات يتناول الحقبة المرينية لاستخراج فقرة صغيرة تشير إلى العمل الاجتماعي.

ثالثا: الكثير من البنايات والأعمال الخيرية لم يتم تدوينها ولا نقلها عبر الروايات الشفوية، فبقيت حبيسة في أذهان من شاهدوها خصوصا من أهل الفضل والإحسان.

رابعا: الكثير من الأعمال بقيت غامضة لأنها لم تدون في الحوالات الحبسية، التي تؤكد بدورها تاريخ تأسيسها واسم بانيها.

خامسا: اختلاف التواريخ من مصدر لآخر وأحيانا تجد التضارب في الأقوال واختلافها.

هذه جملة من المشاكل التي واجهتني في غمار البحث.

خطة البحث:

واستنادا على ما تم جمعه من مادة تاريخية منتقاة من مختلف المصادر التاريخية، وبعد الاطلاع عليها وتحليلها وتوظيفها، تم تقسيم الدراسة إلى مقدمة وفصل تمهيدي وبَابَيْن وخاتمة.

المقدمة تحدثت فيها عن أبعاد العمل الاجتماعي في العهد المريني، وفيها أشرت إلى أهمية الموضوع والعراقيل التي واجهتني، ثم أسباب اختياري للموضوع، مذيلة ببيان منهج البحث ثم خطته.

أما الفصل التمهيدي فعنوانه: فقه العمل الاجتماعي في الإسلام، ويتضمن ثلاثة مباحث.

أما المبحث الأول فعنوانه: مفهوم العمل الاجتماعي. وينقسم إلى ثلاثة مطالب.

أما المبحث الثاني تعرضت لمسألة العمل الاجتماعي في ثقافة المجتمعات قبل الإسلام وبعد الإسلام، وقسمت المبحث إلى مطلبين.

أما بالنسبة للمبحث الثالث تناولت من خلاله مشروعية العمل الاجتماعي ومقاصده وشروطه وقسمت المبحث إلى ثلاثة مطالب.

وجاء الباب الأول تحت عنوان: المغرب الأقصى وبداية العهد المريني. وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول تحت عنوان: الموقع الجغرافي وسكان بلاد المغرب. وينقسم الفصل إلى مبحثين: المبحث الأول: يتحدث عن الموقع الجغرافي لبلاد المغرب وحددت فيه مطلبين. أما المبحث الثاني فهو: سكان بلاد المغرب.

وتحدثت في الفصل الثاني عن بداية العهد المريني وقسمته إلى مبحثين. فالمبحث الأول عنونته بنظرات عامة لأوضاع الدولة الموحدية قبل قيام الدولة المرينية، وقسمته إلى أربعة مطالب. أما المبحث الثاني فتحدثت عن قيام الدولة المرينية فاستعرضت نشأة الدولة المرينية، وقسمته إلى ثلاثة مطالب.

والفصل الثالث تحدثت فيه عن النظام الاقتصادي والاجتماعي والفكري لدولة بني مرين وهو مقسم إلى ثلاثة مباحث. المبحث الأول النظام الاقتصادي وينقسم إلى مطلبين. أما المبحث الثاني فكان النظام الاجتماعي وهو أيضا قسمته إلى مطلبين. والمبحث الثالث تحدثت فيه عن النظام الفكري.

الباب الثاني عنونته: بعنوان العمل الاجتماعي في عهد بني مرين. ويتضمن أربعة فصول.

الفصل الأول تحت عنوان المؤسسات الدينية زمن المرينيين وقسمته إلى ستة مباحث.

المبحث الأول بعنوان المؤسسات الدينية. وقسمت المبحث إلى ثلاثة عشر مطلبا.

أما المبحث الثاني فخصصته إلى أوقاف المساجد وأهم الأحباس التي حبست عليها. وقسمته إلى ستة مطالب.

أما المبحث الثالث فجاء بعنوان: الدور الاجتماعي للمسجد في العهد المريني. وقسمته إلى ستة مطالب.

المبحث الرابع تحدث فيه عن الرباطات والزوايا وقسمته إلى ثمانية مطالب.

المبحث الخامس أشرت فيه إلى الوقف على الزوايا وخدماتها الاجتماعي. وقسمته إلى أربعة مطالب.

الفصل الثاني تحت عنوان المؤسسات التعليمية، ويندرج تحته سبعة مباحث.

المبحث الأول: بناء المدارس ويندرج تحته ثلاثة عشر مطلبا.

المبحث الثاني: أوقاف المدارس المرينية التي كان لها الفضل في استمراريتها، وقسمته إلى تسعة مطالب.

المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمدارس وخصصت فيه الحديث عن أهم الأدوار التي قامت بها المدرسة في العهد المريني. وقسمت المبحث إلى خمسة مطالب.

المبحث الرابع: كتاتيب الصبية ودورها العلمي في المجتمع المريني وعني المبحث بدراسة الكتاب ودوره في المجتمع المريني، وقسمت المبحث إلى أربعة مطالب.

المبحث الخامس: المكتبات العلمية وينقسم إلى أربعة مطالب.

المبحث السادس: الدور الاجتماعي للخزانات العلمية يتناول الدور الذي قامت به الخزانات في تحقيق المنفعة العلمية للطلاب والمدرسين.

المبحث السابع: أوقاف الخزانات، وينقسم إلى خمسة مطالب.

الفصل الثالث: الرعاية الصحية يتمحور فحواه عن المنظومة الصحية وأهمها بناء المارستانات التي أدت دورا اجتماعيا مهما، وقسمت الفصل إلى أربعة مباحث.

المبحث الأول: بناء المارستانات وتشييدها، وينقسم إلى تسعة مطالب.

المبحث الثاني: أوقاف المارستانات التي خصصت لها.

أما المبحث الثالث فهو الدور الاجتماعي للمارستانات وما أسداه من خدمة للمجتمع.

وأما المبحث الرابع فيتحدث عن أطباء المارستانات مقسم إلى إحدى عشرة مطالب.

الفصل الرابع: الرعاية الاجتماعية في عهد بني مرين وقسمته إلى خمسة عشر مبحثا.

المبحث الأول: رعاية الشيوخ المسنين وينقسم إلى مطلبين.

المبحث الثاني: رعاية اليتيم ويتضمن مطلبين.

المبحث الثالث: رعاية الفقراء والمساكين وينقسم إلى مطلبين.

المبحث الرابع: قضاء الديون عن المدين وهو مبحث يتحدث عن قضاء الديون عن المدين وينقسم إلى مطلبين.

المبحث الخامس: رعاية الأرامل والمكفوفين وينقسم إلى ثلاثة مطالب.

المبحث السادس: رعاية المسجونين وينقسم إلى مطلبين.

المبحث السابع: افتكاك الأسرى وهو أيضا ينقسم إلى مطلبين.

المبحث الثامن: خصصته للرعاية الاجتماعية لركب الحج وينقسم إلى مطلبين.

المبحث التاسع: رعاية أهل الذمة في العهد المريني وقسمت المبحث إلى ثلاثة مطالب.

المبحث العاشر: إحداث السقايات العمومية زمن بني مرين وينقسم إلى سبعة مطالب.

المبحث الحادي عشر جاء ليتحدث عن صدقات وإحسانات متنوعة في زمن بني مرين ويشتمل على ستة مطالب.

المبحث الثاني عشر تطرقت للحوالات الحبسية وجعلتها في ثلاثة مطالب.

المبحث الثالث عشر تحدثت فيه عن ساعات الوقت المائية مبرزا أهم الساعات التي تم إنجازها خلال العصر المريني، وقسمت المبحث إلى ستة مطالب.

المبحث الرابع عشر وتحدثت فيه عن الخدمة الاجتماعية لبرج النفارين.

أما المبحث الخامس عشر والأخير في البحث فكان عن الدور الاجتماعي للحمامات في العهد المريني.

وأنهيت البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج الذي قادني إليها البحث.

وكتبه حامدا مصليا الفقير إلى عبد ربه الدكتور عبد اللطيف بن رحو

يوم الخميس 21 ربيع الأول 1443هـ الموافق 28 أكتوبر 2021

والله تعالى الموفق

فصل تمهيدي

فقه العمل الاجتماعي في الإسلام

المبحث الأول: مفهوم العمل الاجتماعي

المطلب الأول: مفهوم العمل

الفرع الأول: العمل لغة

يقال: أعمل فلان ذهنه في كذا وكذا إذا دبره بفهمه. وعمل فلان العمل يعمله عملا فهو عامل.

وقال الليث: يقال عاملت الرجل أعامله معاملة في المبايعة وغيرها والعملة: القوم الذين يعملون بأيديهم ضروبا من العمل في الطين أو صخر أو غيره.

وقالت امرأة من العرب: ما كان لي عملة إلا فسادكم، أي ما كان لي عمل.[1]

والعمل المهنة والفعل، والجمع أعمال، عمل عملا وأعمله غيره واستعمله، واعتمل الرجل عمل بنفسه. قال الأزهري: عمل فلان العمل يعمله عملا فهو عامل.[2]

وذكر صاحب القاموس المحيط أن العمل محركة: المهنة والفعل جمع أعمال.[3]

وقيل عملا لأنه فعله، أو فعله بنوع من المشقة، أو فعله بجوارحه فهو عامل جمع عملة وعمال.[4]

---

(1) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري [مادة عمل] تحقيق محمد على النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة مصر. الجزء: 2. الصفحة: 421.

(2) لسان العرب لابن منظور. [مادة عمل] دار صادر بيروت. لجزء:11. الصفحة: 475.

(3) القاموس المحيط للفيروز آبادي [مادة عمل] راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد دار الحديث القاهرة سنة 2008 الصفحة: 1143.

(4) معجم متن اللغة لأحمد رضا [مادة عمل]. دار مكتبة الحياة بيروت سنة 1958. الجزء:4. الصفحة: 209.

والعمل كالجبل: اسم رجل ومنه قول قيس بن عاصم وهو يرقص ابنه: «أشبه أبا أمك أو أشبه عمل». وكذا استشهد به الجوهري، وقال أبو زكريا: «إنما أراد أو أشبه عملي ولم يرد أنه اسم رجل. وفلان ابن عمل: إذا كان قويا.»[1]

فالعين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل قال الخليل: عمل يعمل عملا، فهو عامل، واعتمل الرجل، إذا عمل بنفسه. والعمالة أجر ما عُمل، والمعاملة: مصدر من قولك عاملته. والعملة: القوم يعملون بأيديهم ضروبا من العمل، حفرا أو طيا، أو غيره.[2]

الفرع الثاني: العمل اصطلاحا

العمل الفعل والمهنة والعمل يعم أفعال القلوب والجوارح. والعمل لا يقال إلا فيما كان من فكرة ورؤية، ولهذا قرن بالعلم حتى قال بعض الأدباء: قلب لفظ العمل عن لفظ العلم، تنبيها على أنه من مقتضاه. قال الأصفهاني: تركيب الفعل يدل على إحداث شيء من العمل وغيره، فهذا يدل على أن الفعل أعم من العمل.[3]

وذكر صاحب كتاب التوقيف: أن العمل هو كل فعل من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل، لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوان الذي يقع منه فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجماد والعمل قَلَّما ينسب إلى ذلك.

والعمل الصالح: هو العمل المراعي من الخلل وأصله الإخلاص في النية وبلوغ الوسع في المجادلة بحسب علم العامل وأحكامه، ذكره الحوالي قال: والعمل ما دبر بالعلم.[4]

---

(1) التكملة والذيل والصلة لمرتضى الحسيني الزبيدي [مادة عمل] تحقيق محمد حجازي. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية القاهرة الطبعة: 1. سنة: 1986. الجزء:6. الصفحة:209.

(2) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس [مادة عمل] تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الفكر سنة 1979. الجزء: 4. الصفحة:145

(3) الكليات لأبي البقاء الكفوي تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة:2 سنة:1998 الصفحة:616.

(4) التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف بن المناوي، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب القاهرة الطبعة:1 سنة 1990.
الصفحة:247.

عرفه الشيخ محمد أبو زهرة: «العمل هو العنصر الفعال في كل طرق الكسب التي أباحها الإسلام.

والوصايا النبوية تتجه إلى الحض على العمل وإلى دفع أجور العاملين، وتفيد عبارتها شرف العمل، وأن الله تعالى سخر الكون للإنسان ليعمل فيه.»(1)

ويمكن القول: إن العمل كل ما صدر عن الإنسان من أقوال أو أفعال صالحة، ظاهرة أو باطنة، وتجمع كل العبادات والمعاملات ونحو ذلك، بشرط الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله محمد ﷺ.

وقد تطلق هذه الكلمة على بعض تصرفات الإنسان وسلوكه كيفما كانت فيقال عمل طيب، أو معروف، أو منكر أو تصرف، أو سلوك طيب، أو معروف، أو منكر.

وتطلق كلمة "العمل" بالاصطلاح الفلسفي على نشاط الإنسان الإرادي المقترن بالجهد أي التعب والمشقة لغرض نافع غير التسلية واللهو.(2)

وتطلق كلمة «العمل» بالمعنى الديني أيضا على التعبد والقيام بالفرائض والواجبات أو المستحبات الدينية.

ولقد تضمنت كلمة "عمل" في الدين الإسلامي المعنى الديني والاجتماعي السلوكي الاقتصادي أيضا.(3)

المطلب الثاني: مفهوم الاجتماعي

الفرع الأول: اجتماعي لغة

تقول العرب: تجمعوا تَجَمُّعَ بيت الأدم، لأن بيت الأدم تجمع فيه أطرافه وزعانفه. ويقال للقوم إذا اجتمعوا قد اعصَوصَبُوا، واستحصَفُوا، واستحصدوا.

(1) التكافل الاجتماعي في الإسلام لمحمد أبي زهرة. دار الفكر العربي القاهرة. طبعة جديدة سنة 1991. الصفحة:41.

(2) مفهوم العمل وأحكامه العامة في الإسلام لصادق مهدي سعيد. مؤسسة الثقافة العمالية بغداد سنة 1983. الصفحة:9.

(3) المرجع نفسه ص:9.

قال الأصمعي: يقال: هم عليه يَدٌ واحدة إذا اجتمعوا عليه. ويقال أمر القوم دماج، أي: مجتمع. وقد دامجتك على هذا الأمر، أي: جامعتك عليه.[1]

واجتمع ضد تفرق، كاجْتَمع وتجَمَّعَ واستجمع، والرجل: بلغ أشدَّهُ، واستوت لحيته. واستجمع السيل: اجتمع من كل موضع وله أموره: اجتمع له كل ما يسره، والفرس جريا: بالغ. وتجمعوا: اجتمعوا من ها هنا وها هنا. والمجامعة: المباضعة، وجامعه على أمر كذا: اجتمع معه.[2]

وقيل: جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعا وجمعه وأجمعه فاجتمع واجْدَمَعَ، وهي مضارعة وكذلك تَجَمَّع واستجمع.ونقول أمر جامع: يجمع الناس وفي التنزيل ﴿ إِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [سورة النور الآية: 60]

وقيل المسجد الجامع: الذي يجمع أهله، نعت له لأنه علامة للاجتماع.[3]

ونقول استجمع الفرس جريا. وجَمع مكة سمي لاجتماع الناس به وكذلك يوم الجمعة. وأجمعت على الأمر اجماعا وأجمعته.

ويقال فلاة مجمعة: يجتمع الناس فيها ولا يتفرقون خوف الضَّلال.[4]

الفرع الثاني: اجتماعي اصطلاحا

الظاهرة الاجتماعية في نظر علماء الاجتماع المحدثين كما في نظر ابن خلدون أيضا، لها طابع الشمول فتكاد تشمل كل أنواع التصرفات الانسانية.

وعَرفها عبد الله محمد الدرويش محقق مقدمة ابن خلدون فقال: «هي طريقة توحيد وجهة نظر الجماعة وإيجاد قيم ومعايير وأهداف مشتركة بينهم.»[5]

---

(1) تهذيب الألفاظ لابن السكيت يعقوب [باب الاجتماع]. تحقيق فخر الدين قباوة مكتبة لبنان. الطبعة:1. سنة: 1998. الصفحة:38 -39.

(2) القاموس المحيط [مادة جمع] ص:294.

(3) لسان العرب [مادة جمع] ج/8. ص: 53-54.

(4) معجم مقاييس اللغة لابن فارس [مادة جمع]. ج/1. ص: 480.

(5) مقدمة ابن خلدون تحقيق عبد الله محمد الدرويش. دار يعرب دمشق. الطبعة: 1. سنة:2004. الجزء: 1. الصفحة: 63

وقيل الاجتماع: تعبير عن غريزة مستكينة في أعماق نفس هذا الإنسان، والجماعة صفة لازمة من صفاته.[1]

وعَرَّفَهُ مالك بن نبي بقوله: «تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، ويعيشون في ظل قوانين واحدة، ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة.»[2]

عرفه روبيرت ماكيفرو شارلز بيج: «أنه نسق مكون من العرف المنوع والاجراءات المرسومة، ومن السلطة والمعونة المتبادلة، ومن كثير من التجمعات، وشتى وجوه ضبط السلوك الإنساني والحريات.

وأنه نسيج العلاقات الاجتماعية.»[3]

ويمكن القول إن الاجتماعي تعني أيضا ذلك النسق من عدد كبير من الأشخاص أو الأفراد تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة. وقد اختلفت تعاريف الاجتماعي باختلاف الباحثين الذين تدارسوا هذا الموضوع فهم كثيرا ما يستخدمون معاني مختلفة حسب الثقافات والخلفيات التي تجمعهم.

يقول محمد أبو زهرة: «كل اجتماع يتجه إلى غاية رابطة، وتتضافر الجهود كلها للوصول إلى هذه الغاية، والغاية الإنسانية العالية هي فعل الخير وتجنب الشر، وما من جماعة فاضلة إلا جعلت الخير أساس اجتماعها، والابتعاد عن الشر عنصر اتحادها.»[4]

المطلب الثالث: التعريف الاصطلاحي للعمل الاجتماعي

عرفه أحمد عبده عوض فقال: «العمل الاجتماعي هو أن يتضامن أبناء المجتمع، ويتساندوا فيما بينهم سواء كانوا أفرادا، أم جماعات، حكاما، أم محكومين على اتخاذ

---

(1) المجتمع الإسلامي لمحمد أمين المصري. مكتبة دار الأرقم الكويت. الطبعة:1. سنة: 1980. الصفحة:11.

(2) ميلاد مجتمع لمالك بن نبي. ترجمة عبد الصبور شاهين. دار الفكر دمشق. الجزء: 1. الصفحة: 13.

(3) المجتمع لروبيرت ماكيفر وشارلز بيج. ترجمة علي أحمد عيسى. مكتبة النهضة المصرية القاهرة. سنة 2000.الصفحة: 16-17.

(4) تنظيم الإسلام للمجتمع. لمحمد أبي زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة: 54.

مواقف إيجابية كرعاية الأيتام، ونشر العلم، بدافع من شعور وجداني عميق ينبع من أصل العقيدة، ليعيش الفرد في كفالة الجماعة، وتعيش الجماعة بمؤازرة الفرد»[1]

وعرّفه الدكتور علي بن إبراهيم النملة، أنه ذلك الأداء المنوط بكيانات إدارية، حكومية كانت أم غير حكومية، تعمل على تحقيق الرفاه الاجتماعي، ومحصلته النهائية عمل خيري، بالمفهوم الشامل للعمل الخيري حتى وإن تعددت أهدافه وتنوعت وظائفه.[2]

ومن تعاريف العمل الاجتماعي أيضا، أنه تلك الطريقة العلمية لخدمة الإنسان، ونظام اجتماعي يقوم بحل مشكلاته وتنمية قدراته ومعاونة النظم الاجتماعية الموجودة في المجتمع للقيام بدورها، لتحقيق رفاهية أفراده.[3]

يتبن من خلال هذه التعاريف أن العمل الاجتماعي هو عمل شامل يخدم الأمة في مختلف الميادين، ويستهدف جميع الفئات لأجل الرفاهية، وحل المشكلات الاجتماعية التي تواجه المجتمع.

(1) التكافل الاجتماعي في الإسلام لأحمد عبده عوض دار ألفا للنشر والتوزيع، الطبعة:1سنة: 2008، الصفحة: 17-18.

(2) العمل الاجتماعي والخيري التنظيم-التحديات-المواجهة. لعلي بن إبراهيم النملة. بيسان للنشر والتوزيع بيروت. الطبعة:2 سنة:2014 الصفحة:17.

(3) أساسيات العمل في الخدمة الاجتماعية لسماح سالم ونجلاء صالح عالم الكتب الحديث، الأردن الطبعة:1 سنة: 2010 الصفحة:13.

المبحث الثاني: العمل الاجتماعي في ثقافة المجتمعات قبل الإسلام وفي ظل الإسلام

المطلب الأول: العمل الاجتماعي في ثقافة المجتمعات قبل الإسلام

كانت الجماعات الإنسانية قبل الإسلام في جميع أنحاء الأرض، تسير في بنائها وترابطها وتنظيم علاقتها على أسس وأنظمة من وضع البشر، ومن وحي الفكر الإنساني والنزاعات الخاصة المستمدة من الحياة المادية المحدودة، ومن العواطف الثائرة والأحداث الطارئة، ولذلك كانت هذه الأنظمة لا تستهدف صالحاً عامًّا ذا طابع إنساني كريم، ولا تصدر عن تفكير أو تقدير واعٍ تحتل النظرة فيه إلى آفاق عالية بحيث تشمل المحيط الإنساني العام.[1]

الفرع الأول: المجتمع الروماني

كان الرومان قد سادها نظام لا يجعل لضعيف حقاً بجوار القوي، فقد كان لها قانون منظم، بلغ أوج عظمته في الصياغة في القرن الخامس في عهد جوستنيان، ولكن هذا القانون، وإن نظم العقود والتعامل إلى حد ما، قد حمى الأشراف، وفرض لهم حقوقا ليست للضعفاء، بل سلبت حقوق الضعفاء ليزدادوا ضعفاً على ضعف، ويعطيها الأقوياء ليزدادوا قوة على قوة.

ثم إن نظام الدولة جعل طائفة قليلة غالبة قوية ثرية، والأكثرين ضعفاء فقراء مغلوبين، ذلك أن كثرة الغزوات والفتوح التي قامت بها الجيوش الرومانية جاءت بالأموال والغنائم، وكان يتوزع هذه الغنائم وتلك الأموال بما فيها العبيد والسبايا قواد الجند والأشراف والمقربين منهم والمزدلفين إليهم، والآخرون لا يأخذون شيئا، وبذلك وجدت طبقة مسعودة ذات حظ وفير من المال، والأخرى محرومة لا تملك شيئاً من المال، وكان هؤلاء ينظرون إلى الأولين نظرة الحاقد الحاسد الشقي بحرمانه، والشقي برؤيته زخارف المال، ولمعان الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام لأولئك الذين أخذوها بغير حق وتحكموا في رقاب الناس

(1) التكافل الاجتماعي في الإسلام لعبد العال أحمد عبد العال. الشركة العربية للنشر والتوزيع القاهرة. سنة: 1997. الصفحة: 27.

بغير حق، والناس لا يشقون لآلام ذاتية فقط، بل يشقون مع ذلك برؤية النعيم والبذخ في أيدي غيرهم، وعدم قدرتهم على مجاراتهم.[1]

وبالرُّغم من الحياة القاسية في الدولة الرومانية القديمة نجد أنَّه قد ظهرت بعض الاتجاهات الإنسانية التي كانت تنظر إلى هؤلاء نظرة عطف وحنان وشفقة، كما كانت الدولة الرومانية القديمة توزّع المساعدات على الفقراء والمعوزين وتساعد الأسر المنكوبة التي يذهب أفرادها ضحيَّة للحروب أو اللذين شوهتهم المعارك وأصبحوا عاجزين عن العمل، كما كانت المساعدات تُقدَّم للرقيق والأسرى ولم تكن هذه المساعدات تُقدَّم بهدف الشعور بالمسؤولية والرِّعاية الاجتماعية لفئات الشعب العاجزة بل لأنَّ الدولة كانت تَعتَبر هذه الجماعات الفقيرة مصدر خطر على المجتمع الذي يعيشون فيه أي خوفاً من شرورهم وتمرُّدهم على السلطة القائمة.[2]

الفرع الثاني: المجتمع الفارسي

وبجوار ذلك الاضطراب في المجتمع الروماني كان المجتمع الفارسي، ولم يكن التفرق فيه بين طبقات المجتمع أقل مما كان عند الرومان، فإنه منذ أن فتح الاسكندر المقدوني أرض فارس، والمجتمع الفارسي في اضطراب مستمر، وإن الإسكندر وإن لم يدم حكمه طويلا في فارس إلا أن أثره استمر طويلا، وهذا الأثر هو حل الوحدة الفارسية. وذلك أنه عند مغادرته فارس وانسيابه إلى ما وراءها من بلاد الهند، قد جزأ البلاد بين أشرافها، فجعل على كل مقاطعة شريفا يحكمها، ويستقل بحوزتها، وبذلك تفرقت فارس سياسيا، ومع التفرقة السياسية كان التفرق الاجتماعي، وإذا كان الحكم للأشراف فهو بلا شك مذكٍ لنيران الحقد في قلوب الفقراء، فإنه حيث اشتد التفرق الاجتماعي اشتدت معه الأحقاد، وفسدت الأخلاق.

فالقانون الروماني قد قوى نظام الطبقات وفرق ما بين المجتمعات فإن الدعوات الدينية في فارس كان بعضها يدعو إلى التشاؤم المطلق، فهذا «ماني» يدعو إلى فناء بني الإنسان ليتخلص العالم من شرورهم، فقد دعا إلى تحريم الزواج ليتسارع العالم إلى الفناء،

(1) تنظيم الإسلام للمجتمع لأبي زهرة. ص:5 -6 -8.

(2) مقال بعنوان الرعاية الاجتماعية في الدولة الرومانية لرفاح العياصرة على موقع العربي بتاريخ 16 أكتوبر 2019 www.e3arabi.com

ويقرر أنه لا خلاص لعنصر الخير في هذا الكون من الشر إلا إذا فني الإنسان، وكأنه يرى أن الإنسان لعنة في هذا الوجود.[1]

وأما «مزدك» الذي جاء بعد «ماني» فقد حاول أن يعالج هذه المباغضة بالإبقاء، ولكن على شر حال من الانحلال، ذلك أنه رأى سبب الحقد والضغينة والانقسام بين الناس هو اختصاص بعضهم دون الآخر بكثير من الأموال وأجمل النساء، فإزالة هذا السبب تذهب بأحقاد الناس، وذلك بأن تباح الأموال، وتباح النساء، فاعتنق السفلة الرعاع ذلك واغتنموها فرصة لهم.

وكانت نتيجة ذلك هذا المذهب الفوضوي الذي لم ينظم فيه شيء ولم ترتب فيه حقوق وواجبات أن انهار المجتمع الفارسي، وخلعت فيه كل القيود الاجتماعية والخلفية، وانطلقت فيه الشهوات والنزوات، وتفاقم الشر، واشتدت العداوة والبغضاء.[2]

فحسب نظري المتواضع فالفقير الضعيف كان محروما من حقه، بل كان يسلب ليزداد ضعفا مع ضعف، مما يدل على أنه لم تكن هناك رعاية اجتماعية في المجتمع الفارسي حسب ما اطلعت عليه.

الفرع الثالث: المجتمع اليهودي

إن العمل الاجتماعي في الديانة اليهودية كان حاضرا في شكل دعوة الانسان إلى فعل الخير والإحسان والتعاون، وقد وردت في الكتاب المقدس الكثير من الأمثلة، فقد جاءت الدعوات في الديانة اليهودية إلى العمل الاجتماعي وهي واردة في كثير من النصوص التي جاءت في العهد القديم، خصوصا الوصايا العشر التي نزلت على النبي موسى عليه السلام.

ولعلي أخص في هذا الموضع على سبيل المثال وليس الحصر، نموذجا في وقف اليهود وذلك فيما ذكره الإمام السخاوي قال: وكشف في حارة زَويلة[3] عن دار كانت لبعض أكابر

(1) تنظيم الإسلام للمجتمع لأبي زهرة ص:9.

(2) التكافل الاجتماعي لعبد العال أحمد عبد العال. ص: 31.

(3) زَوِيلَة بفتح الزاي وكسر الواو، وهي محلة كبيرة بالقاهرة (بينها وبين باب زويلة عدة محال سميت بذلك) لأن جوهرا غلام المعز لما بنى القاهرة جعلها خططا، فاختط أهل زويلة إفريقية في هذا الموضع فسمي بهم.

اليهود، كانوا يجتمعون عنده فيها للاشتغال بأمور دينهم الخبيث فهلك بعد أن جعلها محبسة لذلك. فصارت في حكم الكنيسة.[1]

واهتمت الديانة اليهودية بتنظيم العمل الاجتماعي واعتبرت ذلك جزء من العمل المقدس فراعت الأغراب واليتامى والأرامل والفقراء.

ولعلي اذكر في هذا المقام ما جاء به ابن دقماق من أن هناك وقفا عرف ببني عطا اليهود.

يقول ابن دقماق: «هو المطبخ الذي في زقاق غير نافذ بوسط سوق المعاريج وهو سكن اليهود، وأرض المطبخ المذكور من وقف بني عطا وكان قدام هذا المطبخ حمام لبني عطا وكان يسكنه شهاب الدين ابن الشامي.»[2]

الفرع الرابع: المجتمع المسيحي

دعت الديانة المسيحية كباقي الديانات السماوية إلى القيام بالعمل الاجتماعي والمساهمة فيه، ولعل الناظر في تعاليم المسيحية والمتأمل فيها يجد ذلك واضحا جليا، ويظهر ذلك في دعوة الكنيسة إلى التكافل ورعاية المرضى والجياع وإعانة الفقير والمحتاج والتمسك بالجماعة التي تعتبر أصل العمل الاجتماعي.

فالنصوص المنقولة عن المسيح في العهد الجديد تدعو إلى إقراض الأخ المحتاج وإعانته إن طلب المعونة. ونتيجة لهذه التعاليم، لم يوجد محتاج زمن الرسل – تلاميذ المسيح – نظرا للتضامن الاجتماعي الذي كان بينهم. ويتحدث لوقا عن الحياة المسيحية في الجماعة الأولى بعد أن رُفِعَ المسيح إلى الله عز وجل، فما كان أحد منهم في حاجة، لأن الذين يملكون الحقول أو البيوت كانوا يبيعونها ويجيئون بثمن المبيع فيلقونه عند أقدام الرسل ليوزعوه على قدر

-المشترك وضعا والمفترق صقعا لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، عالم الكتب بيروت الطبعة:2 سنة:1986 الصفحة:336.

(1) التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي. مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور. تحقيق نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم كامل مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة. (بدون رقم طبعة) سنة: 2002. الجزء:1. الصفحة: 103-104.

(2) الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها. لإبراهيم بن محمد العلائي الشهير بابن دقماق. المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) بيروت. الصفحة:42.

احتياج كل واحد من الجماعة. وهذا الضمان كان برضى من أصحاب الملك إذ لم يكونوا مجبرين على دفع أموالهم.[1]

ويقول بولس في خطابه لإخوته حاثاً لهم على الصدقة للفقراء: «وأرَيتُكُم في كل شيء كيف يجب علينا بالكد والعمل أن نساعد الضعفاء، متذكرين كلام النبي يسوع: تبارك العطاء أكثر من الأخذ.»[2]

ويؤكد العهد الجديد العناية بالطبقات المستضعفة حيث يقول يعقوب: فالديانة الطاهرة النقية عند الله هي أن يَعْتَنِيَ الإنسان بالأيتام والأرامل في ضيقتهم.[3]

ودعوة المسيح عليه السلام كانت تهدف إلى الحرص على مساعدة المحتاج وجعل المجتمع طبقة واحدة متساوية لا فرق بين الغني والفقير ولا بين القوي والضعيف، بل شملت الرعاية الاجتماعية غير المسيحيين بل تعدت إلى غير الإنسان ليشمل الحيوان، ونصوص العهد الجديد كانت لها عناية شديدة بالطبقات الضعيفة والحث على مساعدتهم.

ولعلي أضع بين أيديكم مثالا: عن سيدة كنعانية جاءت تشكو إلى السيد المسيح عليه السلام.

« جاءت امرأة كنعانية تشكو مرض ابنتها، فقال لها المسيح عليه السلام: لا يجوز أن يؤخذ خبز البيت ويرمى إلى الكلاب. فقالت له المرأة: نعم سيدي. حتى الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد أصحابها. فأجابها المسيح عليه السلام: ما أعظم إيمانك، يا امرأة، فليكن لك ما تريدين فشفيت ابنتها تلك الساعة.»[4]

---

(1) حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والاسلام. لخالد بن محمد الشنبير. البيان مركز البحوث والدراسات الرياض. سنة: 1435هـ الطبعة:1.

ص: 550.

(2) المرجع نفسه ص:551.

(3) المرجع نفسه ص: 551

(4) حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والاسلام ص: 551.

وهذا يوحنا المعمدان كان يطالب الشعب بأن من كان له ثوبان، فليعط من لا ثوب له ومن عنده طعام، فليشارك فيه الآخرين.[1]

الفرع الخامس: العمل الاجتماعي في العصر الجاهلي

عُرف العرب في العصر الجاهلي بأعمال اجتماعية جليلة متضامنين فيما بينهم في لحمة واحدة، ومن بين الشيم التي تميز بها العرب في الجاهلية الكرم، فالبيئة التي عاش العرب فيها، (أي الصحراء) جعلت حياتهم قاسية عمادها الشظف، إنها شحيحة الرزق تسحق المرء بثقلها. وهذا الجدب الذي يخلق في ذات العربي حاجة ملحة إلى طلب الحياة، والذي جعل من المطر مصدرا للبقاء، وولَّد البؤس، هو سبب كون الكرم أولى الفضائل. وربما كان هذا دليلا على أن الحياة عند العرب لم تكن تسيطر عليها العاطفة التجارية، فكثيرا ما نحر الفرد إبله ليطعم غيره عند انعدام الرزق.[2]

والخصلة الثانية لصيقة الصلة بشيمة الكرم، وهي الضيافة، وقد كان العرب من البدو خاصة يوقدون النار لمساعدة الضالين في الفيافي للوصول إليهم، فيؤمنونهم ويكرمونهم، وإن كانوا لهم أعداء.[3]

وأيضا كان العرب يعتدون بإغاثة الملهوف.[4]

ويمكنني أن أسوق بعض النماذج من العمل الاجتماعي خلال العصر الجاهلي، لأنه يتميز بالعديد من المواقف التي اعتنت بالفقراء والضعفاء والمظلومين، وذلك حتى لا يقع اختلال في التوازن بين طبقات المجتمع، وجعلوا ذلك واجبا من واجباتهم. فحثوا بدورهم على رفع الظلم، واتخذوا السقاية والرفادة، وعقدوا حلف الفضول للدفاع عن المحتاج.[5]

وذكرت لنا كتب التاريخ التي اعتنت بالحقبة التاريخية للعصر الجاهلي، أن قبائل قريش وهم: بنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن

(1) حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والاسلام ص: 549.

(2) العرب في العصر الجاهلي لديزيره سقال دار الصداقة العربية بيروت الطبعة:1 سنة:1995 الصفحة:87.

(3) المرجع نفسه ص:88.

(4) المرجع نفسه ص:86.

(5) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي طبعة جامعة بغداد الطبعة:2 سنة:1993 الجزء:6 الصفحة:368.

مرة اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، لسنه وشرفه فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ قبل بعثته.[1]

فقد روى طلحة بن عبد الله بن عوف أن رسول الله ﷺ قال:» لقد شَهِدْتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ولو أدعى به في الإسلام لأجبت.» [2]

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها.[3]

وكان أهل الجاهلية يحبسون السوائم[4] والبحائر[5] والحوامي[6] وغيرها على الأصنام وعلى بيوت عبادتهم. فلما جاء الإسلام، قيد الحبس بما يكون في سبيل الله وانتفاع المسلمين. وقد حبس الجاهليون أراضين لمعابدهم وأصنامهم جعلوها (حمى) لآلهتهم، لا يجوز لأحد ارتيادها للرعي فيها ولا استثمارها لأنها حبس على الصنم أو المعبد. فلما جاء الإسلام حرم هذا الحبس، لأنه لغير الله، وأحل محله (الوقف) الذي هو لله جل جلاله. وحبسوا النخل للمحتاج ولأبناء السبيل، يُلتقط تمره بغير إذن، ولا يجوز منع أحد منه، كذلك حبسوا الماء لمن يحتاج إليه، فيأخذ منه دون بدل، لشدة حاجة الناس إليه، فالحبوس بمنزلة الأوقاف في الإسلام.[7]

يقول الشاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

كَانَتْ قريش بيضة فَتَفَقَّأَتْ فالمحُّ خَالِصُهُ لعبد مَنَافِ

(1) الرحيق المختوم لعبد الرحمان المباركفوري دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة الطبعة:21 سنة:2010 الصفحة.66.

(2) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة باب إعطاء الفيء على الديوان رقم الحديث:13080 تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:2 سنة:2003 الصفحة:596.

(3) الرحيق المختوم ص.66.

(4) **البحيرة:** التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس.

(5) **السائبة:** كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء.

(6) **الحوامي:** جمع حام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء.

- تفسير ابن كثير تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض الطبعة:2 سنة:1999. الجزء: 3 الصفحة:208.

(7) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج/5 ص:610.

الخالطين فَقِيــرهم بِغَنِيِّهِم والظَّاعِنِينَ لِرِحْلَة الأَضْيَاف
والرَّائِشِينَ وليس يوجد رائِش والقائلين: هَلُمَّ للأضْيــاف
عَمْرُو العُلا هَشَم الثَّرِيدَ لقَومِهِ قوم بمكة مُسْنِتِينَ عِجَافِ

ويقول الشاعر المرتضى:

المفْضِلُون إذا المحول ترادفت والقائـلون هَلُمَّ للأضياف
والخَالِطُـون غنيهـم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكَافِي [1]

وكان رجال من أهل مكة ينفقون على المحتاجين فعدوا ذلك دينا ومروءة وشهامة. فكان نعيم بن عبد الله العدوي، ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم. وكان حكيم بن حزام ينفق من أرباحه على المحتاجين من أل ذويه، وكان صديق النبي ﷺ قبل البعثة. وتذكر كتب السير والتراجم أسماء رجال آخرين عرفوا بتصدقهم على الفقراء والمحتاجين، اعتبروها مَنْقَبة وقربة لهم في الجاهلية.[2]

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية أمورا عجيبة في البر وينابيع الخير وصورا من صور العمل الاجتماعي الذي ساد في العصر الجاهلي، ومن الأمثلة التي جاء بها ابن كثير ما كان من عبد الله بن جدعان صاحب الأعمال الاجتماعي في مكة، فذكر عنه محامد جليلة أظهر لنا أن العصر الجاهلي كان له السبق إلى العمل الاجتماعي، فهو كان يقري الضيف ويطعم الفقير والمحتاج وصاحب الحاجة والفاقة.

يقول ابن كثير: «وكان من الكرماء الأجواد في الجاهلية المطعمين للمسنتين. وكان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن، وأرسل ابن جدعان إلى الشام ألفي بعير تحمل البر والشهد والسمن وجعل مناديا ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلموا إلى جفنة ابن جدعان.»[3]

---

(1) الروض الأنف للإمام السهيلي تحقيق عبد الرحمان الوكيل دار الكتب الإسلامية مصر الطبعة:1 سنة:1967 الجزء:2 الصفحة:84-85.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج/6 ص:369.

(3) البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1990 الجزء:2 الصفحة:217-218.

وجاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ﷺ: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه. إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.»[1]

وهناك أيضا مثال حاتم الطائي الذي عرف بالكرم وكان أجود الناس في العطاء والتصدق في الجاهلية.

ويذكر ابن كثير مزايا حاتم الطائي في العمل الاجتماعي وأن له أمورا عجيبة وأخباراً مستغربة في كرمه، فكان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة.[2]

المطلب الثاني: العمل الاجتماعي في صدر الإسلام

أعطى الإسلام للعمل الاجتماعي مكانة بالغة الأهمية، وجعله قربة يتقرب بها العبد من خالقه. وقد زخر المجتمع الإسلامي الأول بالعمل الاجتماعي وتنوعت أنواع وأشكاله، لذلك طالب الإسلام النهوض به وبشكل مضبوط ومنهجي قصد حياة طيبة تسودها الرفاهية والإخاء والمساواة لمختلف أفراد المجتمع، وحل مختلف الأزمات والمشاكل التي تواجه الفرد أو المجتمع.

وجاء الإسلام فنسخ أحكام المجتمعات السابقة. فحارب العصيان وهدم المبادئ الفاسدة والنزاعات الضارة، وقضى على المشاحنات، والعداوة، وأقام المجتمع على أسس واضحة ودعائم قوية، وحطم القيود التي كانت تفرق بين الناس بالجاه والجبروت، والقوة والطغيان والتكاثر بالأموال والأولاد، والتعالي بها على الغير، وجمع بين المسلمين برباط وثيق هو الإيمان بالله وحده، خالق الوجود، ومالك الناس، ومصدر الخير والرحمة للعالمين، وتمثل هذه العقيدة في دعم المجتمع وبنائه، وإقامة وحدته على أسس أصيلة مكانا فسيحا، فهي تجمع الناس على مبدأ واحد هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وذلك أصل جوهري عام في الأديان السماوية كلها، وأساس عريض ثابت في الشرائع الإلاهية جميعا.

(1) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب الدليل على أنه من مات على الكفر لا ينفعه عمل رقم الحديث: 365 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية ودار الكتب العلمية بيروت الجزء:1 الصفحة:196.

(2) البداية والنهاية ج/2 ص:212-213.

ثم تجيء التكاليف الدينية من عبادات ومعاملات لتكون مدداً لهذه العقيدة الأساسية، حيث تغذيها وتدعم أثرها في النفوس، لتعكس بين أفراده وجماعاته، وأيضا لتكون هذه التكاليف طريقا تنفذ منه أشعة الإيمان إلى أعماق النفوس.[1]

والعبادات شرعت لتهذيب النفوس، وتربية روح المساواة، وروح الاجتماع، الذي لا اعتداء فيه وإذا كانت العبادة لا تحقق تلك الأهداف، فهي ليست عبادة ولا يقبلها الله، وهي تجلب الذم لصاحبها.[2]

والعمل الاجتماعي يبدو واضحا بارزا في شعائر الإسلام وعباداته وتوجهاته ونظمه على السواء بل هي الفكرة القوية الشائعة في كيانه كله حتى شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تعني منهجا كاملا للحياة.

وليست العبادات في نظر الإسلام مجرد إقامة الشعائر الدينية والتوجه إلى الله عز وجل مع انقطاع وعزلة عن الأرض والحياة، بل هي الحياة كلها خاضعة لشريعة الله متوجها بكل نشاط فيها إلى الله تعالى، ومن ثم يعتبر الإسلام كل خدمة اجتماعية وكل عمل الخير عبادة ذات أجر عظيم عند الله عز وجل.[3]

قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[4]

ومن هنا يتضح للفقيه الذي يستلهم هذا الدين من مصادره الأولى، أن الإسلام دين الحياة بواقعها ودين الفطرة بدوافعها، حيث تتشابك المصالح في الحياة وتتزاحم الدوافع ويتكرر الأخذ والعطاء، وتكثر المبادلات بين الأفراد والمعاملات بين الجماعات، وتتفاعل القوى ويتنافس المتنافسون، فيندمج الفرد في المجتمع، كما يندمج البيت والأسرة في المجتمع،

(1) التكافل الاجتماعي في الإسلام لعبد العال أحمد عبد العال. ص:34.

(2) تنظيم الإسلام للمجتمع لأبي زهرة. ص:20.

(3) التكافل الاجتماعي في الإسلام لعبد العال. أحمد عبد العال. ص: 38.

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب، باب السعي على الأرملة. حديث رقم: 5547. تحقيق عبد القادر عطا. دار التقوى للتراث القاهرة. الطبعة:1. سنة 2001. الجزء:3. الصفحة:217.

وكذلك تندمج المجتمعات الصغيرة في الدولة، وتندمج الدولة في الإنسانية جميعها، ولا بد أن تكون هذه العلاقات كلها مبنية على الود والرحمة والتضامن والتعاون والسلام.[1]

والشريعة الإسلامية إذن تتجه في أحكامها إلى تحقيق الأهداف الاجتماعية، وهي المقاصد العليا للشريعة الإسلامية، فقد جاءت لتكوين مجتمع فاضل يضم الأسرة الإنسانية كلها، قاصيها ودانيها، فاتجهت إلى تربية المسلم ليكون عضوا في المجتمع، والعبادات الإسلامية والفضائل التي دعا إليها الإسلام تتجه إلى تحقيق هذه الأهداف وتوجيهه إليها.

فمثلا الزكاة تعاون اجتماعي يجعل للفقير حقا معلوما في أموال الغني، فهي تكليف اجتماعي خالص، ومصرفها اجتماعي خالص، ونظامها في الجمع والتوزيع لا يذل الفقير. ولا يجعل الغني يشعر بعزته فوقه، ولذا قال الفقهاء بالإجماع إن ولي الأمر هو الذي يجمعها، وهو الذي يوزعها على مصارفها.[2]

يقول ابن حزم (ت456هـ): «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبِمَسْكن يكنهم من المطر والصيف والشمس، وعيون المارة.»[3]

والعمل الاجتماعي في الإسلام مغزاه ومؤداه أن يحس كل واحد في المجتمع بأن عليه واجبات لهذا المجتمع يجب عليه أداؤها، وأنه إن تقاصر في أدائها، فقد يؤدي ذلك إلى انهيار البناء عليه وعلى غيره، وأن للفرد حقوقا في هذا المجتمع يجب على القوامين عليه أن يعطوا كل ذي حق حَقَّهُ من غير تقصير ولا إهمال، وأن يدفع الضرر عن الضعفاء، ويسد خلل العاجزين، وأنه إن لم يكن ذلك تآكلت لبنات البناء، ولا بد أن يخر منهارا بعد حين.[4]

---

(1) التكافل الاجتماعي في الإسلام لعبد العال. ص: 39.

(2) تنظيم الأسرة للمجتمع لأبي زهرة. ص:20.

(3) المحلى بالآثار لأبي حزم الأندلسي. تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري. دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة: 1 سنة 2003. الجزء:4. الصفحة:281.

(4) التكافل الاجتماعي لأبي زهرة. ص: 7.

ومن هنا نخلص أن العمل الاجتماعي في المنظور الإسلامي، هي تلك الجهود الذاتية، والمبادرات التطوعية التي يقوم بها أولوا الغنى وذووا المروءة ليعينوا بها أصحاب الحاجات، أو ليسهموا بها في عمليات التنمية، أو ليخففوا بها عن كاهل الدولة، سعيا منهم إلى التقرب إلى الله عز وجل ابتغاء مرضاته، واحتسابا للثواب عنده، وإدراكا منهم أن الدولة لو تحملت - وحدها- مسؤولية التربية والتعليم لكل فرد فيها ووفرت فرص العمل لكل قادر، والمعاش الملائم لكل عامل، والرعاية لكل مسن أو عاجز عن الكسب، ثم التزمت – وحدها كذلك – ببناء جميع المساجد والمدارس والنوادي والحدائق ودور العلاج، وتكلفت بتسيير كل وسائل النقل: خاصها وعامَّها، ثم كفلت اليتيم، وآوت كل محروم. فالدولة إن حمّلت وحدها هذه الأعباء وغيرها لناء كاهلها، ولغرقت في بحار الديون من جهة، وكبلت نفسها بأعباء التخلف، وأغلال التبعية من جهة أخرى.(1)

وهي وحدها لا تستطيع القيام لأفرادها بكل الخدمات الإنسانية والاقتصادية. كما لا تستطيع الدولة أن تقوم بتنمية العلاقات الاجتماعية، ولا بتزكية القيم الإيمانية. وإنما يتم ذلك عن طريق السلوك الإنساني التلقائي، الذي يسارع المرء فيه إلى الاستجابة لداعي الله ورسوله ﷺ، والذي يتسم بالحركة النشطة المنطلقة من قاعدة الإيمان بالله واليوم الآخر، كما انطلق المسلمون الأولون، أولئك الذين امتازوا بأنهم كانوا يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون.(2)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان رسوخ الإيمان في قلوب أولئك المسلمين أساسا لانطلاق المؤمن، لتحقيق شعبه العديدة وأركانه المختلفة، شدًا لأزر الدولة من جهة، وسعيا إلى تصديق الإيمان بالعمل، وتحرراً من سلطان الدنيا، ومتاهاتها، وتسخيرا للمال ليكون في خدمت الدعوة، ورعاية المجتمع، وتلبية إلى كل ما دعا إليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة من توجيه وإرشاد سواء كان ترغيبا أم كان تكليفا.(3)

إذن فالمجتمع الذي ينظمه الإسلام يحكم بقواعد عامة، وهذه القواعد تبدو في الأسرة، وفي الجماعات، وفي الدولة، وفي العلاقات الإنسانية بين الناس مهما تختلف ألوانهم

(1) الرعاية الاجتماعية في الإسلام لمحمد بن أحمد بن صالح. مكتبة الاسكندرية. الطبعة:1. سنة: 1999.الصفحة:25-26.
(2) الرعاية الاجتماعية في الإسلام ص:28.
(3) المرجع نفسه ص:28-29.

وأجناسهم وأديانهم، وهذه القواعد تتلخص في المحافظة على الكرامة الإنسانية، والعدالة بكل صورها، والتعاون العام، والمودة، والرحمة والمصلحة، ودفع الفساد في هذه الأرض.[1]

(1) تنظيم الإسلام في المجتمع لأبي زهرة. ص: 25.

المبحث الثالث: مشروعية العمل الاجتماعي ومقاصده وشروطه

المطلب الأول: مشروعية العمل الاجتماعي

الفرع الأول: مشروعية العمل الاجتماعي من القرآن الكريم

للعمل الاجتماعي دلائل كثيرة ومتنوعة في القرآن الكريم، وفيه حث الله تبارك وتعالى عباده الصالحين ترغيبا في العمل الصالح، فجاء بعضها من قبيل الواجب وبعضها الآخر من قبيل المستحب، فأثاب فاعله وجزاه أحسن الجزاء.

وفي هذا المقام أمثلة متنوعة مما جاء في كتاب الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ والْيَتَامَىٰ والْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَاب﴾ [سورة البقرة الآية:176]

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير الآية الكريمة: «»وليس هذا معنى مستقلا من المعاني بل هو استعلاء مجازي أريد به تحقيق ثبوت مدلول مدخولها لمعمول متعلقها، لأنه لبعد وقوعه يحتاج إلى تحقيق، والضمير للمال لا محالة والمراد أنه يعطي المال مع حبّه للمال وعدم زهادته فيه فيدل على أنه إنما يعطيه مرضاة لله تعالى ولذلك كان فعله هذا برًّا. فذكر ذوي القربى وأمر بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتئامهم وهذا الالتئام القبائل الذي أراده الله بقوله « لتعارفوا « فليس مقيَّداً بوصف فقرهم.

ثم ذكر اليتامى وهم مظنة الضعف لظهور، المراد اليتيم المحتاج حاجة دون الفقر وإنما هو فاقد ما كان ينيله أبوه من رفاهية العيش، فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم، وذكر السائلين وهم الفقراء والمسكنة: الذل مشتقة من السكون... والمسكين الفقير الذي أذله الفقر وقد اتفق أئمة اللغة أن المسكين غير الفقير فقيل هو أقل فقراً من الفقير.

وذكر السائلين وهم الفقراء كنى عنهم بالسائلين لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه من أن، يسأل الناس لغير حاجة غالبا. فالسؤال علامة الحاجة. وذكر ابن السبيل وهو الغريب، لذلك كان حق الضيافة فرضا على المسلمين. وذكر الرقاب والمراد فداء الأسرى وعتق العبيد.»»[1]

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة الآية:60]

قال القرطبي: «خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نِعمةً منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى مَن لا مال له، نيابة عنه سبحانه... وبين مصاريف الصدقات والمحل، حتى لا تخرج عنهم. ثم الاختيار إلى من يقسم...وإنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف... وحكى عن زين العابدين أنه قال: إنه تعالى علم قدر ما يرتفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف، فأوجبه لهم وجعله حقا لجميعهم، فمن منع ذلك، فهو الظالم لهم رزقهم.»[2]

قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. [سورة سبأ الآية: 37]

قال ابن كثير: «إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، وتتضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.»[3]

قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون﴾ [سورة الحج الآية:75]

---

(1) تفسير التحرير والتنوير. للشيخ الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر. تونس (بدون رقم طبعة) سنة:1984. الجزء:2. الصفحة:130-131.

(2) الجامع لأحكام القرآن. لأبي بكر القرطبي. تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة بيروت. الطبعة:1. سنة: 2006. الجزء:10. الصفحة 244-245.

(3) تفسير ابن كثير. الجزء/ 6 ص: 522.

قال ابن عرفة في تفسيره: «عبارة متعدية للغير مع إعطاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.»[1]

«وافعلوا الخير» أي ما هو خير وهو أعم من الطاعة الواجبة والمندوبة وقيل المراد بالخير هنا المندوبات ثم علل ذلك بقوله:»» لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»» أي إذا فعلتم هذه كلها رجوتم الفلاح، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة ليس مرتبا على هذه الأعمال مثلا، بل هذه الأمور كلفنا الله بها شرعا، وأما قبولها شيء آخر يتفضل الله به علينا.[2]

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَات ِاللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيما ﴾. [سورة النساء الآية: 113]

ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله لأنه إذا دخل الأمر به في زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل، ثم قال: «﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم»[3]

قال تعالى: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [سورة المزمل الآية: 18]

قوله تعالى «مِّنْ خَيْرٍ» يعم جميع فعل الخير. وفي الكلام إيجاز حذف، تقدير المحذوف وافعلوا الخير وما تقدموا لأنفسكم منه تجدوه عند الله، فاستغني عن المحذوف بذكر الجزاء على الخير. ومعنى تقديم الخير: فعله في الحياة، شبه فعل الخير في مدة الحياة لرجاء الانتفاع بثوابه في الحياة الآخرة بتقديم العازم على السفر ثقله وأدواته وبعض أهله إلى المحل الذي يروم الانتهاء إليه ليجد ما ينتفع به وقت وصوله.[4]

(1) تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي. تحقيق جلال الأسيوطي. دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة:1. سنة: 2008. الجزء:3. الصفحة:200.

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق بن الحسن القنوجي البخاري. تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. المكتبة العصرية. بيروت. سنة:1992. الجزء:9. الصفحة: 87-88.

(3) تفسير الكشاف للزمخشري. تحقيق خليل مأمون شيحا. دار المعرفة بيروت. الطبعة:3. سنة: 2009. الجزء: 5. الصفحة: 260.

(4) التحرير والتنوير ج/29. ص:288.

وقيل: جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو خير لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا.[1]

«إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ» أي حث عليها، والظاهر أنها صدقة التطوع وقيل إنها صدقة الفرض والأول أولى، والاستثناء متصل كما اختاره القاضي كالكشاف.

«أَوْ مَعْرُوفٍ» لفظ عام يشمل جميع أنواع الجميل وفنون أعمال البر، وقال مقاتل: المعروف هنا الفرض، والأول أولى. وقيل المعروف إغاثة الملهوف والقرض وإعانة المحتاج وأعمال البر كلها معروفة لأن العقول تعرفها.[2]

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [سورة الذاريات. الآية 19]

لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال:» وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقّ» أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم، أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدئ بالسؤال، وله حق. فالمحروم كما قال ابن العباس، ومجاهد: هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم. يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه». وقال الضحاك: «هو الذي لا يكون له المال إلا ذهب، قضى الله له ذلك.»[3]

إذا فالإنفاق على ذوي الحاجات فريضة افترضها الله في المال فليس لمستخلف على مال الله أ، يمنعها، وللحكومات الإسلامية الحق في أن تأخذ من أموال الأغنياء ما يكفي حاجة الفقراء. ولا يلزم لثبوت الحق للفقراء في الإنفاق عليهم أن يكونوا معدمين لا يملكون شيئا، وإنما يلزم الإنفاق عليهم إذا لم يكن لديهم ما يسد حاجتهم، فكل من كان إيراده لا يكفي حاجته فهو من ذوي الحاجة وعلى الحكومة الإسلامية أن تأخذ فضول أموال الأغنياء ما يرد حاجة ذوي الحاجة، وليست الزكاة وحدها هي كل ما يجب في المال من حق وإنما هي الحق

(1) تفسير ابن كثير. ج/8. ص:260.

(2) فتح البيان في مقاصد القرآن. ج/3. ص:237.

(3) تفسير ابن كثير. ج/7. ص:418-419.

الأول لذوي الحاجة فإن كفتهم وإلا فقد وجب الإنفاق فريضة من الله حتى تكفي الحاجة عن ذوي الحاجة.(1)

الفرع الثاني: العمل الاجتماعي في السنة النبوية الشريفة

من المعلوم أن السنة النبوية اهتمت بنظام العمل الاجتماعي، وقد وردت العديد من النصوص الصحيحة في السنة النبوية تحث المسلمين على القيام به والسعي عليه. فالنبي ﷺ أشار إلى أهمية العمل الاجتماعي وقيمته في الإسلام.

عن عمرو بن خالد قال: حدثنا الليث عن يزيد عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو، أن رجلا سأل النبي صلى الله ﷺ أي الإسلام خير؟ قال:» تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف».(2)

خص النبي ﷺ هاتين الخصلتين بالذكر لمسيس الحاجة إليهما في ذلك الوقت، لما كانوا فيه من الجهد، ولمصلحة التأليف. ويدل ذلك أنه عليه السلام حث عليهما أول ما دخل المدينة.(3)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:» إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، ومصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته».(4)

عد الولد الصالح من العمل والتعليم حسن لأن الوالد هو سبب وجوده وسبب لصلاحه بإرشاده إلى الهدى، كما جعل نفس العمل في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالِحٍ﴾ [سورة هود الآية:46] وقوله مصحفا ورثه من التوريث أي تركه إرثا، وهذا مع ما بعده من قبيل الصدقة

(1) التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية. لمحمد بن أحمد الصالح. ص: 102.

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان. باب إطعام الطعام من الإسلام. رقم الحديث 11. ج/1. ص:10.

(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. تحقيق عبد العزيز بن عبد الله الباز وفؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب المكتبة السلفية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:1. الصفحة:56.

(4) رواه ابن ماجة في سننه المقدمة باب ثواب معلم الناس الخير رقم الحديث: 242. تحقيق فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:1. الصفحة: 88.

الجارية حقيقة أو حكمًا، فهذا كالتفصيل لحديث انقطع عمله إلا من ثلاث. وقوله (في صحته وحياته) أي إخراجها في زمان كمال حاله ووفور افتقاره إلى ماله، وتمكنه من الانتفاع به، وفيه ترغيب ليكون أفضل صدقة.[1]

عن عبد الله بن عبد الوهاب قال: حدثني عبد العزيز بن أبي حازم، قال: حدثني أبي، قال: سمعت سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال: بإصبعيه السبابة والوسطى».[2]

الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي صلى الله عليه وسلم لكون النبي ﷺ شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلا لهم ومعلما ومرشدا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه، فظهرت مناسبة لذلك.[3]

وفي هذا الصدد يشير الشيخ القرضاوي بقوله: «أن يكون كافل اليتيم بهذه الدرجة من القرب من سيد الرسل محمد ﷺ، والكفالة التامة: أن يجعله في بيته كواحد من أولاده. وقد تكون الكفالة بأن يدفع إليه مبلغا من المال في بلده يكفيه حاجته، وهي مرتبة دون الأولى، ولكن لها أجرها. وكثير ما يفضل الأيتام أن يبقوا في بيوتهم وبلدانهم مع أمهاتهم وأقاربهم وهذا هو الأولى والأوفق.»[4]

روى الإمام مسلم فقال: حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب حدثنا مالك عن ثور بن زيد عن أبي الغيث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله وأحسبه قال: وكالقائم لا يَفتُرُ وكالصائم لا يفطر».[5]

---

(1) شرح سنن ابن ماجة. للسيوطي. تحقيق رائد بن أبي علفة. بيت الأفكار الدولية. عمان الأردن. الطبعة:1. سنة: 2007. الجزء:1.
الصفحة: 164.

(2) رواه البخاري في صحيحه. كتاب الأدب. باب فضل من يعول يتيما. رقم الحديث: 5546. ج/3. ص: 216.

(3) فتح الباري لابن حجر. كتاب الأدب. باب فضل من يعول يتيما. ج/10. ص:451.

(4) أصول العمل الخيري في الإسلام ليوسف القرضاوي. دار الشروق القاهرة. الطبعة: 2. سنة: 2007. الصفحة:56.

(5) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم. رقم الحديث: 2982. ج/ 4. ص: 2286.

قال الإمام النووي: «المراد بالساعي الكاسب لهما العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها سواء كانت تزوجت أم لا، وقيل: هي التي فارقت زوجها... وسُميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج، يقال أرمل الرجل إلى فني زاده. وكافل اليتيم القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك، وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعية.»[1]

وجاء في فضل بناء المساجد قوله ﷺ:» من بنى مسجدا لله بنى الله له في الجنة مثله».[2]

قال بدر الدين أحمد العيني: «يعني مثله في المقدار والمساحة. وهذه المثلية ليست على ظاهرها وإنما يعني أنه يبني له بثوابه بيتا أشرف وأعظم وأرفع.»[3]

وقال النووي: « يحتمل قوله «مثله» أمرين أحدهما أن يكون معناه بني الله له مثله في مسمى البيت وإما صفته في السعة وغيرها فمعلوم فضلها فإنها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والثاني أن معناه أن فضله على بيوت الجنة كفضل المسجد على بيوت الدنيا. ويحتمل أنه أراد أن يُنَبه بقوله « مثله» على الحض على المبالغة في إرادة الانتفاع به في الدنيا في كونه ينفع المصلين ويكنهم عن الحر والبرد ويكون في مكان يحتاج إليه ويكثر الانتفاع به ليقابل الانتفاع به في الدنيا انتفاعه هو بما يبنى له في الجنة.»[4]

حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمان – هو ابن عبد الله ابن دينار-عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب-ولا يقبل الله إلا الطيب-وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبه كما يرجى أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل».[5]

(1) المنهاج في شرح صحيح مسلم للنووي. كتاب الزهد والرقائق. باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم مؤسسة قرطبة. الطبعة:2. سنة: 1994.. الجزء: 18. الصفحة: 150-151.

(2) رواه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد والرقائق. باب فضل بناء المساجد. رقم الحديث 533. ج/2. ص: 1360-1361.

(3) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين أحمد العيني. دار الفكر (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 4. الصفحة: 214.

(4) المنهاج في شرح صحيح مسلم للنووي ج/5 ص:20-21.

(5) رواه البخاري في صحيحه. كتاب الزكاة. باب الصدقة من كسب طيب. رقم الحديث 1321. ج/1. ص: 339.

فالنبي ﷺ بَيَّن قيمة الصدقة ولما لها من فضل حتى وإن كانت بعدل تمرة بشرط الكسب الطيب. فمفهومه أن ما ليس بالطيب لا يقبل.

وذكر ابن حجر في شرحه للحديث قوله: «وضرب به المثل لأنه يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيما، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذلك عمل لبن آدم-لا سيما الصدقة-فإن العبد إذا تصدق من كسب طيب لا يزال نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة إلى الجبل.»(1)

ويضيف النووي في نفس السياق قوله: «وقد قيل في تربيتها وتعظيمها حتى تكون أعظم من الجبل وأن المراد بذلك تعظيم أجرها وتضعيف ثوابها، وأن تعظم ذاتها ويبارك الله تعالى فيها ويزيد من فضله حتى تثقل في الميزان.»(2)

الفرع الثالث: مشروعية العمل الاجتماعي عند الفقهاء

دلت على مشروعية العمل الاجتماعي عموما أدلة كثيرة عند الفقهاء والعُلَمَاء، الذين حثوا على فعل الخير والإحسان وتقويته وإنتاجه، لأنه يمثل ثروة مهمة في المجتمع.

فعن جعفر بن سليمان، قال: سمعت مالك بن دينار يقول: «إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإن صدور الفجار تغلي بالفجور، والله يرى همومكم فانظروا ما همومكم رحمكم الله.»(3)

قال الحافظ ابن رجب: «الأمر بالإحسان تارة يكون للوجوب كالإحسان للوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البر والصلة والإحسان إلى الضيف بقدر ما يحصل به قِراه. وتارة يكون للندب كصدقة التطوع ونحوها.»(4)

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر. ج/3. ص: 327-328.

(2) المنهاج في شرح صحيح مسلم للإمام النووي. ج/7 ص:138.

(3) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. للأصفهاني. دار السعادة. مصر. سنة: 1996. الجزء: 6. الصفحة:288.

(4) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. لابن رجب. تحقيق ماهر ياسين الفحل. دار ابن كثير دمشق. الطبعة: 1. سنة: 2008. الصفحة: 362.

قال القرطبي: «الصدقة متى أطلقت في القرآن، فهي صدقة الفرض.»[1]

وقال أيضا في الجامع: «يبين الله تعالى أن، من لم يستحق شيئا إرثا، وحضر القسمة، وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون أن يكرموا ولا يحرموا، إن كان المال كثيرا، والاعتذار إليهم، إن كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرضخ. وإن كان عطاء من قليل، ففيه أجر عظيم.»[2]

وعن أبي حيان قال: «إن الصدقة حق للفقير، وفيها دلالة على أنه يجوز لرب المال أن يفرق الصدقة بنفسه.»[3]

وذكر القرطبي: «إن إنفاق المال فيما يَعِنُّ من الواجب والمندوب، وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله، والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل وقيل: المنقطع به، وقيل أضيفوا السؤال، وفك الرقاب.»[4]

قال ابن القيم رحمه الله: «إن للصدقة تأثيرا عجيبا في دفع أنواع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم، بل كافر، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعا من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مُقِرون به لأنهم قد جَرَّبُوه.»[5]

قال البيهقي: «الصدقة تسر السائل، وتوجب للمعطي أجراً.»[6]

وقال أيضا رحمه الله: أن يحبس أصل المال إذا أراد الصدقة ويسلم المنفعة.[7]

(1) الجامع لأحكام للقرآن ج/10. ص:245.

(2) المصدر نفسه ج/6. ص: 83.

(3) تفسير البحر المحيط لأبي حيان. تحقيق الشيخان على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة: 1 سنة: 1993. الجزء: 2. الصفحة: 338.

(4) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ج/3. ص: 59.

(5) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم الجوزية. تحقيق عبد الرحمان بن حسن بن قائد. دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. الصفحة:69.

(6) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي. تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد. مكتبة الرشد الرياض. الطبعة: 1. سنة: 2003. الجزء: 5. الصفحة: 117.

(7) المصدر نفسه ج/5. ص: 119.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ذكر لي أن الأعمال تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.»[1]

قال الامام مالك رحمه الله: «سبل الله كثيرة، ولكن من حبس في سبيل الله شيئا فإنما هو في الغزو.»[2]

قال سحنون عن ابن وهب عن يونس عن ربيعة قال: «كل ما جعل صدقة، حبس ولم يسم الصدقة، فهو كله صدقة تنفذ في مواضع الصدقة وعلى وجه ما ينتفع بذلك فيه، فأن كانت دواب ففي الجهاد، وإن كانت غلة أمول فعلى منزلة ما يرى الوالي من وجوه الصدقة.»[3]

يقول الشيخ يوسف القرضاوي: «وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن: إن عمل الخير وإشاعته وتثبيته، يعد من أهداف الرسالة المحمدية، ومن مقاصد الشريعة الإسلامية الأساسية». ويقول أيضا: «والخير قد يذكر في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، بلفظ الخير نفسه، وقد يذكر بألفاظ أخرى تحمل مضمونه، مثل البر، والإحسان، والرحمة، والصدقة، وتفريج الكربة، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك.»[4]

فالإنفاق إذن لإحداث التوازن في المجتمع أمر ديني وضرورة اجتماعية وأخلاقية يجب أن ينظم ليؤدي الهدف منه وليدفع-عن طريق القانون – القادرين على الانفاق لتحقيق التضامن الاجتماعي.[5]

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «عقود التبرعات قائمة على أساس المواساة بين أفراد الأمة الخادمة لمعنى الأخوة. فهي مصلحة حاجية جليلة، وأثر خلق إسلامي جميل، فيها حملت مساعفة المعوزين، وإغناء المقترين، وإقامة الجمّ من مصالح المسلمين.»[6]

---

(1) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم. ص: 73.

(2) المدونة الكبرى للإمام مالك برواية سحنون عن ابن القاسم. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة: 1. سنة: 1994. الجزء: 4. الصفحة:417.

(3) المصدر نفسه ج/4. ص: 417.

(4) أصول العمل الخيري ليوسف القرضاوي. ص: 25.

(5) مجتمع المؤمنين من هدي القرآن لعبد الكريم غلاب. الطبعة:1. سنة: 1988. الصفحة: 262.

(6) مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور. تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة. طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية قطر. سنة:2004. الجزء: 3. الصفحة: 505.

يرى الدكتور مصطفى بنحمزة أن العمل الاجتماعي من حيث جهة الطلب (طلب جماعي)، ومن حيث جهة العقاب (عقاب جماعي)، بل من العلماء المعاصرين من يرى أن من الفروض الكفائية هي واجبات اجتماعية تتسع بسعة الحياة الاجتماعية، تؤديها المجموعة بكيفية تضامنية، إذا قام بها البعض سقط التكليف عن الباقين، لا استخفافا بحقها، وإنما لداعٍ موضوعي هو انتهاء الحاجة إليها.[1]

المطلب الثاني: مقاصد العمل الاجتماعي

إن العمل الاجتماعي قائم على أساس فعل الخير والبر والإحسان والتكافل بين أفراد المجتمع ومواساتهم وخفض جناح الرحمة والمودة لهم. فهو شعبة من شعب المصلحة الحاجية الجليلة، لما له من الأثر الواسع في النفوس، وأيضا أثر الإيمان العظيم في قلوب المسلمين قصد صلاحها وتطهيرها من البخل ومنع ما أوجبه الله تبارك وتعالى في الانفاق.

والشريعة الغراء أرخت بظلالها في مجال العمل الاجتماعي، بل حثت على الإكثار من أعمال الخير وتنويعه، لما فيه من إقامة مصالح المسلمين العامة والخاصة، وأوجبت للمتبرعين ثوابا عظيما حتى بعد موتهم.

ومقصود الشريعة الإسلامية الأعظم من العمل الاجتماعي، هو إقامة مصالح المستضعفين وقضاء حوائجهم ورفع ضرر الحاجة عن الفقير والمسكين والمعوز التي لا تستقيم حياتهم العادية إلا بتمامها، ولا يبلغ هذا المقصد تمامه، إلا إذا كان الإنفاق بصورة صحيحة ودائمة وعامة.

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «مقصد الشريعة الإسلامية من الإنفاق إقامة مصالح ضعفاء المسلمين ولا يحصل منه مقدار له بال إلا بتعميمه ودوامه لتستمر منه مقادير متماثلة في سائر الأوقات وإنما يحصل التعميم والدوام بالإنفاق عن الفاصل عن حاجات

(1) العمل الاجتماعي في الإسلام لمصطفى بنحمزة مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، سلسلة دفاتر المركز (3) الطبعة:1 (بدون تاريخ) الصفحة: 12.

المنفقين فحينئذ لا يشق عليهم فلا يتركه واحد منهم، ولا يبخلون به في وقت من أوقاتهم، وهذه حكمة بالغة وأصل اقتصادي عمراني.»[1]

الفرع الأول: التقرب إلى الله عز وجل

قال تعالى: ﴿الَّذِين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. [سورة آل عمران الآية:134]

وهذه الجملة من صفات أهل قرب النوافل، وقد ذكرها الله تعالى لنا وختم ذكرهم بأنه سبحانه يحب المحسنين لأنهم محسنون العبادة لله تعالى، ومحسنون المعاملة مع عباد الله تعالى. ومن هنا تعلم فصل فاعل الخيرات والمَبَرات، والمتطوع بماله فيما يرضى الله تعالى وأنه في أعلى المنازل.[2]

والله تعالى رغب في الصدقات وحث عليها، وأيضا حث على وجوه البر والاحسان والتبرعات ودعا إليها لأجل التقرب إليه تبارك وتعالى لما فيها من مصالح عامة وخاصة.

جاء في كتاب الموطأ للإمام مالك رحمه الله باب سماه باب الترغيب في الصدقات علق عليه أبو بكر بن العربي فقال: «جاء مالك رحمه الله في هذه الترجمة بفائدة عظيمة أخرجها بها من أبواب الأحكام إلى أبواب الفضائل، نبه بها على فضل الصدقة وشرفها، وهي تشرف بوجوه كثيرة.»[3]

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنَ اَعْطِيٰ وَاتَّقِيٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِيٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرِيٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنِيٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِيٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرِيٰ﴾ [سور الليل الآيات: 5-6-7-8-9-10]

قال الماوردي فيما يرويه عن ابن العباس رضي الله عنهما أنه قال: يعني من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطائه فعند هذا قال ابن عباس

(1) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور. ج/2. ص:351.

(2) التقرب إلى الله تعالى فضله، طريقه، مراتبه لعبد الله سراج الدين الحسيني. مكتبة دار الفلاح. حلب. الطبعة:2. سنة: 1997. الصفحة:87 – 90.

(3) كتاب القبس في شرح موطأ مالك بن أنس. لأبي بكر بن العربي. تحقيق محمد عبد الله ولد كريم. دار الغرب الاسلامي. بيروت الطبعة: 1. سنة: 1992. الجزء: 3. الفحة:118.

رضي الله عنهما لسادات الناس: في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء. وقيل في منثور الحكم: الجود عن الموجود. وقيل في المثل: سؤدد بلا جود كملك بلا جنود. وقال بعض الأدباء: من جاد ساد ومن أضعف ازداد. وقال بعض الفصحاء: خير الأموال ما استرق حراً وخير الأعمال ما استحق شكراً. [1]

الفرع الثاني: الثواب ودوام المنفعة

إن العمل الاجتماعي بكل أنواعه الخيرية أمر مطلوب، فقد جعلت الشريعة الإسلامية التصرفات المتعلقة بها من الأعمال التي لا ينقطع ثوابها بعد الموت ويعود نفعها على أفراد المجتمع. يقول النبي ﷺ: « إذا مات العبد انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، وعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».[2]

علق الطاهر بن عاشور على الحديث النبوي قائلا: «التكثير منها فيما لها من المصالح العامة والخاصة. وإذا كان شح النفس حائلا دون تحصيل كثير منها، دلت أدلة الشريعة على الترغيب فيها، فجعلت من العمل غير المنقطع ثوابه بعد الموت. ثم اشترطت الشريعة أن تكون التبرعات صادرة عن طيب نفس لا يخالجه تردد، لأنها من المعروف والسخاء، ولأن فيها إخراج جزء من المال المحبوب بدون عوض يخلفه. فتمحّص أن يكون قصد المتبرع النفع العام والثواب الجزيل.»[3]

ومن الصدقات الجارية والأوقاف التي كانت في زمن الرسول ﷺ كصدقة عمر رضي الله عنه وقد أشار عليه بها وكذلك صدقة أبي طلحة الأنصاري فإنها أيضا بإشارة منه ﷺ. وصدقة عثمان رضي الله عنه ببئر رومة[4] قال ﷺ:»من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها

(1) أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي. تحقيق محمد كريم راجح. دار اقرأ بيروت. الطبعة: 4. سنة: 1985. الصفحة: 198.

(2) رواه البخاري في الأدب المفرد باب بر الوالدين بعد وفاتهما. رقم الحديث: 38. تحقيق فؤاد عبد الباقي. المطبعة الألفية ومكتبتها. القاهرة.

سنة 1375 هـ. الصفحة: 21.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور. ج/3. ص: 506-509.

(4) بئر رومة أو بئر عثمان، إحدى آبار المدينة المنورة سميت على اسم الصحابي الجليل رومة الغفاري الكناني من بني غفار من قبيلة كنانة، وتعرف ببئر عثمان، وهي في منطقة الزراعة. عن بشر بن بشير الأسلميّ، عن أبيه قال: لما قدم المهاجرون

كدلاء المسلمين؟ فاشتراها عثمان رضي الله عنه»[1] وتصدق بها على المسلمين. وتصدق سعد بن عبادة بمخراف له عن أمه بعد وفاتها. وكانت هذه الصدقات أوقافا ينتفع المسلمون بثمراتها على تفصيل في شروطها.»[2]

الفرع الثالث: رعاية مصلحة ضعفاء المسلمين

إن مقصود الشريعة الإسلامية من العمل الاجتماعي هو رعاية مصالح ضعفاء المسلمين والسعي على قضاء حوائجهم، ولا يكتمل هذا المقصد إلا إذا كان الإنفاق بشكل دائم ومستمر.

ومن أجل هذا المقصد جعل الله عز وجل بعض وجوه الانفاق أمرا واجبا في حق أصحاب المال لإنفاقها على المحتاجين والمعوزين والفقراء والمساكين، فكانت من باب الواجبات كالزكاة والكفارات والنذور وغيرها من الواجبات.

قال العز بن عبد السلام: «وأما أخذهم الزكوات، فإن صرفوها في مصاريفها أجزأت لما ذكرناه، وإن صرفوها في غير مصاريفها لم يبرأ الأغنياء منها على المختار، لما في إجزائها من ضرر الفقراء، بخلاف سائر المصالح التي لا معارض لها، فإنها إنما نفذت لتمحضها، وأما هنا فالقول بأجزاء أخذها نافع للأغنياء مضر بالفقراء، ودفع المفسدة عن الفقراء أولى من دفع المفسدة عن الأغنياء. وإن شئت قلت: لأن مصالح الفقراء أولى من مصالح الأغنياء، لأنهم يتضررون بعدم نصيبهم من الزكوات، ما لا يتضرر به الأغنياء من تثنية الزكاة.»[3]

الفرع الرابع: غرس قيم الأخوة بين المسلمين

جعل الإسلام المجتمع كالأسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضا، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله. فمن حق الفقير الذي لا يستطيع أن يعمل، أو يستطيع ولا يجد

المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة. -المدينة المنورة معالم وحضارة، لمحمد السيد الوكيل، دار القلم، دمشق، الطبعة:1 سنة:1996 الصفحة:151-152.

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب المساقاة باب في الشرب ومن رأى صدقة المال وهبته ووصيته جائزة مقسوما كان أو غير مقسوم ج/1 ص:562.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية ج/2. ص: 434.

(3) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام لعز الدين بن عبد السلام. تحقيق نزيه كمال حماد وعثمان جمعة ضميرية. دار القلم. دمشق. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 1. الصفحة:111 -112.

عملا، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله، أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة... من حقه أن يعان ويشد أزره ويؤخذ بيده. وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التخمة، وإلى جواره من طال حرمانه حتى أَنَّ من الجوع.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش في دائرة نفسه مغفلا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء المساكين، فهذا نقص في إيمانه، موجب لسخط الله في الدنيا والآخرة.[1]

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات. الآية:10]

فكل عمل اجتماعي في هذا المقصد يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات مادام قصد فاعله الخير لا تصيد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس. كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدي حائراً، أو يعلم جاهلا، أو يؤوي غريبا، أو يدفع شر مخلوق أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعا إلى ذي كبد رطب، فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية.

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمان وشعب الإيمان، وموجبات الثوبة عند الله.[2]

فالمؤمنون يتولى بعضهم شؤون بعض، لا فضل في الولاية لأحد على الآخر، ولا حد في هذه الولاية. والولاية المتبادلة تعني التكافل الاجتماعي حتى لا يعيش فقير في مجتمع المؤمنين- وقد نظم الله ذلك في عديد الآيات –وتعني التضامن في السراء والضراء حتى لا يعيش أحد وحيدا في أزمته ومشاكله. ونعني مساعدة القادر للعاجز في كل ما تتطلبه المساعدة كما يفعل ولي الطفل أو اليتيم. والخلاصة أن المؤمنين يجب أن يعتبروا أنفسهم أولياء بعضهم لبعض بكل ما تحمله كلمة الولاية من معنى.[3]

---

(1) العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة: 24. سنة: 1995. الصفحة: 268.

(2) المرجع نفسه ص: 57.

(3) مجتمع المؤمنين لعبد الكريم غلاب. ص: 114.

الفرع الخامس: التعاون على عمل الخير والبر والاحسان

من مقاصد العمل الاجتماعي أيضا إيجاب التعاون عليه، فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه وأعوانه، وما لا يستطيعه الفرد تستطيعه الجماعة.[1]

ومن هنا قوله تعالى﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَي اَلْبِرِّ وَالتَّقْوِيٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَي اَلِاثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة الآية: 3]

يقول النبي ﷺ:» المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه «[2]. فالتعاون على البر والتقوى والاحسان هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير.[3]

يقول الطوسي: «وقوله ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَي اَلْبِرِّ وَالتَّقْوِيٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَي اَلِاثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ﴾ [سورة المائدة الآية: 3] ليس بعطف على أن تعتدوا، فيكون في موضع نصب، بل هو استئناف كلام أمر الله تعالى الخلق بأن يعين بعضهم بعضا على البر وهو العمل بما أمرهم الله به.» [4]

ومقصد الآية أنها اشتملت على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في بعضهم بعضا، وفيما بينهم وبين ربهم، فإن كل عبدٍ لا ينفك من هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخلق. فأما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والمحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونا على مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفَلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوى اللذان هما جماع الدين كله، والمقصودُ أن المقصودَ من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون على البر والتقوى، فيُعِين كل واحد صاحبَه على ذلك علمًا وعملاً.[5]

---

(1) أصول العمل الخيري في النصوص والمقاصد الشرعية ليوسف القرضاوي. ص: 29.

(2) رواه البخاري في صحيحه. كتاب المظالم والغضب. باب نصر المظلوم. رقم الحديث: 2266. ج/1. ص: 588.

(3) تفسير الشعراوي راجعه أحمد عمر هاشم. مطابع دار أخبار اليوم. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 5. الصفحة: 2908.

(4) التبيان في تفسير القرآن للطوسي. تحقيق أحمد حبيب قصير. دار احياء التراث العربي. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 3. الصفحة: 427.

(5) الرسالة التبوكية (زاد المهاجر) لابن القيم الجوزية. تحقيق محمد عزيز شمس. دار عالم الفوائد. طبعة مجمع الفقه الإسلامي بجدة. الصفحات: 4 -5 -12.

فالإسلام لا يهدف فقط إلى ربط صلة الناس بالله، ولكنه يهدف كذلك إلى تقويم صلة الإنسان بالآخر، حتى يمكن أن تكون صلته بالله مدعومة بمجتمع متكامل لا صلة مفردة، كل واحد يصوغها بحسب ما تيسر له من الطاعة والامتثال.

هذا ما يؤكد لنا أن الأهمية التي منحها القرآن الكريم للعلاقات بين الناس ليست فقط لإصلاح ذات البين، أو لتهذيب نزعات الانحراف في هذا الشخص أو ذاك، ولكن كذلك لخلق كيان إنساني عام هو المجتمع يتعامل مع الله كمجتمع متضامن سائر في طريق الخير.[1]

ويقول القرطبي: «والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوده، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه، فيعلمهم ويعينهم، والغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين باليد الواحدة.»[2]

الفرع السادس: الاهتمام بالعلم وطلابه

الإسلام في صميمه واجهة علمية جاء ليكمل نقصا في الإنسانية، وفي الإنسان ليخرجه من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

فالعلماء وطلبة العلم هم أحق بل أَولَى الناس بالبدل والعطاء والانفاق عليهم، لأنهم سخروا أنفسهم للعلم وطلبه، فمن باب الأولويات نفع هذه الفئة حتى يتسنى لهذه الأمة أن تنهض بالعلم وتكتسح الجهل وتنفتح العقول والقلوب لتصل إلى الإدراك والمعرفة.

يقول ابن عبد البر فيما يرويه عن وكيع أنه قال: «سمعت سفيان الثوري يقول: لا أعلم من العبادة شيئا أفضل من أن يُعَلِّم الناس العلم.»[3]

(1) مجتمع المؤمنين لعبد الكريم غلاب. ص: 150.

(2) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ج/7. ص:269.

(3) جامع بيان العلم وفضله. لابن عبد البر. تحقيق أبي الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي السعودية. الطبعة: 1. سنة: 1994. الجزء:1. الصفحة:124.

فعن أبي هارون العبدي، قال: كنا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحبا بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاسْتَوْصُوا بهم خيراً».[1]

قال ابن القيم الجوزية: «إن النبي ﷺ أوصى بطلبة العلم خيرا وما ذاك إلا لفضل مطلوب هم وشرفه.»[2]

وذكر صاحب الرد المحتار فقال: «إن طالب العلم يجوز له أخذ الزكاة ولو غنيا إذا فرغ نفسه لإفادة العلم.»[3]

وبذلك تكون كفالة طالب العلم من أعمال الخير العظيمة، التي لا يمكن أن تخفى على أهل الخير والمحسنين، فطالب العلم يحتاج إلى رعاية خاصة فهو مؤهل لحمل لواء العلم والعلماء والأكثر من ذلك النهوض بالأمة وخدمتها بالعلم. فوجب انصافهم في هذا الباب.

وطالب العلم إذا تفرغ لطلب علم نافع، وتعذر الجمع بين الكسب وطلب العلم، فإنه يعطى من الزكاة قدر ما يعينه على أداء مهنته، وما يشبع حاجاته ومنها كتب العلم التي لابد منها لمصلحة دينه ودنياه. وإنما أعطي طالب العلم لأنه يقوم بفرض كفاية، ولأن فائدة علمه ليست مقصورة عليه بل هي لمجموع الأمة. فمن حقه أن يعان من مال الزكاة، لأنها لأحد رجلين: إما أن يحتاج من المسلمين، أو لمن يحتاج إليه المسلمون، وهذا قد جمع بين الأمرين.[4]

وأشار الشيخ الطاهر بن عاشور إلى مقاصد الصدقة والهبة والعارية والحبس، التي تعود بالنفع لأصحاب الاحتياج وذكر منهم طلبة العلم. يقول الشيخ في كتابه مقاصد الشريعة: «كما يعطى لطلبة العلم والفقراء وأهل الخير والعبادة وإقامة الحصون وسد الثغور وتجهيز

(1) رواه الترمذي في الجامع الكبير أبواب العلم. باب ما جاء في الاستيصاء بمن يطلب العلم. رقم الحديث: 2650 تحقيق بشار عواد معروف. دار الغرب الاسلامي. الطبعة: 1. سنة: 1996.. الجزء: 4. الصفحة: 387 – 388.

(2) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة. لابن القيم الجوزية. تحقيق علي حسن عبد الحميد الحلبي دار ابن عفان. الطبعة:1. سنة 1996. الجزء: الصفحة: 287.

(3) رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار لابن عابدين. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض دار عالم الكتب الرياض. طبعة خاصة. سنة: 2003. الجزء:3. الصفحة: 285.

(4) فقه الزكاة ليوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة: 2. سنة: 1973. الجزء: 2. الصفحة: 560 – 561.

الجيوش ومداواة المرضى. فهذه تبتدئ ابتداء شبيها بالقربات، يدفع المرء إليها حُبَّه للخير وسخاء نفسه بالفضل.»[(1)]

المطلب الثالث: شروط العمل الاجتماعي

الفرع الأول: الإخلاص وصدق النية

الإخلاص قيل فيه: إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر، من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من معاني سوى التقرب إلى الله تعالى.[(2)]

في هذا الباب يقول عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة البينة الآية: 5]

يقول القرطبي: «هذا دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره.»[(3)]

ومن منازل الاخلاص ما ذكره ابن القيم الجوزية عن الفضيل بن عياض فقال: هو أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي، ما أخلصه وما أصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصا، ولم يكن صوابا، لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا: لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة. فالإخلاص القصد والعمل لله. والإحسان فيه متابعة رسوله وسنته.[(4)]

---

(1) مقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور. ج/3. ص: 506.

(2) الرسالة القشيرية للإمام القشيري. تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف. وطابع مؤسسة دار الشعب القاهرة. (بدون رقم طبعة) سنة: 1989. الصفحة: 390.

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي. ج/22. ص: 412.

(4) مدراج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية. تحقيق المعتصم بالله البغدادي. دار الكتب العربي بيروت. الطبعة:7. سنة:2003. الجزء: 2. الصفحة: 88 – 89.

عن العلاء بن عبد الرحمان بن يعقوب عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ. قال الله تبارك وتعالى:»» أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه.»»[1]

والعمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابا أو يقتضي عقابا أم لا يقتضي شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه أما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب، وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له.[2]

وقد تنوعت وتعددت عبارات الإخلاص فقيل عنه هو إفراد الحق سبحانه بالقصد والطاعة وقيل تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. والصدق التنقي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا صدق إلا بالإخلاص وقيل الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.[3]

والنية الصالحة هي أول العمل الصالح، وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء إنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله له من النيات، فربّما اتفق في العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل، فيكون له بنية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشرة أمثالها، لأنها أعمال تجتمع في العمل. وصورة النية معنيان، أحدهما: صحة القلب إلى العمل بحسن التيقظ فيه، والإخلاص به لوجه الله تعالى، ابتغاء ما عنده من الأجر. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمال أداء ما افترضه الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله عز وجل.»[4]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه. كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله. رقم الحديث: 2985. ج/ 4.ص: 2289.

(2) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. دار ابن حزم بيروت. الطبعة: 1. سنة: 2005. الصفحة: 1754.

(3) مدارج السالكين لابن القيم. ج/2. ص:91.

(4) قوت القلوب في معاملة المحبوب. لأبي طالب المكي بن عطية. تحقيق محمد إبراهيم الرضواني. مكتبة دار التراث القاهرة. الطبعة: 1. سنة: 2001. الجزء:3 الصفحة: 1342 – 1343.

والصدق في النية والقصد يستلزم إخلاص النية لله عز وجل في الدعوة وكل طاعة وقربة، فلا يدعو لطلب جاه ولا محمدة ولا وجاهة، ومتى دخل شيء من هذه الشوائب النية خرج الإخلاص المشروط لقبول العمل، ومتى حصل الصدق في القصد وتحقق الإخلاص أثمر ذلك عزيمة صادقة وإرادة ماضية، فلا يتوانى الداعي الصادق عن المضي في إيصال الحق والخير للناس يبتغي يذلك وجه الله والدار الآخرة، يتعلم ويعلم، ويتوخى الحق والصدق أينهما كان.[1]

الفرع الثاني: حسن الخلق

حسن الخلق معناه سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال، وقد يكون ذلك في ذات الله تعالى وقد يكون فيما بين الناس وهو في ذات الله – عز وجل – أن يكون العبد منشرح الصدر بأوامر الله ونواهيه، يفعل ما فرض عليه طيب النفس به سلسا نحوه، وينتهي عَمَّا حرم عليه واسعا به صدره غير متضجر منه، ويرغب في نوافل الخير، ويترك كثيرا من المباح لوجه الله تعالى إذا رأى أن تركه أقرب إلى العبودية من فعله مُستَبشِراً لذلك من غير ضجر منه، ولا متعسر به، وهو في المعاملات بين الناس أن يكون سمحا بحقوقه لا يطالب غيره بها، ويوفي ما يجب لغيره عليه منها.[2]

يقول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخيرهم خيركم لنسائهم.»[3]

فمن أجمل وأروع وأعظم روابط الإيمان وأعلى درجاته وأقربها لله حسن الخلق.

فدعوى الإسلام كانت ولا تزال تدعو إلى رفعة الأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة مقصدها ابتغاء مرضاة الله عز وجل ومناطها تحقيق المحبة، بحسن الخلق الذي يتجلى في كل أعمال الخير والبر والإحسان.

(1) الخلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة. لسعيد بن علي بن وهب القحطاني. مؤسسة الجريسي للتوزيع. الرياض (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).
الصفحة: 42.

(2) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي. تحقيق مختار أحمد الندوي. مكتبة الرشد. الطبعة: 1. سنة: 2003. الجزء:10. الصفحة: 350.

(3) رواه الترمذي في الجامع الكبير. كتاب الرضاع، باب حق المرأة على زوجها. رقم الحديث: 1162. ج/2. ص:454.

ومن مميزات حسن الخلق الكرم والسخاء والبذل والجود لأفراد المجتمع، ومع سائر الخلق بصفة عامة، والمتمثل في قضاء حوائجهم ومساعدتهم واسعادهم.

الفرع الثالث: توفير الموارد المالية

إن الإسلام دعا أفراد المجتمع إلى التعاون والتكافل، بل وجعلها حقوقا على البعض من ذوي المال والغنى، فأخرج منهم حق المسكين والفقير والمعوز، فالأصل في المجتمع أن يحض المسلم بعضه بعضا على فعل الخير والبر والإحسان، وإخراج ما ألزم به الاسلام من حقوق والمتمثلة في الزكاة والصدقات والوقف والكفارات والنذور والهبات، وتبرعات الدولة إلى غير ذلك... يقول النبي ﷺ في هذا الباب: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد. إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.»[1]

فالموارد المالية تعد الركيزة الأساسية للنهوض بالعمل الاجتماعي في شتى ميادينه، وعلى هذا الوجه تولى الإسلام مصادر تمويل العمل الاجتماعي وحث عليها، ومنها ما يلي:

أولا: الزكاة

الزكاة تأتي في المقام الثالث من أركان الإسلام، أوجبها الشارع اقتضاء على ذوي المال من الأغنياء لترد على الفقراء والمساكين. فما معنى الزكاة في اللغة والاصطلاح؟

1 -لغة:

الزكاة لغة: من زكا وزَكِيَ، وزكاءً. أي نما وزاد، وزكا فلان إذا صلح. فالزكاة: البركة والنماء والطهارة والصلاح وصفوة الشيء.[2]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه. كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم. رقم الحديث: 2586. ج/4. ص: 1999-2000.

(2) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية [مادة زكا]. مكتبة الشروق الدولية. مصر. الطبعة: 4. سنة: 2004. الصفحة: 396.

وفي لسان العرب الزكاة: ما أخرجته من مَالِكَ لتطهيره به، وقد زكى المال. وقيل لما يخرج من المال للمساكين من حقوقهم زكاة لأنه تطهير للمال وتثمير وإصلاح ونماء. وقال: وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح وكله قد استعمل في القرآن والحديث.[1]

2 -اصطلاحا:

الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء. وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات فإنها مأخوذة من الزكا وهو النماء والطهارة والبركة.[2]

وقال شيخ الإسلام: «نفس المتصدق تزكو، وماله يزكو، يطهر ويزيد في المعنى. وقد أفهم الشرع أنها شرعت للمواساة، ولا تكون المواساة إلا فيما له مال من الأموال، فحد له أنصبه، ووضعها في الأموال النامية.»[3]

الصدقة زكاة، والزكاة صدقة، يفترق الاسم ويتفق المسمى، ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها.[4]

فالزكاة أمرها عظيم وفائدتها كبيرة نفعها جلي ساطع بين أفراد المجتمع، فيها يواسي الغني الفقير والمسكين، وبها يقضي الدين، وبها تبنى المساجد والدور، وتقضى المصالح، ويراعى بها اليتيم والمعوز.

وبذلك تعد الزكاة أول تشريع منظم في سبيل ضمان اجتماعي، لا يعتمد على الصدقات الفردية التطوعية، بل يقوم على المساعدات حكومية دورية منتظمة، مساعدات غايتها

(1) لسان العرب لابن منظور [مادة زكا] ج/14. ص:358.

(2) فقه السنة لسيد سابق. دار الفتح للإعلام العربي. القاهرة. الجزء: 1. الصفحة: 235.

(3) مجموعة فتاوي ابن تيمية. تحقيق: عامر الجزار وأنور الباز. دار الوفاء. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 25. الصفحة: 8.

(4) الأحكام السلطانية والولايات الدينية. للماوردي. تحقيق أحمد مبارك البغدادي. مكتبة دار ابن قتيبة. الكويت. الطبعة:1. سنة: 1989. الصفحة: 145.

تحقيق الكفاية لكل محتاج: الكفاية في المطعم والملبس، والمسكن، وسائر حاجات الحياة، لنفس الشخص ولمن يعوله في غير إسراف ولا تقتير.[1]

ولعل خير مثال على تميز عصر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بالرخاء وسد حاجات المجتمع أن بيت المال لم يجد من يستحق ويأخذ من مال الزكاة لتدفع له، فلم تعد هناك فوارق اجتماعية بعد القضاء على الفقر وتزويج الشباب وقضاء الديون على المدين حتى صارت الحبوب والثمار توزع على رؤوس الجبال ليأكل الطير والوحوش.

فهذا نموذج جَلَّ به التاريخ من فضل الزكاة، فالمال هو مال الله والعباد مستخلفين فيه، فالزكاة تؤدي دور مهم في الجانب الاجتماعي والمتمثل في علاج وحل مشاكل الفقر وغيره من مشاكل المجتمع، كما تساهم في بناء المساجد والمستشفيات وبناء المركبات الاجتماعية وغيرها.

ثانيا: الصدقات التطوعية

إن للنفس البشرية ميلا فطريا لحب الخير والمعروف لا يحده زمان ولا مكان ولا جنس ولا دين منذ بداية الإنسانية إلى يومنا هذا.

فالإسلام بما يشتمل عليه من حقائق ومضامين وتشريعات في مجال العقائد والعبادات والمعاملات فإن أحكامه مبنية على الإلزام والالتزام، فهناك أعمال مفروضة يجب الإتيان بها لتحقيق معنى العبودية، وهناك أعمال تطوعية مساندة ومكملة للأعمال الواجبة شرعت وترك أمر تحديد وقتها ومقدارها ونوعها وجهتها لضمير المسلم وما يتمتع به من وعي وإدراك وأخلاق وأريحية، تحركه لنوازع الخير، وتدفعه عوامل الشفقة على نفسه والآخرين ويحفزه شعوره بالانتماء إلى هذا المجتمع.[2]

(1) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام. ليوسف القرضاوي. مؤسسة الرسالة. بيروت. طبعة جديدة. سنة: 1985. الصفحة: 105.

(2) تنمية الموارد البشرية والمالية في المنظمات الخيرية لسليمان بن علي العلي. تقديم يوسف القرضاوي. مؤسسة أمانة تركيا. الطبعة:1. سنة:1996. الصفحة: 29-30.

وقد جاءت الآيات الكريمة في القرآن تحض على الصدقة والبر والإحسان، ولم تقتصر فقط على الزكاة يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [سورة البقرة الآية: 176]

وقد جاء دور الصدقات وأعمال البر التطوعي بشمولها وكثرتها وتعددها لتسد الحاجة، وتكفي المؤونة، وتحمي المجتمع من الانحرافات والجرائم. وقد فتح الله عز وجل أبوابا كثيرة لعمل البر والخير لما لها من أثر إيجابي فَعَّال على الفرد والمجتمع.

ومن أثر الصدقة التطوعية على المجتمع، إنشاء المشاريع الخيرية التي ترفع من مستوى الفقراء والمحتاجين، حل مشكلة الفقر وما يترتب عليه من آثار سلبية على المجتمع.[1]

وبذلك فالإسلام يربي المسلم على البذل وإن لم يطلب منه، والانفاق وإن لم يجب عليه، ويهون عليه المال والدنيا، ويحذره من الشح والبخل، ويحبب إليه الصدقة والإنفاق في السراء والضراء، بالليل والنهار، سراً وعلانية، ويعده بالخلف والفضل في الدنيا، والمثوبة عند الله في الآخرة.[2]

ثالثا: الوقف

1 -الوقف لغة:

للفظ الوقف تعريفات كثيرة ومتعددة، وكلها تصب في معنى واحد. جاء في لسان العرب وقف بالمكان وقفا ووقوفا، فهو واقف، خلاف الجلوس، والجمع وُقف ووقوف، ويقال وقفت الدابة تقف وقوفا، ووقفتها أنا وقفاً. ووقّف الدابة جعلها تقف. والوقف مصدر قولك وقفت الدابة ووقفت الكلمة وقفا، وهذا مجاوز، فإذا كان لازماً قلت وقفت وقوفا، وإذا وقّفت

(1) تنمية الموارد البشرية والمالية في المنظمات الخيرية ص:33-35.

(2) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي. ليوسف القرضاوي. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة: 1. سنة: 1995. الصفحة: 393.

الرجل على الكلمة قلت: وقفته توقيفا. ووقف الأرض على المساكين وفي الصحاح للمساكين، وقفاً حبسها.[1]

2 - الوقف اصطلاحاً:

أ- تعريف الحنفية للوقف:

عرفه الإمام السرخسي بقوله: «وفي الشريعة عبارة عن حبس المملوك عن التمليك من الغير.» [2]

عرفه ابن عابدين بقوله: «حبس العين على حكم ملك الواقف والتصدق بالمنفعة ولو في الجملة.»[3]

عرفه ابن همام بقوله: « ومحاسن الوقف ظاهرة وهي الانتفاع الدّار الباقي على طبقات المحبوبين من الذرية والمحتاجين من الأحياء والموتى لما فيه من إدامة العمل الصالح.»[4]

ب- تعريف المالكية للوقف:

عَرف الخرشي الوقف بأنه إعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازماً بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديراً.[5]

عرفه ابن الحاجب فقال: «ولفظ وقفت يفيد التأبيد، وحبست وتصدقت إن اقترن به ما يدل من قيد أو جهة لا تَنْقَطِعُ تَأَبَّدَ.»[6]

---

(1) لسان العرب لابن منظور [مادة وقف] ج/9. ص:359.

(2) المبسوط للسرخسي. دار المعرفة. بيروت. (بدون رقم طبعة) سنة: 1989. الجزء: 12. الصفحة: 27.

(3) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين. ج/6. ص:519.

(4) شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي. تحقيق عبد الرازق غالب المهدي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة: 1. سنة: 2003. الجزء: 6. الصفحة: 186.

(5) الخرشي على مختصر سيدي خليل لمحمد الخرشي أبو عبد الله. المطبعة الأميرية الكبرى. المغرب (بدون رقم طبعة) سنة 1317 هـ. الجزء: 7. الصفحة:78.

(6) جامع الأمهات أو مختصر ابن الحاجب الفرعي. لابن الحاجب المالكي. تحقيق: أبو الفضل بدر العمراني. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة:1. سنة: 2004. الصفحة: 288.

وعرفهُ الشيخ خليل في باب الوقف بقوله: «صح وقف مملوك، وإن بأجْرَة، ولو حيواناً، ورقيقاَ. يقارنه التملك بحبست ووقفت، وتصدقت، إن قارنه قيد، أو جهة لا تنقطع، أو مجهول وإن حصر.»[1]

ج- تعريف الشافعية للوقف:

عرفه الإمام النووي بقوله: «الوقف أن يحبس عينا من أعيان ماله فيقطع تصرفه عنها، ويجعل منافعها كوجه من وجوه الخير تقربا إلى الله تعالى.»[2]

وعرفه ابن حجر الهيتمي بقوله: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح.»[3]

وعرفه ابن الخطيب الشربيني بقوله: «الأظهر أن الملك في رقبة الموقوف ينتقل إلى الله تعالى، أي ينفك عن اختصاص الآدمي فلا يكون للواقف ولا للموقوف عليه، ومنافِعُهُ ملكٌ للموقوف عليه يستوفيها بنفسه وبغيره بإعارة وإجارة.»[4]

د- تعريف الحنابلة للوقف:

عَرف ابن قدامة المقدسي الوقف بأنه تحبيس الأصل، وتسبيل الثمرة.[5]

(1) مختصر العلامة خليل. للشيخ خليل بن اسحاق. تحقيق: أحمد نصر. دار الفكر. الطبعة الأخيرة. سنة: 1981. الصفحة: 251-252.

(2) كتاب المجموع شرح المهذب للنووي بتكملة الشيرازي. تحقيق محمد نجيب المطيعي. مكتبة الارشاد. جدة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ). الجزء: 16. الصفحة: 243.

(3) حواشي تحفة المحتاج بشرح المنهاج. لابن حجر الهيتمي. المكتبة التجارية الكبرى. مطبعة محمد مصطفى. مصر. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء: 6. الصفحة: 235.

(4) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج. لابن الخطيب الشربيني. تحقيق محمد خليل عيتاني. دار المعرفة. بيروت. الطبعة: 1. سنة: 1997. الجزء:2. الصفحة: 502.

(5) المغني لابن قدامة المقدسي. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وعبد الله التركي. دار عالم الكتب. الرياض. الطبعة 3. سنة: 1997. الجزء: 8.
الصفحة: 184.

عرفه بهاء الدين بن إبراهيم المقدسي بقوله: «هو تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة، ويجوز في كل عين يجوز بيعها وينتفع بها دائما مع بقاء عينها.»[1]

عرف الزركشي الوقف وقال: «إنه تحبيس الأصل، وتسبيل المنفعة.»[2]

فمن جملة هذه التعاريف المختلفة من المذاهب الأربعة، يتضح أن مفهوم الوقف ارتبط بالخير والمنفعة للمجتمع، فهناك الكثير من أعمال البر والصدقات والتبرعات التي يقوم بها الناس قصد تحقيق مناط التعاون والمساهمة في خلق حياة أفضل للمجتمع المعوز.

ويمكن اعتبار الوقف أحد عناصر التنمية الاجتماعية، فهو يقوم على عمليات تغيير اجتماعي تركز على البناء الاجتماعي ووظائفه بغرض إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد وتقديم الخدمات المناسبة لهم في جوانب التعليم والصحة والاسكان والتدريب المهني وتنمية المجتمعات المحلية.[3]

3 - مشروعية الوقف:

من الأدلة الناصعة على مشروعية الوقف وتأكيده في الشريعة الاسلامية، ما دلت عليه الآيات الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. [سورة الحج. الآية: 75]

وقوله عزوجل: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن تُكْفَرُوهُۗ﴾. [سورة آل عمران. الآية: 115]

ومن أدلة مشروعية الوقف في السنة النبوية، قوله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:» إن شئت حبست أصلها، وتصدقت.»[4]

(1) العدة شرح العمدة لبهاء الدين عبد الرحمان بن إبراهيم المقدسي. تحقيق أحمد بن علي. دار الحديث. القاهرة. (بدون رقم طبعة) سنة: 2003. الصفحة: 311.

(2) شرح الزركشي على مختصر الخرقي للزركشي. تحقيق عبد الله بن عبد الرحمان الجبرين. مكتبة العبيكان. الرياض. الطبعة:1. سنة: 1993.

(3) الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر. لسليم هاني منصور. مؤسسة الرسالة ناشرون. بيروت. الطبعة:1. سنة: 2004. الصفحة:41-42.

(4) رواه البخاري في صحيحه. كتاب الشروط. باب الشروط في الوقف. رقم الحديث: 2532. ج/2. ص:21.

4 - الوقف مؤسسة اجتماعية:

ارتبط مفهوم الوقف بالخير والمنفعة للمجتمع، فهناك الكثير من الصدقات أو التبرعات التي يقوم بها الأفراد رعاية لشؤون الناس ومساعدتهم في مختلف مجالات الحياة.[1]

فهدف الوقف هو التقرب إلى الله عز وجل من خلال المشاركة في مجالات البر والخير والاحسان، ومن خلال إقامة أماكن العبادة والعلم والمبرات. وإن الوقف ليس مجرد قول يقال وإنما هو تطبيق عملي على أرض الواقع، فهو يمثل وجها مشرفا للتكافل الاجتماعي والتوجه الإنساني، وأنه يسهم في معالجة الفارق الطبقي في المجتمع.[2]

ومما لا ريب فيه أن الوقف كان له دوره المتميز في تغطية جانب كبير من جوانب المتطلبات الاجتماعية، وفي سد الثغرات الاقتصادية لفئات عديدة من أفراد المجتمع. فالوقف على المحرومين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يغل في نفوسهم الحقد والحسد، ويبعث في قلوبهم المودة ويدفع سواعدهم إلى المشاركة في بناء المجتمع المسلم الذي لم يضن عليهم بالرعاية بلا طلب أو استجداء، وإنما يقدم لهم عوائد الأموال الموقوفة عليهم لتحقيق الحياة الكريمة لهم.

ومن هنا تبرز أهمية الوقف الخيري الذي يداوي، ويواسي، ويعاون، ويدافع عن قيم المجتمع، ويحمي بنيانه الاجتماعي من جميع الغوائل، من خلال الاهتمام بحاجات الفرد والأسرة، لأنهما اللبنة الأولى في بناء المجتمع.[3]

ويعد الوقف من أعمال البر التي يخلد بها الذكر الحسن وتنال بها الدرجات الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى بناء المساجد للصلاة، والخانات لنزول أبناء السبيل والمدارس للتعليم، وسكنى الطلبة والسقايات لشرب الناس، والأحواض لشرب الدواب، والمستشفيات لمعالجة

(1) الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر لسليم هاني منصور. ص: 42.

(2) الوقف الإسلامي بين النظرية والتطبيق لعكرمة سعيد صبري. ص: 431.

(3) الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع لمحمد أحمد بن صالح. مكتبة الملك فهد الوطنية. الرياض. الطبعة:1. سنة: 2001. الصفحة: 193.

المرضى وذوي العاهات. ومن أعمال البر أيضا الوقف على هذه الوجوه لعمارتها ومرمتها ومصالحها اللازمة لها حتى تبقى صالحة لأداء الغرض المقصود منها.[1]

فعلى هدى النصوص والتوجيهات، انطلق أهل الفضل والاحسان يسدون الثغرات المعيشية في مجتمعهم عامة، ويلبون احتياجات إخوانهم من ذوي الفاقة والضرر خاصة، لا أقول إن ذلك كان دائما محققا للكفاية والتمام، ولكن المحبسين قد أبلوا في ذلك البلاء الحسن، وتفننوا فيه وأبدعوا.[2]

من هنا جاءت قوة التأثيرات الإيجابية المثمرة للأوقاف الإسلامية في المجتمعات الإسلامية، ودورها الرائد في إثراء الحضارة الإسلامية على مر العصور، وإسهاماتها الفاعلة في تنمية المجتمعات الاسلامية وبناء مؤسسات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتنموية وغيرها، وتفعيل دورها في المجتمع وفي إثراء مجالات البحث العلمي والتعليم والتأليف وإنشاء المكتبات الوقفية ورعاية الجوانب الصحية من وقاية وعلاج وأبحاث طبية وإقامة المستشفيات والمصحات والمدارس الطبية ومحاربة الفقر من خلال تأهيل القادرين على العمل وسد حاجة غير القادرين.[3]

(1) كتاب الوقف لعبد الجليل عبد الرحمان عشوب. دار الآفاق العربية. القاهرة. الطبعة:1. سنة: 2000. الصفحة: 132.

(2) الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده لأحمد الريسوني. دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة. الطبعة: 1. سنة:2014. الصفحة: 38.

(3) دور الوقف في التنمية لمجتمع الفقه الإسلامي (الهند). دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة: 1. سنة: 2007. الصفحة: 29-30.




الباب الأول:

المغرب الأقصى ودولة بني مرين

الفصل الأول: الموقع الجغرافي وسكان بلاد المغرب

الفصل الثاني: بداية دولة بني مرين

الفصل الثالث: النظام الاقتصادي والاجتماعي والفكري في دولة بني مرين




الفصل الأول:

الموقع الجغرافي وسكان بلاد المغرب

المبحث الأول: الموقع الجغرافي لبلاد المغرب

المغرب: بالفتح، ضد المشرق: وهي بلاد واسعة كثيرة ووَعْثاء شاسعة، قال بعضهم: حدّها من مدينة مليانة وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال سوس التي وراءها البحر المحيط وتدخل فيه جزيرة الأندلس وإن كانت إلى الشمال أقرب ماهي، وطولها في البر مسيرة شهرين.[1] وذكر صاحب كتاب مسالك الممالك فقال: «أما المغرب فهو نصفان يمتدان على بحر الروم[2]، نصف من الشرقية ونصف من غربية فأما الشرقية فهو برقة[3]وافريقية[4]

(1) معجم البلدان لشهاب الدين البغدادي تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. دار الكتب العلمية. بيروت. الجزء:5. الصفحة: 188.

(2) **بحر الروم**: ويقال له أيضا البحر الشامي وهو البحر المتوسط وهو يتصل إلى بلاد الشام وينعطف إلى ناحية القسطنطينية وبينه وبين بحر الزقاق الخليج الذي منه.

-البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذاري. تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد. دار الغرب الاسلامي. تونس. الطبعة: 1. سنة:2013. الجزء: 1. الصفحة:27.

(3) **برقة**: يفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية. وأرض برقة أرض خلوقية بحيث ثياب أهلها أبدا محمرة لذلك، ويحيط بها البرابر من كل جانب.

-معجم البلدان. ج/1. ص: 462.

(4) **إفريقية**: بكسر الهمزة. وهو اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة عنها إلى جهة المغرب. وسميت إفريقية نسبة إلى إفريقيس بن أبرهة بن الرائش.

-معجم البلدان. ج/1. ص: 270.

وتاهرت[1] وطنجة[2] وسوس[3] وزويلة[4] وما في أضعاف هذه الأقاليم، وأما الغربي فهو الأندلس.[5] ومن جهة الجنوب فيحد بلاد المغرب الصحراء التي تمتد من سجلماسة [6] ومنها إلى بلاد السودان ثم إلى غانا.»[7] يقول المؤرخ الناصري: «وحد هذا الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا [8]، ومن جهة الشمال البحر الرومي ومن جهة الجنوب جبل درن[9].» [10]

---

(1) **تاهرت**: بفتح الهاء، وسكون الراء: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. -معجم البلدان. ج/2. ص: 8.

(2) **طنجة**: بلد على ساحل بحر المغرب مقابلة الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر. قال ابن حوقل: طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سور وهي على ظهر جبل وهي آخر حدود إفريقية.

-معجم البلدان. ج/4. ص:49.

(3)**سوس**: يقال لها سوس الأقصى وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة، يشقها نهر عظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماسة، وجريه من القبلة إلى الجوف وعليه القرى المتصلة والعمارة الكثيرة، وقاعدة هذه المنطقة مدينة ايكلي، ومن مدن الأخرى سوس وتامدلت ونول ولمطة وغيرها.

-الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري. تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان بيروت. الطبعة: 2. سنة:1984. الصفحة: 330.

(4).**زَويلة** بفتح أوله وكسر ثانيه. مدينة قديمة في الصحراء بالقرب من بلاد غانم من السودان وأظنها التي يقال لها زويلة ابن الخطاب، وبينها وبين سويقة ابن مثكود ست عشرة مرحلة. - الروض المعطار. ص: 29

(5) **الأندلس**: هي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام. وهي جزيرة كبيرة فيها عامر من غناي ثم نكور ثم إلى سبتة ثم إلى أزيلي ثم إلى البحر المحيط وتتصل الأندلس من جهة البر الأصغر من جهة جليقية وهي جهة الشمال ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها من حد الجلالقة إلى كورة شنترين ثم إلى أشبونة ثم إلى جبل الغور إلى جزيرة جبل طارق المحادي لسبتة. - معجم البلدان. ج/1. ص: 311.

(6)**سجلماسة**: مدينة وسطة من حد تاهرت إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال، وهي قريبة من معدن الذهب.

-مسالك الممالك للأصطخري المعروف بالكرفي مطبعة بريل مدينة ليدن سنة:1870 الصفحة: 39.

(7) مسالك المماليك ص:36-37.

(8) **تازا**: من بلاد المغرب، أول بلاد تازا حد ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب في الطول، وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلية وغيرها، وقد بني في هذا العهد القريب مدينة الرباط أعني في جبال تازا وتسمى مكناسة تازا.

-الروض المعطار. ص: 128.

(9) **جبل درن**: جبل بالمغرب مشهور يعرف بسقنفور وهو جبل عظيم معترض في الصحراء.

-الروض المعطار. ص: 234.

(10)الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. لأبي العباس الناصري. تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري. دار الكتاب. الدار البيضاء. سنة: 1997. الجزء:1. الصفحة: 127.

فالمغرب عبارة جزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق إلى الغرب (حوالي 4000 كلم2) يحيط بها البحر المتوسط شمالا، والمحيط الأطلسي غربا، كذلك تحدها من الشمال سلسلة جبال الريف التي تمتد من المحيط غرباً إلى قرب تلمسان[1] شرقاً. أما في الجنوب فهناك سلسلة جبال الأطلس التي تمتد من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى. ويليها جنوبا الصحراء الكبرى التي تفصل المغرب عن السودان. وكانت هذه الصحراء تعرف باسم العِرْقِ [2] وفي الجزء الغربي من هذه الصحراء أي في المنطقة المتاخمة للمحيط الأطلسي جنوب المملكة المغربية، توجد صحراء شنجيط أو شنقيط ومعناها بالبربرية عيون الخيل، وهي بلاد موريتانيا الحالية التي مازالت عاصمتها الروحية تسمى باسمها القديم شنجيط، أما عاصمتها السياسية الحالية فهي مدينة نواكشوط على ساحل المحيط الأطلسي.[3]

المطلب الأول: التقسيمات الجغرافية لمدن المغرب الأقصى

ذكر بعض المؤرخين والجغرافيين أن المغرب الأقصى ينقسم إلى سبعة أقاليم وهي: إقليم تامسنا، ومنطقة فاس وأزغار، والهبط، والريف، وكرط، والحوز.

(1) **تلمسان**: قاعدة المغرب الأوسط، وحد المغرب الأوسط من واد يسمى مجمع وهو في نصف الطريق من مدنية مليانة إلى أول بلاد تازا من بلاد المغرب. ومدينة تلمسان مدينة عظيمة قديمة فيها آثار للأول كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة. وكانت تلمسان دار مملكة زناتة، ولها سور متقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحة ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى الصخرتين. -الروض المعطار. ص: 135.

(2) **العِرْق**: هو الأرض السبخة التي تنبت الطرفاء. -لسان العرب [مادة عرق]. ج/10. ص:249.

(3) في التاريخ العباسي والأندلسي لأحمد مختار العبادي. دار النهضة العربية. بيروت (بدون رقم طبعة) سنة: 1971. الصفحة: 222.

1 - إقليم تامسنا: يبتدئ غربا عند أم الربيع[1]وينتهي إلى أبي رقراق[2] شرقا، والأطلس جنوبا وشواطئ البحر المحيط شمالا. طول هذا الإقليم من الغرب إلى الشرق ثمانون ميلا، ومن الأطلس إلى المحيط نحو ستين ميلا.[3]

وإذا جزت سلا، وأخذت إلى ناحية الجنوب، تركت مغرب الشمس يَمْنَةً، وأخذت منها قافلة إلى القبلة، فتسمى تلك البلاد بلاد تامسنا. ويقال لها أيضا: بلاد السوس الأدنى، وحدها إلى جبل درن.[4]

2 - إقليم فاس: يبدأ إقليم فاس من غرب نهر أبي رقراق، ويمتد شرقا إلى نهر إيناون.[5]

3 - وينتهي بينهما شمالا عند نهر سبو[6]، وجنوبا عند سفح الأطلس. هذا الإقليم عجيب حقا بوفرة حبوبه وثماره ومواشيه.[7]

(1) **نهر أم الربيع**: نهر عظيم ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وانسيفن يصب في البحر الأعظم أيضا، ويقع بين سلا ومراكش وعلى ثلاث مراحل من مراكش.
-المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي. تحقيق صلاح الدين الصنهاجي. المكتبة العصرية. صيدا لبنان. الطبعة: 1. سنة: 2006. الصفحة: 262.

(2) **نهر أبي رقراق**: ينبع هذا النهر من أحد الجبال المتفرعة عن الأطلس، ويمر عبر شعاب وغابات كثيرة. ثم يخرج بين تلال في سهل ليذهب إلى المحيط.
ويصب هذا النهر في مدينتي الرباط وسلا.
-وصف إفريقيا للحسن الوزاني الفاسي. ترجمهُ عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر. دار الغرب الاسلامي بيروت. الطبعة: 2. سنة: 1983. الجزء: 2. الصفحة: 247.

(3) المصدر نفسه ج/ 1 ص: 194.

(4) البيان المغرب لابن عذارى. ج/1. ص:26.

(5) **نهر إيناون**: نهر يأتي من جهة الجنوب وعليه قرى وعمارات ويمر الطريق منه إلى تمالتة ويبعد على باب زناتة نحو عشرة أميال. وهو واد عليه حرث يسقي به وتطل عليه قلعة كرمطة.
-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي. مكتبة الثقافة الدينية القاهرة. سنة: 2002. الجزء:1. الصفحة:247.

(6) **وادي سبو**: على نحو ثلاثة أيام من فاس وفيه يصب واد فاس وهو نهر عظيم من أعظم أنهار المغرب. منبعه من جبل في بلاد بني واريتن. ويحيط بمدينة فاس من شرقها وغربها.
-الروض المعطار للحِمْيَري. ص: 606. – أنظر أيضا: المعجب للمراكشي. ص: 262.

(7) وصف إفريقيا للحسن الوزان. ج/1. ص:207.

4 - إقليم أزغار: تنتهي ناحية أزغار عند المحيط شمالا، ونهر أبي رقراق غرباً، وبعض جبال غمارة شرقا، وبعضها عند زرهون وسفح جبل زلاغ[1] وتنتهي جنوبا بجوار نهر بو نصر[2].

هذا الإقليم عبارة عن سهل أرضه جيدة، ولذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور، ويمتد سهل أزغار على طول ثمانين ميلا وعرض ستين ميلا تقريبا، ويخترقه نهر سبو في وسطه. والبلد جميل وصحي، وتوجد فيه دوماً كمية كثيرة من الغزلان والأرانب.[3]

5 - إقليم الهبط: تبتدئ هذه الناحية جنوبا عند نهر ورغة[4] لتنتهي شمالا على المحيط، وتتاخم غربا مستنقعات أزغار، وشرقا الجبال المشرفة على أعمدة هرقل. ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلا، وطولها نحو مائة ميل.

هذه الناحية عجيبة حقا بسبب خصوبتها ووفرة انتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة.[5]

6 - إقليم الريف، الريف أحد أقاليم مملكة فاس، يبتدئ من تخوم مضيق أعمدة هرقل، ويمتد شرقا إلى نهر النكور،[6] أي على مسافة مائة وأربعين ميلا، وينتهي شمالا عند البحر المتوسط في القسم الأول منه، ليمتد من هناك جنوبا على نحو أربعين ميلا حتى الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس.

ولهذا الإقليم أرض وعرة مليئة بجبال شديدة البرودة ومغطاة بغابات كثيرة فيها أشجار باسقة مستقيمة تماماً.[7]

---

(1) **جبل زلاغ**: جبل يبتدئ من سبو شرقا وينتهي غربا على بعد نحو أربعة عشر ميلا منه. وتقع أعلى نقطة فيه، في جهة الشمال على مسافة سبعة أميال من فاس، ومنحدره الجنوبي خال من السكان. - وصف إفريقيا. ج/1. ص:293.

(2) **نهر بو نصر** هو واد مكس الحالي.

(3) وصف إفريقيا. ج/1. ص: 301.

(4) **نهر ورغة**: وهو نهر مشهور من أنهار أرض المغرب ينبع من جبل كوين.

-المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري. دار الكتاب الاسلامي. القاهرة. الصفحة: 90.

(5) وصف إفريقيا. ج/1. ص: 306.

(6)**النكور**: مدينة بالمغرب بقرب مدينة مليلية وهي مدينة كبيرة بينها وبين البحر عشرة أميال وقيل خمسة، وهي كثيرة البساتين والفواكه. والذي أسسها وبناها سعيد بن ادريس ابن صالح بن منصور الحميري.

-الروض المعطار. ص: 576. – (أنظر أيضا) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. ص:91.

(7) وصف إفريقيا. ج/1. ص: 324.

7 - إقليم كرط: يبتدئ كرط غربا عند نهر ملولو[1] وينتهي شرقا لدى نهر ملوية،[2] وجنوبا في جبال واقعة على تخوم بعض صحراء نوميديا، بينما يحاذي البحر المتوسط شمالا من نهر نكور إلى ملوية ويمتد في الجنوب من نهر ملولو إلى جوار جبال الحوز، حيث ينحدر حدّه نحو البحر بمحاذاة وادي نكور.

يبلغ طول هذا الإقليم نحو خمسين ميلا، وعرضه نحو أربعين ميلاً. وهو شديد الوعورة شديد الجفاف، شبه صحراء نوميديا ويقل فيه السكان، لا سيما منذ أن استولى الإسبان على أهم مدنه.[3]

8 - إقليم الحوز: يعتبر إقليم الحوز ثلث مملكة فاس، ويمتد من نهر زاع شرقا إلى نهاية نهر تيكريكرة[4] غربا، أي على مسافة نحو مائة وتسعين ميلا، كما يمتد عرضا على مائة وأربعين ميلا أو أكثر، لأن جميع عرض جزء الأطلس المقابل لموريطانيا واقع في هذا الإقليم. وفي الزمن الذي احتل فيه عبد الحق، أول ملوك بني مرين، موريطانيا والمناطق المجاورة لها، وزرع هذه الأراضي بين أفخاد قبيلته وبين أبنائه الأربعة.[5]

أما تقسيم الفرنج للمغرب الأقصى، فقد ذكر الناصري أنه يشتمل على خمس عمالات: عمالة فاس وعمالة مراكش وعمالة سوس وعمالة درعة وعمالة تافيلالت.

ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش، وهو في الغالب ديار المصامدة من البربر ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضفرة وأوربة وغيرهم.[6]

---

(1) **نهر مَلُّولُو**: نابع من الأطلس في تخوم مدينتي تازا ودبدو، لكنه إلى دبدو أقرب. ويسيل في سهول تيرست ويصب في ملوية.
-وصف إفريقيا. ج/2. ص:250.

(2) **نهر ملوية**: نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز، يمر في سفح جبل بني يزناسن ويدخل في البحر المتوسط غير بعيد عن مدينة غِسَاسَة.
-وصف إفريقيا ج/2. ص: 250.

(3) وصف إفريقيا ج/1. ص: 340.

(4) **تكريكرة**: جبل مجاور للأطلس، وينطق بها كريكرة، ينبع منه نهر يسيل نحو الغرب ويصب في نهر بهت وجبل كريكرة واقع بين سهلين كبيرين أحدهما من جهة فاس والآخر من جهة الجنوب. – وصف إفريقيا ج/1. ص: 300.

(5) وصف إفريقيا ج/1. ص: 348.

(6) الاستقصا. للناصري. ج/1. ص: 127 -128.

المطلب الثاني: المميزات الطبيعية لأقاليم المغرب الأقصى

إن ارتباط بلاد المغرب جغرافيا وأنطولوجيا يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال الأطلس من المجموعة الألبية في قلب الغرب من أقصاه المغربي إلى أقصله الشرقي في سلسلتين: إحداهما شمالية، وهي جبال الريف الممتدة بحذاء ساحل العدوة، من طنجة إلى مليلية ثم جبال أطلس التل، والثانية جنوبية تمتد في الصحراء الداخلية من جنوب واد سوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان جنوب تونس.

فالسلسلة الأولى وهي جبال أطلس الشمالية تنقسم إلى مجموعتين:

1 - جبال الريف أو جبال أطلس الشمالية الغربية وتتميز هذه الجبال بكونها على شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلية تاركاً سهلا ساحليا ضيقا في هذه المنطقة.

2 - جبال أطلس التل: وهي سلاسل جبلية تمتد من الجنوب إلى الشمال الشرقي استمرارا لجبال الريف الساحلية وتمتاز هذه السلسلة بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية، أما الجزء الشرقي فأقل ارتفاعا وأكثر تقطعا.

والسلسلة الثانية هي جبال الأطلس الجنوبية أو الأطلس الصحراوي، وتبتدئ من المغرب الأقصى حيث تحمل اسم جبال الأطلس الكبرى، وهي أكثر جبال الأطلس ارتفاعا، ولا توجد بها ممرات يسهل المرور منها، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير في عزلة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب.[1]

وتنحصر بين السلسلتين الجبليتين سهول مرتفعة يشتغل فيها السكان برعي الماشية، وأغلب هذه السهول يقع بين جبال أطلس التل والأطلس الصحراوي في المغرب الأوسط. أما السهول فيقع معظمها على الساحل المحيط الأطلسي في الغرب والسواحل الشمالية على

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس لعبد العزيز سالم. مؤسسة شباب الجامعة. الاسكندرية. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة: 13 -15.

المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وهذه السهول تضيق كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق حيث يزداد اقتراب السلاسل الجبلية من الساحل.[1]

ويشمل المغرب الأقصى على مجموعتين من السهول الداخلية: الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى واد ملوية وتشتمل على سهل الحوز الذي يخترقه نهر تنسيفت ثم منخفض تادلا.[2]

كما يضم بلاد المغرب الأقصى في الواقع أقاليم طبيعية مختلفة، فإقليم التل، الذي يشمل سفوح الجبال الشمالية والسهول الساحلية، تربته خصبة جداً، تخترقه نهيرات تصب في البحر الأبيض المتوسط، وتقوم فيه الزراعة ناجحة، فلا عجب إذا وجدنا هذا الإقليم في العصور الوسطى تتألق حضارتها، وتزداد ثروتها، وتعم خيراتها.[3]

(1) الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة. لمحمد عبده حتامله. مطابع الدستور التجارية الأردن. (بدون رقم طبعة) سنة: 2000. الصفحة: 27.

(2) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. ص: 16.

(3) قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى لحسن أحمد محمود. دار الفكر العربي. القاهرة. (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة: 22.

المبحث الثاني: سكان بلاد المغرب

لقد أشار مؤرخو وجغرافيو العرب على أن بلاد المغرب تمتد من إطرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وأن ما يلي إطرابلس إلى الشرق لا يدخل في المغرب. وعلى هذا النحو ينقسم المغرب إلى ثلاثة أقسام:

1 - إفريقية، وسماها العرب المغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام، وتمتد من إطرابلس شرقا حتى بجاية أوتهارت غربا.

2 - المغرب الأوسط، ويمتد من تاهرت حتى واد ملوية وجبال تازة غربا.

3 - المغرب الأقصى، ويمتد من واد ملوية شرقا حتى المحيط الأطلسي.[1]

وكان يسكن بلاد المغرب قبل الفتح العربي ثلاث طوائف من السكان:

أ- الروم: وهم البيزنطيون الذين حاولوا على التوالي أن يسيطروا على أكبر مساحة ممكنة من هذه المنطقة الواسعة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبسطوا نفوذهم إلا على المدن الساحلية، وبعض المراكز الحصينة في الداخل.

وعندما قرر الإمبراطور البيزنطي جستنيان Justinianم527) 565-م) أن يحتل شمال إفريقيا في سنة 533م. فإنه كان يهدف إلى إعادة وحدة الامبراطورية الرومانية. ولكن جيشه فشل في احتلال كل المقاطعات الرومانية.[2]

ب- الأفارق أو الأفارقة فالمراد بهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطية والأجزاء المزروعة الأخرى الداخلة في الرباطات البيزنطية، وهم خليط من المستعمرين اللاتين وبقايا الشعب القرطاجني القديم ومزارعي البيزنطيين وصناعهم ونفر من البربر ممن استقر ودخل في طاعة البيزنطيين، وتتضح التفرقة بينهم وبين البربر من قول جوتييه:» وعلى أي الأحوال يسمى الأهالي الثائرون بأسماء قبائلهم، أو

(1) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس. ص: 18.

(2) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس. لعبد الواحد ذنوت. دار الكتب الوطنية. ليبيا. الطبعة: 1. سنة: 2004. الصفحة: 40-41.

يسمون المايور (les maures) أو البربر جملة، ولكنهم لا يسمون الأفارقة أصلا، إن هذه التسمية قصر على خصومهم حماة النظام وهو أهل قرطاجنة أو رعاياها». وهذا يدل على أن العرب أخذوا هذه التسمية عن المؤلفين اللاتين.[1]

ولهذا فإنه لابد من تأييد الاحتمال القائل بأن الأفارقة هم جماعات خليطة من المسيحيين من بقايا الشعوب السابقة، كالفينيقيين، والرومان، والوندال، والبيزنطيين، وحتى إن بعضهم يمكن أن يكون من الإغريق لأن ابن عذارى يشير إلى وجود ابن يوناني للكاهنة. كما أن المصادر تشير إلى أنهم استوطنوا أيضا في نوميديا بل وحتى في مناطق داخلية كالمنطقة التي تقع فيها مدينة فاس.[2]

ج- البربر هو اسم يشمل قبائل كثيرة في جبال المغرب، أوّلها برقة ثم إلى آخر المغرب والبحر المحيط وفي الجنوب إلى بلاد السودان، وهم أمم وقبائل لا تحصى، ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله، ويقال لمجموع بلادهم بلاد البربر، وقد اختلف في أصل نسبهم، فأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب، وهو بهتان منهم وكذب.[3]

وذكر صاحب الاستقصا أن الناس اختلفوا في تحقيق نسب البربر وإلى أي أصل من أصول الخليقة يرجعون.[4]

لكن المؤرخون والكتاب العرب يقدمون تفسيرات عديدة فيما يتعلق باشتقاق اسم البربر وأصولهم التي انحدروا منها، ولكنهم يتفقون على أن البربر أقوام هاجرت من فلسطين أو من اليمن، وأنهم يرجعون إلى أصول كنعانية أو حميرية وهذا يدل على أن الأصول البربرية تعود إلى تاريخها القديم إلى الأقوام التي هاجرت من جزيرة العرب ولا يمكن للروايات المخالفة لهذه الحقيقة أن تقف أمام الأدلة التاريخية الثابتة، أو أن تقدم أي تفسير بديل عن هذا الأمر.[5]

---

(1) فتح العرب للمغرب. لحسين مؤنس. مكتبة الثقافة الدينية. (بدون رقم الطبعة ولا تاريخ). الصفحة: 5.

(2) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال إفريقيا والأندلس. ص:44.

(3) معجم البلدان. ج/1. ص:438.

(4) الاستقصا. ج/1. ص: 116.

(5) الفتح والاستقرار العربي السلامي. ص:45.

والبربر من سكان البلاد الأصليون. وينقسمون طائفتين متباينتين وهما طائفة البربر الحضر الذين يسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح الشمالية السفوح المزروعة، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوبا وشرقا.

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية، وليست ناشئة عن انتساب كل منهما إلى أب كما يذهب نسابة البربر وفي مقدمتهم ابن خلدون، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة المحيطة بجبال أوراس، أي جنوب ووسط الجزائر الحالية وجنوب مراكش وبعض أجزاء تونس الغربية.[1]

عاش البربر في بلادهم هذه قرونا متطاولة قبل الفتح الإسلامي ولهم تاريخ وحروب مع الإغريق والرومان خاصة، ودارت حروب طويلة بين بعض جماعتهم والرومان، وعندما دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية في تنظيمها وأحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلي، وإن كانت تختلف عنها في المستوى الحضاري. كان البربر عندما لقيهم العرب يعيشون قبائل بدوية على الفطرة وإن كانت متماسكة ولها نظام اجتماعي قويم. ومن أشهر جماعاتهم كتامة في شمال شرقي المغرب الأوسط، وعلى أكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية، ثم صنهاجة المغرب الأوسط الذين سيشاركون في إقامة الدولة الفاطمية، وسيقيمون أولى الدول المغربية الإسلامية المستعربة وهما دولتا بني زيري بن مناد، ثم صنهاجة الصحراء الذين سيقيمون دولة المرابطين، ثم مصمودة أهل المغرب الأقصى وهم شعب مغربي جليل أقام الدولة الموحدية ودولا أخرى عظيمة الشأن.[2]

(1) فتح العرب للمغرب. ص: 6.

(2) معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس. دار الرشاد. القاهرة. الطبعة: 5. سنة 2000. الصفحة:29-30.

الفصل الثاني:
بداية دولة بني مرين

المبحث الأول: نظرات عامة لأوضاع الدولة الموحدية قبيل قيام الدولة المرينية

لما وقعت كارثة العقاب[1]، وفَنِيَ معظم الجيوش الموحدية في شبه الجزيرة الأندلسية، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين، في معظم العمالات والأطراف. ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بني مرين. ولما توفي الخليفة الناصر، وخلفه ولده الصبي يوسف المستنصر، وشغلته نزوات الحداثة والشباب، عن تدبير شؤون الدولة، وغلب التواكل والتراخي، على السادة والأشياخ، في مختلف النواحي.[2]

فالدولة الموحدية دخلت بعد وفاة الخليفة محمد الناصر في العاشر من شعبان سنة 610هـ، في مرحلة جديدة من مراحل حياتها، مرحلة انحلال مضطرد، وصراع داخلي مستمر على انتزاع العرش وتنثُر أسرة بني عبد المومن الشامخة، إلى شيع وأحزاب ضعيفة ومتخاصمة، وينثر شمل القبائل الموحدية، حول تأييد هذا الفريق أو ذاك، وتنهار قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تِباعاً، سواء في المغرب أو الأندلس، في معارك انتحارية مستمرة، وتتخذ هذه المرحلة في الأندلس بالأخص، طابعا مشئوماً، لم يسبق للأندلس أن نكبت به، فتغذو من جديد مسرحاً مضطرما للحرب الأهلية، أولا فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش، وثانيا فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم، وفي خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية،

(1) **العِقاب**: بكسر العين موضع بالأندلس بين جيان وقلعة رباح، كانت في هذا الموضع وقيعة عظيمة وهزيمة على المسلمين شنيعة في منتصف صفر سنة تسع وستمائة للهجرة وتسمى بالعِقاب وفي المصادر الأجنبية لاس نافاس دي تولوزا. وهي معركة وقعت بين الموحدين بزعامة محمد الناصر بن المنصور يعقوب الموحدي والقشتاليين بزعامة الملك ألفونسو الثامن.
-الروض المعطار للحميري. ص: 416.

(2) دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس. القسم الثاني عصر الموحدين. لمحمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي القاهرة. الطبعة: 2. سنة: 1990. الصفحة: 336.

تتحفز إسبانيا النصرانية لانتهاز الفرصة السانحة، وتنظم متعاونة متفاهمة، أخطر برنامج لفتوح «الاسترداد» وتهتز مصاير القواد الأندلسية الكبرى، ومصاير الأمة الأندلسية كلها.[1]

ومن هنا يمكن وضع بعض العوامل التي دبت في ضعف كيان الدولة الموحدية في مطلع القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي ومنها ما يلي:

المطلب الأول: الصراع على العرش

دخلت الدولة الموحدية موجة الصراع العائلي حول تولي العرش والخلافة، وقد تطور الأمر بين بني عبد المومن حتى بلغ درجة الفعل الثوري. فقد اتجهت سياسة عبد المومن نحو الوراثة في السلطة، الذي ساعد على انفجار الوضع لدى القبائل الموحدية وعلى رأسها أخوا المهدي اللذان فرا من فاس إلى مراكش لإحداث انقلاب هناك.[2]

وقبيل وفاة عبد المومن خلع ابنه محمداً عن عهده وَوَلاَّهُ لابنه يوسف بسبب سوء سيرة الأول وشربه للخمر. وفتح هذا الحادث بابين أثارا مشاكل قادت للنزاع الخطير في جهاز الدولة. فما إن توفي عبد المومن سنة 558 هـ وبويع لابنه يوسف حتى توقف أخواه أبو محمد وأبو سعيد ولم يرض أخوه أبو الحسن. ويبدو أن توقف هؤلاء أدى إلى نزاع خشي يوسف أن يتطور إلى صراع دام، فلم يتسم بأمير المؤمنين واكتفى بلقب الأمير، وما تسمى بلقب الخلافة إلا عام 563 هـ/1168 م بعد أن أجمع عليه السادة بنو عبد المومن. ولما خلفه ابنه المنصور عام 580 هـ/ 1174 م كان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلا للإمارة.

ومنذ وفاة المستنصر بن الناصر أخذ الصراع أسلوبا دموياً، فأبناء المنصور وأحفاده يرون أنهم أحق بالأمر من سائر بني عبد المومن وأحفاده، ويريد أبناء الناصر، من بين أبناء المنصور، الاستئثار بالخلافة دون سواهم.

فكان لهذا الصراع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة فاضطر كل واحد منهم أن يستنجد

(1) دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ص: 328-329.

(2) رسائل موحدية. دراسة وتحقيق: أحمد عزاوي. منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية. القنيطرة. الطبعة:1. سنة: 2001. الجزء: 2. الصفحة: 37.

بعناصر من قبائل الموحدين والعرب والمهاجرين والمنتهزين من حكام الولايات المستبدين، وبل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوة في النزاع فرصة سانحة نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها.(1)

فكان فعلهم ذلك سببا لخراب دولتهم، وذهاب سلطتهم، وقتل ملوكهم وأشياخهم وهو أول باب فتحه القوم على أنفسهم للفتنة.(2)

المطلب الثاني: حركات التمرد والنزاعات القبائلية

حفل تاريخ الدولة الموحدية بالفتن والتمردات والثورات فلم يَخْل قطر ولا عصر في هذه الدولة من هذه الفتن التي اعتبرت العامل الأساسي في سقوط الدولة، ويرجع هذا الكم الكبير من التمردات إلى السياسة التي اعتمدها بنو عبد المومن الذين أوغلوا في الظلم وسفك الدماء والاعتداء على حرمات الناس والاستئثار بالحكم وتهميش غيرهم، وقد أدى ذلك إلى اتساع نقاط الثورات وتعدد ضرباتها على الدولة. بالإضافة إلى ذلك يلاحظ المتتبع للأحداث التاريخية لهذه الدولة أن هذه الثورات لازمتها منذ نشأتها الأمر الذي شكل عبئا استنزف طاقتها منذ نشأتها، ومن ذلك ثورة محمد بن عبد الله بن هود الماسي سنة 541 هـ / 1147 م وحركت هذه الدولة قبائل دكالة وبرغواطة التي ثارت بتأييد من الجيوب المرابطية، كما انتفض القاضي عياض في سبتة سنة 543 هـ/ 1148 م.(3)

ففي عهد المأمون بن المنصور ثار بجبال غمارة سنة 625 هـ/ 1227م محمد بن أبي الطواجين الكتامي المتنبي، فرحل إلى سبتة ونزل على أبي سعيد بأحوازها، وادعى صناعة الكيمياء فتبعه الغوغاء، ثم ادعى النبوة وشرع الشرائع وأظهر أنواعا من الشعوذة فكثر تابعوه.(4)

---

(1) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي. لعز الدي عمر أحمد موسى. دار الشروق. بيروت. الطبعة:1. سنة:1983. الصفحات: 81-82-83.

(2) الأنيس المطرب بروض القرطاس. لأبي زرع الفاسي. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط. سنة:1972. الصفحة: 245.

(3) سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات. لصديقي عبد الجبار. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ تحت إشراف الدكتور محمد مكيوي. سنة: 2014. جامعة بلقايد. تلمسان. الصفحة: 107-108.

(4) الاستقصا: ج/2. ص:234.

ومن أهم وأعنف ثورات هذه المرحلة ثورة بني غانية [1]وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة، وأعلنت انتمائها وولائها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها، حاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.[2]

ثم ثورة الأعراب المتتالية حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحيانا تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوي ضد الموحدين، وأحيانا تخضع لدولة الموحدين، ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الافساد والدمار لدولة الموحدين.

فبعد وفاة المستنصر سنة 620هـ أصبح الأعراب يتدخلون في شؤون الدولة، ويرهقونها بطلباتهم، ويعملون بدورها على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، والاحتكاك بهم.[3]

كما عرفت الأندلس إحدى أكبر وأعنف الثورات ضد الموحدين والتي ساهمت في تقويض نفوذهم قي هذا القدر، وهي الثورة التي قادها محمد بن مردنيش والتي دامت قرابة ربع قرن لم يتوان فيها في محاربة الموحدين والتحالف حتى مع النصارى من أجل ذلك وقد أدت هذه الحركة الى ضياع عدة مدن شرق الأندلس كألمرية، وافراغة وسرقسطة، هذا وأدت حركة ابن مردنيش إلى زعزعة هيبة الدولة ومكانة الموحدين وسلطانهم في نفوس النصارى كما

---

(1) **بنو غانية**: ينسبهم المؤرخون الى أمهم غانية من العائلة المرابطية الحاكمة. خرجوا من جزيرة ميورقة قاصدين مدينة بجاية، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين وقد قاد أفراد هذه العائلة ثورات ضد الموحدين.

-المعجب للمراكشي. ص:195.

(2) صفحات من التاريخ الإسلامي دولة الموحدين. لعلي محمد الصلابي. دار البيارق. عمان. (بدون رقم طبعة) سنة: 1998.الصفحة:223.

(3) دولة الموحدين للصلابي. ص:224.

استنزفت الكثير من جهود الموحدين مالا وجنودا وزمنا ناهيك عما تخلفه الحروب عموما من خسائر بشرية وآثار نفسية وأوضاع اجتماعية واقتصادية مزرية.[1]

كما ظهرت بوادر التمرد الحفصي في المغرب الأدنى على الحكومة المركزية سنة 627هـ/1130م حين استبد الأمير أبو زكريا بن الشيخ أبي محمد بن أبي حفص الهنتاني بإفريقية وخلع طاعة الموحدين.[2]

أما بنو عبد الواد بزعامة يغمراسن بن زياد[3] فقد استقلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا من تلمسان عاصمة لهم. يقول ابن خلدون: «وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك والسلطان واقتعد الكرسي ومحا آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش.[4]

وفي سنة 635هـ/1237م استقل محمد بن يوسف بن الأحمر بمملكة غرناطة، فأخذ كل ما تبقى من الأراضي الإسلامية في الأندلس التي كانت تابعة للدولة الموحدية. يقول صاحب الاستقصا: «ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلى المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم على بعض بالطاغية وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل تلك الفتنة فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلى بعض وأجمعوا على إخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس.»[5]

---

(1)سقوط الدولة الموحدية. ص:109_110.

(2) الاستقصا.ج/2.ص240.

(3) **يغمراس بن زياد:** فارس زناتة الأشهر وبطلها الأكبر، مؤسس الدولة العبد الوادية الزيانية بتلمسان ولد عام 600هـ وبويع بالإمارة عام 631هـ كان مزاحما في ملكه بني عمه مرين ملوك فاس، وبسبب حروبهم معه والحروب التي تواصلت بين أبنائهما وحفدتهما من بعدهما ضاعت الأندلس وذهبت هيبة أقطار المغرب وتيسرت السبل أمام الإسبانيين والبرتغاليين لاحتلال شواطئها توفي يغمراس سنة 681هـ ودفن بتلمسان.

_الأنيس المطرب. ص:293.

(4) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عناصرهم من ذوي الشأن الأكبر. لابن خلدون. تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار. دار الفكر. بيروت. سنة: 2000م.الجزء:7. الصفحة:106.

(5) الإستقصا ج/3. ص:37.

المطلب الثالث: التعرض للكوارث والأوبئة

تعرضت الدولة الموحدية لموجبات من الكوارث قبيل سقوطها، ففي سنة 617ه كان الغلاء الشديد بالمغرب والقحط والجراد، وبيع قفيز القمح بخمسة عشر دينار. وفي سنة 626ه كان السيل العظيم بمدينة فاس هدم من سورها القبلي مسافتين، وهدم من جامع الأندلس ثلاث بلاطات وديارا كثيرة وفنادق من عدوة الاندلس.

وفي سنة 635ه اشتد الغلاء والوباء بالعدوة، فأكل الناس بعضهم بعضا وكان يدفن في الحفرة الوحدة المائة من الناس.

وفي سنة 646ه وقع الحريق بأسواق فاس احتقرت أسواق باب السلسلة بأسرها الى حمام الرحبة.[1]

وقد نشأ عن هذا كله انحلال في حياة المملكة الموحدية، فتوقفت حركة الحراثة في البوادي، كما أن عددا من المدن انتابها الخراب: في ديار مدينة مراكش، وفي مكناس دثرت مدائنها القديمة ولم يبق منها سوى الصوامع والأطلال العتيقة، وفي الرباط تهدم جامع حسان الذي نقضه السعيد الموحدي ليصنع بخشبه الأجفان الغزوانية.[2]

وتعرضت العديد من المدن الشاطئية لهجمات بحرية، فقد نزل الجنويون سبتة بأجفان لا تحصى، ونصبوا عليها المنجيقات... فبعد الحصار الشديد والتضييق العظيم ونصب المجانيق وآلات الحرب المعدة فصالحهم أهلها بأربعمائة دينار.[3]

المطلب الرابع: الهزائم المتتالية على يد الممالك النصرانية بالأندلس

أهم هزيمة تلقاها الموحدون سنة 609ه/1212م زمن الخليفة الموحدي محمد الناصر بن يعقوب في معركة العقاب على الأراضي الأندلسية أمام الملك ألفونسو الثامن، وهي المعركة التي عجلت بسقوط الدولة الموحدية من الأندلس.

(1) الأنيس المطرب. ص:273-274-277.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:3.سنة:2000.الصفحة:12.

(3) الأنيس المطرب ص:276

يقول صاحب الأنيس المطرب: «فذهبت قوة المسلمين بالأندلس من تلك الهزيمة، ولم تنصر لهم راية بها، فستطال العدو عليها فملك معاقلها واستحوذ على أكثر بلادها حتى كاد أن يملك جميعها لولا أن الله عزوجل تداركها بجواز أمير المؤمنين يعقوب بن عبد الحق رحمه الله، فأحيى ذمارها وأقام منازلها وغزا بلاد الكفر فدمرها.»[1]

وفي سنة 614هـ هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الأندلس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب، لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج إليه جيش إشبيلية، وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاد قصر أبي دانس، وكان ذلك بأمر المنتصر، فساروا يؤمون العدو فلم تقع أعينهم على عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الأدبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب، فتكالب العدو بعدها على المسلمين وتمرس بهم وهان عليهم أمرهم وخشعت نفوسهم له ولما فرغوا منه في هذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع ألفنش إلى قصر أبي دانس فحاصره حتى اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين.[2]

واستولى النصارى على حصن القصر والقنطرة في عهد المستنصر، وماردة وبطليوس سنة 627هـ ثم ألمرية في أواخر عهد المأمون وقرطبة سنة 636هـ.[3]

كما نشأت مملكة البرتغال التي استعانت بالجيوش الصليبية في الاستيلاء على عدة مدن من غرب الأندلس وإذا كان التعاون بين المسيحيين قد فتر في عهد المنصور داخل إسبانيا، فقد كانت النجدات تتوالى على أمراء المماليك المسيحية من جنوة وبيزة وإنجلترا وفرنسا وفشل الموحدون في استرداد طليطلة وشنترين ولشبونة، ثم اشتد الخطر المسيحي منذ أيام الناصر، فاتخذت الممالك المسيحية في صراعها ضد الموحدين، وشاركت كلها بآلاف عديدة من جيوشها، كما اقتحمت جيوش ليون ماردة وبطليوس واحتلت الأراغون في نفس الوقت الجزر الشرقية، ثم احتلت بلنسية وشاطبة. أما قادس وجيان وقرطبة وإشبيلية

(1) المصدر نفسه ص:240

(2) الاستقصا ج/2 ص:227

(3) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة 2000 الجزء:1 الصفحة:296.

ومرسية وبياسة وأبذة فكانت كلها من تصيب قشتالة، وقد استغرق افتتاح هذه المدن من لدن النصارى حوالي ثلث قرن.[1]

(1) المغرب عبر التاريخ ج/1 ص:298

المبحث الثاني: قيام دولة بني مرين

بعد سقوط الموحدين على إثر هزيمتهم بالأندلس أمام النصارى انقسمت منطقة المغرب من جديد إلى ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها، على السيطرة والنفوذ، وهي على التوالي: الدولة الحفصية وعاصمتها إفريقية-تونس-(625هـ-982هـ/1227م-1574م) والدولة الزيانية في تلمسان (633هـ-962هـ/1235م-1554م)، والدولة المرينية أو بنو مرين (668هـ-869هـ/1267م-1465م) بالمغرب الأقصى وعاصمتهم فاس.(1)

فبنو مرين كانوا من قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتداء من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتحينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدّرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية وقد أعلن المرينيون استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتقاسمان إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى. وبمرور الزمن تركز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط.(2)

ويمكن القول إن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أمرائهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزا لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم، وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم «الدولة المرينية» نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زناتة.(3)

---

(1) مدينة المنصورة المرينية لعبد العزيز محمود لعرج زهراء مطبعة الشرق القاهرة الطبعة:1 سنة:2006 الصفحة:7.

(2) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي لسوادي عبده محمد وصالح عمار الحاج المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة الطبعة:1 سنة:2004. الصفحة:171.

(3) المرجع نفسه ص:171.

المطلب الأول: نسب بني مرين

اختلف علماء التاريخ في نسب وأصل بني مرين، فمنهم من ذكر أن بني مرين فخذ من زناتة، وهم ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر فهم عرب الأصل يجيئون من ولد قرار بن معد بن عدنان.(1)

وقيل هم فخد من زناتة من أشرافهم، وقد قيل إنهم شرفاء، ورفع بعض أهل التاريخ نسبهم الشريف من جدهم الأمير عبد الحق إلى أمير المؤمنين عَلي بن أبي طالب رضي الله عنه. أي يجتمع نسبهم بنسب النبي ﷺ في مضر، وهم من ولد بر بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، والبربر أخوال بر بن قيس أمه منهم، وهي يرفع بنت مجدل بن عمر بن محرام بن بر بن قسط بن معرايم بن حازم بن يافت بن نوح عليه السلام.

وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما والاها من بلاد الشام ومصر ويجاورون العرب في المساكن والمراعي.(2)

ويتضح من خلال كلام ابن الأحمر وأبي زرع أن زناتة (3) عرب بالأصل، وتغير لسانهم بسبب ابتعادهم عن مواطنهم الأولى ومجاورتهم للبربر في المغرب.

وقد وصف الملزوزي بسبب تغير لسانهم وابتعادهم عن وطنهم الأول ومجاورتهم للبربر فقال:

ولم تزل زناتــة مع العـــرب	مجاورين في مراعيهم حقب
منهبهم كمذهـب الأعـراب	لقربهم في الأرض والأنساب
سكانهم الصحراء والسباسب	وشكلهم لشكلهم مناسب
فجاورت زنـاتة البرابـــرة	فصيروا كلامهم كما ترى

(1) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابي زرع الفاسي. دار المنصور للطباعة والوراقة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:14.

(2) روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد بن الأحمر. المطبعة الملكية الرباط سنة:1962 الصفحة:8-9

(3) **زناتة**: بطن من البتر من البربر ويقال لهم زناتة باسم أبيهم.

-سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للشيخ أبي الفوز محمد البغدادي الشهير بالسويدي دار إحياء العلوم بيروت الصفحة:103

ما بدل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدل مقضى أحوالهم[1]

ونجد طبقة ثانية من المؤرخين تشير إلى أن بني مرين فخد من قبيلة زناتة من البتر أحد فرعي البربر.

ذكر صاحب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: أن بني مرين: بطن من زناتة، من البربر.[2]

ويؤكد السويدي هذا القول حين عرف بني مرين فقال: هم بطن من زناتة من البربر.[3]

أي أن بني مرين أصلهم من البربر.

فمن خلال هذه الآراء المختلفة عن أصل بني مرين ونسبهم، يكون المؤرخون قد اختلفوا في نسبهم، فجماعة من المؤرخين أرجعوا نسبهم إلى البربر بينما ذهب فريق آخر منهم إلى تأكيد عروبتهم، ولعل سبب هذا الاختلاف يكمن في أن بعض المؤرخين قد اعتمدوا على الرواية دون وجود سند أو حجة قاطعة ومقبولة، ولعل هذا كان بدافع الوصول إلى المراكز الحساسة داخل الدولة.

وعلى أي حال فإن قبائل زناتة كانت تظهر اعتزازها وانتسابها إلى العرب ونجد ذلك عند بعض شعرائهم. يقول أحد الشعراء زناتة الذين سكنوا الأندلس:

أيها السائل عن أحسابنا قيس عيلان بنو العز الأول

وبنو بر بن قيس من به تضرب الأمثال في كل أهل

إن نسبنا فبنو بر الندا طارد الأزمة نحار الإبل

من تردا سالف المجد علا وبرودا فاكتسا منها حلل

إن قيسا يعتزى بر له ولا بر يعتزي كل بطل

حسبك البربر قومي إنهم ملكوا الأرض بأطراف الأسل

(1) نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك لأبي فارس الملزوزي. المطبعة الملكية الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1963 الصفحة:67-68

(2) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس القلقشندي تحقيق: إبراهيم الأبياري دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة:2 سنة:1980 الصفحة:419

(3) سبائك الذهب ص:103

وببيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل[1]

ومن الحقائق التي ترد زناتة إلى الأصل العربي وتوثيقه ما ذكره صاحب الذخيرة السنية، أن حسان بن النعمان لما فتح إفريقية والمغرب، كان أكثر جيوشه قبائل قيس فأتى جبل أوراس من بلاد إفريقية فوجد قبائل زناتة قد اجتمعت لقتاله فدعاهم إلى الإسلام، وقال لهم: يا معشر زناتة أنتم إخواننا في النسب، فلم تخالفونا وتعينون علينا أعدائنا أليس أبوكم بر بن قيس بن عيلان؟ قالوا: بلى ولكنهم معشر العرب تنكرون لنا ذلك وتدفعوننا عنه، فإذا أقررتم بالحق ورجعتم إليه فاشهدوا لنا به على أنفسكم، فاجتمعت وجوه قيس وأشرافها وأشراف زناتة وأقيالها وأشهدوا على أنفسهم من حضرهم من وجوه العرب ورؤساء أهل إفريقية من البربر والروم وكتبوا بينهم كتابا فيه: هذا ما شهد به أنجاد قيس عيلان لإخوانهم زناتة بني بر بن قيس عيلان أنا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فأنتم والحمد لله إخواننا نسبا وأصلا ترثوننا ونرثكم، نجتمع في جد واحد، وهو قيس بن عيلان.[2]

ومما يدل أيضا على أصولهم العربية، حرصهم الشديد على مصاهرة القبائل العربية تأكيدا على نسبهم العربي. وخير مثال على ذلك ما جاء في روض النسرين حيث ذكر المؤلف أن الأمير عبد الحق تزوج من الشرفاء الحسنيين وكان له منها إدريس وعبد الله ورحو.

وقد حاول بعض المؤرخين أن يضفي على النسب المريني هالة من التكريم فرفع نسبهم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا عن عبد الحق المريني، وهو من تطلع من بني مرين إلى إقامة دولة لهم في بلاد المغرب، وهو عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن زيان بن محمد بن علي بن تاشفين بن يحيى بن علي بن إبراهيم بن إسماعيل بن عمر بن أمير المؤمنين الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(1) الذخيرة السنية. ص:16.

(2) المصدر نفسه ص:17.

وهذا الرأي يبدو بعيدا عن الصحة لأن تسلسل النسب المريني -عند من رأى هذا الرأي- ابتداء من والد حمامة المريني وحتى الإمام علي بن أبي طالب لا يتفق مع سلسلة النسب التي اتفق عليها معظم المؤرخين.(1)

المطلب الثاني: موطن بني مرين

كانت رياسة بني مرين في أول أيام الموحدين لبني عسكر، وكانوا يقطنون الزاب إلى تلمسان، وعندما بدأ عبد المومن يكتسح المغرب الأوسط، استعان على بني مرين بإخوانهم بني عبد الواد الذين بددوا جموعهم سنة 540هـ، فنزلوا جنوبا إلى الصحراء يعيشون عيشة البداوة والترحل، وينتقلون خلال الربيع والصيف إلى أعالي ملوية حتى ناحية تازة وجرسيف، فيتزودون بالحبوب الزراعية التي يقتاتون بها شتاء في صحرائهم.(2)

وقد تعددت منازل بني مرين -قبل دخولهم إلى بلاد المغرب الأقصى- نتيجة لأسلوب الحياة الذين درجوا على اتباعه في معيشتهم، وهو أسلوب البداوة الذي غلب على كل شيء في حياتهم، فقد نزلوا بأنعامهم التي يمتلكونها في القفار والصحاري في نظام عظيم يمتد من جنوب مدينة القيروان إلى صحراء بلاد السودان. وهم في هذا الامتداد العظيم يتمتعون بما يتمتع به المجتمع البدوي الذي يحيى حياة الصحراء.(3)

وقد وصفهم ابن أبي دينار قائلا: «وبنو مرين كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية وينتقلون من مكان إلى مكان وجل أموالهم الإبل والخيل وطعامهم اللحوم والتمر ودخلوا بلاد المغرب سنة ستة عشر وستمائة.»(4)

وكانوا لا يعمرون إلا القفار ولا يؤدون لسلطانهم بدرهم ولا دينار ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان ولا يرضون بدل ولا هوان لهم همم عالية ونفوس إلى المعالي سامية لا

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني لمحمد عيسى الحريري. دار القلم للنشر والتوزيع الكويت. الطبعة:2 سنة:1987 الصفحة 3-4.

(2) المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات دار الرشاد الحديثية الدار البيضاء طبعة سنة:2000 الجزء:2 الصفحة:11-12.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:4.

(4) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار مطبعة الدولة التونسية تونس الطبعة:1 سنة:1280هـ الصفحة:137.

يعرفون الحرث ولا التجارات ولا يشغلون بغير الصيد والغارات جل أموالهم الإبل والخيل ودأبهم الحرب وخوضان الليل وشيمتهم إكرام الضيف وضرب أعدائهم بالسيف.[1]

يقول ابن خلدون: «كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب.»[2]

ويذكر ابن مرزوق في مسنده أن بني مرين تملكوا من حد بلاد الجريد إلى ناحية المغرب، فامتد ملكهم من بلاد الزاب إلى تاهرت وأحواز تلمسان، وبقايا من قبائلهم إلى الآن ببلاد الزاب وأوداس، ثم امتد إلى ناحية المغرب.[3]

وذكر صاحب الحلل الموشية أن أصل بني مرين من أحواز تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط، ودار مملكة زناتة على قديم الزمان، وكان وطنهم بينها وبين تاهرت من شرقها، يجاورهم في السكنى من زناتة بنو يغمراسن، وبنو تجين، وبنو مغراوة، وبنو راشد، وغيرهم، وكان غالبهم الفرسان.[4]

وفي ضوء هذه الحقائق التي تتعلق بمساكن المرينين فالظاهر أن المؤرخين لم يتفقوا على أماكن محددة لإقامة المرينيين.

ولكن الذي يبدو أن تلمسان هي المركز الذي انتشرت منه قبائل بني مرين شرقا وغربا، فإن المرحلة الأولى من انتشار القبائل المرينية كانت إلى الشرق من تلمسان وفي اتجاه مدينة تاهرت، ثم تقدمت منها بعد ذلك نحو بلاد الزاب، وبلاد الجريد. وقد نزحت قبائل بني مرين بعد ذلك نحو الغرب، من هذه المواطن إلى بلاد المغرب الأقصى، فأصبح المرينيون بذلك يقفون على مداخل المغرب الأقصى يراقبون ما يدور به من أحداث.[5]

(1) الذخيرة السنية لابن أبي زرع ص:25.

(2) العبر ج/6 ص:397.

(3) المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق الحفيد تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بوعياد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:1981 الصفحة:110.

(4) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (مؤلف مجهول) تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة دار الرشاد الحديثية الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1979 الصفحة:186.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:5.

المطلب الثالث: عوامل تأسيس الدولة المرينية

تختلف العوامل التي أدت إلى تأسيس دولة بني مرين عنها في تأسيس الدولة المغربية السابقة، فإذا كانت هناك عوامل دينية أو مذهبية حدت بهذه الدول إلى إقامة حكومة ملكية، إلى جوانب عوامل اقتصادية وسياسية، فإن العامل الديني والمذهبي لم يكن له أثر في تكوين دولة بني مرين فلم يكن ثمة من إقامة مذهب جديد أو عقائد مستحدثة، حيث أن مذهب مالك قد تمركز منذ المرابطين وفشلت جهود الموحدين بعدهم في إرغام الناس على اعتناق مبادئ المهدي بن تومرت بصورة نهائية، فعوامل قيام دولة بني مرين كانت مختلفة.[1]

الفرع الأول: عوامل اقتصادية

إن المرينيين لاقوا كسائر زناتة الرحل مشاكل المجاعة والجذب في الأرض الصحراوية منذ أوساط القرن السادس الهجري ولم يكن عدد بني مرين قليلا، فقد انتشروا في السباسب وصحاري الشمال الإفريقي من القيروان إلى بلاد السودان منذ أوائل الدولة الموحدية، ولم تكن مواردهم المحدودة مما يساعدهم أداء الأتاوت والضرائب الباهظة التي أثقل بها الموحدون كاهل الشعب المغربي.[2]

فكان بنو مرين يدخلون المغرب في زمان الصيف فيرعون به أنعامهم، ويكتالون منه ميرتهم، فإذا توسط فصل الخريف اجتمعوا ببلدة جرسيف، فإذا استوفى بها جمعهم شدوا رحالهم، وقصدوا بلادهم، كان ذلك دأبهم على مر الزمان.[3]

فلما كانت سنة 610هـ أقبل نجعهم على عادته للارتفاق والميرة حتى إذا أطلوا على المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله وبادت خيله ورجاله وفنيت حماته وأبطاله وعريت من أهله أوطانه وخف منها سكانه وقطانه، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصيبة المرعى غزيرة الماء واسعة الأكناف فسيحة المزارع متوفرة العشب لقلة راعيها، مخضرة التلول والرُبى لعدم غاشيها، فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وماهي عليه من الخصب

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:12.
(2) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:12.
(3) الذخيرة السنية ص:25.

والأمن وعدم المحامي والمدافع، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين بنجعهم بالغارات والنهب بسيطها ولجأت الرعايا إلى حصونها ومعاقلها، وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء على بسط المغرب وسهله وانتجاع مواقع طله ووبله.[1]

وجاء في كتاب الذخيرة أبيات شعرية تحدد تاريخ دخولهم لأرض المغرب:

قدمت مرين إلى بلاد المغـرب والسعد يصحبها لنيل المطلب

في عام عشر بعد ست قد مضت مئين فاحفظه وقيد واكتـب[2]

ويقول الملزوزي في وصف دخول بني مرين أرض المغرب:

في عام عشرة وستمـائـة أتوا إلى الغرب من البريـة

جاؤوا من الصحراء والسباسب على ظهور الخيل والنجائب[3]

الفرع الثاني: عوامل سياسية

من الطبيعي أن يكون ضعف الموحدين السياسي بعد هزيمة العِقاب والصراع حول العرش وظهور حركة التمرد والنزاعات القبائلية، أمرا مشجعا وسهلا لدخول المرينيين للمغرب والسيطرة عليه.[4]

يقول ابن أبي زرع: «فوجدوا ملوك الموحدين قد تهاونوا في الأمر، واعتكفوا في قصورهم على اللهو وركنوا إلى الغيد في القصور، فأدى ذلك بهم إلى الوهن والقصور، فحل بنو مرين بالمغرب، والقدر ييسر لهم ملكه ويقرب، فانتشرت قبائلهم في بلاده كالجراد، وملأت حللهم وعساكرهم النجود والوهاد، فلم يزالوا ينتقلون في أقطاره مرحلة بعد مرحلة، حتى أبادوا الجيش عام المشعلة وهو عام 613هـ.»[5]

ويذكر صاحب الاستقصا أنه حينما هلك الناصر سنة 610هـ بايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير، وشغلته مع ذلك أحوال الصبى

(1) الاستقصا ج/3 ص:5.

(2) الذخيرة السنية ص:26.

(3) نظم السلوك ص:68.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:13.

(5) الذخيرة السنية ص:26-27.

ولَذَّات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هذه الأسباب على الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سببا لحينها.[1]

وأنشد صاحب نظم السلوك أبياتا يقول فيها:

تشاغلوا باللهو والخمور	واحتجبوا عن أوكد الأمـــور
وركنوا للغيد في القصور	حتى دعـــاهم ذاك للقصور
فانتشرت مرين كالجراد في	الغرب قد عمت على البلاد
ودخلوا مرحلة فمرحلة حتى	أبادوا الجيش عام المشعلة[2] [3]

وقبل أن يواجه المرينيون الموحدين حاولوا جذب الأنظار إليهم حين عملوا على استتباب الأمن والعمل لصالح المواطنين، فركزوا في سياستهم على استئصال شأفة الأعراب الذين كانوا يعيشون في الأرض فساداً، وقد جذب هذا أنظار المواطنين، وجعلهم ينظرون إلى بني مرين على أنهم المنقذون لهم من قسوة الاضطراب الذي يعانون منه بسبب ضعف قبضة الموحدين عن الإمساك بزمام الأمور في بلاد المغرب.[4]

فاستمر التنافس بينهم بين ملوك الموحدين الذي ما كان أكثر عددهم وأقل مدتهم على العادة في هذه الفترة التي يعقبها السقوط. ثم لما آذنت شمسهم بالزوال، وظلمهم بالانقلاب أوقع بهم بنو مرين في معركة تعرف بالمشعلة، وقعة فاصلة لم يرفعوا بعدها رأسا ولا أبدوا حراكا، وجاءت نوبة يعقوب المنصور بن عبد الحق رابع الإخوة المذكورين فلم يكن من الصعب عليه أن يستأصل شأفتهم ويجتث جذورهم في سنة 674هـ، وكذلك خلص له الملك بالمغرب، فأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالمنصور.[5]

الفرع الثالث: عوامل قبلية

يعتبر المؤرخون عبد الحق بن محيو المريني أول من نقل بني مرين من حالة البداوة في الصحراء إلى مرحلة التفكير العملي لإقامة دولة المرينيين في المغرب الأقصى، ولذلك فإن

(1) الاستقصا ج/3 ص:4-5.

(2) **المشعلة**: نبات سمي بها عام 613هـ لأن منهزمي الموحدين كانوا يخصفون عليهم من ورقه بعد أن أصبحوا عراة أثناء وصولهم إلى فاس فارين من أمام بني مرين. -نظم السلوك (أنظر الحاشية) ص:68

(3) نظم السلوك ص:68.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:10.

(5) النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون (بدون اسم المطبعة) الطبعة:2 سنة:1960 الجزء:1 الصفحة:177.

بعض المؤرخين يطلقون عليه أبو الأملاك، لأن أبناءه الأربعة الذين تولوا أمر بني مرين من بعده، هم الذين حملوا على عاتقهم أعباء تأسيس الدولة المرينية، وكان عبد الحق يدعو أبناء بني مرين دائما إلى توحيد صفوفهم لتحقيق أملهم في العزة والسلطان بقوله لهم:» يا معشر بني مرين أما ما دمتم في أمركم مجتمعين وفي آرائكم متفقين وكنتم على حرب أعدائكم أعوانا وفي ذات الله إخوانا فلا أخشى أن ألقى بكم جميع المغرب وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم أعداؤكم.»[1]

وقد اتصف هذا الأمير بكثير من الصفات التي أهلته لقيادة القبائل المرينية، ومن ناحية أخرى أثرت هذه الصفات في سلوك القبائل المرينية في المغرب الأقصى مما أعطى انطباعا حسنا عن المرينيين لدى كثير من سكان المغرب الأقصى، فأحبوا المرينيين ووجدوا في الانضمام إليهم الأمن والأمان الذي فقدوه في ظل السلطة الموحدية.[2]

كما نجد أن بني مرين لم يحاربوا الموحدين كدولة بل حاربوهم ككتلة قبلية ضمن المجموعة ولا ينكر مع هذا أن حلفا هاما قد انعقد بين قبيلة رياح العربية وبين مرين سنة 613هـ وكان لهذا الحلف الذي امتد مفعوله لأجل طويل أثر في انتصارات بني مرين على الموحدين.[3]

والذي يؤكد لنا ما ذكرناه، قول صاحب المسند الصحيح ابن مرزوق يقول: « فانقادت إليهم قبائل أهل المغرب لما عرفوا من عدلهم وعلموا من حسن سيرتهم، فتعلقوا بأذيالهم ودخلوا تحت ظلالهم، وقد كانوا انفردوا بحفظ قوانين الدين، وقمع البغات والمعتدين وحماية النزيل، وإجارة الدخيل، والوفاء بالعهود، والوقوف مع الحدود، سلكوا في التقوى الحق اليقين، فكانوا ممن تناولهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. [سورة الأعراف الآية:127] [4]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:10
(2) المرجع نفسه ص:10-11.
(3) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:13.
(4) المسند الصحيح الحسن ص:110.

وما إن حلت سنة 625هـ/1228م حتى قوي شأن المرينيين بالمغرب وخضعت لهم جميع قبائل المغرب، وتملكوا جميع بوادي المغرب من وادي ملوية إلى رباط الفتح.[1]

المطلب الرابع: مرحلة تأسيس الدولة المرينية

بدأ المرينيون حياتهم السياسية بصراع طويل ومرير مع الموحدين استمر ثمانية وخمسين عاما، وكان لاشتراك بني مرين مع الموحدين، في ميادين القتال في بلاد المغرب والأندلس الفضل الكبير في تعرف المرينيين واطلاعهم على كثير من الخبرات في مجال الحرب والقتال، وامتص المرينيون رحيق هذه الخبرات من بين صفوف الموحدين وأضافوا إليها قوتهم وخبرتهم وجلدهم، وقد قاد المرينيون مراحل هذا الصراع ببسالة وعزم منذ وطأت أقدامهم أرض المغرب الأقصى.[2]

فأول هزيمة داقها المرينيون على يد الموحدين بالقرب من واد سبو-منطقة بلاد الريف- حينما تحالف الموحدون مع بني عسكر وبني رياح، وحققوا فيه انتصاراً عسكرياً على بني مرين. وفيها قتل الأمير عبد الحق وولده إدريس فغضبت بنو مرين وقامت وقعدت لقتل أميرها وأنفت لمصاب رئيسها وكبيرها، وأقسم بنوه وجماعة من أشياخ مرين، بالأيمان المغلظة أن لا يدفنوهما حتى يأخذوا بثأرهما. فخرج المرينيون فهاجموا بني عسكر وبني رياح فألحقوا بهم الهزيمة، فنصرت بنو مرين وهزمت رياح، وقتل مرين منهم خلقا عديدا، وفر من بقي منهم مهزوما خائفا شريدا، وقام بأمر مرين بعد موت أميرهم عبد الحق ولده عثمان.[3]

فلما بويع وتمت بيعته ببوادي المغرب بأزغار يوم الأحد 23 جمادى الآخر سنة 614هـ/1217م، أخضع بني رياح بعد تحالفهم ضده مع بني عسكر، وأجبرهم على دفع ضريبة كل سنة فهم على ذلك يؤدون تلك الضريبة حتى الآن.[4]

وقد اشتهر أبو سعيد عثمان بن عبد الحق باسم إيرغال وهي تعني بلغتهم البربرية الأعور. وبعد انتصارهم على بني رياح، أصبح المرينيون قوة يهابها الموحدون ويحسبون لها حسابها.

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:14.
(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:10.
(3) الذخيرة السنية ص:33-34.
(4) الذخيرة السنية ص:35.

وقد تركزت جهود أبي سعيد عثمان بن عبد الحق في بسط مزيد من نفوذ المرينيين على البوادي والضواحي والأرياف، وقد ساعد المرينيين على ذلك أنهم كانوا لا يمثلون مذهبا دينيا يدعون الناس إليه مثل المرابطين أو الموحدين، وإنما كانوا يركزون جهودهم على بسط الأمن والاستقرار في المناطق التي يمتد إليها نفوذهم وسلطانهم، وفي نفس الوقت يتركون لرعاياهم الحرية التامة في اتباع المذهب الذي يحبونه، وقد كان جمهور أهل المغرب يتوقون إلى الحرية في ممارسة مذهب أهل السنة وفقه مالك رحمه الله، كما انتظر كثير من خصوم الموحدين الأعداء لبدعة الموحدين هذه الفرصة قد خلوا بدائرة النفوذ المريني.(1)

وسار أبو سعيد في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه ويتتبع تلاله ودروبه ويدعو الناس إلى طاعته والدخول في عهد وحمايته، فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدرا معلوما من الخراج، ومن أبى عليه نابذه وأوقع به، فبايعه من قبائل المغرب هوارة وزكارة ثم تسول ومكناسة ثم بطوية وقشتالة ثم سدراتة وبهلولة ومديونة ففرض عليهم الخراج وفرق فيهم العمال، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازة وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم.(2)

ولم يزل على هذا الحال حتى اغتيل على يد خادمه علج بوادي ردات أوائل محرم من سنة 638هـ/1240م، وله من العمر 45 سنة وكانت إمارته 23 سنة وسبعة أشهر.(3)

ثم بايع المرينيون بعده أخاه أبا معرف محمد بن عبد الحق بوادي ردات أول محرم من عام 638هـ.(4)

فبايعوه على القيام بأمرهم والسمع والطاعة له على أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم، فقام له الأمر وسار بهم بسيرة أخيه، واهتدى بهديه وفتح كثيرا من جبال المغرب وقلاعه المنيعة.(5)

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:12-13.
(2) الاستقصا ج/3 ص:9-10.
(3) روضة النسرين ص:16.
(4) روضة النسرين ص:16.
(5) الذخيرة السنية ص:59.

قتل في المعترك يوم الخميس من جمادى الآخر سنة 642هـ وله 42 سنة من العمر وكانت إمارته أربع سنين وستة أشهر.[1]

ولما قتل الأمير محمد بن عبد الحق اجتمعت قبائل مرين وأسيادها إلى أخيه الأمير أبي بكر بن عبد الحق وبايعوه على السمع والطاعة وقتال من خالفه من قبائل العرب، فلما تمت مبايعته واستقرت في الملك طلعته كان أول شيء فعله أنه جمع أشياخ بني مرين ورؤساء قبائلهم وقسم عليهم بلاد المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض... وأمر كل واحد من أشياخ القبائل أن يركب من في قبيلته من الرجال ويستكثر من الفرسان، ثم سار هو وقرابته وإخوته وحشمه وعبيده وأعوانه فنزل بين بلد سلفات وجبل زرهون، وكان يغير أحيانا على مدينة مكناسة.[2] فاتصل خبره بالسعيد فعمل على الحركة للمغرب لينظر في أمر... وصل السعيد إلى مدينة فاس فجاءته قبائل بني عسكر فبايعوه. كما بايعه بنو عبد الواد.[3]

وفي سنة 643هـ نزل أبو بكر بن عبد الحق بالقرب من مكناسة، فكان يباكرها بالقتال والغارات ويراوحها حتى ملكها بمحاولة شيخها علي بن أبي العافية فدخلها في شوال من السنة المذكورة. وقيل إن السعيد لما طالت إقامته بفاس اتصل به أن أهل مدينة أزمور أشاعوا عليه أنه قد مات فأحرقوا أجفانه التي كان صنعها من خشب جامع حسان، فحلف أن يدخل أزمور بالسيف فأخذ أهل أزمور بالمغرم الثقيلة حتى لم يبق لهم شيئا وارتحل على مراكش وساءت أحوال المغرب وانقطعت الطرقات. فلما اشتد الأمر على أهل مكناسة خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا بني مرين.[4]

---

(1) روضة النسرين ص:16.

(2) **مكناسة:** مدينة في المغرب من نظر فاس إلى جهة المغرب، وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، وبين مكناسة وفاس أربعون ميلا في جهة المغرب، ومكناسة مرتفعة على الأرض يجري شرقيها نهر صغير عليه الأرحاء، وتتصل بها عمارات وجنات وزروع وأراضيها طيبة للزراعة، سميت باسم مكناسة البربري لما نزلها مسح بنيه عند حلولهم بالمغرب وإقطاعه لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده.
-الروض المعطار ص:544.

(3) الذخيرة السنية. ص:64-65.

(4) الذخيرة السنية ص:66.

ويمكن القول إن الأمير أبا بكر بن عبد الحق كان ذا بسالة ونجابة وإقدام، وهو الذي رفع ملك بني مرين وفتح الحصون ووازن البلاد، وكان يكنى بالعسكري. توفي بقصره من قصبة مدينة فاس يوم الخميس منسلخ جمادى الآخر سنة 656هـ وله من العمر 52 سنة وكانت دولته 14 سنة وهو أول من ضرب الطبول ونشر البنود وملك البلاد من بني مرين.(1)

لما مات الأمير أبو بكر اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للأمر وتباروا في خدمته ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبا عند مهلك أخيه بتازة فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر، وأحس عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة، ثم سعى الناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون إليه بلاد تازة وبطوية وملوية التي كانت أقطعه إياها أخوه من قبل، فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهرا إلى أن غلب عليه عمه المذكور سنة 656هـ.(2)

انقلب أمر بني مرين للأمير يعقوب بن عبد الحق، الذي عزز حكم المرينيين بالمغرب. فدخل السلطان يعقوب مدينة فاس فملكها سنة 657هـ ونفذت كلمته في بلاد المغرب ما بين ملوية وأم الربيع وما بين سجلماسة وقصر كتامة، واقتصر عمر على إمارة مكناسة فتولاها أياما ثم اغتاله بعض عشيرته فقتلوه لنحو سنة من إمارته فكفى الأمير يعقوب أمره واستقام سلطانه وذهب التنازع والشقاق عن ملكه.(3)

كما حارب يعقوب بن عبد الحق يغمراسن بن زيان، فبعد وفاة أبي بكر بن عبد الحق انتهز يغمراسن الفرصة للتوغل في المغرب واستعان في ذلك بمغراوة وبني توجين، لكن يعقوب المنصور تصدى له في كلدامان، فرجع إلى تلمسان بعد أن أحرق في طريقه المزارع التي صادفها.(4)

---

(1) روضة النسرين ص:17.

(2) الاستقصا ج/3 ص:19.

(3) المصدر نفسه ج/3 ص:20.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:17.

وفي سنة 658هـ رجعت مكناسة إلى أمير المسلمين يعقوب واجتمع عليه جميع مرين وانتظمت بلاد المغرب في طاعته وجددت له البيعة بعد وفاة عمر، ففتح البلاد من بلاد نول من السوس الأقصى إلى تلمسان وفتح حضرة مراكش دار مملكة المرتضى وقرار سلطانه، وقطع مملكة بني عبد المومن ومحا آثارهم ولم يبق منها رسما على ضخامتها بعد أن كان لها من المغرب مائة سنة واثنتان وخمسون سنة من سنة خمس عشرة وخمسمائة إلى سنة ثمان وستين وستمائة، وفتح طنجة، ومدينة سجلماسة، وبلاد درعة وبلاد سوس الأقصى، وبلاد الريف، وصالح أهل سبتة على أن بايعوه على مال معلوم يؤدونه له في كل سنة.[1]

وفي شوال من سنة 658هـ حدثت ثورة إسبانيا بسلا، وتفصيل الحادث أن يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق كان قد عينه أبو بكر عاملا عليها وكان ينوي الخروج على عمه يعقوب بن عبد الحق عن طريق تملك الرباط وسلا التي تمكن المرتضى من استرجاعها وتعيين ابن أبي يعلا عليها، وكان في سلا عدد كبير من أبناء الجالية الإسبانية أكثرهم تجار، فتآمر يعقوب بن عبد الله معهم حيث كان أهل سلا يحتفلون بعيد الفطر، فوضعوا السيف في رقاب أهلها، ثم هب المنصور لنجدتها واستمر محاصرا لها أربعة وعشرين يوما، وأخيرا استولى عليها، وبنى بها الصور المقابل للوادي، أما الإسبان فقد غادروها في سفنهم.[2]

وأما يعقوب بن عبد الله الثائر فإنه خشي بادرة السلطان يعقوب بن عبد الحق فخرج من رباط الفتح وأسلمه فضبطه السلطان وثقفه ثم نهض إلى بلاد تامسنا فاستولى عليها وملك مدينة آنفا وهي المسماة الآن بالدار البيضاء، فضبطها ولحق يعقوب بن عبد الله بحصن علودان من جبال غمارة فامتنع به وسرح السلطان ابنه أبا مالك عبد الواحد وعلي بن زيان لمنازلته وسار هو إلى لقاء يغمراسن وعقد معه المهادنة وافترقا على السلم ووضع أوزار الحرب ورجع السلطان إلى المغرب فخرج عليه بنو أخيه إدريس.[3]

لكن أبا يوسف استمالهم وبعث بعضهم إلى الأندلس على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فشغلوا بالحرب هناك، وكانوا أول جيش وجه إلى الأندلس في دولة بني مرين سنة 662هـ بقيادة محمد وعامر ابني إدريس بن عبد الحق، وقد تمكنا من استرجاع كثير من

(1) الذخيرة السنية ص:89-90.

(2) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:17.

(3) الاستقصا ج/3 ص:22-23.

المعاقل كشريش وغيرها. وبينما كان يعقوب أبو يوسف في خضم هذه الأحداث كان يعمل في نفس الوقت على مهاجمة الموحدين في عقر دارهم بمراكش.[1]

وفي سنة 663هـ تحرك أمير المؤمنين أبو يوسف إلى مراكش برسم حصارها على أهلها فوصل إلى أحوازها فبايعه أكثر قبائل العرب والمصامدة الذين بأنحائها، ودخلوا في طاعته فكف عنهم وأمنهم ورجع إلى مدينة فاس.[2]

والظاهر أن غزوته هذه كانت استطلاعية أكثر منها هجومية يقصد بها الاستيلاء على عاصمة الموحدين، وكان يستقر بفاس حتى زاره أبو دبوس[3] يستنصره على المرتضى ويعده بمشاطرته ملك مراكش، وكان أبو دبوس يعجل بذلك بنهاية دولة الموحدين عن قصد أو غير قصد، فأمده يعقوب بخمسة آلاف مقاتل بعددهم ومؤونتهم وتمكن أبو دبوس بذلك من طرد المرتضى الذي إلتجأ إلى صهره ابن عطوش والي أزمور، ولكن هذا غدر به وقتله، وأسلمه إلى أبي دبوس على رواية الذخيرة.[4]

وتذكر المصادر التاريخية أيضا أن سبب رجوع يعقوب بن عبد الحق إلى فاس دون فتح مراكش مقتل ابنه عبد الله، يقول صاحب الإستقصا:» فكان بينهم حرب بعد العهد بمثلها هلك فيها الأمير عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق ففت مهلكه في عضدهم وارتحلوا عنها إلى أعمالهم.»[5]

وجاء في البيان المغرب أنه لما قدر الله بوفاة عبد الله بن أمير المسلمين، فحال ذلك بينهم وبين الحروب، ووجه المرتضى إثر ذلك رسوله يعزيه في ابنه ويعزي في إخوته واستلطفهم

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:18.

(2) الذخيرة السنية ص:108.

(3) **أبو دبوس**: هو إدريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص عمر بن عبد المومن، كنيته أبو يعلى، شهرته: أبو دبوس، لأنه كان ببلاد الأندلس في الجهاد وغيره لا يفارق الدبوس فاشتهر به، وتسمى من أسماء الخلفاء باسمين في نسق الواثق بالله والمعتمد عليه. وكانت دولته من حيث استقراره بدار الخلافة مراكش. ثم خرج على الخليفة واستبد بالحكم.

- البيان المغرب ج/3 ص:586.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:18-19.

(5) الاستقصا ج/3 ص:24.

واسترضاهم واستعطفهم ثم وافقهم على مال معلوم يصلهم في كل عام، فرحل أبو يوسف ووقع بينهم التراضي والإنعام.[1]

وترى معظم المصادر أن فرار أبي دبوس كان لخوف المرتضى من تطلعه إلى العرش الموحدي، بينما ترى بعض المصادر الأخرى أن فراره كان بسبب علم المرتضى بأن مراسلات سرية تتداول بين بني مرين وأبي دبوس. وفي كلتا الحالتين كانت نظرة المرتضى لأبي دبوس على أنه خائن، هي التي دفعت هذا الأخير إلى الفرار إلى البلاط المريني. وصلت أنباء استيلاء أبي دبوس على مراكش إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، فبعث إليه رسولا يهنئه بالفتح، ويطلب منه الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه.[2]

غير أن أبا دبوس لم يف بما وعده به يعقوب بن عبد الحق.[3]

فقال أبو دبوس للرسول: ما بيني وبينه عهد إلا السيف. وقال له يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد، وإلا غزوته بجنود لا قبل له بها، فوصل الرسول إلى أمير المؤمنين فأبلغه الجواب، وأعلمه بنكثه وميله عن الصواب، فخرج أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق إلى غزوه من حضرة فاس.[4]

فحشد قوات ضخمة خرج بها إلى مراكش على إثر وصول هذه الرسالة، لمهاجمة أبي دبوس والقضاء عليه، فأحكم حصار المدينة، وأطلق سرايا الجيش المريني في جهات مراكش ونواحيها، تحطم الزرع وتنسف الأقوات.[5]

يقول صاحب الأنيس ابن أبي زرع: «فسار حتى نزل بظاهر مراكش فحاصرها وهتك أحوازها، ورعى زروعها فلما رأى أبو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار، ورعي الزروع ونسف الآثار، وشدة المجاعة في بلاده وغلاء الأسعار، كتب إلى يغمراسن بن زيان يستنصر

(1) البيان المغرب ج/3 ص:572.
(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:32-33.
(3) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:19.
(4) الأنيس المطرب ص:304-305.
(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:33.

به ويرغب منه أن يكون على أمير المسلمين يعقوب يدا واحدة فتعاهدا على ذلك، واتفقا عليه.»[1]

ولم يكن يغمراسن يقصد من مساعدة أبي دبوس أكثر من البحث عن فرصة يصير فيها ملك المغرب إليه دون بني عمومته المرينيين.[2]

فلما وقف يعقوب على تطورات الأحداث هذه قرر إرجاع العاصمة الموحدية، ورفع الحصار عنها مؤقتا، وعاد إلى فاس حيث أقام بها أياما استكمل فيها أهبته واستعداده لحرب يغمراسن، وفي منتصف ربيع الأول سنة 666هـ/1267م سار أبو يوسف إلى واد ملوية متخذا طريق جرسيف، وكان اللقاء بوادي تلاغ.[3]

يقول صاحب الذخيرة ابن أبي زرع: «فالتقا الجمعان بوادي تلاغ بالقرب من وادي ملوية، فعبأ كل واحد منهما جيوشه وميز كتائبه واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب المزينات...وزحف الجيش إلى الجيش وقصد القرين إلى القرين، فكانت بينهما حروب عظيمة لم ير مثلها فلا ترى إلا الخيول ترمح، وبفرسانها إلى اللقاء تطمح، والسيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام تقطع وتقصف. فدام القتال بين الفريقين من وقت الضحى إلى وقت الظهر، وصبرت مرين لقتال عدوها صبر الكرام إلى أن منحهم الله تعالى النصر على بني عبد الواد، فهزموهم وأذاقوهم الحمام في ذلك الوادي، وفر أميرهم يغمراسن على وجهه مهزوما، وقتل قرة عينه عمر وهو أكبر ولده وولي عهده، وسيوفهم في رقابهم، فدخل يغمراسن حضرة تلمسان مهزوما، وتفرقت جيوش بني عبد الواد فلا ترى منهم إلا قتيلا أو جريحا أو خائفا شديدا، وانتهبت مرين ما كان في معسكرهم من الأموال والخيل والسلاح والأثقال.»[4]

وعاد أبو يوسف إلى فاس ليستأنف منها العمل للاستيلاء على مراكش. فنهض إليها من فاس في شعبان سنة 666هـ/1268م ولما عبروا وادي أم الربيع بث السرايا وشن الغارات

(1) الأنيس المطرب ص:305.
(2) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:19.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:34.
(4) الذخيرة السنية ص:115-116.

وأطلق الأعنة والأيدي للنهب والعيث فحطموا زروعها وانتسفوا آثارها وتقرى نواحيها كذلك بقية عامه، ثم غزا عرب الخلط من جشم بتادلا فأثخن فيهم واستباحهم، ثم نزل واد العبيد فأقام هناك أياما ثم غزا بلاد صنهاجة فاستباحهم ولم يزل ينقل ركابه في أحواز مراكش ويجوس خلالها إلى آخر ذي القعدة من سنة 667هـ فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة عند أبي دبوس وقالوا له: يا مولانا كم تقعد عن حرب بني مرين وقد ترى ما نزل بنا في حريمنا وأموالنا منهم فاخرج بنا إليهم لعلل الله يجعل سبب الفتح فإنهم قليلون وجمهورهم وذووا الشوكة منهم قد بقوا برباط تازة لحراسة ذلك الثغر من بني عبد الواد، ولم يزالوا يفتلون له في الذورة والغارب حتى أجابهم إلى رأيهم فاستعد للحرب وبرز من حضرة مراكش في جيوش ضخمة وجموع وافرة.[1]

فتظاهر أبو يوسف بالفرار أمامه، وكان هدفه من ذلك إبعاده عن مراكش حتى لا يعود أبو دبوس إلى التحصن بها إذا ما هزم أمام أبي يوسف، وحتى يبعده أيضا عن أي إمدادات قد تصل من مراكش.[2]

ظل يعقوب بن عبد الحق يتظاهر بالانسحاب وأبو دبوس يتتبع أثره حتى نزل بوادي غفو، وظن رجوعه إنما هو للخوف منه، فجد في اتباعه، فكان أمير المسلمين يعقوب إذا ارتحل من موضع أقبل أبو دبوس فنزل به، فلم يزل للأثر يقفو، حتى أتى لحينه وادي ودغفو، أمير المؤمنين راجعا في وجهه عازما على قتاله وحربه، فالتقى الجمعان، وأقبلت بنو مرين أمثال العقبان، والتحم القتال واشتد النزال، وصبرت مرين صبرها في قتال أعدائها، فرأى أبو دبوس ما لا طاقة له به، فأراد الفرار، لكي ينجو إلى مراكش فيعتصم فيها بالأسوار، فأدركته الضمر السوابق، وأقبلت أبطال مرين نحوه تسابق، فحالوا بينه وبين أمله ومراده، وسارعوا إلى طعنه وقتاله بالرماح في وسط المعترك وسقط تحت جواده صريعا فكم من ذئب مع نسر في أشلائه اشترك.[3]

وأخذ رأسه وجيء به إلى السلطان يعقوب فسجد شكرا لله تعالى وذلك يوم الأحد ثاني محرم سنة 668هـ/01شتنبر1269م وتشكل معركة وادي غفو هذه نقطة تحول بارزة في

(1) الاستقصا ج/3 ص:26-27.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:35.

(3) الأنيس المطرب ص:306-307.

تاريخ دولة بني مرين إذ كانت هذه المعركة نهاية دولة الموحدين، وبداية لقيام دولة جديدة فتية هي الدولة المرينية. حيث لم تقم للموحدين قائمة بعد هذه المعركة.[1]

يقول صاحب تتمة المختصر في أخبار البشر محمد بن مظفر بن الوردي: « وملك يعقوب مراكش من أبي دبوس واستمر حتى ملك سبتة.»[2]

تقدم السلطان يعقوب نحو مراكش وفر من كان بها من الموحدين إلى تينمل وبايعوا إسحاق أخا المرتضى فبقي ذبالة هناك إلى أن قبض عليه سنة 674هـ وجيء به في جماعة من قومه إلى السلطان يعقوب فقتلوا جميعا، وانقرض أمر بني عبد المومن.[3]

ولما دخل السلطان يعقوب إلى حضرة مراكش، خرج فقهاؤها وصلحاؤها وقضاتها وعمالها وأشياخها إلى لقائه، فتلقوه وبايعوه وطلبوا منه أمانه فأمنهم وجميع أهل المدينة وأحوازها وتلقاهم بالبر والإكرام وأحسن إلى جميعهم بالخلع والأموال، كل على قدر مرتبته. فاستقر بقصبتها وتم له ملك المغرب، وتهدنت البلاد، وصلح حال جميع من فيها من العباد، وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات، وأذعن أهل تلك البلاد إلى الطاعة ودخلوا في الجماعة، فلا ثائر ولا مفسد ولا قاطع، ولا خارجا يخشى منه ولا منازع.[4]

يقول عبد العزيز الملزوزي:

وانقرضت دولة عبد المومـــن	من غربنا وحالهم لم يؤمن
كم قد رأوا في الدهر من سعود	ورفعة في الأرض بالتوحيد [5]

وبهذا الانتصار الضخم طوى السلطان يعقوب بن عبد الحق آخر صفحة من صفحات دولة الموحدين بالمغرب، وبدأ يسطر بنفسه أولى الصفات في تاريخ الدولة المرينية الجديدة، وجرت في البلاط المريني مراسم تتفق ومستلزمات الدولة الجديدة حيث تلقب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بلقب السلطان بعد أن كان يلقب بالأمير وصدرت الكتب والرسائل

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:35.

(2) تتمة المختصر في أخبار البشر لمحمد بن مظفر بن عمر بن الوردي طبعة جامعة أوكسفور orietal institute libiray الجزء:2 الصفحة:221-222.

(3) الاستقصا ج/3 ص:27.

(4) الذخيرة السنية ص:118.

(5) نظم السلوك ص:65.

من البلاط المريني إلى القبائل وسائر بلاد الغرب تحمل هذا اللقب الجديد، وكان ذلك إعلانا رسميا بقيام الدولة المرينية، التي أصبحت تسيطر، على سائر أنحاء المغرب الأقصى من واد ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقا وحتى المحيط الأطلنتي غربا، ومن رباط تازة وجبال غمارة شمالا حتى مراكش ووادي تنسيفت جنوبا، وغدت هذه الدولة شامخة تقوم بدورها في خدمة الإسلام وبناء الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب.[1]

المطلب الخامس: مرحلة توسيع الدولة المرينية

الفرع الأول: مرحلة التوسع داخل المغرب

قام أبو يوسف يعقوب -بعد إعلانه الدولة المرينية- بجهود سياسية ضخمة، وكانت أهم أهداف هذه الجهود استكمال تأسيس الدولة الجديدة، وتدعيم أركانها، وإظهار سطوتها، وقوتها. وسيطرتها الكاملة على كافة أقاليمها ومواطنها. ومما ساعد المرينين على نجاحهم في بسط سلطانهم، أن حركتهم كانت حركة سياسية محضة، لم تتشح بثوب الدين كما فعل الموحدون من قبلهم. فلم يتخذ المرينيون من الدين وسيلة لإثارة مشاعر الجماهير وتوجيههم الوجهة التي يريدونها، وإنما كان شعار المرينيين الذي رفعوه ولاقى كثيرا من مظاهر التأييد، وهو إقامة حكم سياسي يراعي مصلحة البلاد، ويحافظ عليها من مخاطر الانحرافات، ويبعث في المواطنين الشعور بالأمن على أنفسهم وأموالهم.

وفي ضوء هذا الشعار الذي رفعه المرينيون سار السلطان أبو يوسف يعقوب، وتابع جهوده بنفس الدرجة من القوة والكثافة، وقد كانت هناك أجزاء من الدولة الموحدية تقع تحت نفوذ بعض الثائرين مثل منطقة سوس ودرعة. فضلا عن ذلك كانت طنجة وسبتة منطقتين تقعان خارج السيطرة الموحدية، وأصبح لها بعد سقوط دولة الموحدين أهمية استراتيجية-إذا جاز استخدام هذا التعبير- بالنسبة لدولة جديدة ناهضة لها مشاريعها الخاصة بها في تأمين نفسها ضد أي خطر خارجي.[2]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:35-36.
(2) المرجع نفسه ص:37.

1 -السيطرة على بلاد درعة: ثار العرب ببلاد درعة وأبادوا رجالها بالقتل وأموالها بالنهب وكثر أذاهم في تلك النواحي، فخرج السلطان يعقوب لغزوهم من حضرة مراكش، فشق الجبال والأوعار حتى وصلها سنة 669هـ/1271م. فنزل بأول بلاد درعة فقتل من العرب خلقا كثيرا وسبا نسائهم وأموالهم بعد أن حاصرهم بمعقل من معقل درعة أياما فنزلوا إليه بِأَمَان ولده الأمير عبد الواحد، فعفا عنهم وأمضى أمان ولده وفتح جميع بلاد درعة وملك حصونها ومعاقلها، ولم يبق ببلاد درعة وأنحائها من أهل النفاق والفساد أحد وأحرزها من العرب، فبعث بهم إلى مراكش وهدّن البلاد وأخرج عليها العمال، وارتحل إلى مراكش. وتقاليد الدولة الجديدة التي ترى الأمن والاستقرار من أهم أهدافها.[1]

وكانت هذه التصرفات التي قام بها ثوار درعة لا تتفق واتجه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق إلى رباط الفتح قادما من مراكش، فدخلها في أواخر ذي القعدة سنة 669هـ/1271م، ثم غادرها إلى سلا وهناك مرض يعقوب بن عبد الحق مما جعله يتخذ إجراءات سريعة لتعيين ولي العهد.

يقول المؤرخ ابن أبي زرع: «وأخذ به البيعة على بني مرين لولده عبد الواحد وجعله وليا للعهد».[2]

ويؤكد الناصري كلام ابن أبي زرع قائلا: «لما طرقه مرض وعك منه وعكا شديدا، فلما أبل من مرضه جمع قومه وعقد العهد لأكبر أولاده أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب لما علم من أهليته لذلك وأخذ له البيعة عليهم جميعا».[3]

ويعتبر هذا الأمر أول مرسوم لتعيين ولي العهد في الدولة الجديدة، مما جعل بعض أهل القرابة أن هذه الخطوة جرت على غير المألوف والعادة من طبيعتهم القبلية، فجعلهم هذا الأمر يخرجون معترضين ومعتصمين بجبل علودان، وكان من قيادي هذه المعرضة محمد بن إدريس بن عبد الحق، وموسى بن رحو بن عبد الله.

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:38.
(2) الذخيرة السنية ص:122.
(3) الاستقصا ج/3 ص:29.

فخرج السلطان يعقوب في أثرهم وبعث لحربهم ولده الأمير الأجل يوسف في جيش من خمسة آلاف فارس فسار فيها حتى نزل عليهم بجبل أمركو فحاصرهم، ثم لحق به أخوه الأمير عبد الواحد في اليوم الثاني فحاصروهم يومين فأذعنوا وطلبوا الأمان فأمنهم وعفا عنهم على أن يخرجوا من بلاده إلى تلمسان فنزلوا بأمانه، وساروا بأموالهم ورجالهم إلى تلمسان فأقاموا بها مدة ثم جازوا إلى الأندلس.[1]

فهذه الثورة تمثل خطرا كبيرا يهدد وحدة البيت المريني لذا عزم أبو يوسف على مواجهتها بحزم شديد.[2]

2 -فتح تلمسان والقضاء على يغمراسن: كان السلطان يعقوب بن عبد الحق يرى في يغمراسن حجرة عثرة تقف بينه وبين شرق المملكة، وهو بذلك يشكل تهديدا لشرق الدولة الفتية، لذلك فكر يعقوب جديا في توجيه ضربة قاصمة لخصمه العنيد يغمراسن بن زياد. ويرى صاحب الاستقصا أن ذلك كان بدافع الانتقام لأن أبا يوسف يرى أن وقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت نار موجدته فأجمع أمره لغزوه ونشطه لذلك ما صار إليه من الملك وسعة السلطان، فحشد جميع أهل المغرب وعزم على استئصاله وقطع دابره.[3]

ولكن صاحب الذخيرة السنية يضيف إلى ذلك سببا آخر ففي سنة 669هـ/1270م أرسل بن الأحمر صاحب غرناطة بالأندلس إلى أبي يوسف، يستنصر به ويدعوه إلى العبور إلى الأندلس للقيام بدوره في مساندة المسلمين هناك ضد النصارى.[4]

يقول صاحب الذخيرة: « وارتحل نحو تلمسان فسار حتى وافاه بها رسل بن الأحمر وكتابه يسأله أن ينصر الدين ويغيث من بالأندلس من المسلمين، ويخبره أن ألفنش لعنه الله قد ضيق ببلاد المسلمين وأباد أهلها بالقتل والأسر والغارات.»[5]

---

(1) الذخيرة السنية ص:125.

(2) تاريخ المغرب والأندلس ص:38.

(3) الاستقصا ج/3 ص:31.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:39.

(5) الذخيرة السنية ص:129.

فرأى أبو يوسف أن يتجهز للقتال بالأندلس ويستميل يغمراسن بواسطة صلح طويل الأمد، لكن يغمراسن رفض بكل شدة صارخا بالانتقام لولده عمر.[1]

وأقسم ألا يصالحه أبدا حتى يأخذ من الثأر أو يموت دون ذلك. كان ذلك الرد العنيف يمثل في رأي أبي يوسف قصورا من جانب يغمراسن بن زياد عن فهم طبيعة الأحداث السياسية التي تمر بها المنطقة، ومن ناحية أخرى يمثل تقصيرا في خدمة الإسلام الذي يواجه موقفا حرجا في بلاد الأندلس.[2]

فأعلن يعقوب بن عبد الحق التعبئة التامة في رجوع الدولة، وحشد جيوشا ضخمة لغزو يغمراسن. يقول ابن خلدون: «وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة والجموع والقبائل ونهض على بني عبد الواد سنة 670هـ فبرز إليه يغمراسن في قومه وأوليائه من مغراوة والعرب وتزاحفوا بإسلي من نواحي وجدة فكانت الدبرة على يغمراسن انكشفت جموعه، وقتل ابنه فارس، ونجا بأهله بعد أن أضرم معسكره ناراً تفاديا من معرّة اكتساحه، ونجا إلى تلمسان فانحجر بها، وهدم يعقوب بن عبد الحق وجدة،[3] ثم نازله بتلمسان، واجتمعت إليه هنالك بنو ترجين مع أميرهم محمد بن عبد القوي، وصل يده بيده السلطان على يغمراسن وقومه، وحاصروا تلمسان أياما فمتنعت عليهم، وأفرجوا عنها. وولى كل إلى عمله ومكان ملكه.»[4]

---

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:20-21.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:39.

(3) **وجدة**: وهي مدينة كبيرة مسولة قديمة أزلية، كثيرة البساتين والجنات والمزدرعات. وعلى مدينة وجدة طريق مار والصادر من بلاد المشرق إلى بلاد المغرب وسجلماسة وغيرها.

-الاستبصار في عجائب الأبصار للمراكشي نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد دار النشر المغربية الدار البيضاء سنة:1985 الصفحة:177.

بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل، يمتاز أهلها بنظارة ألوانهم وتنعم أجسامهم ومراعيها أنجع المراعي.

-الروض المعطار ص:607.

وقيل هي مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل فسيح جدا على بعد نحو أربعين ميلا جنوب البحر المتوسط، وعلى نفس البعد تقريبا من تلمسان محادية غرب مفازة أنجاد. أسسها زيري بن عطية عام 384هـ/994م ونقل كرسي إمارته من فاس إليها. -وصف إفريقيا ج/2 ص:12.

(4) العبر لابن خلدون ج/7 ص:115.

فرجع أبو يوسف إلى فاس بعد أن انسحبت قوات بني ترجين إلى ونشريس في مطلع سنة 671هـ وأعطاهم ألف ناقة ومائة فرس وخلعا وسيوفا ودرقا ومضارب، وقعد السلطان بظاهر تلمسان حتى تعرف أنهم وصلوا إلى ونشريس.(1)

وفي نفس السنة 671هـ/1278م ورغم حزنه الشديد على وفاة ابنه أبا مالك، فقد خرج من فاس في أواخر صفر من نفس السنة لمتابعة جهوده لتدعيم الدولة المرينية.(2)

يقول المؤرخ علي بن أبي زرع صاحب الذخيرة: « فلما انقضى شهر صفر الذي توفي فيه ولده أبو مالك ارتحل السلطان إلى حضرة مراكش، فوصل إلى رباط الفتح في يوم الثاني عشر من ربيع الأول، فأخذ به البيعة من بني مرين بولاية العهد لولده الأمير أبي يعقوب يوسف، ثم سار إلى حضرة مراكش فدخلها في نصف ربيع الآخر منها، فقعد بها أياما ثم ارتحل إلى بلاد سوس.»(3)

3 -فتح بلاد سوس: رحل السلطان يعقوب إلى بلاد سوس فهدنها، وبعث وزيره فتح الله بن عمر السدراتي في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى عرب المعقل فغزاهم وقتل منهم خلقا كثيرا بتيدس، وذلك في شوال من سنة 671هـ، ثم خرج السلطان من بلاد سوس فدخل مراكش وأقام بها حتى أهل هلال رمضان، فارتحل عنها إلى رباط الفتح فعيد عيد الفطر، وارتحل إلى طنجة لأجل فتحها.(4)

وكان لهذه الجولة التي قام بها السلطان أبو يوسف أثرها في تهدئة الأحوال في هذه المناطق حديثة الانضمام إلى الدولة الجديدة.(5)

وقد ذكر الملزوزي شعرا واصفا به سير الأمير يوسف بن يعقوب إلى سوس حيث قال:

فوجه المنصور يوسف ابنه ... للسوس مع نول يريد أمنه
فيسر الله له مراده ... فيه وأبدا للورا اسعاده

(1) الأنيس المطرب ص:311.
(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:40.
(3) الذخيرة السنية ص:135-136.
(4) المصدر نفسه ص:136.
(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:40.

ففرت العرب وجاءت البعض وعهدهم ما زال فيه النقض
ولم يزل حتى أتى الجميـــع كلهـم لأمـره مطيـــع.[1]

4 -فتح طنجة وسبتة: لما ضعف أمر بني عبد المومن بالمغرب استقل الفقيه أبو القاسم بن أبي العباس العزفي برياستها وضبطها وانتظم في طاعته سائر أعمالها، ولما كانت سنة 663هـ بعث الفقيه المذكور أجفانه إلى مدينة أصيلا[2] فهدموا أسوارها ونقضوا قصبتها، لأنه خاف عليها من خلائها أن يملكها العدو ويمتنع بها، واستمرت أموره بستة[3] ونواحيها على الشداد وكانت طنجة تالية لسبتة في سائر أحوالها وكانتا معا من أحصن بلاد المغرب.[4]

فاتجهت أنظار أبي يوسف بعد ذلك إلى الاستيلاء على طنجة وسبتة، لما لهما من أهمية كبرى، فقد كانتا من أعظم عمالات الموحدين، فهما ثغرا العدوة المغربية ومرفأ الأساطيل، وبها دور صناعة السفن والآلات الحربية، كما أنهما المعبران الرئيسان إلى بلاد الأندلس حيث ميادين الجهاد الواسعة التي تنتظر المرينيين.[5]

فجهز السلطان يعقوب حملة لفتح طنجة باعتبارها قاعدة الجهاد بالمغرب.

يقول علي بن أبي زرع: «فلما نزلها أمير المسلمين وطال عليها الحصار شرع في البناء عليها فبنى جزء من البنية المنصورة فضاق ذرع أهلها لأجل ذلك، ثم إن أمير المسلمين عزم أن يرتحل عنها ويترك عليها جيشا مع ولده الأمير يوسف.»[6]

(1) نظم السلوك ص:131.

(2) **أصيلا**: أول مدن العدوة من جانب الغرب وهي سهلة من الأرض حولها رواب لطاف والبحر بغربها وجوفها، وكان عليها سور له خمسة أبواب وجامعها خمسة بلاطات. ومدينة أصيلة محدثة، وكان سبب بنائها أن المجوس خرجوا في مرساها مرتين. وتقع سلا على ساحل بحر الغرب وهي من المدن القديمة.

-المسالك والممالك ج/2 ص:790-791. (أنظر أيضا) البيان المغرب ج/1 ص:251.

(3) **سبتة** بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب على ساحل البحر في بر البربر، وقيل هي البلد التي وصل إليها سيدنا موسى عليه السلام وفتاه يوشع، فنسيا الحوت فاتخذ سبيله إلى البحر عجبا.

-تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لأبي حامد الغرناطي تحقيق إسماعيل العربي دار الآفاق الجديدة المغرب الطبعة:1 سنة:1991 الصفحة:174.

(4) الاستقصا ج/3 ص:34.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:40.

(6) الذخيرة السنية ص:137.

فبينما هو يقاتل في عشي اليوم الذي عزم على النهوض في غده إذا بجماعة من رماتها قاموا على برج ورفعوا لواء أبيض ونادوا بشعار بني مرين، وذلك لخلاف وقع بينهم داخل البلد فتسارع الجند إليهم فملكوهم البرج... ثم تكاثرت جيوش بني مرين واقتحموا البلد عنوة ونادى منادي السلطان يعقوب بالأمان وكان ذلك في ربيع الأول سنة 672هـ، ولما فرغ السلطان يعقوب من طنجة بعث ولده الأمير يوسف إلى سبتة فحاصر بها العزفي أياما ثم لاذ بالطاعة على أن يبقى ممتنعا بحصنه ويؤدي للسلطان خراجا معلوما كل سنة فقبل السلطان منه ذلك وأفرجت عنه عساكره.[1]

وذكر صاحب الذخيرة أن هذا المال كان في صورة كميات من السلاح والثياب والأخبية. يقول: «فصالحه صاحبها الفقيه أبو القاسم العزفي على هدية يبعثها له في كل سنة من الأخبية والسلاح والثياب وكتب بيعته إليه، فقبل منه الأمير يوسف وارتحل عنه».[2]

وأيما كان المدفوع أموالا أو سلاحا أو غير ذلك فقد كان فتح طنجة وسبتة تتويجا للانتصارات المرينية في الميدان المغربي، ونقطة تحول خطيرة في تاريخ هذه الدولة، إذ أصبح الطريق مفتوحا أمام المرينيين ليعبروا بسلام إلى الأندلس ليقوموا بدورهم في خدمة الإسلام والمسلمين هناك.[3]

5 -فتح سجلماسة: بعد بضعة أشهر من نفس السنة 672هـ توجه السلطان يعقوب للاستيلاء على سجلماسة، التي كانت تحت حكم بني عبد الواد بعد أن خضعت زمنا لأبي بكر بن عبد الحق على يد أبي يحي القطاني. وكان دخولها في طاعة يغمراسن بمساعدة عرب المنيات من ذوي عبيد الله إحدى فرق بني معقل، وقد استعمل المرينيون هذه المرة في هذا الحصار البارود، الذي يبدو أنه استعمل قبلهم أو في أيامهم على أقل تقدير، وكان اقتحام سجلماسة في صفر سنة 673هـ/1274م.[4]

(1) الاستقصا ج/3 ص:35.
(2) الذخيرة السنية ص:137-138.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:41.
(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:21-22.

فحاصر السلطان سجلماسة وأدار بها قبائل بني مرين والعرب والأعزاز والروم والرماة، وشرع في قتالها ونصب عليها المجانيق والرعادات وآلات الحرب، وضيق عليها وقطع عنها جميع المرافق فضاق أهلـها ذرعا من شدة القتال والحصار... فدخلها السلطان فأمن سائر أهلها وعفا عنهم، ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم، وأقام بها حتى هدنها وسكن أحوازها وأوديتها وقدم عماله وارتحل عنها راجعا على طريقه إلى مراكش.[1]

وبسقوط سجلماسة كمل المرينيون السيادة التامة على أراضي المغرب الأقصى كله.[2]

ويشير ابن خلدون إلى مضمون السيادة بقوله: «وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان أبي يوسف، وتمشت طاعته في أقطاره، فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته، ولا جماعة تتحيز إلى غير فئته ولا أمل ينصرف إلى سواه. ولما كملت له نعم الله في استيساق ملكه وتمهيد أمره، انصرف أمله إلى الغزو وإيثار طاعة الله بجهاد أعدائه، واستنقاذ المستضعفين من وراء البحر من عباده.»[3]

الفرع الثاني: مرحلة التوسع خارج المغرب (بلاد الأندلس)

حرص المرينيون على الجهاد في إسبانيا، ومساعدة غرناطة [4] الإسلامية، واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جنوب الأندلس مثل رندة.[5] وجبل

(1) الذخيرة السنية ص:139-140.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:41.

(3) العبر لابن خلدون ج/7 ص:250.

(4) **غرناطة**: بفتح أوله وسكون ثانيه، ومعنى غرناطة رمانة بلسان عجم الأندلس سمي البلد لحسنه. وهي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم في القديم ويعرف الآن بنهر حداره. بينها وبين البيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا. وهي من أهم مدن الأندلس.

-معجم البلدان ج/4 ص:221.

(5) **رندة**: بضم أوله وسكون ثانيه معقل حصين بالأندلس، وهي بين إشبيلية ومالقة.

-معجم البلدان ج/3 ص:84.

طارق،[1] والجزيرة الخضراء،[2] وطريف.[3] ومربلة،[4] لتكون بمثابة رأس جسر لهم هناك عند القيام بهذا الواجب المقدس، إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه، أن اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية، لا يرجع فقط إلى الرغبة في مساعدة إخوانهم في الدين سكان غرناطة، بل يرجع أيضا إلى الدفاع عن نفوذهم في مضيق جبل طارق، ومنع أي خطر يهدد المغرب من هذه الناحية الشمالية.[5]

فور عودة السلطان يعقوب من فتح سجلماسة، صادف وصول وفد من شيوخ الأندلس يحمل رسالة من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة، وتشرح هذه الرسالة تدهور أوضاع المسلمين في بلاد الأندلس، وتكالب العدو عليهم، وتطلب النجدة والعون من بني مرين.[6]

خرج السلطان يعقوب من مدينة فاس في أول يوم من شوال سنة 673هـ/30 مارس 1275م، حتى وصل إلى طنجة فبعث إلى الفقيه العزفي، وأمره بتعمير الأساطيل لجهاد المشركين، وإصلاح الأجفان واعدادها لجواز المجاهدين، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، وعقد لولده الأمير أبو زيان على جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد بني مرين وفرسان

---

(1) **جبل طارق**: فيه خرج طارق بن زياد ومنه افتتح الأندلس، وهو عند الجزيرة الخضراء، وبه مرسى يكنّ منه كل ريح، وكان أحد خلفاء بني عبد المومن أمر ببناء مدينة على جبل طارق.

-الروض المعطار ص:382.

(2) **الجزيرة الخضراء**: يقال لها الخضراء ويقل لها جزيرة أم حكيم وهي جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بينها وبين قشتالة أربعة وستون ميلا، وهي على ربوة مشرفة على البحر وهي أقرب مدن الأندلس مجازا إلى العدوة، ومنها تغلب ملوك الأندلس على ما تغلبوا عليه من بلاد إفريقية.

-الروض المعطار ص:223.

(3) **طريف**: جزيرة طريف على البحر الشامي في أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربها ببحر الظلمة وهي مدينة صغيرة على بحر سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها أسواق وفنادق وحمامات، ومن طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا. وسميت بطريف نسبة إلى أبي زرعة من أهل البربر.

-الروض المعطار ص:392.

(4) **مربلة**: بالأندلس بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة، ومربلة مدينة صغيرة مسورة من بناء الأول محكمة العمل ممتنعة المرام وهناك جبل منيف عال يزعم أهل تلك الناحية أن النجم المسمى سهيلا يرى من أعلاه، ولذلك سمي أبو القاسم الحافظ مؤلف الروض الأنف السهيلي. -الروض المعطار ص:534.

(5) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:207.

(6) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:43.

العرب، ودفع له رايته المنصورة، وأوصاه بتقوى الله في السر والعلانية، فركب الأمير أبو زيان البحر في جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل بطريف من بلاد الأندلس، وذلك في السادس عشر من ذي القعدة سنة 673هـ، فأقام بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، فخرج إلى البحيرة فغنمها وبعث المغانم إلى الجزيرة وولى السير في بلاد العدو يقتل ويسبي ويخرب القرى والحصون، ويحرق الزرع ويقطع الثمار وينسف الآثار حتى وصل إلى شريس، ولم يقد أحد من الروم أن يخرج إليه.[1]

وقد شجعت هذه النتائج الأولية لهذه الحملة أبا يوسف على العبور بنفسه إلى الميدان الأندلسي.[2]

وبعث السلطان يعقوب حفيده تاشفين بن الأمير عبد الواحد إلى يغمراسن بن زياد أمير تلمسان يطلبه في الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجوز إلى الأندلس آمن الروعة من بلاده، فأسعفه يغمراسن بمطلبه، فتم الصلح بفضل الله بينهما على المراد وجمع الله تعالى كلمة الإسلام، وألف بين المسلمين ونفى عنهم التحاسد والتنافس والاظلام، فلما وصل الأمير تاشفين من تلمسان وقد تم الصلح مع يغمراسن وسر السلطان يعقوب بذلك سرورا عظيما وأخرج الصدقات، فتصدق بمال جزيل في جميع بلاده شكرا لله تعالى على ذلك. ثم كتب الكتاب وأخرج به للرد إلى أشياخ بني مرين وأمراء العرب ورؤساء قبائل أهل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناتة يستنفرهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز.[3]

فقد أضاف أبو يوسف إلى هذه السياسة الحكيمة ألوانا أخرى من السياسة الناجحة، إذ عمد هذا السياسي البارع إلى توجيه طاقة القبائل العربية -التي كانت من قبل في أيام الموحدين تنهج سياسة الإفساد في البلاد، وقطع الطرق، ونسف الأخضر واليابس- إلى الجهاد المقدس دفاعا عن الإسلام والمسلمين في الميدان الأندلسي. فقد حشد أبو يوسف قواته في

(1) الأنيس المطرب ص:314.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:43.

(3) الذخيرة السنية ص:145.

قصر المجاز، وكان ضمن هذه القـوات معظم هذه القبائل العربية من سفيان والخلط[1] والعاصم[2] وبني جابر والأثبج[3] وبني حسان ورياح[4] والشبانات.[5]

وفي أول محرم من سنة 674هـ ارتحل السلطان يعقوب إلى قصر المجاز فنزل به وأخذ في تجويز أجناده وأهل دواره، فكان الناس يجوزون فوجا بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، وطائفة بعد طائفة، فكانت المراكب والسفن غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

فالمرسلات تسوق العاديـات إلى	غزو العداة وتجويز صباحا مساء
كأنما البحر أضحى للجياد مدى	وكل شعبة مـاء حولت فرسـا
كأنما اقترب البـــران واتصلا	فصار ذلك طريـقا للورى يبسـا

فلما تكامل الناس بالجواز واستقروا ببلاد الأندلس وانتشرت عساكر المسلمين بها من مدينة طريف إلى جزيرة الخضراء جاز السلطان يعقوب في آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته ومع جماعة من صلحاء المغرب وكان جوازه في ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر صفر سنة 674هـ من قصر المجاز على حين غفلة من الناس ولم يشعر بجوازه أحد حتى طلع في الجفن، فسهل الله عليه الجواز وهون عليه ركوب البحر.[6]

(1) **الخلط**: هم الأعراب المنتمين إلى المنتفق يقطنون ناحية أزغار عند المحيط شمالا، ونهر أبي رقراق غربا ويخترق سهل أزعار نهر سبو. وهم خاضعون لملك فاس ويؤدون خراجا مرتفعا، لكنهم أغنياء مجهزون أحسن تجهيز، يكونون زهرة جيش الملك، وهو لا يستخدمهم إلا في الغارات الجدية البالغة الأهمية. -وصف إفريقية ج/1 ص:301.

(2) **العاصم**: هؤلاء الأحياء من الأثبج في أنسابهم. نزلوا تامسنا معهم، وكانت لهم عزة وعلياء وكان للسلطان عليهم عسكرة وجبايات وكان الشيخ العاصم لعهد الموحدين، وفي عهد بني مرين كانت رياستهم لأبي عياد وبنيه وكانت له ولاية مع يعقوب بن عبد الحق المريني، ومقاماته في الجهاد مذكورة وبقيت رياسته في بنيه إلى أن انقرض أمرهم ودخلوا وتلاشوا. -العبر ج/6 ص:43.

(3) **الأثبج**: هم من الهلاليين أوفر عددا وأكثر بطونا وكان التقدم لهم في جملتهم والأثبج هو ابن ربيعة بن ناهيك بن هلال. فكرفة هو ابن الأثبج. وكان لهم جمع وقوة، وكانوا أحياء غزيرة وكان موطنهم حيال جبل أوراس من شرقية. ولما استقر أمر الأثبج بإفريقية على غلب صنهاجة على الضواحي فوقعت الفتنة بينهم.
-العبر ج/6 ص:30-31.

(4) **رياح**: هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعا عند دخولهم إفريقية، ملكوا ضواحي قسطنطينية ما بين قسطيلة والزاب والقيروان.
-العبر ج/6 ص:43-45.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:44.

(6) الذخيرة السنية ص:145-146.

فنزل بساحل طريف، وكان أبو يوسف قد اشترط على السلطان محمد الفقيه ابن الأحمر [(1)] حينما استنجد به أن يتنازل للمرينيين عن بعض الثغور والقواعد الساحلية، لتنزل بها القوات المرينية، فنزل له ابن الأحمر عن رندة وطريف والجزيرة الخضراء، وكان والده قد أوصاه عند وفاته أن يستدعي أمير المسلمين أبا يوسف للجهاد، ويعطيه ما يريد من البلاد.[(2)]

ولما أحس أبو محمد بن أشقيلولة [(3)] بإجازة السلطان يعقوب قدم إليه الوفد من أهل مالقة بيعتهم وصريخهم وكان أبو محمد بن أشقيلولة وأخوه أبو إسحاق من أصهار ابن الأحمر وكانا مستوليان على مالقة ووادي آش وقمارس ووقعت بينهما وبين ابن الأحمر منافسة فخرجا عن طاعته، ولما عبر السلطان يعقوب إلى الأندلس بادر أبو محمد بن أشقيلولة إليه واتصل به وأمحضه الود والنصح وسابق ابن الأحمر في ذلك ونازعه في برور مقدمه والإذعان له وربما صدرت من ابن أشقيلولة في حق ابن الأحمر جفوة بمحضر السلطان يعقوب أدت إلى بعض الفساد وانصرف ابن الأحمر مغاضبا للسلطان من أجل ذلك.[(4)]

غير أن المؤرخ ابن أبي زرع يرى أن يعقوب بن عبد الحق نجح في إنهاء الصراع والخلاف الذي كان بين ابن الأحمر وبين ابن أشقيلولة. يقول: «وكان بين ابن الأحمر وبين ابن أشقيلولة ضِد ومنافسة وشحناء، فأزالها وأصلح بينهما، واجتمعت بحول الله تعالى كلمة الإسلام.»[(5)]

لم يعبأ أبو يوسف بهذه الخلافات الشخصية وانطلق يؤدي مهمته في تحرير الأراضي الإسلامية فنفذ بجيوشه الجرارة إلى الوادي الكبير قبل أن يشعر به العدو، وكون مقدمة

(1) **محمد بن الفقيه بن الأحمر**: هو أبو عبد الله محمد الثاني بن نصر أصله من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف في أبناء الجند ويعرفون ببني نصر، وينسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج. كان يعرف بالفقيه لما كان يقرأ من كتاب الله بين أهل بيته، ويطالع كتب العلم. وهو الذي أجاز ليعقوب بن عبد الحق وطلب منه العون. توفي سنة 701هـ/1302م -العبر ج/4 ص:218-219.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:44.

(3) **أبو محمد بن أشقيلولة**: هو عبد الله بن علي بن محمد، الابن الأكبر لأبي الحسن بن أشقيلولة الملقب بالرئيس كان رئيسا شجاعا بهمة، حازما أيدا، جلدا، تولى مدينة مالقة عقب وفاة الرئيس والدها أبي الوليد الدجاج بن نصر، صنو أمير المسلمين محمد بن الحمر الغالب بالله -الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب تحقيق يوسف علي الطويل دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2003 الجزء:3 الصفحة:291.

(4) الاستقصا ج/3 ص:40.

(5) الذخيرة السنية ص:146.

استطلاعية قوامها خمسة آلاف جندي جعل على قيادتها ولده الأمير يوسف وسار هو خلفه في القوات الرئيسية، وانتشرت الجيوش في أرض الوادي الكبير تقتل وتأسر وتنسف الزروع وتخرب الضياع، حتى وصلت هذه القوات إلى الحصن المدور[1] وبياسة[2] وأبدة[3] بالقرب من قرطبة، واستولى على حصن بلمة بالقوة.[4]

فجمعت الغنائم للسلطان. فسار أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه وقد ملأت الأرض طولا وعرضا، وفاضت الغنائم فيض النيل.[5]

وجاء النذير باتباع العدو وآثارهم لاستنقاذ أسراهم وارتجاع أموالهم، وأن زعيم الروم وعظيمهم ذننه،[6] خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوق.[7]

لكن السلطان أبا يوسف استطاع أن يبدد هذا الجيش بين قتيل وأسير وفار في يوم السبت 15 ربيع الأول 674هـ/1275م.

ويذكر ابن خلدون أن عدد القتلى وصل إلى ستة آلاف قتيل واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وآثارهم بما عنده.[8]

وقتل زعيم الكفرة دون نونيو وولده وهزم جيشه وقطعت رأس ذننه وأرسلت إلى ابن الأحمر الذي عطرها بالمسك وأرسلها بدوره إلى ملك قشتالة.[9]

---

(1) **المدور**: حصن حصين مشهور بالأندلس بالقرب من قرطبة لهم فيه عدة مواقع مشهورة -معجم البلدان ج/5 ص:92.

(2) **بياسة**: بياء مشددة مدينة كبيرة بالأندلس بينها وبين أبدة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب دخلها الروم سنة 542هـ وأخرجوا عنها سنة 552هـ. نسب إليها الحافة أبو طاهر أبا العباس أحمد بن يوسف بن تمام اليعمري -معجم البلدان ج/1 ص:613-614.

(3) **أبدة**: بالضم ثم الفتح والتشديد: اسم مدينة بالأندلس من كورة جيان، تعرف بأبدة العرب اختطها عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان بن معاوية، وتممها ابنه محمد بن عبد الرحمان -معجم البلدان ج/1 ص:85.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:45.

(5) الذخيرة السنية ص:147.

(6) **ذننه**: المعروف بالروايات الإسبانية باسم يونيو دي لارا -تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:45.

(7) العبر ج/7 ص.255.

(8) العبر ج/7 ص:255.

(9) المصدر نفسه ج/7 ص:256.

ثم زحف يعقوب إلى أحواز إشبيلية [1] حيث قام بغارة عابرة وقام ببناء مدينة البنية بجانب الجزيرة، أما قوات بني الأحمر فقد كانت بدورها تهدد قرطبة [2] وإشبيلية، وأثناء هذه الغارات السريعة قتل أسقف طليطلة، وانهزمت النجدات القشتالية أمام المسلمين ولكن هؤلاء وقفوا عند هذه المعارك الشبيهة بالمناوشات، من غير أن يضربوا على المدن الكبرى حصارا طويل الأمد وأن يحاولوا زحزحة العدو عن مراكزه.[3]

وقد أسفر هذا العبور الأول عن تثبيت أقدام المرينيين في ثلاث قواعد رئيسية من قواعد بلاد الأندلس، وهي رندة، وطريف والجزيرة الخضراء، وتأسيس قاعدة أخرى جديدة وهي البنية. كما أطاح هذا العبور بأحلام النصارى في القضاء على ما تبقى للمسلمين من أراضي في بلاد الأندلس إذ رأوا قوة جديدة تقتحم عليهم ميادين للقتال، كانوا يظنون أنهم متفوقون فيها على المسلمين لا محالة.[4]

وكان للسلطان يعقوب عبور ثاني للأندلس وأعانه بن شقيلولة وصاحب قمارش وانتصر فيها على الفرنجة.[5]

أما العبور الثالث للسلطان يعقوب، فكان بسبب تحالف ابن الأحمر مع القشتاليين ضده، يقول ابن خلدون:» واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية على منع أمير المسلمين من الإجازة، وراسلوا يغمراسن بن زياد من وراء البحر وراسلهم في مشاقة السلطان وإفساد

(1) **إشبيلية**: من أعظم مدن الأندلس، جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكر أهل العلم باللسان اللطيفي إن أصل تسميتها اشبالي معناها المدينة المنبسطة وقيل أول من بناها يوليش القيصر. وهي مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصنية وسوقها عامرة وخلقها كثير وأهلها مياسر. ومن محاسنها اعتدال الهواء وحسن المباني، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه 72 ميلا -الروض المعطار ص:58-59. -نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت سنة:1968 الجزء:1 الصفحة:156-157.

(2) **قرطبة**: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة وهي أعظم مدن الأندلس وليس لها مثيل في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة وكان فيها أعلام البلاد وأعيان الناس وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد.

-الروض المعطار ص:456.

-معجم البلدان ج/4 ص:368. (أنظر أيضا) نفح الطيب ج/1 ص:153.

(3) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:24.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:46.

(5) الاستقصا ج/3 ص:46.

ثغوره وإنزال العوائق به المانعة من حركته، والأخذ بأذياله عن النهوض إلى الجهاد. وأسنوا فيما بينهما الاتحاد والمهادنات.»[1]

وكان جوازه الرابع إلى الأندلس سنة 684هـ/1285م حينما استفسر السلطان يعقوب سانشو ملك قشتالة الجديد عن سياسته تجاه المسلمين فرد عليه سانشو ردا قاسيا، وقام السلطان يعقوب يعبئ جيشا لمحاربته وشارك في هذا الجيش متطوعة ومرتزقة ثم عبر إلى طريق فالتحقت به امدادات من سبتة وغيرها، وقام بغارات على ناحية شريش[2] وقرمونة[3] ووزع الجيوش بين عدة مناطق لتشغل العدو في واجهات مختلفة.[4]

وكان لهذه الانتصارات الجديدة للمرينيين في الأندلس صداها في بلاد المغرب، إذ اتجه السلطان يعقوب بعدها إلى يغمراسن بن زياد حليف بن الأحمر والقشتاليين فقاد السلطان حملة تأديبية ضده ومكنت هذه الحملة من هزيمة يغمراسن ولاحقته وقضت على مقاومته عند موضع يعرف بالملعب[5] قرب تلمسان.[6]

والواقع أن عهد السلطان أبي يوسف يمثل في آن واحد الدور الأخير من نشأة الدولة المرينية ثم بداية عهد الازدهار والعظمة في عهد هذه الدولة.[7]

(1) العبر ج/7 ص:266.

(2) **شريش**: من كور شدونة بالأندلس، بينهما وبين قشتالة خمسة وعشرون ميلا، وهي على مقربة من البحر، يجود زرعها ويكثر ريعها. -الروض المعطار ص:340.

(3) **قرمونة**: مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية، بينهما وبين استجة خمسة وأربعون ميلا وهي مدينة كبيرة قديمة وهي في سفح جبل عليها سور حجارة من البنيان الأول وتقع على بعد 30 كيلومتر إلى الشمال الشرقي من إشبيلية. -الروض المعطار ص:461.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:26-27.

(5) **الملعب**: هو ملعب تيفني بخرزوزة.
-العبر ج/7 ص:270.

(6) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:48.

(7) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:28.

الفرع الثالث: مرحلة التوسع بعد يعقوب بن عبد الحق

بعد وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق بالجزيرة الخضراء سنة 685هـ/1286م بويع لابنه يوسف،[1] الذي بسط نفوذه على نواحي كثيرة من الجزائر، وفي بعض أيام أبي الحسن[2] توحد المغرب العربي تحت قيادته من السوس الأقصى إلى مسراته قرب الحدود المصرية، وزيادة على انفساح هذه المملكة إلى رندة بالأندلس وفي أيام أبي عنان[3] بن أبي الحسن برقت بارقة لاستعادة وحدة المغرب العربي ثم سرعان ما خبث. أما الفترة الواقعة بعد عهد أبي عنان إلى نهاية الدولة فلم يحدث فيها امتداد منظم نحو شرق المغرب، ولا يستثنى من هذا سوى غارات عابرة ارتجلها ملوك وحكام مرينيون.

وقد امتدت قوة الدولة المرينية حتى أيام أبي الحسن، ثم أخذت في التراجع تأثرا بعدة عوامل: فهناك الضعف الذي نزل بالجيش بعد موقعتي طريف والقيروان،[4] حيث انقطع العبور المريني للأندلس، وفشلت محاولة استعادة الإمبراطورية الموحدية في شمال إفريقيا.[5]

---

(1) **يوسف بن يعقوب المريني** ويكنى أبا يعقوب، أمه العز بنت محمد بن حازم العلوي بويع في غرة سنة 685هـ وقتل في ضحى يوم لأربعاء 17 ذي القعدة عام 706هـ وله 66سنة دفن بشالة وكانت دولته 21 سنة و9 أشهر. – روض النسرين ص:21.

(2) **أبو الحسن المريني**: هو السلطان أمير المسلمين علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، يكنى أبا الحسن، لقب بالمنصور بالله، أمه الصالحة المباركة العنبر، بويع بعد أبيه يوم الجمعة 25 ذي القعدة سنة731هـ، ومات رحم الله بذات الجنب بجبل هنتاتة ليلة الثلاثاء 27 ربيع الأول سنة 752هـ وله ستون سنة ودفن بشالة، مولده بتفرديون في صفر سنة 697هـ، وكانت دولته عشرون سنة وثلاثة أشهر. -روض النسرين ص:25.

(3) **أبو عنان المريني**: هو أمير المسلمين المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. يكنى أبا عنان لقبه المتوكل، ولد بالبيضاء في 12ربيع الأول سنة 729هـ، بويع بتلمسان في حياة والده يوم الثلاثاء منسلخ شهر ربيع الأول عام 749هـ، مات مقتولا خنقه وزيره الحسن بن عمر الفدودي يوم السبت 28ذي الحجة مختتم عام 759هـ، وله ثلاثون سنة. دفن بجامع المدينة البيضاء، وكانت دولته تسع أعوام وتسع أشهر.
-روض النسرين ص:27.

(4) **القيروان**: هي قاعدة البلاد الإفريقية وأم مدائنها، وكانت أعظم مدن المغرب نظرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا، وتبعد القيروان حوالي 160 كلم عن تونس العاصمة. قال الأزهري: القيروان معرب وهو بالفارسية كروان، وقد تكلمت به العرب قديما. والقيروان في الإقليم الثالث، طوله إحدى وثلاثون درجة، وعرضها ثلاثون درجة وهي مدينة عظيمة بإفريقية، فتحها عقبة بن نافع الفهري بنى بها مسجدا، وكان أول من اختط القيروان وأقطع مساكنها ودورها للناس.
-الروض المعطار ص:486-487. (أنظر أيضا) معجم البلدان ج/4 ص:476-477.

(5) ورقات عن حضارة المرينيين ص:15-16.

فمنذ تولي السلطان أبي الحسن المريني مقاليد الأمور في الدولة المرينية سنة 731هـ/1331م عَمِل على التوسع في بلاد المغرب الأوسط، وإفريقية، وكان ذلك التوسع رغبة منه في تحقيق الوحدة المغربية التي كانت قائمة أيام المرابطين والموحدين، ويبدو أن أمر الوحدة كان حلما يراود القوى الثلاث التي كانت موجودة في بلاد المغرب في ذلك الوقت وهي قوة المرينيين، وبني عبد الواد، والحفصيين، ومن تم بدأت كل قوة تعمل لهذا الهدف بالتوسع عل حساب القوى الأخرى، ولكن المرينيين من ناحيتهم كانوا يشعرون بهذه الرغبة أكثر من غيرهم باعتبارهم ورثة الموحدين، ومن منطلق أنهم هم الوحيدون من بين سائر القوى في بلاد المغرب الذين حملوا العبء الأكبر في سبيل القضاء على دولة الموحدين.

وانتقل المرينيون إلى مرحلة التوسع هذه بفضل ما وصلت إليه دولتهم من القوة والاستقرار، وما حققته من ألوان الازدهار والعظمة في تلك الآونة حتى إن المؤرخ السلاوي يصف السلطان أبا الحسن الذي بدأ عهد التوسع.(1)

قائلا: «هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارا بالمغربين والأندلس.»(2)

وقد أمضى المرينيون قرابة الثلاثين عاما في تنفيذ هذه السياسة التي استغرقت عهد اثنين من عظماء سلاطين بني مرين وهما السلطانين أبي الحسن، وأبي عنان.

أما جهود المرينيين التي شهدها مسرح السياسة العسكرية في المغرب الأوسط-قبل هذه الفترة- فلم تكن أكثر من عمليات تأديبية لبني عبد الواد، وكان أكثرها لتأمين الأراضي المرينية في أثناء العمليـات العسكرية التي قام بها المرينيون في الميدان الأندلسي.(3)

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:108.

(2) الاستقصا ج/3 ص:11.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:108.

الفصل الثالث:

النظام الاقتصادي والاجتماعي والفكري في دولة بني مرين

المبحث الأول: النظام الاقتصادي

المطلب الأول: النظام المالي

إن التنظيم الدقيق الذي سارت عليه الدولة المرينية في الجانب الاقتصادي، جعلتهم يعيشون فترات كبيرة في ظل الرخاء والازدهار، وذلك بفضل الموارد الاقتصادية الهائلة التي كانت تدعم الدولة والمتمثلة في الإنتاج الزراعي الواسع والمتنوع. وكذلك الأنشطة التجارية الحرة، والأنشطة الصناعية، فوضعت الدولة يدها على هذه الأنشطة وسيست ماليتها بتنظيم دقيق وممنهج.

فقد أقام المرينيون نظامهم المالي في الجباية[1] والإنفاق على أساس كل إقليم من أقاليم الدولة مسؤول مسؤولية كاملة عن الجباية والإنفاق في ولايته أمام الوزير المختص بالإشراف على خطة الجباية أو المتولى لها. وفقا للتقسيم الإداري للدولة المرينية، كانت هناك تسع ولايات تخضع من ناحية الإشراف المالي لإشراف دقيق، وبعض الأحيان أسند الإشراف على

(1) **الجباية**: لغة الجمع والتحصيل واستخراج الأموال من مضانها. وفي الاصطلاح: هي عملية أخذ الأموال من أوعيتها المختلفة حسب ما هو مقرر شرعا.

-لسان العرب ج/14 ص:131.

-مؤسسات الزكاة وتقييم دورها الاقتصادي دراسة تطبيقية لمحمد عبد الحميد فرحان مؤسسة الحامد الصفحة:42.

وقد ذكرها ابن خلدون وقال: «واعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة»

-العبر ج/1 ص:344

ديوان الخراج[1] إلى شخص دون الوزير، وفي أحيان أخرى أسندت إلى الوزير، وهذا الشخص هو الذي يتولى بنفسه التدقيق والتوقيع بصحة الحسابات سواء في الخراج او العطاء.[2]

وقد تحدث ابن خلدون عما في قضية مداخيل الدولة فقال:» اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وَقَهارِمَة الدولة وكلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان.«[3]

ويظهر من هذا النص أنه كانت هناك لائحة لديوان الخراج تتضمن القوانين المختلفة التي تضبط الدخل والمصرف من الخزانة المرينية.[4]

وكانت الجبايات تدفع نقودا أو أسلحة وثيابا وغيرها. وكان العمال يضمنون مبالغ الجبايات مقدما ليستخلصوها لأنفسهم، وكان هذا النظام الجائر له سوابق كثيرة بالشرق، غير أن أبا الحسن ألغى هذا النظام وعين جباة خاصين كما منع أهل الذمة بأداء غير الجزية والأعشار المشروعة. وكان يعفى أحيانا من الضرائب بعض الأشخاص والهيئات، وتخصص بعض الموارد لنفقات معينة كالجزية التي كان يصرف منها في فاس على الطلبة والخطبة بجامع القرويين وحدها تغل أحيانا عشرة آلاف دينار فضية سنويا.[5]

(1) **الخراج**: لغة ما يخرج من غلة الأرض. اصطلاحا: فهو ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدى عنها. -المعجم الوسيط ص:224.

-الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي تحقيق أحمد مبارك البغدادي مكتبة دار ابن قتيبة الكويت الطبعة:1 سنة:1989 الصفحة:186.

ومنه قوله ﷺ [الخراج بالضمان] -رواه ابن ماجة في سننه كتاب التجارات باب الخراج بالضمان رقم الحديث: 2243 الصفحة:754.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:277.

(3) العبر ج/1 ص:304-305.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:277.

(5) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:140.

واشتمل ديوان الخراج في الدولة المرينية على عدد كبير من هؤلاء المهرة الذين تحدث عنهم ابن خلدون والذين كانوا يباشرون صرف العطاء وجمع الجبايات وكانوا يسمون بالكتاب. وفي بعض الأحيان كان السلطان المريني يسند إلى شخصية من الشخصيات الهامة في الدولة، مهنة توزيع العطاء والمرتبات، في بعض الأماكن الحساسة من الدولة، فأبو الحسن المريني وجه الخطيب ابن مرزوق [1] ليقوم بتوزيع العطاء، والرواتب على أهل رندة وجبل الفتح[2] وقام بهذه المهمة لمدة سنة كاملة.[3]

ويبدو أن المرينيين استحدثوا وظيفة جديدة في ديوان الخراج لم يسبق أن كانت عند من سبقوهم في حكم المغرب كالمرابطين والموحدين، وهي وظيفة شهداء البيت كما يذكر ابن مرزوق في كتابه.

يقول ابن مرزوق: « شهداء البيت، وهي أشرف خطط العدالة، يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال، الداخل والخارج ويرجع إليهم سائر الأعمال وترفع لهم الجرائد.»[4]

وكان يختار له أقدر الكتاب، وأضبطهم لشؤون الحسابات وكان بعض ملوك بني مرين ينحون أهل الذمة عن هذا الديوان محافظة على أسرار الدولة المالية وصيانة لمواردها، وكان رئيس هذا الديوان يجمع إليه اختصاصات ديوان العطاء وله تفويض التوقيع باسم الوزير أو السلطان، ولكنه يرجع إلى قرارتهما.[5]

(1) **ابن مرزوق**:هو محمد الرابع الملقب بالخطيب بن أحمد بن محمد بن مرزوق العجيسي ينتسب إلى المرازقة ولد في تلمسان سنة 711هـ/1311م ومات في القاهرة سنة:781هـ/1379م هو كاتب المسند الصحيح الحسن، ترعرع في تلمسان رحل إلى الشرق لجمع العلم واللقاء بالعلماء عاد إلى المغرب ودخل تلمسان سنة737هـ وبعد وصوله فتح السلطان المريني أبو الحسن تلمسان فاستمال ابن مرزوق وأدخله إلى حاشيته وعينه خطيبا لجامع العباد تقلد الكثير من المناصب في الدولة المرينية لكنه سجن عدة مرات، كما شارك في عدة معارك كمعركة طريف التي أدت إلى هزيمة المسلمين.

– المسند الصحيح الحسن. ص:22-23-24.

(2) **جبل الفتح**: هو جبل طارق نسبة على فاتح إسبانيا طارق بن زياد، وكان يسمى قبل الفتح ب calpe بمعنى تجويف حاليا يتبع لبريطانيا وتنازعها إسبانيا في الأحقية، وهذا خلاف قديم.

-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب تحقيق محمد شبانة مكتبة الثقافة الدينية القاهرة طبعة 2000م الصفحة:82.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:278.

(4) المسند الصحيح الحسن ص:314.

(5) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:140.

وهذا ما يؤكده ابن مرزوق فيقول: «من فضائل مولانا رحمه الله، أنه لم يستعمل أحدا من أهل الذمة في هذه الخطة، كما استعمله غيره، وهذا معروف بالمشرق الآن، وقديما عهد بالمغرب والأندلس، ولم يتخذهم أطباء كما فعله غيرهم ولا خزنة أموال، كما تقدم لغيره.»[1]

فمن خلال هذا النظام المالي المحكم والدقيق أمكن لبعض المؤرخين أن يحصلوا على بعض الإحصائيات الدقيقة عن الرواتب في بعض قطاعات العمل في الدولة المرينية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أنه خلال حصار الجزيرة الخضراء في عهد السلطان أبي الحسن ولمدة عامين بلغت رواتب الجند الأندلسي والمريني التي تتحملها الخزانة المرينية خمسين ألف دينار من الذهب في كل شهر.[2]

وهذا ما يؤكده ابن مرزوق فيقول: « لما نزل سبتة لمواجهة العدو المحاصر للجزيرة، كان الخارج عنه بطول حولين كاملين لأهل المراتب خاصة من جيش الأندلس وجيش إمامنا المؤيد بجبل فتح، وداخل الجزيرة خمسين ألف دينار من الذهب في هلال كل شهر، لا يفتر عن ذلك عدا ما يمد به من في داخل الجزيرة.»[3]

ويذكر القلقشندي معلومات مفصلة عن رواتب الأشياخ وقادة الجيش المريني وكذلك الجند حسب درجاتهم، فيقول: «للأشياخ الكبار الاقطاعات الجارية عليهم: لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل وقرى، وضياع، وقلاع، ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب من تلك البلاد نحو عشرين ألف وَسْق. ولكل واحد مع الاقطاع الإحسان في رأس كل سنة وهو حصان بسرجه ولجامه، وسيف ورمح، محليان، وسَبَنِيَّة... وللأشياخ الصغار من الاقطاع والإحسان نصف ما للأشياخ الكبار مع الحصان المسرج الملجم والسيف والرمح والكسوة، ومنهم من لا يلحق هذه الرتبة فيكون أنقص. ومن عدا الأشياخ من الجند على طبقات: فالمقربون إلى السلطان يكون لكل واحد منهم ستون

(1) المسند الصحيح الحسن ص:378.
(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:278.
(3) المسند الصحيح ص:394.

مثقالا من الذهب في كل شهر، وقليل ما هم، ومن دون ذلك يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا ثم ما دونها، إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات وهي ستة مثاقيل في كل شهر.»[1]

وكانت الشخصية التي يوكل إليها رياسة ديوان الخراج تعطي حق مراقبة تصرفات العمال والولاة فيما يخص استخلاص وصرف أموال الجباية، كما يمكن أن تعطي حق معاقبتهم إذا اقتضى الحال، وممن استعمل على الجباية عبد الله بن أبي مدين وعبد السلام الأوربي وموسى بن علي الهنتاتي، وكان يجمع أحيانا بين ولاية الجباية والعمال بالرغم من عدم صلاحية هذا النظام، حيث يؤدي إلى استبداد العامل. وكان لجباية المصامدة أهمية كبيرة في موارد الدولة، إذ كانت مناطقهم من أخصب الأراضي كناحية مراكش وسوس لذلك كان لها وال خاص يولى في عين المكان.[2]

ونظرا لعيوب هذا النظام المتجلية في ظلم الولاة للشعب وارغامهم دفع مبالغ كبيرة من المال، قرر السلطان أبو الحسن إلغاء هذا النظام الجائر، واتبع نظاما جديدا عرف بنظام الأمانة، حتى لا يتعسف الولاة بمطالبة الناس بدفع المال.

ويشير ابن مرزوق في كتابه المسند إلى هذا الأمر فيقول: «وكان سبب هذا تمالئهم على الخيانة في ولايتهم على سبيل الأمانة فإذا تولوها إلتزاما امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم. فإذا زجروا، اعتدلوا بالالتزام. فأسقط رضي الله عنه هذا اللقب ولم يبق له أثر في المغرب. فصار يوليهم إياها أمانة وترك في ذلك أموالا طائلة ابتغاء وجه الله فرأى أثر ذلك دنيا وآخر.»[3]

فنظام الجبايات تعرض لعدة تعديلات وإصلاحات من طرف عدد من السلاطين المرينيين، فإن يوسف بن يعقوب أسقط المكوس، وأزال أكثر الرتب «الألقاب» كانت تؤخذ من المسافرين في الطرقات. إلا ما كان فيها بالمفازات العافية، ورفع أيضا الإنزال عن ديار الرعية، كما أسقط عن الناس المطالبة بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم.

---

(1) صبح الأعشى للقلقشندي المطبعة الأميرية دار الكتب المصرية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1922 الجزء:5 الصفحة:204-205.

(2) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:140-141.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:283.

كما رفع أبو سعيد الأول عن أهل فاس مان يلزم رباعهم -كل سنة- من المغارم، ثم تتابع رفعها عن سائر بلاد المغرب.

كما امتاز عهد أبي الحسن بإصلاحات جبائية هامة، فإنه لم يدع إلا الخراج والزكاة والعشر وما يقرره التشريع الإسلامي، وعين لاستخلاص هذه الجبايات موظفين يعرف منهم أبو العباس أحمد بن الحسن بن سعيد المديوني التلمساني النشأة، الذي استعمله هذا السلطان في الزكوات وسماع الشكايات.(1)

كما ألغى أبو عنان ضريبة الرتب، وأمر برفع التضييق الذي كان عمال الزكاة وولاة البلاد يأخذونه من الرعية.

والظاهر أن هذه الضرائب الملغاة كانت تعود للظهور كلا أو بعضا بعد فترة من إلغائها، ولا يفوتني أن أشير إلى أنه كانت تقع استثناءات جبائية لفائدة بعض المناطق أو الأفراد.(2)

ويشير ابن الخطيب في حديثه عن الرباط وشالة، أن مغارمها كانت لاحترام الملوك لها.(3)

المطلب الثاني: مداخيل الدولة المرينية

تعددت مصادر الدخل للخزانة المرينية، وتكاد هذه المصادر تنحصر في: الزكاة، الخراج، الجزية، الضرائب، الغنائم، المصادرات... ولم تكن هذه المصادر ثابتة، في كافة عهود سلاطين بني مرين، حيث مال بعض السلاطين المرينيين إلى قصر هذه المصادر على ما أمر به الشرع، والاستغناء عن المصادر الأخرى التي لم يقرها الشرع، ومال آخرون إلى التخفيف بإلغاء بعض الضرائب فقط. فالسلطان يوسف والسلطان أبو سعيد عثمان، وضعا في عهدهما نظاما جديدا للجباية اقتصرا فيه على الزكاة والأعشار الدينية فيما يخص رعايا الدولة من المسلمين، والجزية فيما يخص الذميين.(4)

---

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:120-121.

(2) المرجع نفسه ص:122.

(3) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص:155.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:280.

الفرع الأول: الزكاة

اعتبرت الزكاة من أهم مداخيل الدولة المرينية، نظرا لخصوصيتها الشرعية، وكانت تخضع بكل أنواعها لسلطة الدولة، وفقا لمقادير الشرع.

غير أن عصر أبي الحسن عرف بعض التغييرات خوصا في زكاة الفطر، حيث ترك السلطان للناس حرية التصرف في زكاة الفطر فقط.

وهذا ما ذكره صاحب الأنيس المطرب فقال:» وتصدق بترك الفطرة على الناس، وقال من وجب عليه أداؤها يتصدق بها لنفسه حيث شاء.»[1]

وحرص كثير من سلاطين بني مرين على استعمال الفقهاء في جمعها مراعاة للدقة والتزاما لجانب العدل في ذلك، إذ الفقهاء أقدر الناس على تقديرها وضبطها.[2]

وقد استعمل أبو الحسن المريني الفقيه أبو عبد الله القشتالي وهو نخبة المغرب ونادرة فقهاء فاس علماً وأدباً وسراوة وحسن مشاركة، استعمله في سماع الشكايات وفي الزكوات.[3]

الفرع الثاني: الجزية

كانت ضريبة الجزية تؤخذ من أهل الذمة، وكانوا يدفعونها في مقابل ما يتمتعون به من الحماية والأمن والسلام تحت راية الإسلام.

وكانت تؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء ولا تجب على المرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وزرارى. ولا تؤخذ الجزية أيضا من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من مقعد، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من المترهبين ولا أهل الصوامع عن لم يكونوا ذوي يسار، ولا تأخذ من الشيخ الكبير الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له. وفي بعض الأحيان استخدم المرينيون حصيلة أموال الجزية في إصلاح المساجد وترميمها. أو أنفق منها على المارستانات وعلاج المرضى ومساعدة الفقراء بمرتبات شهرية تعطيها لهم الدولة.[4]

---

(1) الأنيس المطرب ص:375.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:280.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:268.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:280.

ويتحدث صاحب الذخيرة إلى جزية اليهود التي تؤخذ منهم وتعطى للخدام والفقراء وغير ذلك فيقول:» وأجرى على الكل كالإنفاق من جزية اليهود لعنهم الله وأجرى للخدماء والفقراء مالا معلوما يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود وبنى المدارس بفاس ومراكش ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم وأجرى لهم المرتبات في كل شهر وأقام الدين وأمر بتطهير الأيتام وكسوتهم والإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء.»[1]

الفرع الثالث: الخراج

لم ينظر المرينيون إلى أرض المغرب نظرة الموحدين باعتبارها أرض خراج، وإنما اعتبروا أرض المغرب أرض عشر لأنها أرض أسلم أهلها عليها. لذلك لم أجد في المصادر التي تعرضت للعصر المريني ذكر لكلمة خراج، ولكن ذكرت كلمة عشر، وذكرت كلمة أعشار الروم.[2]

ويرجع نظام العشر إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان تجار المسلمين الذين يَغْدون إلى دار الحرب (أي بلاد الكفر الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد) يدفعون العشر عن سلعهم، فأمر عمر بن الخطاب بأن يأخذ المسلمون العشر من تجار غير المسلمين الذين يغدون ببضائعهم إلى دار الإسلام، فأمر بأن يأخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين ربع العشر إذا بلغ ثمن السلعة مائتي درهم فأكثر.[3]

كذلك الخراج الذي وظفه عمر رضي الله عنه على السواد وأرض الفيء، فإن معناه الغلة أيضا: لأنه أمر بمساحة السواد، ودفعها إلى الفلاحين الذين كانوا فيه، على غلة يؤدونها كل سنة، ولذلك سمي خراجا. ثم قيل للبلاد التي افتتحت صلحا، ووظف ما صولحوا عليه على أراضيهم، خراجية، لأن تلك الوظيفية أشبهت الخراج الذي ألزم الفلاحون وهو الغلة، لأن جملة معنى الخراج غلة.[4]

---

(1) الذخيرة السنية ص:91.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:280.

(3) النظم الإسلامية لحسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن مكتبة النهضة المصرية القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:239.

(4) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية لمحمد ضياء الريس، دار المعارف مصر الطبعة:3 سنة: 1969.ص:133.

وكان السلطان أبو الحسن المريني قد رفع عن رعيته المال الجسيم واقتصر على الزكاة، والعشر هنا هو الخراج.

وتحدث ابن مرزوق في مسنده عن رفع الخراج فقال: «فحييت بذلك نفوسهم وذهبت بذهاب هذا اللقب قلوبهم واقتصروا بعد هذا الأمر النكر على الزكاة والعشر، وفاز في ذلك بعظيم الأجر وجزيل الذخر وجميل الشكر. وقلد هذه الأعمال للعدول والقضاة والأمناء الثقات.»[1]

وكان بعض سلاطين بني مرين يأمرون أحيانا باستخدام أموال هذه الأعشار في إجراء بعض الإصلاحات في المساجد، وهذا يعني أن المرينيين كانوا ينظرون إلى هذه الأعشار على أنها ضمن خراج الدولة.

وجاء في كتاب الخراج لأبي يوسف قوله: «فما يؤخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة، وما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب فسبيله سبيل الخراج.»[2]

الفرع الرابع: الأوقــاف

وهي تكون بابا خاصا في الميزانية دخلا وخرجا، ويعني بها الموقوفات على المصالح العامة من طرف الأفراد والملوك. ومن المؤكد أن نتذكر أن أوقاف الأفراد قديمة بالمغرب، والجديد في هذا العصر هو أوقاف السلاطين الكثيرة، مع اتجاه هذا المشروع وجهة اجتماعية إلى جانب الاتجاه الديني.[3]

ويذكر ابن الخطيب أن مدينة فاس كانت أكثر المدن أحباسا وأوقافا، فقال:» إن أوقافها جارية.»[4]

وقد تنوعت الأوقاف في العصر المريني، وتفرعت إلى عدة شعب في كثير من جهات المغرب، وأبرز هذه الشعب في فاس -مثلا- تسعة فروع:

(1) المسند الصحيح الحسن ص:283-284.

(2) كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم المطبعة السلفية القاهرة الطبعة:4 سنة:1392ه الصفحة:145.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:124.

(4) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ص:175.

1 -أوقاف جامع القرويين الذي يسجل عنه أبو القاسم محمد التازغدري أن غلة أحباسه متسعة، وقد كان مبلغها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري عشرة آلاف دينار فضية في بعض الأعوام.

2و3 -أوقاف المدارس والمستشفيات، وكانت لها مداخيل وافرة، إلى أن فوت أكثر أملاكها أبو سعيد الثاني[1] ليسدد بها نفقات حروبه فقلت مداخيل هذه المؤسسات.

4 -أوقاف جامع الأندلس.

5 -أوقاف مكة المكرمة.

6 -أوقاف الزوايا المرينية.

7 -أوقاف تازة ونواحي مدينة فاس.

8 -أوقاف بقية مساجد فاس.

9 -أوقاف الوصايا.[2]

وقد كانت الأوقاف تحتفظ بإدارتها الخاصة تحت رقابة القاضي، مع الخطيب في بعض الأحيان، وبين الفترة والفترة كان القاضي يعقد مع النظار محاسبات حدد شكلها المفتي عبد الله العبدوسي في جواب له.[3]

ويذكر الوزان الفاسي مداخيل الجوامع بمدينة فاس فيقول:» أما قابض مداخيل الجامع فله إدارة خاصة وأجرته دكة[4] في اليوم ومعه ثمانية عدول، وأجرة كل واحد منهم ست دكات شهرية، ولهم خمسة بالمائة أجرة على ما يقبضون ومعهم عشرون ليس لهم شغل

(1) **أبو سعيد الثاني**: هو أمير المسلمين عثمان بن أحمد بن أبي سالم المريني يكنى أبى سعيد، أمه الحاجب العالي الجوهر. بويع بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء جمادى الأخرى من عام 800هـ وله ستة عشر سنة. كان من أهل العدل وإقامة الشرع. – روض النسرين ص:40-41.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:125.

(3) المرجع نفسه ص:125.

(4) **الدكة**: تزن ثلاث غرام ونصف ذهبا وتعادل بالصرف المغربي الحالي نحو 20 درهم مغربي. – ورقات عن حضارة المرينيين ص:126.

سوى تفقد الحراثين وخدمة العنب والبساتين والنظر في لوازمهم ولهم على ذلك ثلاث دكات شهرية لكل واحد.»[1]

وكان من المؤكد على المسؤولين عن الأحباس أن يتفقدوها، وهو أمر ضروري لابد منه وهو واجب على الناظر فيها، لا يحل له تركه إذ لا يتبين مقدار غلاتها ولا عامرها ولا غامرها إلا بذلك، وما ضاع كثير من الأحباس إلا بإهمال ذلك.[2]

هذا ومن التشريعات التي وضعت للأحباس في هذا العصر، ما أفتى به أبو محمد عبد الله العبدوسي في مسألة جمع أحباس فاس في نقطة موحدة، فقد قرر إباحة جمعها كلها في نقطة واحدة وباب واحد لا تعدد فيه، بأن تجمع مستفادات مختلف المساجد كلها، ويقام منها ضروري كل مسجد، ولو كانت أوقاف بعض المساجد قليلة فيوسع عليها من غنيها، ويقدم الجامع الأعظم قبل جميعها، ثم الأعمر فالأعمر. أما الجهات التي تتفق فيها مداخيل الأحباس فقد كانت كثيرة، فإلى جانب لوازم المساجد صارت الأحباس -في هذا العصر- تنفق على المدارس والمستشفيات والملاجئ، وعلى كثير من أبواب البر والإحسان.[3]

الفرع الخامس: الضرائب

فرض عدد من سلاطين بني مرين ألوانا مختلفة من الضرائب، غير تلك التي أقرها الشرع، وقد زادت هذه الضرائب في بعض الأحيان عن الحد، الأمر الذي دعا بعض سلاطين بني مرين إلى تخفيفها أو إلغائها، وجاءت أول إشارة إلى وجود ضرائب زائدة على ما أمر به الشرع في الدولة المرينية، في مطلع عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، إذ رفع هذا السلطان ما كان مفروضا على الديار من ضرائب تعرف باسم الإنزال ونوع آخر من المكوس.[4]

---

(1) حياة الوزان الفاسي وآثاره لمحمد المهدي الحجوي المطبعة الاقتصادية الرباط سنة:1935 الصفحة: 73-74.

(2) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. للونشريسي طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط ودار الغرب بيروت سنة:1981 الجزء:7 الصفحة:301.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:126.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:281.

وتوالت بعد ذلك إشارات بعض المؤرخين إلى رفع أنواع أخرى من الضرائب عن كاهن الشعب المريني، كما حدث في عهد السلطان أبي سعيد المريني، والسلطان أبي الحسن المريني.[1]

وقد تحدث ابن مرزوق في مسنده عن الضرائب التي رفعها السلطان أبو الحسن عن رعيته وهي:

1 -الخرص وهي ضريبة تفرض على الحدائق، وفي كثير من الأحيان كان أصحابها يسقطونها هروبا من تلك الضرائب التي أثقلت كاهلهم.

يقول ابن مرزوق: « ومما رفع عنهم الخرص في الجنات، وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية فأدى ذلك إلى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنهوظيفة الخرص.»[2]

2 -النزول وهي ضريبة كانت مفروضة على بلاد الأندلس وغيرها من العدوتين.

يقول ابن مرزوق: « ومما رفعه رضي الله عنه مما عظم به المصاب النزول المعهود في بلاد الأندلس وغيرها من العدوتين.»[3]

3 -الجمون وهي ضريبة فرضت على أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة، على النخل والزرع، وكان المتحصل من هذه الضريبة الكثير من الذهب.

يقول ابن مرزوق:» ومما رفعه رضي الله عنه، وهو مال جسيم، له قدر عظيم، المغرم الذي تعوده أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة، فإنهم كانوا يغرمون مغرما يسمونه الجمون في النخل والزرع، يجتمع فيه كل سنة أحمال من الذهب مغرما ألفوه، وفي بلاد النخل والزرع عرفوه، فرفعه بجملته ورده إلى الخرص الشرعي وسبيله السري.»[4]

(1) مظاهر الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله دار سلمى الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1957 القسم الأول الصفحة:79.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:282-283.

(3) المصدر نفسه ص:283.

(4) المسند الصحيح الحسن ص:283.

4 -ضريبة المغارم وهي ضريبة كانت مفروضة على كل شخص وكانت شبيهة الجزيات المضروبة على أهل الذمة بل أشد، وكان يجمع فيها من المال ما لا يحصى قدره.

يقول ابن مرزوق: « كانوا يوظفون فيها المغارم على الرؤوس فيجعلون على كل شخص، صغيرا أو كبيرا قويا أو ضعيفا حتى الرضيع، مغرما يخصه، وكانت مظلمة لا نظير لها في المظالم المحدثات، وصارت أخت الجزيات المضروبة على أهل الذمة، بل أشد، فأسقط ذلك.»[1]

وكانت المدن تؤدي ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد كما نص على ذلك الحسن بن محمد الوزان ولكن أبا سعيد المريني استعاض عن جميعها بالمكس والقبالة، ففيما يخص الأولى كانت تبلغ بفاس مثلا اثنين في المائة وتؤخذ عن كل شيء عدا الأبقار والدجاج والخشب (الجمال والغنم تعفى كذلك في بعض الأحيان) وكانت النسبة تصل أحيانا خمسة وعشرون في المائة وكان المخزن يتقاضى عن كل مقطوعة من الثوب المستورد من أوروبا والمبيع في القيسارية قدراً معلوماً من المال.[2]

وكانت هناك ضرائب أخرى كالضريبة المفروضة على بائع اللحوم المشوية في الشارع أو على الخضر وكالتي كانت تؤدي عن المكاييل في أسواق الحبوب وهي أشبه بالضريبة التي تؤدي اليوم في رحبة الزرع.[3]

كما كانت الموانئ مصدرا هاما من مصادر الجباية، أمدت المرينيين بكثير من الأموال فكان إيراد ميناء سبتة من الضرائب في اليوم يتراوح بين خمسمائة دينار إلى سبعمائة وفي بعض الأحيان كان يصل إلى ألفي دينار في اليوم.[4]

(1) المسند الصحيح الحسن ص: 284.

(2) معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله دار الكتب العربية الرباط الطبعة:1 سنة:1963 الجزء:2 الصفحة:94.

(3) المرجع نفسه ج/2 ص:94.

(4) أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وسعيد أعراب ومحمد بن تاويت وعبد السلام هراس مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة صندوق مشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات المتحدة (بدون رقم طبعة) سنة:1939 الجزء:1 الصفحة:44.

الفرع السادس: المصادرات

كانت المصادرات من المصادر التي أمدت الخزينة المرينية بمبالغ كثيرة من الأموال، فكان الولاة يوقعون على التجار عقوبة المصادرة، فيصادرون السلع التي يحاول التجار إخفاءها لترفع أسعارها وقد لا يكتفي الولاة بمصادرة السلعة، فيوقعون غرامة تصل إلى خمسة أضعاف سعر السلعة المصادرة. وقد ألغي هذا النوع من المصادرات في عهد السلطان أبي الحسن المريني الذي رآه عبئا ثقيلا على كاهل التجار الذين تعرضوا لكثير من أذى الولاة.[1]

يقول ابن مرزوق في هذا الأمر: « ومن جملة ما رفع عنهم وظائف استغراق السلع إذا ظهر الولاة على أن التجار تحملوا في سرقتها المخزن فكانوا يجعلون عقوبة ذلك أخذ السلعة كلها أو تغريم خمسة مخازن، وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات فكان الولاة يجمعون في ذلك أموالا جمة، يلتزمون بسببها ما يلتزمونه، فأسقط ذلك رضي الله عنه.»[2]

فالمصادرات كانت تعد أيضا عقوبات لوقف انحرافات المسؤولين وموظفي الدولة، فنجد في المصادر التاريخية أن السلطان أبا سعيد عثمان المريني أمر بمصادرة أموال منديل بن محمد الكناني نتيجة بعض الأخطاء الجسيمة التي أخذت عليه.[3]

وأبو الحسن المريني أمر بمصادرة الأملاك التي اشتراها الخطيب أبو الفضل محمد بن المزوغني من أموال الأحباس والأوقاف، التي كان يشرف عليها، بعد أن ثبت تورطه في إنفاق هذه الأموال بطريق غير سليم.[4]

الفرع السابع: الغنيمة

الغنيمة في اللغة هي الفوز بالشيء بلا مشقة، أو هذا الغنم والفيء: الغنيمة. ونقول غنم تغنيما أي نفله إياه. واغتنمه وتغنمه: عده غنيمة.[5]

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:283.
(2) المسند الصحيح الحسن ص:283.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:283.
(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:283.
(5) القاموس المحيط [مادة غني] ص:1207.

وفي الاصطلاح: ما وصلت من المشروعية أو كانوا سبب وصولها.[1]

والغنيمة بهذا المعنى كانت مصدرا هاما من مصادر الدخل في الدولة المرينية، لأن المرينيين اضطلعوا بأعباء الجهاد في الميدان الأندلسي -بعد سقوط الدولة الموحدية- ضد نصارى إسبانيا، الذين كانوا يلحون لالتهام ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في بلاد الأندلس، وحصل المرينيين نتيجة للمعارك التي خاضوها في هذا الميدان على كثير من الغنائم، التي دعمت دخل الدولة المرينية، وعززت موقفها المالي.[2]

ويذكر المؤرخ ابن أبي زرع صاحب الذخيرة أن الأمير أبا يوسف قسم بالجزيرة ما أفاء الله عليه من الغنائم على المجاهدين بالسوية والاعتدال للفارس سهمان والراجل سهم واحد بعد أن نزع الخمس لبيت المال، وكان ما غنم المسلمون في هذه الغزاة مائة ألف رأس من البقر وسبعة وعشرين ألفا، وأما الغنم فلا تحصى حتى بِيعَت الشاة منها بالجزيرة بدرهم.[3]

والظاهر من النص التاريخي الأثر الاقتصادي الذي أحدثته تلك الغنائم والرخاء الذي عم على المواطنين في عهد الدولة المرينية. ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن سبب الرخاء هو العدل الذي ساد بين السلطان والرعية، وكذا تطبيق القواعد الشرعية المرعية في توزيع الغنائم.

الفرع الثامن: المكس

المكس في اللغة كلمة تدل على جبي مال وانتقاص من الشيء. ومكس إذا جبي. والمكس الجباية.[4]

والمكس في البيع يمكس: إذا جبى مالا. والمكس: النقص والظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية، أو درهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة.[5]

---

(1) الأحكام السلطانية ص:161.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:282.

(3) الذخيرة السنية ص:174.

(4) معجم مقاييس اللغة [مادة مكس] ج/5 ص: 345

(5) القاموس المحيط [مادة مكس] ص: 1549.

أما المكس في الاصطلاح وحسب ما اطلعت عليه فلا يختلف معناه اللغوي عن المعنى الاصطلاحي فالمكس يطلق على الضريبة والجباية والعشور والمغارم والخراج ونحو ذلك.

عرفه الدكتور عبد الله العروي فقال: «المكوس وهي الرسوم على المعاملات التجارية، وكانت تحمل أسماء أخرى كالقبالات، اتقاء معارضة الفقهاء لما جاء في الحديث من تحريمها.»[1]

والمكوس إذن هي رسوم مفروضة على أهل البوادي والحواضر التي تدخل ضمن المعاملات التجارية، وكان يجمع منها مال كثير ينفق به على الجيش المريني. وهذا الأمر يؤكده لنا الدكتور المنوني فيقول: «الأمكاس التي رصدت لبعض النفقات، فقد كانت أمكاس مدينة فاس - قبل عهد أبي الحسن - تصرف في مرتبات إحدى فرق الجيش المريني، وهي فرقة الروم القشتاليين، ثم صار أبو عنان يتصدق بمجابي أبواب المملكة يوم سبعة وعشرين من رمضان، وكان ابن الخطيب يتقاضى مرتبا شهريا بمبلغ 500 دينار فضية عشرية من مجبي مدينة سلا.»[2]

ويشير ابن مرزوق أن المكس كان جباية ثقيلة على الرعية من جهة ومن جهة أخرى هو من البدع الذي عارضه الفقهاء ونادوا بإزالته ومحوه عن الرعية، حتى جاءت فترة حكم السلطان الورع أبي الحسن المريني، فأزال أثره عن الشعب.

يقول ابن مرزوق في مسنده متحدثا عن المكس: «فقامت السنن في مدته على ساق، وذهبت آثار البدع ولم يبق لها انتظام ولا اتساق، فلنذكر في هذا الفصل ما محاه من المناكر ورفعه من المكوس من البوادي والحواضر، أما ما أحفظ له مما رفعه بمدينة فاس المحروسة فأولها ما كان يرفع من فوائد المروس، كان يؤخذ عن ذلك مال جسيم يصرف في مرتبات النصارى الملازمين للخدمة، وهو مال طائل ينتهي عدد النصارى إلى ثلاثة ألاف فارس وإن قلوا فإلى ألفين، ورواتبهم كبيرة من الخمسين دينارا من الذهب إلى خمسة دنانير ذهبا في كل شهر غالبا، فينفذ ذلك كله مما ذكرناه، فرفعه رضي الله عنه ومحا أثره.»[3]

(1) مجمل تاريخ المغرب. لعبد الله العروي. المركز الثقافي العربي الدار البيضاء. الطبعة:2. سنة:2000. الصفحة: 210.
(2) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 123.
(3) المسند الصحيح الحسن. ص: 282.

فمن خلال هذه النصوص التاريخية يتبين أن ضريبة المكس كانت جد ثقيلة على أهل المغرب زمن الدولة المرينية، فعمال السلاطين كانوا يفرضونها على التجار والحرفيين والضياع وأصحاب المواشي والفلاحون، وحتى أصحاب الشواء كما تذكر المصادر التاريخية، مما أثقل كاهل أصحاب هذه الفئة وربما هذا أمر طبيعي لملأ خزانة الدولة.

غير أن هذه الضرائب تفاوتت حسب زمن كل سلطان فهمنهم من كان حريصا على فرض الجبايات والضرائب لأنه كان قويا مهابا، ومن السلاطين من كان رحيما برعيته فأزال ومحا عنهم بعض الضرائب التي تشوبها بدعة أو منكرا أو دعا العلماء إلى إزالتها ومحوها عن الشعب.

ويمكن القول جملة وتفصيلا أن مداخيل الدولة المرينية كانت متعددة ومتنوعة، غير أن نسبها كانت متفاوتة حسب فترة حكم كل سلطان.

المبحث الثاني: النظام الاجتماعي

المطلب الأول: شاكلة السكان في عهد بني مرين

استقرت عناصر سكان المغرب على ما كانت عليه من الأصول في عهد الموحدين.[1]

وشكل البربر السواد الأعظم في البناء الاجتماعي للمجتمع المريني، فمن هؤلاء البربر كانت الطبقة الحاكمة التي انتمت إلى إحدى هذه القبائل البربرية، وهي قبيلة بني مرين، وبطبيعة الحال كان انتماء بني مرين إلى زناتة سبيلا إلى علو كعب القبائل الزناتية في الدولة المرينية، حيث كانت قبائل زناتة دوما أكبر عون للمرينيين سواء في مراحل تأسيس الدولة، أم في المراحل الأخرى إذ كانت قبائل زناتة تشكل عنصرا كبيرا من عناصر الجيش المريني.[2]

كما ضم المجتمع المريني عددا من الأندلسيين الوافدين من الأندلس، وتميزت من هؤلاء الأندلسيين مجموعتان: الأولى مجموعة الأندلسيين المشتركين في الجيش المريني، وكانوا من الجند النشابة حملت الأقواس بصفة خاصة. ولمهارتهم في الرماية تولوا قيادة المركب السلطاني. أما المجموعة الثانية فهي طبقة العلماء الذين انتقلوا من الأندلس إلى المغرب الأقصى بعد ضياع بلادهم باحتلال النصارى الإسبان لها، وهؤلاء كان لهم دور في الحياة الدينية والثقافية في الدولة المرينية.[3]

أما العرب فقد انضمت معظم قبائلهم إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق، فأصبح العرب ضلع في أضلاع كتلة الدولة المرينية وانصهروا في مجتمعهم، كما أصبحوا عماد جهاز المخزن.[4]

فالعنصر العربي بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين، من بقايا العرب الفاتحين، يضاف إليهم القبائل العربية التي جاءت إلى المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري على شكل الموجبات التي عرفت في التاريخ المغربي باسم الغزوة الهلالية.[5]

---

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:144.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:317.

(3) المرجع نفسه ص.317.

(4) دراسات في تاريخ المغرب العربي لحسن علي حسن مكتبة الشباب (بدون رقم طبعة) سنة:1978 الصفحة:261.

(5) دراسات في تاريخ المغرب العربي ص:261.

لكن المرينيين لم يعتمدوا كثيرا على القبائل العربية، خاصة في مرحلة تأسيس دولتهم، إذ كانت القبائل العربية مدبدبة بين ولائها للموحدين وطاعتها لبني مرين. وهذا ما دعا السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى نقل بعضهم من درعة إلى مراكش ليكونوا هناك تحت رقابة عماله.

ويؤكد وجهة النظر هذه أن القبائل العربية في إفريقية هي التي حملت لواء المعارضة ضد الوجود المريني هناك، وساهمت في إعادة إفريقية للحفصيين ثانية.[1]

وقد تمركزت معظم هذه القبائل العربية في عدة مواضع من ناحية المغرب الأقصى، فأقامت قبائل جشم وهي: قبائل خلط والعاصم وبنو جابر في تامسنا، وأقامت قبائل معقل في السوس الأقصى وتشتمل هذه القبائل: الأثبج، وذوي حسان والشبانات. أما قبائل رياح فقد أقامت في أزغار وبلاد الهبط.[2]

ولم تشر لنا الأحداث والوقائع التاريخية أن حربا قامت بين العرب والبربر من أجل هذا الاستقرار الذي لم يشجعه ويركب به مقدما سوى ملوك البربر أنفسهم.[3]

ونجد إلى جانب هذا النمط السكاني من البربر والعرب في المجتمع المريني، كانت هناك عناصر سكانية أخرى غير أنها مثلت فئة قليلة داخل هذا المجتمع وهي: الأتراك الغز والروم واليهود والنصارى.

1 -الغز: هم جنس من الترك تعود أصولهم إلى أقصى بلاد الشرق، على تخوم الصين، دخلوا بلاد المسلمين أسارى أو ممالك، ثم علا شأنهم في الحياة المدنية والعسكرية، فكان منهم القواد والوزراء والولاة. ومن هؤلاء الغز كان أحمد بن طولون سلطان مصر في القرن الثالث.[4]

وقيل عنهم أنهم من القبائل التركية المسلمة التي تسكن في إقليم ما وراء النهر.[5]

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:317.

(2) المرجع نفسه ص:318.

(3) المغرب عبر التاريخ. ج/2. ص: 144.

(4) المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص: 210.

(5) إيران والعراق في العصر السلجوقي لعبد المنعم محمد حسين. دار الكتب اللبناني. بيروت. الطبعة: 1. سنة:1982. الصفحة:134.

وهؤلاء الغز ظهروا في المجتمع المغربي منذ عهد المرابطين الذين استعانوا بهم في جيوشهم.[1]

وفي العهد الموحدي، فقد أحسن الموحدون نزلهم، وبالغوا في تكريمهم، وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين، وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية[2] ثلاث مرات في كل سنة، في كل أربعة أشهر مرة، وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لا تختل، والفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، والموحدون لهم الأقطاع والأموال المتأصلة.[3]

ولكن الغز في ظل الدولة المرينية، لم تكن لهم تلك المكانة التي كانت لهم في الدولة الموحدية، وكانت هيئتهم تميزهم عن غيرهم من سكان البلاد إذ كانوا يضفرون شعورهم كالنساء.[4]

2 - الروم: ويطلق عليهم الفرنج وكان معظمهم يمثلون فرقة ضمن الجيش المريني وقد أشار صاحب كتاب صبح الأعشى لذلك فقال:» ثم بعد الأشياخ عامة الجند من الأندلسيين وغيرهم، والعلوج من الفرنج.»[5]

وكان عددهم أيام أبي الحسن مقدار أربعة ألاف فارس أو يزيد، وقد كانت طائفة منهم تقوم بالحراسة الليلية في ظاهر القصر المريني بفاس الجديد، كما كانوا يركبون خاصة خلف ظهر الملك في الحروب.[6]

---

(1) دراسات في تاريخ المغرب العربي. ص: 264

(2) **الجامكية**: جمع جوامك وهي الرواتب عامة.

-نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كلشي فواز دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2004 الجزء:30-31 الصفحة:9.

ذكرها صاحب صبح الأعشى فقال:» ورتب عليها نفقة مماليكه من جماكيات.»

-صبح الأعشى ج/3 ص:457.

(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص: 210.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 318.

(5) صبح الأعشى. ج/ 5 ص: 203.

(6) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 100.

وحرص سلاطين بني مرين على جمعهم في مكان واحد عرف بحي الملاح بالقرب من البلد الجديد. وكان لهم دورهم في الحياة السياسية وخاصة خلال عصر نفوذ الوزراء.[1]

3 - النصارى: عاش النصارى في كنف الدولة المرينية وكان عددهم في عهد المنصور المريني يبلغ بمراكش حوالي خمسمائة، وقد ظلوا يؤدون طقوسهم إلى جاب أولادهم ونسائهم حتى استقدمهم جان الأول ملك قشتالة. وقد استفاد المرينيون من خبرتهم الحربية رغم تدخلهم المتوالي في شؤون الدولة، فقد سمح لهم الموحدون من قبل ببناء كنيسة بمراكش، وكانت الكنيسة تحمل اسم نوتردام، ولما كان عهد أنوصان الرابع أرسل إلى ملك المغرب سنتي 1246م و1251م، رسالتين يطلب منه فيهما أن يمنح المسيحيين أماكن يحتمون بها عند الخطر الذي يتهددهم من الأهالي، إذا أساؤوا استعمال الحقوق المخولة لهم، ومن الملاحظ أن الملوك الموحدين بعد المأمون قد تركوا المسيحيين في خدمتهم حتى أن البابا جرجير التاسع شكر الرشيد سنة 1233م على العناية التي يبديها نحو النصارى.

وفي مطلع سنة 1308م علم أبو ثابت المريني قائد حامية مراكش أن يوسف بن محمد بن أبي عباد قد أتى قتلا على النصارى بمراكش واستولى على أموالهم وفر إلى أغمات، وقد تمكن أبو ثابت من قتله ومئات من أتباعه الذين علقت رؤوسهم على أبواب مراكش، انتقاما من قتلهم النصارى.

وكلما تفاقم خطر النصارى على المسلمين بسبب تدخلهم السافر في شؤون السياسة عمد هؤلاء إلى الانتقام منهم فيضطر القادة الملوك المرينيون إلى حمايتهم. وإذا كان المرينيون قد صحبوا معهم معظم القوة النصرانية من مراكش الموحدية إلى فاس، فقد تركوا عددا منها بمراكش حتى إذا كانت سنة 1390م طلبت الحامية النصرانية المؤلفة من 50 فارسا الدخول إلى إسبانيا. وكانت الكنيسة المسيحية بمراكش توجد جنوب مسجد المنصور بالقصبة والتي كان بها أيضا السجن المخصص للمسيحيين.[2]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:318.

(2) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: الحياة الدينية في عهد بني مرين. العدد:64 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب. www.habous.gov.ma

وكان النصارى يسكنون الربض الذي كان يسمى ربض النصارى بالمدينة الجديدة.[1]

4 -اليهود: سكن اليهود بالملاح حول مدينة فاس الجديدة، وكان عددهم كبير عند دخولهم المغرب الأقصى.

وكان لليهود دور كبير في الحياة السياسة في الدولة المرينية، حيث وصل بعضهم إلى أرفع المناصب داخل الدولة، فكان خليفة بن حيون بن زمامة حاجبا للسلطان يعقوب بن عبد الحق.

وتولت أسرة بني وقاصة اليهودية قهرمة القصر السلطاني في عهد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني،[2] تولى منصب الوزارة اثنان من اليهود هما هارون وشاويل، وقد أدى تحكم اليهود في الدولة عن طريق هذين الوزيرين إلى مقتل السلطان عبد الحق المريني وسقوط الدولة المرينية.[3]

كما أن السلطان أبا سعيد المريني الأول جعل من مدينة حمص التي أسسها إزاء البلد الجديد مسكنا لليهود وقد كان موضعها يعرف بالملاح. وعلى هذا فلا يبعد أن يكون بناء هذه المدينة وقع مكان الحي اليهودي الأول، وبهذا يكون موقع مدينة حمص هو نفس موقع الملاح القديم، وحسب مصدر يهودي فإن الملاح القديم كان موضعه في الجهة التي تسمى اليوم ساحة التجارة، بينما كان الملاح الحالي مقبرة يهودية قبل أن يصير حيا يهوديا بعد عام1724م.[4]

(1) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 49.

(2) **عبد الحق بن أبي سعيد**: هذا السلطان هو أخر ملوك بني عبد الحق من بني مرين، وهو أطولهم مدة وأعظمهم محنة وشدة وهو أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتي المريني، أمه علجة إسبانية على ما ذكره منويل، وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جدا وتداعي إلى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله.

-الاستقصا. ج/4 ص: 95

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:318-319.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 47-48.

ويذكر أن اليهود انتقلوا للملاح القديم عام 5198 بالتاريخ العبري، وهذا يوافق من الميلادي سنة 1438م ومن الهجري عام 808هـ، وهو في هذا يخالف ما أثبته ابن أبي زرع، الذي كان قريبا من عصر الحادثة، حيث وصل في تأليف روض القرطاس إلى عام 726هـ، أي بعد 49 عاما فقط من تاريخ عام 677هـ، حيث وقع نقل اليهود إلى السكنى حول فاس الجديد.[1]

ويبدو أن تقربهم من ملوك بني مرين، جعل بعض السلاطين تلغي الجزية عن اليهود لحسن سلوكهم، كما تمتع اليهود بحماية الدولة لهم، فصدرت الكثير من الظهائر تأمن حقهم بين المسلمين، وكانت تصدر أوامر لكف الأذى عن اليهود. كما انفرد اليهود بصناعة الصياغة واختلفوا فيها، وأقاموا لها سوقا لأنفسهم بعد أن كانوا في الحرف الممتهنة كالصباغة والدباغة والصّيارة[2] والميارة[3]، وأكثرهم حمالين وخياطين وكيالين. ولما استولوا على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة، فأدخلوا أنفسهم في الصرف والتردد لدار الضرب، وقدمهم مع ذلك الولاة والعمال لقبض المجابي والأموال في سائر الأشغال، فعظم بلاؤهم في الدين وضررهم بالمسلمين، حتى أن أحبارهم يبيحون لهم الغش، ويكذبون لهم على أنبيائهم في وجوه إباحته.

ولما كان سنة 736هـ تشكى الناس بضررهم في ذلك لمولانا أمير المسلمين، كرم الله وجهه وبرد ضريحه،[4] وثبت عنده غشهم أمر بضرب أبشارهم والشدة في نكالهم، ونفذ أمره الكريم بأن يعتمد من يقف عليه من المشتغلين والخدام وولاة القصبة وسائر الحكام بكل بلد تحت إيالته على أن يرفعوا أيدي اليهود عن الاشتغال بالصياغة والصرف والقبض وكل ما فيه غش للمسلمين رفعا كليا.[5]

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص: 48.

(2) **الصِّيَارَة**: جمع صِيرٌ وصِيرٌ حظيرة الغنم والبقر من بناء اليهود

-القاموس المحيط [مادة صير] ص:959.

وجاء في المعجم الوسيط الصيارة حظيرة الدواب -المعجم الوسيط [مادة صَارَ] ص:531.

(3) **الميارة**: من الميرة وهي جلب الطعام نقول مار عياله يمير ميرا وأمارهم والميار جالب الميرة.

-القاموس المحيط [مادة مير] ص:1567.

(4) المقصود هنا أبو الحسن علي بن عثمان المريني. تولى الحكم سنة 731هـ. (سبق تعريفه)

(5) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة. لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم. تحقيق حسين مؤنس. مطبعة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد سنة: 1957. الصفحة: 116-117.

المطلب الثاني: مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد الدولة المرينية

حين تتبع مظاهر الحياة الاجتماعية من خلال المصادر والمراجع فإنها متعلقة بالحياة الخاصة لسلاطين الدولة المرينية، كما أنها تتعلق أيضا بمواطني الدولة على اختلاف طبقاتهم ونمط عيشهم.

الفرع الأول: الحياة المعتادة للسلاطين

كان من عادة معظم سلاطين بني مرين أن يجلس الواحد منهم في بكرة كل يوم، ويدخل عليه الأشياخ الكبار فيسلموا عليه، فيمد لهم السماط ثرائد في جفان ولها طوافير: وهي المخاني، فيها أطعمة ملونة منوعة، ومع ذلك الحلوى: بعضها مصنوع بالسكر ومعظمها مصنوع بالعسل والزيت، فيأكلون ثم يتفرقون إلى أماكنهم. وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكر معه وقد لا يركب.[1]

ثم يخرج إما إلى ركوب وذلك يوم الإثنين والخميس غالبا، ويوم الأربعاء لزيارة مقام الصلحاء في الغالب، وفي يوم الاثنين والخميس للمواضع المعدة للجلوس خارج البلد كبرج الذهب بفاس أو الميدان بتلمسان، فيعرض أمامه الجيش وينظر فيه ويلعب بين يديه الفرسان ليميز الفارس من غيره، ويتعرض له المشتكون، وتعرض عليه هناك الهدايا وما يحمل من الأموال، وهناك يجلس لكبراء إرسال الملوك وأبناء الملوك إذا وفدوا عليه، ثم يعود إلى منزله، فيجلس ليقضي ما عرض له في أثناء ركوبه، ثم يدخل.[2]

وفي غير يوم الركوب يخرج للجلوس، فيحضر كاتبه وصاحب سره ووزراءه، فتعرض عليه القضايا ومهمات الشكايات، ثم يؤذن للناس في الدخول، فيدخل أشياخ القبائل من بني مرين والعرب الواردين والكبراء من القبائل، فيأخذون مجالسهم بين يديه، ثم يأمر بالطعام فيؤتى بما يكفي جميع الحاضرين، وكان يعجبه الأكل بين يديه، ويأمر بإسقاط

---

(1) صبح الأعشى. ج/5 ص:205.

(2) المسند الصحيح الحسن. ص: 137.

الحشمة في الأكل، ويأمر بالمجالس وترتيب الناس، ويحرضهم على الأكل. ثم إذا قضى ذلك أذن لهم في رفع مسائلهم يوما بعد يوم مناوبة على ترتيب ونظام معروف.[1]

ثم يحضر العلماء وفضلاء الناس وأعيانهم إلى محاضرته حينئذ، فيمد لهم سماط بين يديه فيأكلون ويؤاكلهم. ثم يأخذ كاتب السر في قراءة القصص والرقاع والكلام في المهمات، ويبيت عنده من يسامره من الفضلاء في بعض الليالي، وربما اقتضت الحال مبيت كاتب السر فيبيت عنده.[2]

وكان السلطان أبو الحسن غالبا ما يجلس للقراءة فيما بين صلاة الظهر وصلاة العصر، فكان يقرأ الأخبار والسير، كالسير لأبي ربيع، وسراج الملوك، وفتوح الشام، وغيرها من كتب الحديث، كصحيح البخاري ومسلم، وكان الخطيب ابن مرزوق أحد الذين تولوا القراءة بين يدي أبي الحسن. وغالبا ما كان السلطان يواصل ذلك المجلس العلمي بعد صلاة المغرب، ومما كان يحرص على قراءته في ذلك الوقت الموطأ، ومن العلماء الذين كانوا يحضرون ذلك المجلس أبو عبد الله الرندي، وأبو زيد بن الإمام وشقيقه أبو موسى، وأبو عبد الله السطي، وأبو عبد الله بن عبد الرزاق، وأبو عبد الله الأبلي، وأبو عبد الله بن الصباغ المكناسي، وأبو عبد الله بن الحفيد السلوي، وبعد صلاة العشاء، تقرأ على السلطان بعض الشكاوى والرسائل التي تتعلق بالدولة ويتولى التوقيع عليها بنفسه.[3]

ويتحدث ابن بطوطة عن الأمور التي شاهدها بنفسه في بلاط السلطان، وربما هي صورة تختلف بعض الشيء عما أسلفنا ذكره. إذ يقول: «أما عدله فأشهر من أن يسطر في كتاب. فمن جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك بين الرجال والنساء، وتقديمه النساء لضعفهن، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها، ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة. فإن كانت متظلمة عجل إنصافها، أو طالبة إحسان وقع إسعافها، ثم إذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها. ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد إليهم ما

(1) المسند الصحيح الحسن ص: 137.138.
(2) صبح الأعشى ج/5 ص:206.
(3) المسند الصحيح الحسن ص:138-139.

تعلق بالأحكام الشرعية. وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام، ويظهر فيه مثل هذا العدل.»[1]

الفرع الثاني: البلاط الملكي

إن المعلومات التي جمعناها عن البلاط أوفى، إذ أن عددا من المؤرخين خلقوا وصفا دقيقا له. فقد كانت الحياة فيه تختلف عنها في المدينة القديمة. كان البلاط أيام الفتح المريني، بلاطا بدويا أصلا، حيث كانت المناصب الرفيعة من نصيب الزعماء المرينيين والعرب، وهم الذين كانوا قد ألفوا حياة الغزو والبداوة. ثم استقر البلاط من حيث المكان، مع أنه ظل بدويا خالصا، إذ أن سلاطين بني مرين جابهوا الحاجة إلى إرسال عدد من الحملات العسكرية، وحتى في أيام السلم كان عليهم أن يتجولوا في مملكتهم إثباتا لوجودهم ولفرض الضرائب وتثبيت سلطانهم.[2]

ويذكر ابن مرزوق أن البلاط المريني كان لديه خداما يختصون بالسلطان في خطط متعددة، على مراتب معروفة، وكان له هو رضي الله عنه - أي أبو الحسن حين كان لا يزال وليا للعهد- خداما يتولون عنده تلك الخطط، ولهم عنده رئاسة، فكانوا ينتظرونها إذا صار الأمر له من حاجبه وكاتبه وأمينه إلى متولي مراكيبه، فلما صار الأمر إليه تأخر خدام أبيه وتقهقروا وانبسط خدامه لتولي تلك الخطط. [3]

وفي بعض الحالات كان السلطان الجديد يحتفظ بخدام أبيه مبرة لوالده، ووفاء له وهذا ما حدث حين احتفظ السلطان أبو الحسن بكثير من رجال البلاط الذين كانوا في عهد والده السلطان أبي سعيد المريني.[4]

ولم تكن الحياة في البلاط تشبه حياة أهل الطبقة الوسطى في مدينة فاس، وكان رأس الهرم السلطان الذي كان يعتمد عليه في كل شيء، في كل كبيرة وصغيرة. ويأتي بعده الوزراء

(1) رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص، دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة:1 سنة:1987، الجزء:2 الصفحة:671-672.

(2) المصدر نفسه ص:114-115.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:247.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 331

الذين كانوا في الواقع خدمه، لكنهم كانوا خدما على مستوى رفيع، بحيث إن الآخرين جميعهم كانوا يقدمون لهم الاحترام مثل قادة الجند وكبار الموظفين، الذين كانوا عادة من قبيلة بني مرين ومن القبائل العربية الرئيسية التي كانت تعتمد على الأسرة المالكة.[1]

ولم يكن للنساء دور رسمي في البلاط إذ أن قاعدة الفصل بين الجنسين حرمتهن من الظهور أمام الجمهور. لكن هذا لا يعني أنهن لم يقمن بدور أو أنهن كن بلا نفوذ، بل إنهن كن يلعبن دورهن سرا. وقد كانت هؤلاء النسوة كثيرات، فقد يدخل في عدادهن أم السلطان، وأحيانا جدته، وزوجاته وسراياه اللواتي كن في غالب الأمر أسيرات مسيحيات، خاصة من نساء إسبانيا والبرتغال، أو من الزنجيات.[2]

ومما جاد به ابن مرزوق في كتابه المسند ذكره طلب والدة السلطان أبي الحسن إلى ولدها في الشفعة والعفو لأحد الأشخاص، غير أن السلطان تباطأ في تحقيق رغبتها في العفو.

يقول ابن مرزوق: « وسمعت منه رضي الله عنه مرارا أنها كلمته في العفو عن شخص قال: فلم يسعني ردها وصعب بي إجابتها. قال: فقالت لي: يا علي لعلك غرتك سلطنتك وأشغلتك عن حقي. قال: فوجدت من هذا الكلام ما يعلمه الله، وأقبلت على تقبيل قدميها واسترخائها وبقيت أياما وأنا في غاية الخجل منها والخوف من تغير باطنها.»[3]

وأخيرا فإن آخر درجة من البلاط كانت تشمل الخدام، وغالبهم رقيق أو معتقون، وقد قامت فيها بينهم تنظيمات هرمية وغيرة وتنافس. وكثيرا ما كان يقع اختيار السلطان على واحد من خدمه ليعينه موظفا كبيرا، وكان القائمون على خدمته الشخصية هم الذين يسعدهم الحظ في مثل هذا الاختيار. ومن السهل تصور جو الدسائس والمؤامرات، الذي كان قائما في مثل هذا البلاط، كما يمكن أن يقوم حول عظماء العالم جميعا.[4]

ومن الذين اتخذهم لهذا المنصب مولاه عتيق وعنبر.[5]

---

(1) فاس في عصر بني مرين لروجيه لوتورنو ترجمة الدكتورة نقولا زياد مكتبة لبنان ومؤسسة غرنكلين للطباعة والنشر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1967. ص: 115-116.

(2) المرجع نفسه ص:116.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:240.

(4) فاس في عصر بني مرين. ص: 116-117.

(5) الأنيس المطرب. ص: 375.

الفرع الثالث: اللباس

إن الزي السلطاني كان خاصا، إذ كان يعمم بعمامة طويلة قليلة العرض من كتان فوقها أحرامات يلفها على أكتافه.[1]

ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع، لا يلبسه ذو سيف غيره. أما العلماء وأهل الصلاح فلا حرج عليهم في ذلك، ولا حرج في غير الملون البيض من البرانس على أحد.[2]

وكانوا يتقلدون السيوف تقليدا يدويا، ويلبسون الخفاف في أرجلهم (وتسمى عندهم الأنمقة) كما في إفريقية، ويشددون المهاميز فوقها ويتخذون المناطق وهي (الحوائص) ويعبرون عنها بالمضمَّات من فضة أو ذهب. وربما بلغت كل مضمَّة منها ألف مثقال، ولكنهم لا يشدونها إلا يوم الحرب أو يوم التمييز وهو يوم عرض السلطان.[3]

وكان لباس الفقهاء كسوة تشتمل على برنوس وبرد كلاهما أبيض من صوف، ثم أحرام للتردية ومنديل يتعمم به ودراعتين، وقبطية سداسية. أما اتخاذ البياض في اللباس فمقتبس عن أهل الأندلس منذ أن اقترح استعماله زرياب المغني على بني أمية ولو أن الأندلسيين لم يلتزموا به دائما.

وكان القادة والمشايخ عربا أو زناتيين يلبسون زيا متشابها، وهو عمامة طويلة خفيفة يغطيها لثام إلى الكتف وكانوا يحملون سيفا ويتمنطقون بأحزمة للزينة أو أيام الحرب وتسمى مضمَّات.

وكان القضاة والكتاب يتعممون بعمامة خضراء ولا يحملون سيفا. وعلى العموم فقد ساد البياض لباس الرسميات والأخبية فضلا عن العلم.[4]

(1) المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني لعلي حامد الماحي. دار النشر المغربية. الدار البيضاء. سنة:1986. الصفحة:157

(2) صبح الأعشى. ج/5. ص: 203.

(3) صبح الأعشى ج/5 ص:203.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:147.

أما الفقراء كالأيتام، فإنهم كانوا يلبسون قمصانا ويربطون على هذه القمصان الأحزمة، وفي كثير من الأحيان كانت الدولة توفر لهم هذا الكساء كل عام.[1]

يقول ابن مرزوق: «يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان فيختن كل واحد ويكسوه قميصا واحراما، ويعطي عشرة دارهم وما يكتفي به من اللحم.»[2] (سيأتي الحديث عنه).

الفرع الرابع: الاحتفالات

اعتاد المرينيون الاحتفال بالمناسبات مع سلطانهم، الذي كان يشاركهم فيها إما بمشاركته الفعلية، أو الجلوس لرؤيتها والتمتع بها، ومن بين هذه الاحتفالات:

1 - الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: كان أول من أمر بالاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني.

يقول المؤرخ الناصري: « وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة أمر السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بعمل المولد النبوي وتعظيمه والاحتفال به،(يعني بالمغرب وأما بالمشرق فأول من أحدثه الملك المظفر صاحب إربل في أواخر المائة السادسة) وصيره عيدا من الأعياد في جميع بلاده وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكان الأمر به قد صدر عنه وهو بصبرة من بلاد الريف في أخر صفر من السنة فوصل برسم إقامته بحضرة فاس الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر وأعلم أنه قد كان سبق السلطان يوسف إلى هذه المنقبة المولدية بنو العزفي أصحاب سبتة فهم أول من أحدث عمل المولد الكريم بالمغرب.[3]

وسار سلاطين بني مرين على نفس المنهج ورسموا الاحتفال بعيد المولد النبوي.

ويذكر ابن مرزوق أن من العادة أن يستعد للعيد النبوي الشريف، بأنواع الطعام والحلويات وأنواع الطيب والبخور وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس.[4]

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 336.

(2) المسند الصحيح الحسن ص: 420.

(3) الاستقصا. ج/3 ص: 90.

(4) المسند الصحيح الحسن ص: 153.

وتبدأ الاحتفالات مباشرة بعد صلاة المغرب فيحضر الشرفاء والقضاة والخطباء من أهل البلاد لشهودها. فيستدعي حينئذ الناس على ترتبهم، ويأمر بأخذهم المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة، فإذا فرغ الترتيب وأخذ الناس مجالسهم، دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام... فإذا قضي الطعام أحضر من الفواكه الحاضرة في الوقت ما يوجد في إبانه، ثم يؤتى باليابس بعدها، ثم يؤتى بالكعك والحلويات، ثم يؤتى بملاح السكر... ثم يقدم زعيم المسمعين بصفه فيقضي بعض نوبته، ويشرع في قصائد المدح والتهاني فتقرأ على نظام محفوظ وترتيب محوط على قدر المنازل والرتب والمناصب فتطير القلوب فرحا، وتسرد المعجزات وتكثر الصلوات على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.[1]

وقد احتفل سلاطين بني مرين بعد أبي الحسن وتتابعوا على نمطه، وقد زاد السلطان أبو عنان في هذه الاحتفالات، حتى أن ابن أبي دينار اعتبر السلطان أبا عنان أول من اعتنى بتعظيم المولد النبوي في البلاد الغربية.

يقول ابن أبي دينار القيرواني: « وأول من اعتنى بتعظيمه في البلاد الغربية وأظهر فيه شعائر الولادة المحمدية السلطان أبو عنان المريني.»[2]

2 - الاحتفال باستقبال الوفود: تميز الشعب المغربي بحفاوة الاستقبال منذ القديم، فكان من عادة الشعب في عهد الدولة المرينية أن يخرج لاستقبال الوفود والضيوف التي تأتي لزيارة السلطان المريني، تعبيرا عن صدق مشاعرهم وحبهم لسلطانهم. ومن هذه الاحتفالات، الاستقبال الشعبي الذي أقيم بمناسبة قدوم وفد من دولة مالي يحمل هدية عظيمة للسلطان

(1) المسند الصحيح الحسن ص:153-154.

(2) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لمحمد بن القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار. مطبعة الدولة التونسية بمحاضرتها المحمية. تونس. الطبعة:1 سنة: 1286هـ. الصفحة: 290.

أبي سالم المريني[1] وقد تضمنت هذه الهدية زرافة، كانت غريبة الشكل لأن أحدا من الناس في العصر المريني لم يشاهدها من قبل.[2]

يقول ابن خلدون:» وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا حسب لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود، ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا في الازدحام على الزرافة إعجابا بخلقتها، وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة.«[3]

وأنشد بعض الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال.

قدحت يد الأشواق من زند وهفت بقلبي زفرة الوجد

إلى أن قال في وصف الزرافة:

ورقيمة الأعطاف حاليـــة موشـية بوشـائع البـــرد
وحشية الأنساب ما أنست في موحش البيــداء بالقرد
تسمو بجيد بالغ صعـــدا شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات بـه ولربما قصـرت عن الوهــد[4]

3 - الاحتفال بسفر السلطان: من عادة السلطان إذا سافر أن يخرج من قصره وينزل بظاهر بلده، ثم يرتحل من هناك فيضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعارا بالسفر، فيتأهب الناس ويشتغل كل واحد بالاستعداد للرحيل، فإذا صلى صلاة الصبح ركب الناس على قبائلهم في منازلهم المعلومة، ووقفوا في طريق السلطان صفا إلى صف، ولكل قَبِيلٍ رَجُلٍ علم معروف به ومكان في الترتيب لا يتعداه، فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس، ودارت عليه عبيده ووصفائه ونقباؤه، ويجلس ناس حوله يعرفون بالطلبة يجري

(1) **السلطان أبو سالم**: هو أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني لقبه المستعين بالله. بويع بالمدينة البيضاء يوم دخلها مالكا لها وهو يوم السبت سابع رمضان سنة 789هـ. أمه رومية اسمها قمر. توفي رحمه الله ليلة الخميس سابع محرم عام 796هـ بتازة ودفن بفاس وله من العمر 39 سنة. وكان حكم سبع سنين.

-روضة النسرين ص:38

- (أنظر أيضا) الاستقصا. ج/5 ص: 17.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 332.

(3) العبر ج/ 7 ص: 411.

(4) الاستقصا ج/4 ص: 35.

عليهم ديوانه، يقرؤون حزبا من القرآن، ويذكرون شيئا من الحديث النبوي، على قائله أفضل الصلاة والسلام. فإذا أسفر الصبح ركب وتقدم أمامه العلم الأبيض المعروف بالعلم المنصور... وإذا وضع السلطان رجله في الركاب، ضرب على طبل كبير يقال له تريال ثلاث ضربات إشعارا بركوبه، ثم يسير السلطان بين صفي الخيل ويسلم كل صف عليه بأعلى صوته «السلام عليكم» ويكتنفانه يمينا وشمالا. وتضرب جميع الطبول التي تحت البنود الكبار الملونة خلف الوزير على بعد من السلطان، ولا يتقدم أمام العلم الأبيض إلا من يكون من خواص علوج السلطان وربما أمرهم بالجولان بعضهم على بعض ثم ينقطع ضرب الطبل إلى أن يقرب من المنزل.(1)

4 - الاحتفال بالعيدين: في ليلة العيدين ينادي والي البلد في أهلها بالمسير، ويخرج أهل كل سوق ناحية، ومع كل واحد منهم قوس أو آلة سلاح، مُتَجملين بأحسن الثياب، وببيت الناس تلك الليلة أهل كل سوق بذاتها خارج البلد، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم، فإذا ركب السلطان بكرة اصطفوا صفوفا يمشون قدامه، ويركب السلطان ويركب العسكر معه ميمنة ومسيرة والعلوج خلفه ملتفون به، والأعلام منشورة وراءه، والطبول خلفها حتى يصلي ثم يعود، فينصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم. ويحضر طعام السلطان خواصه وأشياخه.(2)

5 - الأفراح: لم تختلف الأفراح في المجتمع المريني كثيرا عما هو معروف لدى سائر المجتمعات الأخرى في بلاد المغرب.(3)

وقد أشار ابن خلدون إشارات خفيفة عن بعض الأفراح السلطانية، فقال: «ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته مع الأذمة السابقة بينهما من الصهر والمخالصة إلى أن أجاب وأسعف. وجعل ذلك إليه فانعقد الصهر بينهما وأخذ الحاجب في شوار العروس، وتأنق فيه واحتفل واستكثر وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل وارتحلوا من تونس لربيع من سنة 749هـ وأوعز مولانا

---

(1) صبح الأعشى ج/5 ص:208.

(2) المصدر نفسه ج/5 ص:207.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 334.

السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة وشقيق هذا العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما بحقه.(1)

ولما انعقد الصهر للمولى أبي الحسن بالحرة فاطمة زفها إليهم في أساطيله مع مشيخة الموحدين فوصلوا بها من ساغاسة بين يدي مهلك السلطان أبي سعيد وبعد وفاته بويع لولده أبي الحسن وزفت إليه فأعرس بها.(2)

والزواج كان من المناسبات والأفراح الهامة في حياة الأسرة، فهو قبل كل شيء أمر خاص بالأسرة، لم يكن المقصود بالزواج ارتباط رجل بامرأة برباطه، بل كان ارتباط أسرتين معا.

وكانت الاحتفالات المتعلقة بالزفاف تتم بالعرصات وكن مهيأة للطقس البارد الماطر. وتبدأ الاحتفالات التي تستمر عادة أسبوعا، والتي تجري في بيت كل من العروسين. وكانت خاتمة المطاف الليلة التي تحمل فيها العروس من بيتها إلى منزل الزوجية. فإذا بلغت باب الغرفة استقبلها زوجها، وغالبا ما كان هذا أول مقابلة لهما. أما إذا كانت العروس ثيبا أو مطلقة، كان الاحتفاء أقل فخامة. كما أن الاحتفال بالزواج كان أبسط بين أهل الفئات الفقيرة.(3)

كانت أيضا الاحتفالات بالعقيقة تعتبر حدثا سعيدا للأسرة، وتفرح العائلة بالمولود الجديد. ومتى بلغ المولود أسبوعا من عمره أطلق عليه اسمه وكان الفرح يعم الأسرة بهذه المناسبة.(4)

ومن المناسبات الأخرى التي كانت مجلبة للفرح والسرور الطهارة، فبعد تمام الطهارة، يلبس الطفل رفيع الثياب، ويحمل على بغل عبر المدينة، تعبيرا عن فرحة أهله.(5)

---

(1) العبر ج/ 7 ص: 354.

(2) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي. تحقيق محمد ماضور. المكتبة العتيقة. تونس. الطبعة:2 (بدون تاريخ). الصفحة: 68.

(3) فاس في عصر بني مرين. ص: 100-102-103.

(4) المرجع نفسه ص:103.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 335.

الفرع الخامس: الجنائز

يتحدث روجيه لوتورنو عن الجنائز ويصف لنا بدقة تفاصيل حالة الجنازة. فيقول: « في حالة الوفاة كان الحزن يغمر البيت وكان الحزن بين أهل الطبقة الوسطى يتخذ شكلا رزينا معتدلا، ولكنه بين الفئات الدنيا كان يتم بنتف الشعور ولطم الخدود، وكان وجود الندابين المأجورين، من الرجال والنساء على السواء، مما يزيد في مظاهر النواح والندب. كانت الجثة تغسل جيدا ثم تلف في الكفن وتحمل إلى المقبرة على الآلة الحدباء (النعش)، وكان الرجال فقط يسيرون في الجنازة، مرددين أدعية دينية. وفي الغالب كان الموكب يتوقف في الطريق في مسجد للصلاة على الميت والدعاء إلى الله بأن يتغمد روحه برحمته.»[1]

ويشير ابن مرزوق أنه لما توفيت والدة السلطان أبي الحسن أمر الشرفاء والعلماء والصلحاء لمرافقتها إلى موضع مدفنها وأمر ببناء مسجد في كل موضع كان المبيت به من تلمسان إلى شالة، وعمارة وزاوية.[2] ويذكر صاحب نفح الطيب أنه لما توفي الشيخ ابن عباد رضي الله عنه حضر جنازته السلطان أمير المسلمين أبو العباس أحمد بن السلطان أبي سالم[3] وأهل البلدتين يعني فاس الجديد التي هي مسكن السلطان وخواص أتباعه، وفاس العتيق التي هي محل الأعلام، والخاص والعام من الناس في ذلك القطر.[4]

الفرع السابع: الألعاب والغناء

كانت هناك ألعاب خاصة تجرى بالقصر الملكي، فقد روي أن أبا عنان أشرف ذات يوم من أحد الأبراج على مصارعة بين الثور والأسد، فوصف ابن جزي ذلك فقال:

الله يوم بدار الملك مر بـــه	من العجائب لم يجر في خلـدي
لاح الخليفة في برج العلا قمرا	يشاهد الحرب بين الثور والأسد.[5]

---

(1) فاس في عصر بني مرين. ص: 103-104.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:242-243.

(3) **أبو العباس أحمد**: هو أمير المسلمين أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن يكنى أبا العباس، لقبه المستنصر، بويع بمدينة طنجة شهر ربيع الثاني عام 775هـ وبويع البيعة الثانية بالمدينة البيضاء يوم الأحد السادس من محرم سنة 776هـ وخلع بالموضع المعروف بالركن يوم الأحد 30 ربيع الأول سنة 786هـ فكانت دولته عشر سنين.

- روضة النسرين. ص:34.

(4) نفح الطيب ج/ 5 ص: 349.

(5) أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين أحمد المقري. تحقيق مصطفى السقا إبراهيم الأبياري عبد الحفيظ شلبي. مطبعة فضالة المحمدية المغرب (بدون رقم طبعة) سنة: 1978. الجزء: 3. الصفحة: 194 -195.

ومن الألعاب التي تميز بها المرينيون المرامي، حيث كانت توجد بسبتة أماكن للرماية والسباق. يقول صاحب اختصار الأخبار: «وعدد المرامي المعبر عنها بالجلسات وأماكن السبق المعلومات للرمات أربعة وأربعون مرمى، بالميناء تسع جلسات، جلسة الحفير بإزاء باب الحلويين المخصوصة بالقاضي وصدور الفقهاء من العدول وغيرهم، إذ الرمي طبع لأهل سبتة طبعوا عليه، فلا تلفي منهم شريفا ولا مشروفا ولا كبيرا ولا صغيرا إلا وله بصر بالرمي وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة، هو من جملة الأشياء التي تميزوا بها.[1]

أما الغناء فقد انتشرت الموشحات الأندلسية بالمغرب في عهد بني مرين، كما انتشر الزجل كغناء شعبي وبما أن الموشحات لها وضع موسيقي خاص مع سمو لغتها بالنسبة للزجل. والأزجال من وضع أندلسي هو أبو بكر بن قزمان الذي عاصر المرابطين، ولو أن المحاولات بدأت قبله ولكنها اتخذت طابعها المتميز في عهده. وفي عصر بني مرين اشتهر فيها كثيرين بينهم كبار الكتاب، ومن المجيدين لسان الدين بن الخطيب وأبو عبد الله الألوسي وعلي بن المؤذن وابن شجاع وهو من تازة والكفيف من أهل زرهون.

ومن الطبيعي أن تنتقل الأزجال الأندلسية إلى المغرب ما دام الاتصال بين العدوتين مستمرا. ولم تكن لغة الأزجال نفسها بعيدة من الفصحى كما يدل على ذلك قول ابن شجاع:

تعب من تبع ملاح ذا لزمان ... أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم ليح عاهد إلا وخان قليل ... من عليه تحبس ويحبس عليك[2]

ومن أجود ما قيل في الأزجال قصيدة الكفيف في تعزية بني مرين عن انهزامهم في إفريقية أيام أبي الحسن. ومن أبياتها:

لو كان ما بين تونس الغرب ... وبلاد الغرب سد السكندر
مبني من شرقها إلى غربها ... طبقا بحديدا وثانيا بصفر
لابد الطيران تجيب نبا ... أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر[3]

---

(1) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار. لمحمد بن القاسم السبتي. تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط. الطبعة:2 سنة: 1983. الصفحة: 47.

(2) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص:149.

(3) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص: 149.

المبحث الثالث: الحياة الفكرية

إن تأثير الانقلاب المريني على الحالة الفكرية، لم يكن ذلك التأثير القوي الذي تتبدل معه معالم الأمور وتغيير مجاري الأحوال، لذلك فإن الحركية العلمية قد بقيت في نشاطها وتقدمها، كما كانت على عهد الموحدين. وإن كان قد اعتراها في فترة الانقلاب بطبيعة الحال شبه انقطاع أو فتور، فإنها بعد أن انتصبت الدولة المرينية وتشيدت أركانها قد عادت فاسترجعت ما كان لها قبل من القوة والظهور.

نعم لقد استأنفت الحركة العلمية سيرها إلى الأمام في ظل الدولة المرينية التي ما فتئت ترعاها وتشجعها بمد يد الإعانة إلى رجالها وتنشيطهم حتى ينصرفوا لخدمتها، بل إن رجال الدولة أنفسهم كانوا يقدمون لها أجل الخدمات مما لا يقوم به إلا أجل العلماء.[1]

وللإشارة هناك بعض النصوص التي تقلل من المنتوج الثقافي، فابن خلدون (ت808هـ) يتحدث عن الكساد الثقافي والعلمي ويقول: «وقد كسدت لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه، وانقطاع سند العلم والتعليم... وما أدري ما فعل الله بالمشرق، والظن به نفاق العلم فيه واتصال التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكمالية، لكثرة عمران والحضارة ووجود الإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم.»[2]

ويذهب العبدوي المذهب الذي نهجه ابن خلدون في التقليل من النهضة العلمية بالمغرب من خلال منهج مقارن فيقول العبدوي: «سمعت سيدي الفقيه الجليل الفاضل أبا بكر بن عبد العزيز رحمه الله يحكي عن والده الشيخ الصالح القدوة أبي محمد وكان دخل بلاد القبلة أنه كان يقول: الغرب دنيا بلا رجال والقبلة رجال بلا دنيا.»[3]

---

(1) النبوغ المغربي. ج/1 ص: 188.

(2) مقدمة ابن خلدون. تحقيق عبد الله محمد الدرويش. دار يعرب. دمشق. الطبعة: 1. سنة: 2004. الجزء:2. الصفحة: 172

(3) رحلة العبدوي لأبي عبد الله محمد العبدوي. تحقيق علي إبراهيم الكردي. تقديم شاكر الفحام. دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع دمشق الطبعة:1 سنة:1999 الصفحة:44.

ويمكن القول مما سبق أن نظرية ابن خلدون تتمركز على رأيه في العمران وظنونه، أما العبدوي فكلامه يتمركز على الحكايات، وهذه أدلة لا تستند إلى واقع ملموس بقدر ما هي آراء انبهار بعالم الآخر.

غير أن الكثير من الباحثين المحدثين أسالوا مداد القلم على ثقافة وفكر العصر المريني وأرجعوا له حقه المتميز والنابع من قطر كان له حقه الواسع.

يقول عبد الله العروي: « يجمع الدارسون على أن العهد المريني- الحفصي- الزياني يمثل ذروة الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب، لأنها لم تعد كما كانت من قبل محصورة في منطقة معربة دون سواها، بل شاركت في المناطق بنصيبها في حفظها ونشرها.»

ويضيف قائلا: « وتبدوا لنا ثقافة القرن الثامن الهجري في بلاد المغرب غنية متنوعة، فننسى أنها لا تعبر عن تجربة المغرب التاريخية، بل تمثل، شكلا ومحتوى آخر. بريق سطعت به الأندلس قبل أن تغيب من الأفق وإن بقيت مائلة في الوجدان.»[1]

وإن ما يميز الثقافة في مغرب بني مرين، فوق كل ما ذكرنا، هو ازدواجيتها، حيث كانت تعكس ثنائية الدولة القائمة آنذاك.[2]

ويمكن أن نقول إن العهد المريني شهد حصاد قرنين من المجهودات العلمية، بفضل جهود المرابطين والموحدين في مجالات الثقافة والعلم والأدب، وما أن جاء المرينيون حتى انطلقت الحياة الفكرية في عهدهم إلى أفاق أرحب وأوسع، أتاحت للعقلية المغربية مزيدا من النضوج. وقد دعم سلاطين بني مرين انطلاق الحياة الفكرية في عهدهم.[3]

بلغت الحياة الفكرية العلمية ازدهارا واضحا في عهد المرينيين، فقد تنوعت أماكن التعليم في البلاد، ولم تكن حصرا على فئة دون الأخرى، بفضل الرعاية التي حظيت بها أماكن التعليم، وإغداق الأموال على العاملين بها طلابها كانوا أم أساتذة.

---

(1) مجمل تاريخ المغرب. ج/2 ص: 217-219.

(2) المرجع نفسه ج/2 ص:220.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 337.

وعدت مدنهم مراكز ثقافية مهمة ليس على صعيد المغرب العربي فحسب بل والأقطار الإسلامية المجاورة، حيث تنوعت العلوم فيها بحكم عوامل سنأتي للحديث عنها في بحثنا هذا.[1]

كما أن سلاطين بني مرين لم يقيموا دولتهم على أساس أفكار دينية. وعلى هذا الأساس لم يفرضوا على العلماء في دولتهم أن يتقيدوا بوجهة نظر معينة.

وكانت مجالس العلماء على اختلاف مستوياتهم وأراءهم وأفكارهم، بل لقد سمح المرينيون في كثير من الأحيان بتدريس آراء الموحدين في مدارسهم، احتراما منهم لحرية الفكر.

وفي المغرب الأقصى أوجد المرينيون أكبر قاعدة فكرية وثقافية قامت في بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامي، وتمثلت هذه القاعدة في ذلك العدد الضخم من المدارس العالية المتخصصة التي انتشرت في أنحاء المغرب الأقصى على نحو لم يسبق له مثيل، تميز بين المدن الصغرى، والمدن الكبرى، بل امتدت المدارس إلى مناطق أخرى من بلاد المغرب.

وبهذا استطاع بنو مرين تنمية الحركة الفكرية، وتعميق جذورها في المغرب الأقصى، حيث أصبحت فاس عاصمة للفكر في بلاد المغرب، إلى جانب كونها العاصمة السياسية للدولة.[2]

المطلب الأول: العودة للمذهب المالكي

كان هناك عمل منظم للدولة المرينية لإحياء المذهب السني على الطريقة المالكية لتحقيق تكوين مناعة ذاتية لمقاومة التفسخ الاجتماعي إلى إحياء مذهب مالك رضي الله عنه بجانب الحركة الصوفية، ولذلك أسسوا لتحقيق هذه الدعوة عدة مدارس علمية، وأشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي.[3]

(1) الحضارة الإسلامية في المغرب (العصر المريني) لمزاحم علاوي الشاهري. مركز الكتاب الأكاديمي الموصل. (بدون طبعة ولا تاريخ) الصفحة: 167.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 337-338.

(3) الحضارة الإسلامية في المغرب للحسن السايح. دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء. الطبعة: 2. سنة: 1986 الصفحة: 255

وبهذا استعاد المذهب المالكي مكانته التي كان عليها قبل ظهور دولة الموحدين، الذين صادروا معظم كتب ومؤلفات هذا المذهب وأحرقوها. وكان سلاطين بني مرين أنفسهم يهتمون بفهم هذا المذهب.[1] يقول الدكتور إبراهيم حركات:» والواقع أن بني مرين يعود إليهم الفضل مرة أخرى في بقاء مذهب مالك وانتشاره العلمي بالمغرب. وذلك بعد المجهود الذي بذله أسلافهم المرابطون.»[2]

ويقول العلامة محمد المنوني: « كانت المذاهب الغالبة على المغرب في الفترة المرينية هي: المذهب الأشعري في المعتقدات والمذهب المالكي في الفقهيات والصوفية السنية حسب طريقتي أبي مدين ثم أبي الحسن الشاذلي.»[3]

ومما لا شك فيه، والمعلومة التي لا مرية فيها، أن العودة للمذهب المالكي هو رفض لتعدد المذاهب، ورفض فكرة التأويل والأخذ بالرأي.

يقول صاحب كتاب النبوغ المغربي الدكتور عبد الله كنون: « وفي الفقه ساد المذهب المالكي نهائيا لكفاح إتباعه المستميت في العصر السابق، ولمناصرة الدولة الجديدة له.»[4]

وقد نشطت حركة التأليف نشاطا عظيما في ميدان الفروع.[5]

وكان سلاطين بني مرين أنفسهم يهتمون بفهم هذا المذهب، فأبو الحسن المريني كان يحرص على أن تقرأ بين يديه المؤلفات العديدة في المذهب المالكي، وكان يصغي جيدا لما يلقى عليه من أدلة أهل السنة، وبيان مذهبهم، فإذا ما عرضت أدلة المعتزلة أو غيرهم من المذهب الأخرى أعرض عنها، ونهى عن الخوض فيها، وزجر من تمادى في ذلك.[6]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 340.

(2) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص: 164.

(3) التيارات الفكرية في العهد المريني (فصلة من مجلة الثقافة العربية العدد:5) لمحمد المنوني. مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية. فاس. سنة: 1972. الصفحة:1

(4) النبوغ المغربي ج/1 ص:184.

(5) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص: 164.

(6) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:340.

فالدولة المرينية منذ سطوع نجمها عرف شعبها بولعه الشديد بالمذهب المالكي، حيث عكف علماء الدولة على دراسة مؤلفات المذهب المالكي الأساسية.[1]

ومن علماء المذهب المالكي زمن المرينيين، والذي برز اسمه في تلك الفترة، الفقيه سيدي عبد الرحمن بن عفان الجزولي. قال عنه صاحب كتاب سلوة الأنفاس: «كان أعلم الناس بمذهب مالك بن أنس، وأصلح الناس وأورعهم، وكان يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه، معظمهم يستظهر المدونة.»[2]

ومن العلماء أيضا الذين عرفوا بتضلعهم من المذهب المالكي، والذين قاموا بتدريس المذهب، الشيخ محمد بن وارياش فقيه مكناسة، ومحدثها وإمامها، كان يدرس الموطأ بمكناسة، وكانت طريقته: يبدأ بذكر الله تعالى أولا، ثم يأمر خاصة طلبته فيعرضون عليه الدرس، ثم يتكلم على الكتاب كلاما حسنا يعتمد على كلام أبي عمر بن عبد البر، وأبي الوليد الباجي، ويضيف إليهما شيئا من تعاليق المحدثين.[3]

هذا إلى جانب العديد من علماء المذهب المالكي الأخرين الذين قاموا بتدريس المذهب المالكي في المدارس المرينية والمساجد، حيث كان هذا المذهب محورا لنظام التعليم في العصر المريني.[4]

ومن بين هؤلاء العلماء نجد في طليعتهم، العالم المحنك سيدي أبو محمد عبد الله القشتالي الفقيه الصالح المدرس بمدرسة الحلفاويين والذي كان يدرس من مختصر المدونة للبراذعي.[5]

---

(1) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم الفردبل. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي. (بدون رقم طبعة) سنة:1969. الصفحة:322

(2) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. لأبي عبد الله الكتاني تحقيق: عبد الله الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة بن علي الكتاني. دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء. الطبعة: 1. سنة: 2004. الجزء: 2. الصفحة: 139.

(3) درة الحجال في أسماء الرجال. لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. مكتبة التراث القاهرة. الطبعة: 1. سنة 1971. الجزء: 2. الصفحة: 107.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 340.

(5) سلوة الأنفاس ج/2. ص: 55.

وكذلك الشيخ العلامة سيدي مصباح بن عبد الله اليالصوتي (ت 750هـ) المدرس النبيه النوازلي المفتي البركة الصالح، الذي تضاف إليه المدرسة المصباحية بفاس لكونه أول من درس بها حين بناها السلطان أبو الحسن المريني. وهو فقيه مالكي، بمدينة فاس.[1]

وأيضا الشيخ العلامة محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي كان قاضيا بحضرة أبي سعيد المريني وخطيبه. ولما توفي أخذه ولده أبو الحسن المريني، كان له التقدم في علم الأصول بفاس، وكان يعقد لذلك مجلسا في جامع القرويين، وكان يطاوعه القلم في الكتابة، وكان معظما عند أبي الحسن المريني توفي في حدود (755هـ).[2]

والشيخ العلامة علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي أبو الحسن الصغير، الفقيه المالكي كان قيما على تهذيب البراذعي حفظا وفهما. قيدت عنه التقاييد الحسنة على المدونة، وكان يشارك في شيء من أصول الفقه، يطرز بذلك مجالسة، وكان يدرس بجامع الأزدع من داخل مدينة فاس، وقيدت عنه أيضا تقاييد على رسالة أبي زيد القيرواني توفي سنة (719هـ).[3]

والشيخ العلامة أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي، يعرف بالقباب من صدور أهل فاس، إمام فقيه نبيه جيد النظر سديد الفهم، ولي الفتيا بمدينة فاس، وله نوازل مشهورة، وولي القضاء بجبل الفتح فوصف فيه بالجزالة. له شرح على قواعد عياض وشرح على بيوع ابن جماعة. اشتغل بتدريس مختصر البراذعي بالمدرسة البيضاء، وبقراءة كتاب الموطأ بالجامع الأعظم من مدينة فاس، وكان يطالع على كتاب الموطأ خمسين ديوانا توفي سنة (779هـ).[4]

---

(1) سلوة الأنفاس ج/2 ص:64-65.

(2) درة الحجال في أسماء الرجال ج/2 ص: 240.241.

(3) المصدر نفسه ج/2 ص: 64-65.

(4) جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي. دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط سنة: 1973. الجزء: 1. الصفحة: 123. -(أنظر أيضا) سلوة الأنفاس ج/ 3 ص: 304.

والظاهر أن المذهب المالكي تعمم في سائر بلاد المغرب. يقول العلامة محمد المنوني: «ويظهر أن يعقوب بن عبد الحق حاول أن يعمم تطبيق المذهب المالكي على سائر المحاكم المغربية.»[1]

وقد جاء في ترجمة مفضل بن محمد بن محمد بن إبراهيم العذري المري المالكي المعروف بابن الدلاي، أن الخليفة يعقوب بن عبد الحق المريني ولاه قضاء الجماعة بحضرة فاس، وجعل له النظر على صاحب الشرطة وصاحب الحسبة، فكانا لا يقطعان أمراً دونه.[2]

ويؤيد هذا بالجملة، أن السلطان يعقوب كان صادرا في أكثر أموره وأحواله وأحكامه عن رأي العلماء (يعني المالكية).[3]

ويمكن أن نقرر أن أسباب انتشار المذهب المالكي وسرعة العودة إليه، ناتج عن حب السلاطين لهذا المذهب وتعلق العلماء الشديد به وبالإمام مالك وتلاميذه، كذلك اختص أهل البلد بمذهبه وكانت له مكانة في قلوبهم ونهجهم، خصوصا قراءة الموطأ وكتاب المدونة التي تستظهر في المساجد.

وبذلك أصبح المذهب المالكي في هذا العهد كامل السيادة ولم يعد ينافسه أي مذهب ديني أخر. واتجه العلماء إلى تأويل أقوال مالك وأصحابه والتبسيط في شرح المتون تدريسا وتأليفا، وقد اكتسب الفقهاء اعتبارا فائقا في هذا العهد بسبب الإقبال العظيم الذي حصل على العلوم الدينية بوجه عام، والذي كان ردة فعل للحجر الطويل على المذهب المالكي أيام الموحدين. وقد زاد اتصال المغاربة بأهل المدينة أيام الحج إقبالا على الفقه المالكي الذي فقد بصفة نهائية كل منافس له بالمغرب منذ هذا العصر.[4]

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص: 153.
(2) جذوة الاقتباس ج/1 ص: 339- 346.
(3) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 153.
(4) المغرب عبر التاريخ ج/ 2 ص: 169

المطلب الثاني: المذهب الأشعري

تحدث كثير من الدارسين عن قضية دخول المذهب الأشعري إلى المغرب، وإن كان الكثير من الآراء تؤكد أن الفكر الأشعري، ظهر خلال القرن الرابع الهجري أو أواخره، وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن المذهب دخل في حياة أبي الحسن الأشعري (ت324هـ) مؤسس مبادئ الفكر الأشعري.

ويبدو أن الفكر الأشعري كان متداولا ومعروفا زمن المرابطين، يقول محمد بن تاويت الطنجي في مقدمة تحقيقه لكتاب ترتيب المدارك:» هذه المدرسة كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري، وأن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب. ومن هنا نصل إلى عدم صحة ما حيك حول مهدي الموحدين، من أن علماء المغرب في عهد المرابطين، لم تكن لهم معرفة بالجدل والنظر، وأنهم لذلك لم يستطيعوا أن يثبتوا له في مناظرته، وأن التجسيم كان غالبا عليهم في الاعتقاد، فجاء ابن تومرت بعقيدة التوحيد، ونشرها، وسمى أتباعه الموحدين، إلى أخر ما قيل وكرر. إنه خدعة سياسية أذاعها ابن تومرت وأنصاره لتوطيد نفوذهم في نفوس الجماهير.»[1]

ويضيف صاحب كتاب الاستقصا قوله: « وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولا والرافضية ثانيا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الإيمان المتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها ولله در القائل:

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ... ولا ذاته شيء عقيدة صائب

سلم آيات الصفات بأسرها ... وأخبارها للظاهر المتقـارب

ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا ... وتأويلنا فعل اللبيب المراقـب

ونركب للتسليم سفنا، فإنها ... التسليم دين المرء خير المراكب

(1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. للقاضي عياض السبتي. تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية. الطبعة: 2. سنة 1983. الجزء:1. الصفحة: (ط).

واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة، فرحل إلى المشرق وأخذ من علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ويسلمه العقل والطبع.»[1]

ويمكن القول إن الدولة المرينية وجدت الأرض خصبة وممهدة بعد أن خلص الناس لمذهب أبي الحسن الأشعري، بعد إقرار الدولة المرابطية والدولة الموحدية بالمذهب الأشعري، وإن كان المذهب الأشعري في عهد الدولة الموحدية اتخذ طابعا سياسيا. يقول العلامة محمد المنوني: « أما الاعتقادات فكانت على مذهب أبي الحسن الأشعري على طريقة المتقدمين من أتباعه، فيما فيهم إمام الحرمين.»[2]

ويروي ابن مرزوق في مسنده أن أبا الحسن المريني كان محافظا على أصول الاعتقاد فيقول: «كان رضي الله عنه على ما كان عليه من الاشتغال بما قلَّده والقيام بين طوقه، يعمر مجالسه بالقراءة والمذاكرة، وقرئ بين يديه إرشاد أبي المعالي، فكان يصغي لما يلقى من أدلة أهل السنة، وبيان مذاهبهم، فإذا عرضت أدلة المعتزلة والخارجين عن مذاهب أهل السنة، يقول: دعوا هذا، ومهما ذكر مذهب من المذاهب الملفوظة، ينهى عن الخوض فيه، ويزجر ذاكره.»[3]

كما أن المرينيين قاوموا بقايا الأفكار الموحدية، وأصدر ملوكهم ظهيرا في البحث عن أمر طائفـة من أتباع المهدي بن تومرت.[4]

ولما دخل الأمير أبو الحسن المريني إلى إفريقية محا رسوم الموحدين، ولم يبق منهم أحد بها.[5]

(1) الاستقصا. ج/1 ص: 196

(2) ورقات عن حضارة المرينيين. ص: 153.

(3) المسند الصحيح الحسن ص: 133.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:154.

(5) الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع. تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري. الدار العربية للكتاب. طرابلس سنة: 1984. الصفحة: 95

ويبدو أن ترسيخ المذهب الأشعري كان على المستوى الجماهيري العام، قبل أن يكون على المستوى الرسمي (السلطة)، وذلك بسبب انتشاره بين العلماء والعامة، مما دفع بسلاطين الدولة المرينية بتدعيمه وإقراره كمذهب عقدي للدولة.

يقول صاحب النبوغ المغربي:» كان عمل المرينيين في الناحية الدينية سليما من أي نزعة، خالصا من كل بدعة. فإذا كان المذهب الأشعري في العقائد قد تقرر في العصر السابق، وصار هو الغالب على أكثرية المغاربة، فقد علمت أنه تقرر بعيدا عن تأثير الدولة، وخاليا مما كانت تضيفه إليه من آراء شاذة مأخوذة عن المعتزلة وغلاة الشيعة. على أنه قد عم العالم الإسلامي، وأصبح هو والمذهب الماتريدي المذهبين العقديين الرسميين السائدين في سائر مملكة الإسلام.»[1]

المطلب الثالث: التصوف في العهد المريني

التصوف في حقيقته مجموعة من المبادئ المتكاملة التي تحكم تصرفات أصحابه في مختلف أوجه حياتهم الروحية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتطبعهم بطابع خلقي خاص. وقد اهتم التصوف اهتماما كبيرا بالتربية الروحية والتربية الأخلاقية لارتباطهما ببعض ارتباطا وثيقا، فلا حياة روحية دون حياة أخلاقية.[2]

وقد كان للتصوف دوره في الحركة الفكرية، حيث امتاز العصر المريني بظهور عدد كبير من أقطاب التصوف وأساتذته، ولم يكن سلاطين بني مرين يشعرون بأي خطر من امتداد نفوذ الصوفية، لأن الدولة المرينية كانت قوية مهيبة الجانب، ولأن المرينيين من ناحية أخرى انصرفوا إلى استكمال بناء صرح الحضارة المغربية. وتطلب ذلك المزيد من حرية الفكر، التي أتاحها المرينيون للجميع وفي ظلها ازدهر التصوف.[3]

يقول الأستاذ الحسن السايح: «وازدهر علم التصوف الذي تزعمه كثير من العلماء واستنبط أسسه ابن خلدون في مقدمته، ولقد تأثر ابن خلدون بالنظريات الصوفية في المغرب وكتب بعد عودته من المغرب إلى الأندلس أنه وصل وله ورد ووظيفة وسبحة وحظ

(1) النبوغ المغربي. ج/1 ص: 184

(2) التصوف في مصر والمغرب لمنال عبد المنعم جاد الله. منشأة المعارف الإسكندرية. سنة: 1997 الصفحة: 254

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 355

من الخير، وألف ابن الخطيب، روضة التعريف في الحب الشريف، التي حوكم من أجل شطحاتها، وفيها تحليل صوفي الأسرار الحب والنفس.»[1]

واكتسبت الحياة الدينية في عهد بني مرين مظاهر جديدة، بسبب نشاط الحركة الصوفية من جهة ودخول العناصر اليهودية في الميدان السياسي إلى جانب الاحتكاك بالمسيحيين المتوافدين على المغرب كغزاة أو تجار.

وقد لوحظ أن الحركة الصوفية قد اتسع نطاقها على الخصوص شمالا حيث كان لزعمائها دور في التوجيه الروحي لسكان هذه الناحية التي تسلط عليها التدخل الأجنبي. ولم تكن الحركة الصوفية في عهد بني مرين تكتسي صبغة التمرد المسلح على الدولة أو التكتل ضدها، بل كانت في الواقع ثورة سلبية على الوضع الديني والاجتماعي والسياسي الذي صار إليه الشعب والدولة. وظلت هذه الثورة مكبوتة لتنطلق في صراع مسلح ضد التدخل الأجنبي منذ أواخر أيام الدولة ثم تشتد ابتداء من عهد الوطاسيين.[2]

كما أن هدف بني مرين كان يرمي إلى إنشاء إمبراطورية إسلامية على غرار الموحدين، واستعانوا على تحقيق هدفهم بواسطة الزوايا الصوفية، فازدهرت الشاذلية الجبرية في عهدهم، وتفرعت عنها كثير من الطرق بسبب كثرة المرابطين ذوي النفوذ الروحي مما أدى إلى تكوين إقطاعيات صوفية جهوية، وساعد انهزام المسلمين في الأندلس على تكوين روح الجبر والاستسلام، كما ظهرت الطريقة الجزولية والتباعية من امتدادات الشاذلية فتحقق للدولة غايتها السياسية على أنه بجانب هذا الاتجاه الصوفي كان هناك عمل منظم لإحياء المذهب السني على الطريقة المالكية لتحقيق تكوين مناعة ذاتية لمقاومة التفسخ الاجتماعي إلى إحياء مذهب مالك رحمه الله بجانب الحركة الصوفية.[3]

---

(1) مجلة دعوة الحق مقال للحسن السايح بعنوان: الفكر المغربي في عصر بني مرين العددان الثامن والتاسع، السنة السادسة (ذي الحجة-محرم 1383- ماي يونيو 1963م). الصفحة:38

(2) مجلة دعوة الحق مقال لإبراهيم حركات بعنوان: الحياة الدينية في عهد بني مرين. العدد الثاني السنة السابعة (جمادى الثاني 1383هـ- نونبر1963م) الصفحة: 7

(3) الحضارة الإسلامية في المغرب للحسن السايح. ص: 255.

وصرنا نرى معظم سلاطين بني مرين قريبين من كبار أقطاب التصوف أحياء وأمواتا، ودأب كثير من سلاطين بني مرين على متابعة زيارة قبور هؤلاء المتصوفة تبركا بهم، وإظهارا للاهتمام بهم.[1]

فمثلا كان أبو الحسن المريني يزور ضريح الولي أبي العباس السبتي، وضريح القاضي أبي الفضل عياض وأمثالهم من الصلحاء. وبأغمات الهزيري والتونسي، وأمثالهم وبآسفي سيدنا أبا محمد صالح الماجري... ويكثر بفاس زيارة القاضي أبي بكر بن العربي وأبي زيد الهزميري ومن معه بمسجد الطابرين.[2]

ونستطيع أن نقسم رجال الحركة الصوفية في هذا العهد إلى قسمين رئيسَين، قسم انقطع لعبادة الله وتجرد عن الخوض في شؤون الدنيا، ومن بين رجال هذه الطائفة أفراد زهدوا لمجرد الزهد ولم يؤسسوا طريقة معينة، وأشهرهم الإمام ابن عاشر،[3] والباقون فيهم من تزعم حركة صوفية معينة وكون لنفسه طريقة الإمام كالإمام الجزولي.[4]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 355

(2) المسند الصحيح الحسن ص: 163

(3) **ابن عاشر**: هو الشيخ الكبير والولي الصالح الشهير الورع الزاهد أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن عمر ابن عاشر الأنصاري نسبة الأندلس أصلا السلوي نزولا ومحلا. أصله من بلاد الأندلس وبها خلق ونشار إلى أن حفظ القرآن الكريم وقرأ العلم واجتهد في الطاعات والعبادات، وانقطع لسبيل الأعمال الصالحات، انتقل إلى الجزيرة الخضراء، وأقام بها زمانا، ولقي بها الأكابر من أهل المقامات انتقل إلى سلا فنزل من رباط الفتح بزاوية الشيخ أبي عبد الله البابوري.. ونزل أيضا بزاوية الشيخ أبي زكريا الكائنة بقرب الجامع الأعظم. كان رحمه الله سباقا للخير منقطع القرين في الزهد شديد المراقبة عالية الهمة والشرف جليل المقام ذاكرا العلم الحلال والحرام متمكنا في مقام الورع كان من كبار العلماء العاملين منقطعا عن الدنيا وأهلها، كثير النفور من الأمراء ورجال الدولة. لا يكاد يواجد أحدا منهم، قصده مرة السلطان أبو عنان يريد زيارته فوقف ببابه طويلا فلم يأذن له وانصرف راجعا ثم عاد عليه مرارا فلم يصل إليه توفي في رجب سنة 764هـ أو 765هـ ودفن بداخل سلا بالموضع المعروف بوراء الجامع وقبره مشهور معظم مزار إلى الآن. -سلوة الأنفاس. ج/ 2. ص: 313-314. -جذوة الاقتباس ج/1 ص:153.

- المطرب بمشاهير أولياء المغرب لعبد الله التليدي. دار الأمان. الرباط الطبعة:4. سنة: 2004. الصفحة: 136.

(4) **الإمام الجزولي**: هو محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي الملقب بأبي عبد الله الخطيب. كان أحسن الناس خلقا وخلقا، كان. قاضيا بحضرة أبي سعيد المريني وخطيبه، ولما توفي أبو سعيد أخذه ولده أبو الحسن. أخذ عن أهل فاس، ورحل إلى تونس فأخذ بها عن علمائها كاليفرني والفودري وابن جماعة وابن سرور وغيرهم، وأخذ التصوف عن أبيه وليس منه الخرقة. كان له التقدم في علم الأصول بفاس. وكان يعقد لذلك مجلسا في جامع القرويين، وكان يطاعه القلم في الكتابة، وكان معظما عند أبي الحسن المريني توفي في حدود سنة 755هـ.

- درة الحجال. ج/2 ص: 240.241.

ثم هناك طبعا مريدون وأصحاب لكل من الطائفتين. أما القسم الثاني فهو الذي كون نواة لحركة الجهاد التي سيتسع مدارها في عهد الوطاسيين.[1]

ولقي المتصوفة الأحياء تقدير سلاطين بني مرين، واحترامهم، فكانوا يحفظون لهم مكانتهم ويقدرون لهم دورهم الديني ومكانتهم العلمية والصوفية، بل أن بعض المتصوفة كان يفرض شروطا معينة حين يطلب السلطان المريني لقاءه، وكانت مكانة هؤلاء الزهاد والمتصوفة تدفع السلاطين إلى قبول هذه الشروط في مقابل لقائهم والاستماع إليهم، وإلى مواعظهم، ونصائحهم.[2]

وفي هذا المقام يشير ابن مرزوق في مسنده حكاية سيدي أبي عبد الله الكومي الضرير المراكشي، وكان من أولياء الله بلا نزاع، ومن أصحاب التصرفات والمقامات. فهو يذكر كيف فرض أبو عبد الله الكومي شروطا على السلطان أبي الحسن، يقول ابن مرزوق: « بل حتى تبلغوا عني ويتحمل سيدنا أمير المؤمنين شروطي. فانصرفنا عنه فأطعناهم رضي الله عنهم على الواقع، فقالوا: نعم قبلنا شروطه.»[3]

ويمكن القول إن التصوف في العصر المريني كان له أثر واضح في الكثير من الجوانب داخل كيان المجتمع المريني سواء من الناحية الاجتماعية أو الفكرية أو السياسية.

كما أن انتشار علماء الصوفية في مدن المغرب الأقصى، وتنقلهم بينها، إلى جانب المدارس التي أنشأها المرينيون، فرصة عظيمة لإذكاء الحركة الفكرية في المغرب الأقصى -مهد الدولة المرينية- وهذا بدوره فتح السبيل أمام نشر العلم والثقافة في أرياف المغرب الأقصى وبواديه.[4]

(1) مقال بعنوان: الحياة الدينية في عهد بني مرين لإبراهيم حركات. مجلة دعوة الحق ص:7.
(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 356.
(3) المسند الصحيح الحسن ص: 156.
(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 357.

المطلب الرابع: العلوم المتعددة في العهد المريني

الفرع الأول: اللغة والنحو

يعتبر عصر بني مرين عصرا ذهبيا في ميدان علوم اللغة التي اتجه إليها اهتمام الطلاب دراسة والأساتذة تدريسا وتأليفا، وأهم الكتب التي تدارسها المغاربة بمدارسهم في اللغة ترجع إلى هذا العصر بالإضافة إلى بعض مصنفات الشرق.[1]

وقد زاد من اهتمام العلماء في العصر المريني بعلوم اللغة، نشاط حركة البحث في العلوم الدينية من تفسير وقراءات وفقه وحديث، وشعور العلماء الدارسين لهذه العلوم، بحاجتهم إلى دراسة علوم اللغة، إذ هي الأساس لفهم كثير من مسائل هذه العلوم. ولذلك كان معظم العلماء في العصر المريني على صلة كبيرة بالدراسات اللغوية، وأدى هذا بطبيعة الحال إلى دعم اللغة العربية وتقويم الألسنة في ذلك العصر.[2]

مما دفع المغاربة في العصر المريني على دراسة النحو، بوصفه ركنا أساسيا من أركان اللغة العربية، وكان جل اهتمامهم ينصب على دراسته لما فيه من فائدة في الحديث والاستدلال إلى القرآن الكريم.

ومن أبرز الكتب التي لقيت رواجا في العصر المريني كتاب سيبويه، الذي كان في المرتبة الأولى من بين كتب النحو، ويذكر عن أبي عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (ت 750هـ /1349م) أنه كان يحكم قراءة كتاب سيبويه أتم إحكام ويستظهر شواهده كلها ويطرح ما عداه من مصنفات فنه، بينما يأتي كتاب الجمل للزجاجي، في المرتبة الثانية فقد درسه المغاربة، وتضلعوا فيه.[3]

---

(1) المغرب عبر التاريخ. ج/2. ص: 171.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 344.

(3) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب. ص: 119 -120.

ومن العلماء الذين كانت لهم اهتمامات كبيرة بعلوم اللغة محمد بن يحيى العبدري المعروف بالصدفي، كان إماما في العربية ذاكرا للغة. ومنهم أيضا إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج.

ويعتبر ابن أجروم أشهر علماء النحو في العصر المريني، وهو صاحب المقدمة المشهورة باسم الأجرومية، وقد وصفه شراح مقدمته كالمكودي والراعي وغيرهما بالإمامة في النحو. وقد استفاد منه كثير من العلماء كالسيوطي الذي عرف منه كثيرا من مسائل النحو.[1]

الفرع الثاني: التاريخ والجغرافية والفلك

1 -التاريخ: يعتبر المرينيون من أكثر الدول رغبة في تسجيل تاريخ دولتهم وتمجيد مآثرهم، لذلك كثرت كتب التاريخ في عهدهم، ولهذه الكتب عظيم الفضل ليس فقط في تسجيل تاريخ المرينيين بل حتى في تاريخ دول المغرب قبلهم، فأهم المراجع التي تحدثنا عن الأدارسة حتى الموحدين لم يبق منها في الغالب إلا ما كتب في أيام المرينيين، وأغلب الظن أن عناية هؤلاء بالاستكثار من الخزائن واستنساخ الكتب هو الذي حفظ كثيرا من كتب التاريخ وغيرها من الضياع.[2]

وكانت عناية المرينيين بالتاريخ وتضلعهم فيه طريقا سلكه جلة من العلماء والمؤرخين، تمكنوا بفضل مؤلفاتهم من تزيين المكتبة العربية، لاسيما ما سجلوه عن الوقائع التاريخية في حياة المغرب الإسلامي.

والميزة التي يمكن أن نسجلها للعصر الذي نبحثه تمكن في محاولاتهم لتسجيل تاريخ المغرب منذ انتشار الإسلام، وبصورة منفصلة عن التاريخ العربي الإسلامي العام، إضافة إلى أن مؤلفاتهم لم تقتصر على الوقائع التاريخية فحسب بل اشتملت على عناصر التأثير في التاريخ وإبراز المنجزات الحضارية في تلك العصور إضافة إلى أن مؤلفاتهم كانت بمثابة وثائق اقتصادية واجتماعية وثقافية.[3]

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 345.

(2) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص: 174.

(3) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب. ص: 132.

وقد تألق في العصر المريني عدد كبير من المؤرخين، وكتاب السير والرحلات وقد أرخ معظم هؤلاء للدولة المرينية، والبحث اعتمد على عدد كبير من أبحاث هؤلاء المؤرخين. وأخذت معظم هذه المؤلفات بالدراسة والبحث.[1]

ومن أبرز الكتب التي ظهرت في ساحة التاريخ المغربي، واعتبرت فيما بعد أهم مصادره الأولى، هما الأنيس المطرب بروض القرطاس، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية.[2]

وكذلك نجد كتاب جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لمؤلفه الجزنائي، ومن الواجب ألا نَنْسى كتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق، والذي يعد من أهم الوثائق التاريخية والحضارية عن هذه الفترة الدقيقة من حياة الدولة المرينية.[3]

كذلك فإن العمل الذي قام به ابن خلدون العظيم (ت 808هـ/1406م) يدل بوضوح على أن كتابة التاريخ الفعلي كانت تعد أمرا يعتمد على المهارة الأدبية.[4]

ومن مؤرخي العصر المريني أيضا إسماعيل بن الأحمر، الذي أوى إلى كنف بني مرين وتضمنت مؤلفاته كروض النسرين، والنفحة النسرينية واللمحة المرينية كثيرا من أخبار بني مرين، كما عاش في العصر المريني صاحب الحلل الموشية، وابن عبد الملك المراكشي، وهو من كتاب السير والتراجم... ويضاف إلى هؤلاء المؤرخين الرحالة من أمثال العبدري صاحب الرحلة الشهيرة، وابن رشيد صاحب رحلة ملء العيبة وابن بطوطة ورحلته المشهورة، التي أمر السلطان أبو عنان ابن جزي الكلبي بتدوينها وصياغتها، صياغة أدبية، كانت من أعظم ما كتب في أدب الرحلات.[5]

---

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 346.

(2) الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت. دار الثقافة. الدار البيضاء الطبعة: 1. سنة:1983. الجزء:2. الصفحة: 411.

(3) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب. ص: 134.

(4) تراث الإسلام. لحسن نافعة وكليفورد بوزورث. ترجمة: حسن مؤنس، إحسان صدقي العمد، مراجعة: فؤاد زكريا اصدار عالم المعرفة الكويت (بدون رقم طبعة) سنة:1978 الجزء:2. الصفحة:12.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 346.

2 -الجغرافية والفلك: ظهر في العصر المريني عدد من العلماء الذين اهتموا بالدراسة والبحث في علمي الجغرافيا والفلك، ومنهم على سبيل المثال ابن البناء العددي.[1]

كان ينظر في النجوم وعلوم السنة، منشغلا بها، أخذ في الطريقتين بالحظ الوافر، يلازم الولي أبا زيد الهزميري ودخل في طريقته فأعطاه ذكرا من الأذكار ودخل بها الخلوة نحو السنة، ودعا له وقال له: «مكنك الله من علوم السماء كما مكنك من علوم الأرض، فأراه ليلة وهو متيقظ دائرة الفلك مشاهدة حتى عايَن مجرى الشمس فوجد في نفسه هَوْلاً عظيماً، فأخذ من وقته في علم الهيئة والنجوم حتى أدرك منه الغاية. وكان يستعمل الصوم والخلوة طلبا لتصفح أمر الفلك. وذكر محمد بن عبد الله الموقت المراكشي فيما يرويه عن ابن زكريا الذي قال: «وصل شيخنا ابن البناء في علم الهيئة والنجوم غاية لم يلحقها أحد من زمانه مع اتصافه بطهارة الاعتقاد، واعتبار السنة.»[2]

فابن البناء يعد أحد أقطاب هذين العلمين، ومؤلفاته تشهد له بتفوقه في علم الجغرافيا والفلك، ونذكر منها: تنبيه الفهوم على مدار العلوم، منهاج الطالب في تعديل الكواكب، والمستطيل واليسارة في تعديل السيارة، والمناخ في رؤية الأهلة، والمناخ في تركيب الأزياج، وأحكام النجوم، ومقالة في علم الأسطرلاب، واختصار في الفلاحة.[3]

كما اهتم المرينيون بدراسة علم الفلك لأمور متعددة منها ما يتعلق بالجانب الديني في تحديد المناسبات الدينية التي تهم المسلم في عبادته، ومنها ما يتعلق بالجانب الاقتصادي من حيث معرفة أوقات الزراعة، وزيادة على ذلك فقد اهتم البعض بدراسته من أجل معرفة وقع آثاره على الإنسان.

وقد ازدهر هذا العلم في العهد المرينيين، وكان وراء ذلك عوامل في مقدمتها اهتمام علماء الرياضيات لما له بين العلمين من ترابط حيوي، وثانيا رعاية علمائه من قبل الدولة المرينية.[4]

(1)تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:347.

(2) السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية لمحمد بن عبد الله الموقت المراكشي. مراجعة وتعليق: أحمد متفكر. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش. الطبعة: 3. سنة: 2011. الصفحة: 42.

(3) جذوة الاقتباس. ج/1 ص: 151.

(4) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب. ص: 152-153.

والذي نستخلصه من هذه الدراسة أن علم الفلك لم يعتمد على الجانب النظري المجرد فقط، بل تمكن علماء تلك الفترة من الاستفادة منه على مستوى التطبيق العملي.[1]

الفرع الثالث: الرياضيات والطب وعلم الكيمياء

1 -الرياضيات: أدى توطيد المذهب المالكي بالمغرب إلى دراسة الفرائض طبقا لقواعد هذا المذهب وكان لابد من تعلم الحساب والتعمق فيه من أجل الوصول إلى حل المسائل المستعصية في الميراث، ومن ثم اشتدت عناية الطلاب بالحساب الذي قادهم إلى تعلم الهندسة وسائر متعلقاته، كما أن الحاجة إلى ضبط أوقات الصلاة وشهور السنة العربية خصوصا رمضان أدى إلى تعاطي دراسة الفلك، وهكذا ظهر علماء رياضيون وفلكيون.[2]

ومن العلماء البارزين في علم الرياضيات عهد الدولة المرينية. محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ابن الحاج، من مدجنى مدينة إشبيلية من العارفين بالحيل الهندسية والمهرة في نقل الأجرام ورفع الأثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية، ونظرا لما يتمتع به من فهم دقيق لعلم الرياضيات، فقد أشرف على بناء دار الصناعة البحرية بسلا.[3]

وكذلك العلامة أحمد بن عبد الله العطار المليلي، كان فقيها عارفا بالنجوم والتعديل والحساب.[4]

وأيضا ابن البناء العددي صاحب كتاب التلخيص في علم الحساب ورفع الحجاب عليه.[5]

إلى غير ذلك من علماء الحساب الذين برزوا في العهد المريني، وكان لهم تأثير كبير في رقي هذا العلم إلى أعلى مستوياته العلمية.

(1) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب ص:153.
(2) المغرب عبر التاريخ. ج/2 ص: 183.
(3) جذوة الاقتباس. ج/1 ص: 288.
(4) جذوة الاقتباس ج/1 ص:119.
(5) المصدر نفسه ج/1 ص:151.

2 -الطب: اهتم بنو مرين ببناء المارستانات فاحتاجوا في ذلك إلى أطباء لعلاج المرضى وتتبع الحالة الصحية لكل نزلاء المارستانات. وكان الطب النظري موضوع عناية عدد كبير من الأدباء والفقهاء، نظرا لرعاية الدولة لهذا الجانب من العلوم التطبيقية. ولقد كانت جامعة القرويين تخصص كراسي لتدريس الطب النظري الذي ظل يحتل فيها مكانة بارزة إلى عهد قريب.(1)

وبالطبع الطب هو من العلوم التي لقيت رواجا كبيرا، لاهتمام المرينيين بصحة المواطنين في دولتهم، ولكثرة المارستانات التي أنشئت لعلاج المرضى والمصابين في عهدهم.(2)

ومن الأطباء الذين نبغوا في العصر المريني، نبغ أبو الحسن علي بن الشيخ الطبيب بن أبي الحسن علي العنسي المراكشي، وربما كان ولدا أو حفيدا للرياضي الكبير الحسن المراكشي الذي سبق في العصر الموحدي لأنه اختلف في اسمه: فمنهم من ذكره باسم الحسن ومنهم من ذكره باسم أبي الحسن، فيكون هو جد هذا. وله نظم من مجزئ الرجز في الأنكحة وصفاتها وما يطلب أو يتجنب فيها، والأمراض السرية وعلاجها وطبائع النساء وما يحمد أو يذم منهن، وضعه برسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني.(3)

والطبيب الماهر الأشهر أبو عبد الله الشريشي المعروف عند العامة بحكيم الرعاء كان رحمه الله ممن له تقدم في صناعة الطب ومعرفة بما يرجع إليها من علم وعمل، وكانت مكانته مكينة عند الأمراء والملوك مع رصانة العقل وحسن الشارة وصباحة الوجه استدعاه السلطان أبو عنان إلى حضرته فاجتمع هنالك مع جماعة من الأطباء ونظر في شكيته فاستحسنه غاية الاستحسان وأجزل عطاءه، توفي سنة 771هـ.(4)

ومن النبغاء أحمد بن شعيب الجزنائي من أهل مدينة فاس، يعرف بابن شعيب، كان من أهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيه.(5)

(1) المغرب عبر التاريخ. ج/2، ص: 182.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 348.

(3) النبوغ المغربي. ج/1 ص: 200.

(4) بلغة الأمينة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من أستاذ ومدرس وطبيب مجهول المؤلف. تحقيق: محمد بن تاويت. العدد: 9 مطبعة تطوان. الرباط سنة: 1964. الصفحة: 186.

(5) جذوة الاقتباس ج/1 ص: 119.

قال ابن خلدون: «برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية من فلسفة وتعاليم وطب وغيرها.»[1]

كان كاتبا لأبي الحسن المريني السلطان وطبيبه. توفي سنة: 749هـ.[2]

ومن أهم مؤلفات التي ألفت في مجال الطب، الكتاب الذي ألفه ابن الخطيب بعنوان « عمل من طب لمن حب» يعتبر هذا الكتاب، من أهم ما ألفه ابن الخطيب في ميدان الطب. وهو مجلد ضخم، يعالج في موضوعه الطب وعلاج الأمراض، إذ يتناول أمراضا متعددة، فيذكر أسباب المرض، وأعراضه، وعلاجه، والنظام الغذائي المناسب لأي مرض، كما يذكر أعضاء الجسم على اختلافها، وكيفية العناية بها، ألف ابن الخطيب كتابه هذا بينما كان مقيما بفاس سنة 761هـ/1359م في عهد السلطان المريني أبي سالم إبراهيم.[3]

ومن الطبيبات اللواتي برزن في العصر المريني عائشة ابنة الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله بن الجيار المحتسب بسبتة قرأت علم الطب على صهرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشريشي، ونبغت فيه أدركتها... لها تقدم بالطبع وجزالة في الكلام عارفة بالطب والعقاقير وما يرجع إلى ذلك.[4]

وسيأتي الحديث عنهم فيما سيأتي في مجال الرعاية الصحية.

وقد استطاع الأطباء المغاربة في العصر المريني بخبرتهم الطويلة وبتجاربهم المبنية على بعض التقاليد المتوارثة أن يقاوموا أمراضا خطيرة وينجحوا في الكثير من الأحيان في التخفيف عن معانات الناس.

إن التاريخ يشهد لبني مرين باعتنائهم الخاص واهتمامهم المتزايد بهذا النوع من المعرفة والنشاط فكان اهتمامهم هذا يشمل الناحية النظرية والناحية العملية في نفس الوقت، ولذلك أصبحنا نرى في هذا العصر كثيرا من الأطباء يخصونهم بأبحاثهم ويقدمونها لهم

(1) نيل الابتهاج بتطريز الديباج. لأحمد بابا التنبكي. عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة. دار الكاتب طرابلس. الطبعة: 2 سنة: 2000. الصفحة 92.

(2) درة الحجال. ج/1 ص: 45.

(3) الإحاطة في أخبار غرناطة ج/1 ص:24.

(4) بلغة الأمنية. ص: 187-188.

كهدايا ثمينة كالأرجوزة التي نظمت وقدمت لأبي سعيد عثمان المريني. ومهما يكن من أمر فالنشاط الطبي كان في هذا العصر يتجلى في مظهرين اثنين: مظهر علمي نظري يتعلق بالأطباء وبإنتاجهم، ومظهر ثان يتمثل في المارستانات التابعة لها.[1]

3 -علم الكيمياء: يعد علم الكيمياء من العلوم التي لقيت رواجا في العصر المريني، شأن المغرب في ذلك شأن الأقاليم الأخرى التي زاولته بفضل جهود علمائها ولعل السمة الغالبة على علم الكيمياء، تظهر واضحة في التطبيقات العلمية المتنوعة الاستخدام والتي أخذت مساحة واسعة من تلك الفترة، وتداولها الناس المختصين بحرفة عن طريق الخبرة العلمية والتجربة الطويلة، على أن هذا الأمر لم يكن يعني اقتصاره على هذا الجانب، بل عرف العصر بعض العلماء الذين اختصوا به، ودرسوه ووصلوا به إلى مرتبة وصفهم به دون الآخرين من أنباء عصرهم.[2]

يقول روجيه لوتورنو: «ولعله من الممكن أن التاريخ الإسلامي والجغرافية وشيئا من الكيمياء كانت أيضا تعلم في فاس في هذه الفترة.»[3]

وبرز المرينيون في صناعة النقود وصهر المعادن بعلم الكيمياء الذي ساعدهم وبشكل لافت في مختلف الصناعات سواء صناعة الجلود أو النقود أو المعادن من ذهب وفضة ورصاص.

وقد ذكر صاحب الدوحة المشتبكة طريقة علي بن يوسف الحكيم تخليص المعدن مما اختلط به من المواد الغريبة عنه. فقال: «فقد جعلوا للذهب والفضة غسولات مثالية، منها بالمياه الحارة ومنها بالخلول إلى ما شاكل ذلك، ولكن غسلها بعضها ببعض هو أسرع إلى طهارتها ثم بالأرواح، ثم بالحجارة، وهو الذي أردت بالأملاح. ومنها غسلها لإزالة أوساخها.[4]

(1) مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني لمحمد بن شقرون دار الثقافة الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1985 الصفحة:223-224.

(2) الحضارة العربية الإسلامية ص:155.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:177.

(4) الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم تحقيق حسين مؤنس مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد المجلد السادس العدد:1-2 سنة: 1958 مدريد إسبانيا الصفحة:93-94.

كما استخدم المرينيون الكيمياء في صناعة البارود واستعمالها في حروبهم، وحسب ما ذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا السباقين في صناعة البارود.

وجاء في كتاب حضارة العرب. «وتثبت مخطوطات ذلك الزمن أن الأسلحة النارية شاعت بين العرب بسرعة، وأنهم استخدموها للدفاع عن مدينة الجزيرة التي هاجمها الأذفونش الحادي عشر سنة 1342م.»[1]

وجاء في تاريخ الأذفونش الحادي عشر: «أن مغاربة المدينة كانوا يقذفون كثيرا من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير، وذلك إلى مسافات بعيدة من المدينة، فيمر بعضها من فوق الجيش، ويسقط بعضها عليه.»[2]

كما تميز العصر المريني بجملة من الصنائع تدخل فيها علم الكيمياء في مقدمتها صناعة الدباغة والأصباغ، التي تحتاج إلى خبرة دقيقة في المواد الداخلة في مراحل صناعتها وتعددت الحرف الصناعية في مدن المغرب الأقصى كصناعة الورق والزجاج وسباكة المعادن.[3]

ومن العلماء الذين كانت لهم معرفة سجية بعلم الكيمياء أحمد بن شعيب الجزنائي الذي قيل عنه في جذوة الاقتباس « والغالب عليه العلوم الفلسفية، وتهتك في علم الكيمياء، وخلع فيه العذار.»[4]

الفرع الرابع: الفلسفة والمنطق

1 -الفلسفة: أما فيما يرجع للفلسفة فقد كانت أسوأ حظا وأقل انتشارا من سائر العلوم الأخرى، وأكثر تعرضا لتهجمات الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة.[5]

(1) حضارة العرب لغوستاف لوبون. ترجمة: عادل زعيتر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. القاهرة. (بدون رقم طبعة) سنة: 2012 الصفحة: 495.

(2) المرجع نفسه ص: 495.

(3) الحضارة العربية الإسلامية. ص: 156.

(4) جذوة الاقتباس. ج/1. ص: 120.

(5) مظاهر الثقافة المغربية ص: 212

فالكثير من الفلاسفة في العصر المريني لقوا معارضة ومقت من طرف الملوك، فهذا ابن مرزوق يتحدث لنا عن الجزنائي وكيف كان مقته من طرف السلطان أبي الحسن المريني يقول: «وكان مولانا رضي الله عنه ينفر عنه، لموجب الله أعلم بحقيقته.»[1]

وذكره ابن الخطيب أن الجزنائي ضيق عليه وعورض حين تعامل بالفلسفة، فقال: « ورمي إلى كل غرض سهما مصيبا واستمطر كل عارض وديمة، من العلوم الحديثة والقديمة فبرع في فنونها وبهر... وعانى في حركاته وانتقاله، مشقة اعتقاله، وخلص خلوص الحسام بعد مقاله وهو الآن من كتاب ملك المغرب.»[2]

وقال عنه ابن الخطيب: « والغالب عليه العلوم الفلسفية، وقد مقت لذلك.»[3]

والواضح من خلال ما قيل، أن الفلسفة اعتبرت في العصر المريني من الزندقة ومقت كل من يتعامل بها، باعتبارها علم خارج عن قوانين الشريعة الإسلامية. واستنادا لقول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة، كان من أسباب المقت، فالفلسفة كانت تشكل أكبر خطر بالنسبة للفقهاء والملوك أنفسهم. وإذا كانت العلوم قد تقدمت في هذا العصر على قول الأستاذ عبد الله كنون، فإن الفلسفة لم تكن ضمن هذه العلوم التي تقدمت في هذا العصر. وإذا كان بعض الملوك يغضون الطرف ويتسامحون في بعض الأحيان، فذلك لمدة مؤقتة ولأغراض شخصية قاهرة، لا من أجل الأبحاث الفلسفية بل للانتفاع بالعلوم الأخرى التي كانت مجتمعة في شخص الفيلسوف الذي كان ملما بعلوم كثيرة منها الطب والرياضيات وغيرها.[4]

والظاهر أن الجزنائي كان ضمن قائمة العلماء الممقوتين، ليس على ذاته وإنما باشتغاله بالجانب الفلسفي، غير أنه طاله التسامح وكان من المقربين للسلطان المريني ككاتب له، ونظرا لإتقانه لكثير من العلوم الأخرى التي لا مفر منها، وحاجة السلطة القائمة على شؤون البلاد لها، لما كان هذا الاحتضان. وعلى كل حال فقد أشار ابن خلدون بأن علم الفلسفة، كان

---

(1) المسند الصحيح الحسن. ص: 375.

(2) أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات للسان الدين بن الخطيب. تحقيق: محمد كمال شبانة. مطبعة فضالة. المحمدية. المغرب. (بدون رقم الطبعة) سنة: 1977. الصفحة: 106 -107.

(3) الإحاطة. ج/1 ص: 134.

(4) مظاهر الثقافة المغربية ص: 214.

يشكل ضررا على الدولة بكل مكوناتها، حيث يقول: «... لأن هذه العلوم عارضة في العمران، كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير. فوجب أن يُصْدع بشأنها ويكشف عن المعتقد الحق فيها.»[1]

فالفلسفة لم تكن فقط ممقوتة في المغرب فحسب، بل امتد صداها إلى بلاد الأندلس في العهد المريني، وكل من اشتغل بها وعرف بذلك سمي زنديقا، وهذا الأمر يذكره لنا المقري في كتابه يقول:»» وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة.»»[2]

2 -المنطق: إن الدراسات في علم المنطق وجدت رواجا أكثر من الفلسفة، لأن المشتغلين بالمنطق، لم يلقوا المعارضة، أو المقت الذي كان يلقاه المشتغلون بالفلسفة.

والملاحظ أن العلماء الذين درسوا المنطق كانوا من هؤلاء العلماء الذين استفادوا منه في دراستهم لعلوم أخرى كالفلك والرياضيات، كابن البناء العددي الذي ترك مؤلفات عديدة في المنطق منها: الكليات في المنطق وشرح عليه، والقوانين الذي وضعه ابن البناء لابن القاضي العمراني، والأصول والمقدمات.[3]

وكذلك منهم المقري الكبير الذي كان مشاركا في الأصلين والجدل والمنطق.[4]

ونخلص أن عهد بني مرين تميز بمميزات خاصة، كان لها من المفعول المباشر والأثر القوي ما جعل أبناء المجتمع المغربي مع رؤسائهم يتجهون في تفكيرهم، وفي ثقافتهم وفي سلوكهم المادي والروحي، اتجاها بقي بعضه أثراً إلى اليوم. وبقيت بعض الآثار تشتمل على

(1) مقدمة ابن خلدون ج/2 ص: 320.
(2) نفح الطيب. ج/1 ص: 221.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص: 348.
(4) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم الشريف المليتي المديوني. وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله الشيخ محمد بن أبي شنب. طبع في المطبعة الثعالبية الجزائر. سنة: 1908 الصفحة:155.

ازدهار الفن العمراني في عصر بني مرين وتدل على ما كان يبذله الفقهاء والعلماء والأدباء من جهد في ميدان العلم والأدب.[1]

وبلوغ الحياة الفكرية هذا الازدهار في العهد المريني، يرجع بالأساس، إلى تنوع أماكن التعليم في البلاد، والتي لم تكن حصرا على فئة دون أخرى، بفضل الرعاية التي حظيت بها أماكن التعليم، وإغداق الأموال على العاملين بها طلابها كانوا أم أساتذة.[2]

(1) مظاهر الثقافة المغربية ص: 229.

(2) الحضارة العربية الإسلامية. ص: 167.




الباب الثاني:

العمل الاجتماعي في عهد بني مرين

الفصل الأول: المؤسسات الدينية

الفصل الثاني: المؤسسات التعليمية

الفصل الثالث: الرعاية الصحية

الفصل الرابع: الرعاية الاجتماعية في عهد بني مرين




الفصل الأول:
المؤسسات الدينية

المبحث الأول: بناء الجوامع والمساجد

حرص المرينيون على تنشيط حركة البناء والتعمير في دولتهم، باعتبارها مظهرا لحياتهم الاجتماعية الراقية المتقدمة، وقد شملت حركة البناء والتعمير جميع جوانب الحياة في المجتمع المريني، من مدن جديدة ومنشآت عامة كالمساجد، والمدارس، والمستشفيات والفنادق والقناطر.[(1)]

وبدايتنا في هذا المقام بالمساجد والجوامع باعتبارهما عنصراً أساسياً من عناصر تصميم المدينة الإسلامية لما له من أهمية دينية وسياسية في حياة المجتمع، كما ساهم ومنذ قيام الدولة العربية الإسلامية بدوره التعليمي إضافة إلى وظائف أخرى، حيث اشتهر من مساجد الإسلام الكثير وتميزت عن غيرها بجهودها الواضحة في هذا الجانب.[(2)]

والمسجد هو مركز ترابط الجماعة الإسلامية وهيكلها المادي الملموس، فلا تكتمل الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض، يتلاقون فيه في الصلاة وتبادل الرأي، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم، ويلتقون فيه مع رؤسائهم، أو يتوجهون إليه لمجرد الاستمتاع بالقعود في ركن من أركانه كما يفعل الناس عندما يزورون حديقة ليروحوا عن أنفسهم، فالمسجد على هذا ضرورة دينية وضرورة سياسية وضرورة اجتماعية أيضا بالنسبة لكل مسلم على حدة وبالنسبة لجماعة المسلمين جملة.[(3)]

والمسجد هو القلب النابض في المجتمع الإسلامي، وهو ملتقى العباد، ومجمع الأعيان، ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية...وهو الرابطة بين أهل القرية والمدينة أو الحي لأنهم

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:319.

(2) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لمحمد عبد الرحيم غنيمة مطبعة مولاي الحسن تطوان (بدون رقم طبعة) سنة:1953 الصفحة:33.

(3) المساجد لحسين مؤنس عالم المعرفة العدد:37 إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت يناير 1981 الصفحة:30.

يشتركون جميعا في بنائه كما كانوا جميعا يشتركون في أداء الوظائف فيه. وقد كان تشييد المساجد عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي يقود عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته. ولكن أعيان القرية أو الحي كانوا يساهمون بالتبرعات ونحوها.(1)

وللمسجد أهمية كبيرة داخل المجتمع الإسلامي، يقول عز وجل: ﴿فِي بُيُوتٍ اَذِنَ أَللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اَسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالَاصَالِ رِجَال لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَة وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اِللَّهِ وَإِقَامِ اِلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ اِلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ اِلْقُلُوبُ وَالَابْصَٰرُ﴾ [سورة النور الآية:36]

فالمسلمون يجتمعون خمس مرات في اليوم لأداء فريضة الصلاة داخل المسجد، متوجهين إليه تعالى جماعة، مسبحين بحمده ممجدين ذكره.(2)

ومنذ تولي المرينيين الحكم في بلاد المغرب، اهتموا ببناء المساجد الجديدة، فاحتوت كل مدينة من المدن الجديدة على مسجد كبير.(3)

وحسب ما جادت به الكتب التاريخية، أن سلاطين بني مرين ساهموا في بناء المساجد وحرصوا أشد الحرص على اتمامها وبنائها، وأسندوا إليها الأموال وأوقفوا عليها الأوقاف والأحباس، ودعوا أهل المال إلى البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله. وقد تضافرت الجهود لتعزيز هذه المنشآت الدينية باعتبارها منشآت دينية واجتماعية في آن واحد، إذ يعتبر المسجد إرثا مشتركا بين أفراد المجتمع لذلك وجب التضافر والتلاحم، وهذا ما حدث بالفعل في العهد المريني.

يقول روجه لوتورنو:»كان أول ما عني به المرينيون، لما بنوا مدينة فاس الجديدة الملكية، هو إنشاء جامع جديد بها، ولم يلبث أن ضم إلى الجامع الكبير مدرسة ومسجدا آخر، ثم بني في فاس الجديدة مسجدان آخران في القرن التالي، تبعا لتطوير المدينة الملكية. أما

(1) تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1998 الجزء:1 الصفحة:246.
(2) فاس في عصر بني مرين ص:190.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:322.

المدينة القديمة فقد كانت مزودة بحاجاتها من المساجد والمنابر، ومع ذلك فقد بنى المرينيون مسجدين جديدين.»[1]

المطلب الأول: بناء جوامع ومساجد فاس

الفرع الأول: بناء الجامع الكبير

لقيت الجوامع والمساجد في الحضرة المرينية رعاية متزايدة من قبل سلاطينهم، ولعل فاتحة منجزاتهم في هذا الباب بناء جامع فاس الجديد الذي شيده السلطان يعقوب بن عبد الحق في سنة 677هـ/1278م، وأنفق عليه الأموال الطائلة.[2]

وهذا ما ذكره صاحب الذخيرة السنية ابن أبي زرع فقال:» ولما تم سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديدة بالبناء أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد أبي عبد الله بن عبد الكريم الحدودي وأبي علي بن الأزرق والي مكناس، والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة...وعلق الثرايا الكبرى بالجامع المذكور، وزنها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا، وعدد كؤوسها مائة كأس وسبعة وثمانون كأسا، وكان الصانع لها المعلم الحجازي، والانفاق منها من جزية اليهود لعنهم الله.»[3]

ويذكر الدكتور محمد المنوني أن الجامع الجديد أو الجامع الكبير كان على مقربة من القصر الملكي، وقد استخدم في بنائه أسرى الإسبان إلى جانب العملة المغاربة، وهذا ما جعل بنايته يزدوج فيها-إلى حد ما- الفن المغربي الإسباني.

ومن الإنشاءات الأخرى بهذا الجامع: أنه يوجد به عند الجدار الواقع شمال قبلة الصف الثاني، وقفية منقوشة بوسطه في إطار مستطيل، وقد كتب فيها: أنه أمر ببناء هذا السبع السلطان، أمير المسلمين المنتصر بالله، أبو فارس ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم المريني، لتلاوة الكتاب العزيز: ختمة كل أسبوع مرة، وعين لذلك إثنى عشر طالبا ممن يجيدون التلاوة، ويقوم بحفظ القرآن الكريم، على أن يكون لكل واحد منهم ستون درهما فضة في

(1) فاس في عصر بني مرين ص:190.
(2) الحضارة العربية الإسلامية ص:223.
(3) الذخيرة السنية ص:162.

كل شهر، جارية من الأحباس المعينة لذلك، ثم تعدد الوثيقة أعيان الأملاك الموقوفة لهذا الغرض وأخيرا يأتي تاريخ الوقفية 17 ربيع الأول سنة 798هـ/3 دجنبر 1395م.[1]

الفرع الثاني: بناء جوامع ومساجد في فاس الجديد والبالي وترميمها

من الجوامع التي بنيت في العهد المريني بحضرة فاس الجديد بعد الجامع الكبير نذكر منها: جامع البيضاء وجامع الحمراء، ومسجد العباسيين أو مسجد الصفصاف قديما وجامع الغريبة الذي قد يكون هو جامع الرياض قديما، وجامع الزهر وقد يكون جامع الحجر قديما.

ومن حسن الحظ نستطيع أن نعرف مؤسسي الجامعين الأخيرين (جامع الغريبة وجامع الزهر) حيث يتوج -إلى حد الآن- الباب الحجري لجامع الزهر بكتابة فيها تاريخ بنائه: أوائل رجب عام 759هـ/1358م، من طرف السلطان المريني أبي عنان وقد ألحق به -يسرة مدخل الباب المذكور- كتابا وسقاية تعلوها بقايا كتابة محفورة في الخشب.[2]

أما جامع غريبة فقد كان يسمى زمن بنائه بمسجد السوق الكبير، وهو المسجد الذي بناه حاجب السلطان أبا سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم، عبد الله الطريفي بالسوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليها كتبا كثيرة وإليه ينسب منزه الطريفي بفاس.[3]

ويبقى لنا جامع البيضاء وجامع الحمراء، وهما كما يذكر العلامة محمد المنوني، ليس لهما تأريخ ولا يضبط مؤسسهما.[4]

غير أن المؤرخ باركر ((parker نسب مسجد الحمراء لأبي الحسن المريني، وأنه هو من تولى بناءه سنة 740هـ/1339م.[5]

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:28-29.

(2) المرجع نفسه ص:52.

(3) روضة النسرين ص:41.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:53.

(5) الحضارة العربية الإسلامية ص:226.

وهناك من أرجعه إلى المرأة الحمراء أو المنارة الحمراء الواقعة بجانب المحجة الكبرى لفاس الجديدة، ولم يعرف بالضبط تاريخ وجوده، لكن يذكر أن امرأة الحمراء كرست كل ثروتها لبناء هذا الجامع، ولذلك سمي هذا الجامع باسم لالة الحمراء بفاس الجديدة.[1]

أما مسجد العباسيين فكان موجودا قبل بناء جامع الغريبة حيث ورد ذكره في الوقفية السالفة الذكر باسم مسجد الصفصاف.[2]

وشيد بنو مرين بفاس البالي كذلك مساجد لطيفة على العموم كجامع الشرابليين ومسجد أزهار، يقول عثمان إسماعيل صاحب كتاب تاريخ العمارة الإسلامية: « وبنى أبو عنان المريني بفاس الجديد سنة759هـ مسجد أزهار الذي يعتبر من أجمل المساجد المرينية عامة. وفي حي الشرابليين مسجد يعرف باسم الحي، فهو يرجع إلى القرن الثامن غير أن صحنه المستطيل يشير على العودة نحو الأسلوب الموحدي، وقد جدده المولى سليمان ويبقى منه المدخل والصومعة.»[3]

ومسجد الشرابليين هو المسجد القريب جدا من المدرسة البوعنانية، فبنو مرين لم يشيدوا مسجدا كبيرا يماثل مساجد فاس الجديد ولم يتعرضوا إلا قليلا للمساجد الموجودة لكونها كانت مطابقة بدون شك لحاجيات الوقف.[4]

واهتم سلاطين بني مرين كثيرا بترميم المساجد وإصلاحها، وتزويدها باحتياجاتها، حفاضا على الرونـق الحضاري لهذه المساجد، ففي عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق زود مسجد القرويين بكثير من الإصلاحات.[5]

ففي سنة 689هـ/1290م رأى عامل فاس أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الحدودي أن يحدث بابا جديدا، ولقد استهواه منظر الباب المدرج الذي بني سنة 604هـ

(1) فاس قبل الحماية لروجي لوتورنو ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1992 الجزء:1 الصفحة:98-99.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:53.

(3) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى لعثمان إسماعيل مطبعة المعارف الجديدة الرباط الطبعة:1 سنة:1993 الجزء:4 الصفحة:120.

(4) فاس قبل الحماية ج/1 ص:108-109.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:322.

أيام الناصر الموحدي بجوف جامع الأندلس، فأراد أن يكسب القرويين بابا مماثلا تفخيما لأمرها، وإعلاء لمركزها، فبناه على شكل باب الأندلس المذكور، وجعل أسفله حوضا من الخشب ملبسا بالرصاص. وجلب إليه الماء من عين جنوب القرويين كانت تعرف بعيون ابن اللصاد، وذلك ليمر به الحفاة كما هو الحال بباب جامع الأندلس. وجعلت أسفل الأدراج سقاية، كالحال في الأندلس، ونمقها بالجص والحجر المنحوت، وأنواع الصبع. وفي زمن أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق سنة 699هـ، كان الجدار الشمالي أوشك أن يسقط من سوء الأحوال... فصدر الأمر ببنائه وإصلاحه، ولم يكتب السلطان بذلك وحده، ولكن أعطى خلخالين من الذهب زنتهما خمس مائة دينار ذهبا، وقد خاطب أبو يعقوب قاضيه بهذه الكلمات:» اصرف الخلخالين في بناء الحائط المذكور، فإنهما حلال محض، فقد منحهما والدي أمير المسلمين لوالدتي مما أفاء الله تعالى عليه من أخماس غنائم الروم من بلاد الأندلس، فورثتهما عنها، ولم أر لتصريفهما موضعا أوجب من هذا، فعسى الله أن ينفع به.»[1]

كما أخذت المئذنة حصتها من الترميم، فقد أمر السلطان أبي يعقوب يوسف سنة 688هـ/1289م بتبييض المئذنة وكسوتها بالجص والقاشاني وتدعيم وصلات أحجارها وصقلها حتى أصبحت كالمرآة.[2]

وهذا ما يرويه الدكتور عبد الهادي التازي عن الفقيه الشيخ الخطيب أبي عبد الله بن أبي الصبر حين تولى خطة القضاء مع الخطبة والإمامة بجامع القرويين، وذلك سنة ثمان وثمانين وست مائة للهجرة، فقد لاحظ القاضي أن أسراب الحمام والزرازير تلوذ بالصومعة فتنال من نظافتها وجدتها، ولهذا استشار أمير المسلمين أبا يعقوب يوسف بن السلطان يعقوب بن عبد الحق، فأذن له في ذلك، وأمره أن يأخذ من أموال أعشار الروم ما يحتاج إليه، لكن القاضي أجابه بأنه ما يزال في مال الأوقاف ما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى، فشرع في تبييضها، فلَبَّس الصومعة بالجص والجير، وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التلبيس والبناء.[3]

(1) جامع القرويين لعبد الهادي التازي دار نشر المعرفة الرباط الطبعة:1 سنة:1972 الجزء:2 الصفحة:318-319.

(2) المساجد ص:166.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:322.

واقترنت إصلاحات جدران الصومعة ببناء الغرفة على باب الصومعة، وتعرف الآن بالغريفة على طريق التصغير، وقد بنوها بالجهة الجنوبية للصومعة فوق بابها مباشرة بعد أن نصعد خمس وعشرون درجة، وهي مسقفة بقبة ذات أربعة جوانب من البرشلة، وقد نقشت على هذه الجوانب الآية الشريفة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اُللَّهُ اُلذِي خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [سورة الأعراف الآية:53]

كما كتب بعض جهاتها بالجبس كلمات (الملك لله والعز لله) تطل على صحن من نافذة ذات قوسين منقوشين يحملها تاج وسارية رخامية، وفي أسفل النافذة شباك من خشب عين حمام.[1]

وصنعت بهذه الغرفة المجانة لمعرفة الأوقات، -سيأتي الحديث عنها- فإن الشيخ المعدل محمد بن عبد الملك الصنهاجي النطاع أحدثها لمعرفة الأوقات هناك، ورسمها له محمد بن صدينية القرطسوني وتطوع بعض المسلمين بالإنفاق فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة.[2]

كما أمر السلطان أبو يوسف بإصلاح العنزة، وقد التفت إلى ذلك القاضي وخطيب القرويين أبو عبد الله بن أبي الصبر أيوب بن ينكول الجناتي في سنة 687هـ/1288م، يقول الدكتور عبد الهادي التازي: «فهو الذي أزاح من أعلى قبتها تلك الطلسمات التي نصبت فيها منذ زمن، واستعاض عن تلك الألواح البسيطة بما نراه إلى اليوم شاخصا من غريب الصنعة ورفيع الخشب وجميل النقش ودقيق الزخرفة، ولقد كان الإنفاق من مال الأوقاف.»[3]

وهذا ما ذكره الجزنائي أيضا في كتابه، حيث تحدث عن غرابة الصنعة ونفاسة الصبغة وإتقان الألصاق ودقة الخرط والنقش وجلالة الاحكاء ما يقضي بالعجب ويصرح بالإعجاز.[4]

ورأى الأمير عمر بن السلطان أبي سعيد عثمان أن يجعل في الجهة الغربية من الجامع تسعة من الطيقان لزيادة الضوء في تلك الجهة، وأمر أن يجعل على المحراب مقصورة وشرع

(1) جامع القرويين ج/2 ص:322.

(2) جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس للجزنائي تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط الطبعة:2 سنة:1991 الصفحة:51.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:320.

(4) جنى زهرة الآس ص:73.

الصناع في عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الأرز بصناعة النقاشين... غير أن الناس تضرروا من انقطاع الصفوف ورفعوا ذلك إلى فقهائهم، فلقوه وبينوا له ما ظهر للناس من ضرر، فرج عن عمله، وكان الإنفاق من مال الأحباس على يد الناظر فيها محمد بن حيون.[1]

كما حظيت مدينة فاس عاصمة المرينيين بالاهتمام المتزايد من قبل سلطانها أبي الحسن المريني في إنشاء المساجد واهتمامه بالإنفاق عليها، وكان ذلك دأبه وحاله خلال فترة حكمه، فأمر ببناء مسجد الصفارين ومسجد حلق النعام، وكل واحد منهما غاية في الكبر والضخامة، وصومعة كل واحد منهما غاية في الارتفاع والحسن.[2]

أما المدينة القديمة فقد كانت مزودة بحاجتها من المساجد والمنابر، ومع ذلك فقد بنى المرينيون مسجدين جديدين مسجد الاسكافيين ومسجد أبي الحسن. ولولا كثرة تردد الناس على المساجد، لما بنيت بهذا العدد الكبير، ولما وقفت عليها الأوقاف اللازمة لها بهذه الكثرة. ولذلك فإنه يمكن القول، دون الخطر الوقوع في خطأ واضح، بأن نسبة كبيرة من المجتمع كانت تحترم فرض الصلاة وتؤديه.[3]

في سنة 725هـ أمر السلطان أبو سعيد عثمان المريني ببناء جامع جزاء بن برقوقة وجامع السمارين فبنيا أتم بناء.[4]

المطلب الثاني: إصلاح صومعة المسجد الأعظم وبناء مسجد القصبة بمكناس

الفرع الأول: إصلاح صومعة المسجد الأعظم بمكناس

كان إصلاح صومعة المسجد الأعظم من مساهمات وتبرعات سكان مكناسة، زمن الحكم المريني، وذلك بعد نزول صاعقة عليها تسببت في موت سبعة رجال، وهدمت بعض أركانها.

(1) جنى زهرة الآس ص:74-75.
(2) المسند الصحيح الحسن ص:401.
(3) فاس في عصر بني مرين ص:401.
(4) الأنيس المطرب ص:414.

يقول صاحب روض الهتون: «ولم يزل أهلها أيام بني مرين في خير وثروة، وكانت الصاعقة نزلت أيامهم على صومعة جامعها الأعظم والناس في صلاة العصر، فقتلت نحو سبعة رجال، وهدمت بعض أركان الصومعة ودخلت في تخوم الأرض بباب بإزاء الصومعة يعرف اليوم بباب الزرارعيين، فانتدب لبنائها شيخ الإسلام الفقيه موسى بن معطي المعروف بالعبدوسي، واستنجد أهل اليسار منهم فجمعوا من المال ما أصلحوا به ما انثلم من الصومعة المذكورة فيما حدثني به والدي والشيخ المعمر عبد الرحمان النيار مؤقت الجامع المذكور ومزوار مؤذنيها.»[1]

الفرع الثاني: بناء مسجد القصبة بمكناس

لم تشر المصادر التاريخية إلى تاريخ بناء المسجد، غير أن بعض المؤرخين أشاروا إلى أن تاريخ بنائه يرجع إلى بناء قصبة مكناس أو وقت الشروع في بناء القصبة وهذا ما ذكره صاحب إتحاف أعلام الناس حين أشار في حديثه عن قصبة مكناس، فقال: «نعم جامع القصبة المذكور سيأتي لنا ترشيح أنه هو جامعها المريني المأمور ببنائه معها.»[2]

وصرح صاحب كتاب الأنيس المطرب ابن أبي زرع فقال: « وفي شوال المذكور أمر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق ببناء قصبة مكناسة وجامعها.»[3]

والسنة التي أشار إليها هي سنة 674هـ التي توافق التاريخ الميلادي 1276م والظاهر أنها توافق سنة بناء البلد الجديد بفاس.

(1) الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون لمحمد بن غازي العثماني تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط الطبعة:2 سنة:1988 الصفحة:39-40.

(2) اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لابن زيدان عبد الرحمان محمد السجلماسي تحقيق الدكتور علي عمر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة:1 سنة:2008 الجزء:1 الصفحة:145.

(3) الأنيس المطرب ص:322.

المطلب الثالث: بناء وترميم بعض مساجد مراكش

الفرع الأول: بناء مسجد سيدي محمد بن صالح

لم تتوقف اهتمامات سلاطين بني مرين في إنشاء وبناء المساجد في فاس بل امتد ذلك إلى خارج أحضانها، فأنشأ السلطان أبو الحسن المريني مسجد الشيخ سيدي محمد بن صالح بمراكش سنة 718هـ الموافق لسنة 1318م. يقول صاحب كتاب السعادة الأبدية: «ومنها مسجد الشيخ محمد بن صالح نفعنا الله به، وبني هذا المسجد سنة 718هـ، والباني له السلطان أبو الحسن المريني.»[1]

وفي موضع آخر من الكتاب يقول: «وبلصقه صومعته الشهيرة به التي بنيت لأجله مع مسجدها، وذلك في غرة رجب الفرد عام 721هـ، بتقديم السين الموحدة، كما هو مسطر بآخرها بالتزليج فانظره. وأما مسجده المنسوب إليه فتقدم لنا أن الباني له مع الصومعة هو السلطان أبي الحسن المريني، وذلك في سنة 718هـ.[2]

الفرع الثاني: ترميم جامع المنصور بمراكش

من خصال السلطان أبي الحسن إنفاقه الأموال العظيمة في بناء المساجد والجوامع وترميمها وكان جامع المنصور من ضمن المساجد التي أنفق عليها السلطان أبو الحسن بمراكش، وهذا ما يصرح به ابن مرزوق فيقول: «وجامع المنصور بمراكش الذي يضرب به الأمثال، وإن كان أكبر مساحة، إلا أن ما كان في هذا من الرخام والإحكام أغرب وأعظم، ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر، وهو رحمه الله على فرسه وأنا على بغلتي، من أسفلها إلى أعلاها، وكأن في وطء من الأرض، وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الاحكاء من كل جانب. ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح، وهو من حديد يشبه أن يكون صاريا. وأما الثرايا، فكان عملها على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي.»[3]

---

(1) السعادة الأبدية ص:20

(2) المرجع نفسه ص: 67.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:402.

كما أمر السلطان أبو الحسن المريني سنة 715هـ/1315م ببناء مسجد محمد الجزولي، وأنفق عليه من ماله الخاص.[1]

وتم بناء بعض المساجد الصغيرة أهمها مسجد ابن صالح، ومسجدين صغيرين بحارة الصورة وروض الجنة، الذي وسع في عهد السعديين وصار يعرف بمسجد سيدي سليمان.[2]

المطلب الرابع: بناء الجامع الكبير بالرباط

ذكر بعض المؤرخين أن الجامع الكبير بالرباط هو من أبنية يعقوب المنصور الموحدي باني الرباط سنة 593 هـ وهو من أعظم مساجد الإسلام، وأحسنها شكلا وأفسحها مجالا، وأنزهها منظرا.[3]

غير أن صاحب كتاب مقدمة الفتح يرى أنه لا أصل له ولا تظهر عليه صنعة الآثار الموحدية ولا صبغة البناءات القديمة المعروفة للموحدين ولو كان من بنائهم لصرح به المؤرخون كما صرحوا ببنائهم لجامع القصبة ولجامع حسان، والظاهر ما صرح به البعض من أنه أثر من آثار بني مرين ويشهد له أمران: الأول وجود المارستان العزيزي المريني بإزائه. الثاني ما اكتشف بعد الإصلاح الحادث به أثر لأبي عنان المريني من الرخامة الملصقة بجدار القوس الوسط من صحنه بل وقع التصريح في عدد:9 المؤرخ ب: 15شتنبر 1917م من مجلة فرنسا والمغرب مقال للمهندس فورناز بأن عبد الحق المريني هو الذي أمر ببنائه آخر القرن السابع الهجري وقيل إنما جدده، وتاريخ بنائه قبل ذلك.[4]

---

(1) الحضارة العربية الإسلامية ص:226.

(2) مراكش من خلال العصرين المريني والسعدي. أشغال الملتقى الثاني سنة:1990 مداخلة الأستاذ هوزلي أحمد بعنوان: النمو الحضري بمدينة مراكش في العهد المريني والسعدي مطبعة إدويسعدن العدد:8 سنة:1992 الصفحة:12.

(3) الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين لمحمد بن علي الدكالي تحقيق مصطفى بوشعراء منشورات الخزانة العلمية الصبيحية سلا مطبعة المعارف الجديدة الرباط الطبعة:2 سنة:1996 الصفحة:60.

(4) مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لمحمد بوجندار تقديم عبد العزيز الخمليشي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط مطبعة الأمنية الرباط الطبعة:1 سنة:2012 الصفحة:75-76.

فالمؤرخ بوجندار يميل إلى القول بأن السلطان عبد الحق المريني هو الذي أمر ببنائه آخر القرن السابع الهجري.[1]

وتقول الدكتورة سحر السيد عبد العزيز سالم: «ويكفي تأكيد أن المرينيين أقاموا بالرباط الجامع الكبير والمارستان العزيزي.»[2]

وسواء كان هذا الجامع من بناء المنصور الموحدي أم السلطان عبد الحق المريني فقد جدد في عهد السلطان أبي ربيع المريني.[3] [4]

المطلب الخامس: توسيع المسجد الجامع بتازة وتجديده

جامع تازة كان من توسيع السلطان يوسف بن يعقوب المريني، وفرغ منه سنة693هـ وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأسا، وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبيا.[5]

ومن أهم مميزات الجامع الأعظم بتازة، أنه يحتفظ بتلك الفخامة التي يتسم بها الفن الموحدي لكنه يضيف رقة الأشكال وتشعب الرسوم، وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقربصات والزليجيات، ويلاحظ في المدرسة العنانية بفاس تشابه واضح في الهندسة والترخيم مع مدارس الشرق.[6]

(1) تاريخ رباط الفتح لعبد الله السوسي مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر سلسلة التاريخ (9) الرباط سنة:1979. الصفحة:134.

(2) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي لسحر سيد عبد العزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1996 الصفحة:91.

(3) **أبو ربيع المريني**: هو السلطان سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق. يكنى أبا الربيع، أمه مولدة عربية اسمها زيانة. بويع بعد أخيه عامر في صفر708هـ ومات مسموما في تازة في رجب 710هـ وله عشرون سنة.
-روضة النسرين ص:23.

(4) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:146.

(5) الاستقصا ج/3 ص:75-76. (أنظر أيضا) الأنيس المطرب:409.

(6) مظاهر الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله تقديم علال الفاسي الرباط. (بدون رقم طبعة) سنة:1957 الصفحة:58.

وقد بنيت صومعة المسجد بعد إضافة الزيادة بالواجهة الجنوبية الغربية والواجهة الشمالية الشرقية في ربيع الأول من سنة 690هـ/1291م وكان للمسجد سبع بلاطات وأربعة أساكيب فأمر السلطان ببناء بلاطات جانبيه كما ضاعف بيت الصلاة فأصبح المسجد يشتمل على تسع بلاطات وثمانية أساكيب بما فيه، أسكوب القبلة، وكان الهدف من بناء هاتين البلاطتين الوصول إلى نهاية صحن المسجد ثم انحنت لتصل بنفس الحائط القديم إلى المسجد.[1]

المطلب السادس: بناء المسجد الكبير بوجدة

لما قام السلطان أبو يعقوب يوسف المريني غازيا إلى تلمسان ومرَّ بمدينة وجدة بعد أن عراها الخراب، فعزم على بنائها وتحصين أسوارها، فاتخذ قصبة ودارا لسكناه ومسجدا وهو المسمى عندنا اليوم بالمسجد الكبير[2] وذلك سنة 696هـ/1296م.

يقول ابن خلدون: «ثم نهض في شهر جمادى غازيا تلمسان ومر بوجدة فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها واتخذ بها قصبة ودارا لسكناه ومسجدا وأغزى إلى تلمسان.»[3]

ويذكر الأستاذ قدور الورطاسي أن أقرب مسجد للقصبة هو المسجد الكبير الآن. فبعد إعادة يوسف المريني لبناء وجدة يمكن لنا أن ندعي أن وجدة الحالية، أي قصبتها من بناء السلطان يوسف المريني، ريثما نعثر على نصوص مخالفة.[4]

والمسجد الكبير بوجدة، يرجع إلى عصر أبي يعقوب يوسف المريني سنة 696هـ. وهو بناء متواضع يشمل بيت الصلاة فيه على عشر بلاطات وثلاثة أساكيب ويبدو أن القسم الشمالي من بيت الصلاة والصحن قد أعيد بناؤه. وتقع الصومعة المربعة ذات الأبعاد المتناسقة

---

(1) حفائر شالة الإسلامية لإسماعيل عثمان عثمان دار الثقافة بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1978 الصفحة:379-381.

(2) **المسجد الكبير**: هو المسجد الذي اشتهر بين الناس إما لقدمه أو لسعته، ولكن الكبير هنا لا يعني دائما السعة الحقيقية. فقد يكون في المدينة من المساجد ما هو أوسع من الجامع الكبير مساحة، وقد يطلق على أحد المساجد اسم المسجد العتيق أو القديم الذي يكون قد بني وسط المدينة القديمة أثناء نموها، فيصبح بهذا المعنى شيخ المساجد، فيكون موضع اهتمام الحكام وهدف المحسنين لوقف الأوقاف عليه. -تاريخ الجزائر الثقافي ج/1 ص:246.

(3) العبر ج/7 ص:291. (أنظر أيضا) الأنيس المطرب ص:385.

(4) معالم من تاريخ وجدة لقدور الورطاسي مطبعة الرسالة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1972 الصفحة:31.

ملتصقة بالركن المغربي لبيت الصلاة، أما المحراب فإن إطاره وعقده الأول لا زالا محفوظان ويعكسان روح البناء الأول من نهاية القرن السابع، كما أن جوفة المحراب فيه مغطاة بقية ذات مقرنصات بأسلوب قديم وأن العقد الكبير الرخوي يعكس بآثاره وزخارفه الزهرية مظهر العقود المماثلة من عصر المرابطين أكثر مما يعكس صورة العقود المماثلة بمساجد المرينيين الأولى.[1]

المطلب السابع: بناء مسجد القصبة العليا بآسفي

يعود بناء وتشييد مسجد القصبة بآسفي إلى سنة 742هـ، على يد السلطان أبي الحسن المريني. يقول الشيخ الكانوني: «كان هذا المسجد جامعا ويذكر أنه العتيق وبه خطب الإمام أبو عبد الله بن مرزوق حين ورد على هذه البلدة جبر الله صدعها.»[2]

المطلب الثامن: بناء مسجد أبي مدين شعيب بتلمسان (العباد)

شيد مسجد أبي مدين خلال دخول المرينيين إلى مدينة تلمسان، بجانب ضريح أبي مدين،[3] حيث أمر السلطان أبو الحسن المريني ببنائه وكلف أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ووزيره ابن مرزوق بالإشراف على بنائه.

ويتحدث ابن مرزوق في مسنده أن أبا الحسن أنفق عليه مقدارا جسيما ومالا عظيما، ليكون هذا المسجد صرحا عظيما. يقول: «وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ، وقدوة الأئمة المتأخرين من المتصوفين أبي مدين شعيب بن الحسين رضي الله عنه فهو الذي عز مثاله واتصفت بالحسن والوثاقة أشكاله، أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما، وكان

---

(1) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:138.

(2) آسفي وما إليه قديما وحديثا للكانوني الطبعة:1 (بدون ذكر دار النشر ولا تاريخ) الصفحة:92.

(3) **أبو مدين:** هو شعيب بن الحسين الأندلسي الأنصاري أصله من حصن قَطْنِيَانة من عمل إشبيلية ثم نزل ببجاية وأقام بها إلى أن أمر بإشخاصه إلى حفرة مراكش. كان رجلا زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، كان مبسوطا بالعلم مقبولا بالمراقبة، مقام التوكل لا يشق فيه غباره ولا تجهل آثاره، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم الله له بذلك توفي عام 594هـ وقيل في 588هـ دفن بالعباد خارج تلمسان.

-التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات تحقيق أحمد التوفيق مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:2 سنة:1997 الصفحة:319.

بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبي عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق وعلى يدي.»[1]

وعن تأسيس هذا المسجد يقول عبد الرحمان بن خلدون في رحلته: « وقد شيد بالعباد مسجدا عظيما، وكان عمه محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم بالعباد.»[2]

ويعد مسجد العباد بالقرب من قبر الولي الصالح أبي مدين شعيب متحفا للعمارة الدينية المرينية، حيث زين بالفسيفساء المصنوعة من الخزف، ومصلاه تتكون من خمس بلاطات، وثلاثة صفوف، وجدرانه وسقوفه ذات تربيعات مزخرفة بطلاء من الجص المنقوش، ومحرابه عبارة عن فجوة ذات زوايا منظمة، قوسها محمول على أسطوانتين لكل منهما تاج أنيق، مسبوق بقبة مقرنصة، ويحف بصحن المسجد رواق ذو دعائم منشورية الشكل، أما المئذنة فهي مزينة بالأجر المشبك والخزف.[3]

أما روضة المسجد التي بناها أبو الحسن المريني فقد كانت على حد تعبير مؤنس عملا معماريا بديعا رغم صغر حجمها، فأنت تدخل إليها من بوابة أندلسية تظلها شماسة مغطاة بالقرميد ثم تهبط السلالم المزينة بالزليج وتنتهي إلى مكان القبر في قاعة مزينة كلها بالزجاج أيضا.[4]

ويستحق مسجد العباد أن نقف أمامه وقفة متأنية لشرح الانطباع والشعور الذي ينتاب الإنسان بمجرد الارتقاء لدرجات المدخل المتكامل عمارة وزخرفة بفن رفيع الجوهر والمظهر.[5]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:403.

(2) رحلة ابن خلدون لعبد الرحمان بن محمد الحضرمي الإشبيلي تحقيق محمد بن تاويت دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2004 الصفحة:61.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:322.

(4) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب ص:224.

(5) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:141.

المطلب التاسع: بناء جامع القصبة والمنصورة ومسجد سيدي الحلوي بتلمسان

الفرع الأول: بناء جامع القصبة

وهو المسجد الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني في تلمسان وقد تميز بجمال شكله، وتنظيم رواقاته المتعددة، وصحنه وحسن ستاره، ووفرة مياهه، واتساع مساحته، وحلاه أيضا بثريات فضية ونحاسية، وغرابة منبره. وبذلك اجتمعت فيه المحاسن التي لم يجتمع مثلها في مثله من حسن وضعه وجمال شكله.[1]

الفرع الثاني: بناء جامع المنصورة

قام ببناء هذا الجامع السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق سنة 702هـ/1303م ويبدو أنه توفي قبل اتمامه والفراغ منه والدليل على ذلك ما كتب على واجهة المدخل العبارة التالية: «الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق.»

والمتأمل لهذا النقش التأسيسي يستنتج لأول وهلة أن الجامع لم يكتمل بناؤه في عهد أبي يعقوب نتيجة لورود لفظ المرحوم، وهذا يدل على أن السلطان وافته المنية قبل الفراغ النهائي من تأسيس الجامع والمئذنة.[2]

وحسب الحفريات التي أجريت على المسجد تم الكشف أن الجامع يتوسطه صحن مربع الشكل طول ضلعه 30 متر تحيط به المجنبات من الجوانب الثلاثة الشرقية والغربية والشمالية بالإضافة إلى رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث عشرة بلاطة تتقدمها ثلاثة أساكيب مستعرضة تترك مساحة مربعة أمام المحراب أو ربما لسقف هرمي الشكل يرتكز عل جدران القبلة، ويضاف إلى هذه الأساكيب العريضة ثمان دعامات متقاطعة الشكل ربما كانت مخصصة للمقصورة التي كانت تشغل هذه المساحة.[3]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:402.

(2) تطور المآذن في الجزائر لعبد الكريم عزوق مكتبة زهراء الشرق مصر الطبعة:1 سنة:2006 الصفحة:73.

(3) تطور المآذن في الجزائر ص:73.

ونعتقد أن النواة الأساسية لبناء الجامع والمئذنة تمت على يد السلطان المريني أبي يعقوب يوسف، ثم تولى أبو الحسن المريني ترميم ما تهدم منها وقت حصار تلمسان واستكمل البناء وزخرفته وقد نفذ النقش الكتابي في فترة حكم السلطان أبي الحسن عند حصاره لتلمسان، ونسب هذا العمل إلى جده اعترافا بفضل السبق في تأسيسه للجامع والمئذنة وعلى هذا النحو حظي هذا الجامع بتأسيس أبي يعقوب وترميمات أبي الحسن.[1]

الفرع الثالث: بناء مسجد سيدي الحلوي

مسجد سيدي الحلوي أبي عبد الله الشوذي قاضي إشبيلية، الذي لقب بالحلوي عندما استقر بتلمسان، وقد شيد هذا المسجد أبو عنان المريني عام 754هـ/1353م.[2]

المطلب العاشر: تجديد وإصلاح جامع عدوة الأندلس

جامع عدوة الأندلس كما هو معلوم في كتب التاريخ هو من بناء مريم بنت محمد الفهري التي هاجرت من الشام إلى المغرب سنة 245هـ/859م.

واستمر هذا المسجد قائما إلى عهد المرينيين، حيث تعهد السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني بتجديده وإصلاحه من أموال الأوقاف بعدما أصابه أضرارا من السيل العظيم الذي جرف عدوة الأندلس.

يقول الجزنائي: «ولم يزل الجامع كذلك إلى أن اعتل سقفه وجملة من سواريه، فأنهى خطيبه الشيخ الصالح محمد بن أبي القاسم ابن مسونة أمر هذا الجامع لأمير المؤمنين أبي يعقوب رحمه الله فأمر بإصلاحه على ما هو عليه الآن وذلك في سنة 695هـ».[3]

---

(1) المرجع نفسه ص:74.

(2) تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ليحيى بوعزيز نشر عاصمة الثقافة العربية الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة: 2006 الصفحة:37-38.

(3) جنى زهرة الآس ص:93.

وجلب له الماء من واد مصمودة إلى إيالة أمير المسلمين أبي ثابت عامر، فأمر بجلب الماء له من العين التي بخارج باب الحديد، وببناء السقاية بالجهة الغربية من جوفه، وذلك سنة 707هـ.[1]

المطلب الحادي عشر: بناء مسجد هنين

أنشأه السلطان أبو الحسن المريني بمدينة هنين،[2] وكان ابن مرزوق هو من اشترى أرض البناء، يقول ابن مرزوق: « ومنها الجامع الذي أنشأه بمدينة هنين، وكان شراء موضعه على يدي، وهو مسجد خطبة وصومعة فيه كبيرة مختلفة.»[3]

المطلب الثاني عشر: بناء المسجد العتيق بسبتة

المسجد العتيق بسبتة بناه السلطان أبو الحسن المريني، وهو من أعظم المساجد وأشرفها على التحقيق، المسجد الجامع العتيق، بلاطاته اثنان وعشرون بلاطا وبقبلته شماسات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص، والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجاري القسائم والميازيب من الرصاص كذلك، ودرجات المنبر اثنتا عشرة درجة، تميز على سائر جوامع بلاد المغرب كلها بالبلاط الأوسـط الضخم البناء المرتفع السمك.[4]

المطلب الثالث عشر: الزيادة بمسجد شالة العتيق

لقد تمكنت الأبحاث المطولة والحفائر الأثرية من الكشف عن حقيقة وتطور مسجد شالة العتيق الذي اتفق الأثريون المستشرقون والمؤرخون العرب على إرجاعه إلى عصر أبي الحسن المريني. لقد أدت الأبحاث والحفائر إلى الكشف عن أول مسجد عتيق يرجع إلى عصر

(1) جنى زهرة الآس ص:93.

(2) **هنين** مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة، وهي أنيقة للغاية. لها ميناء صغير محروس ببرجين، كل واحد منهما في جهة. وتحيط بها أسوار عالية متينة، لاسيما من جهة البحر. سكانها من النبلاء يعملون كلهم تقريبا في القطن والمنسوجات. ودورهم في غاية الجمال والزخرفة، لكل دار بئر من الماء العذب، وفناء مغروس بكرم معروش... لكن عندما بلغ السكان خبر احتلال وهران تركوها جميعا فأصبحت خاوية على عروشها.

-وصف إفريقيا ج/2 ص:15.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:403.

(4) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة ص:28.

الأدارسة، فوقه مسجد آخر من العصر الزناتي بنفس السعة والتخطيط يشتمل حسب التقاليد الإسلامية المبكرة على أسكوبين إثنين، ثم كشف عن مسجد في عصره الثالث عندما أضاف إليه المرينيون أسكوبا واحدا جهة الصحن متراجعا أو مقصوصا بكل من نهايته الشرقية والغربية.

وقد أرجعت هذه الزيادة إلى عصر يعقوب المريني المؤسس الحقيقي لدولة بني مرين والذي اختار لأول مرة موقع شالة لدفن المجاهدين من بني مرين حيث بدأ بدفن زوجته الحرة أم العز سنة 683هـ، وحيث دفن هو بعد ذلك سنة 685هـ. وقد افترضت تأريخ الزيادة المرينية بعام 675هـ بناء على أدلة تاريخية وأثرية.[1]

(1) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:126.

المبحث الثاني: الوقف على المساجد

وفي هذا المجال قامت الأوقاف بدور كبير من أجل تدعيم المساجد والجوامع وتمكينها من أداء رسالتها. فازدهار الأوقاف أدى بدوره إلى تقوية الشعور الديني، واستمرار تدفق المشاعر الدينية عن طريق المؤسسات الدينية، فجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء، والفقهاء، والمدرسين والمحدثين، والطلبة والمؤذنين، والقوام، والفقراء والمساكين، ولكل هؤلاء له المقرر من سائر ما يحتاج إليه مما أوقف عليهم من البلاد، والضياع، والأملاك، والحوانيت، ولهذه الأوقاف مباشرين وعمال وغير ذلك.(1)

فالمساجد هي طليعة المؤسسات الوقفية، الدينية والاجتماعية والثقافية، التي ظهرت واستقرت. وقد أورد الدكتور الريسوني رأي الباحثة رقية بلمقدم، بِكَوْن المساجد تأتي في مقدمة هذه المؤسسات، فقد تلازم الوقف مع المسجد، بل يعتبر المسجد أول وقف في الإسلام.(2)

وتعتبر الأوقاف التي حبست لرعاية المساجد ودفع مرتبات العاملين فيها من أهم العوامل التي هيأت لهذه النواة أن تؤدي رسالتها كاملة، وقد وفرت الوقفيات موارد لمن يقدم الطعام، وثمن الطعام الذي يوزع في المسجد كذلك العطاء المخصص لبعض زوايا المسجد وكلفة ما يحتاج إليه لتوفير الماء العذب وشمع الإضاءة وقت صلاة العشاء والصبح وصلاة التراويح في شهر رمضان، وثمن الفراش من بسط وحصر وثمن القناديل والزيت وما يحتاج إليه في الإنارة وأزيار فخار يحفظ فيها الماء وعود البخور لاستخدامه في شهر رمضان وفي أيام الجمع وفي المناسبات الدينية الأخرى كذلك الشمع والمسك والكافور وأدوات النظافة، وكانت هناك أوقاف تشمل لحوم الأضاحي والأطعمة والحلوى في المناسبات الدينية والموالد الرسمية. وهذه الأوقاف كانت تعين العاملين والقائمين والفقراء والمحتاجين إلى حد كبير في حياتهم المعيشية وكانت نوعا من أنواع الرعاية التي أسبغها الحكام وأهل البذل من المسلمين.(3)

---

(1) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر لمحمد محمد أمين دار الكتب والوثائق القومية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2014 الصفحة:181.

(2) الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده لأحمد الريسوني دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة الطبعة:1 سنة:2014 الصفحة:31.

(3) الأزهر جامعا وجامعة لعبد العزيز الشناوي مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة الطبعة:1 سة:1983 الصفحة:85-89.

فالإنفاق بسخاء على الجوامع والمساجد مَكَّنَ من توسيع نشاطها ليشمل العديد من الاهتمامات فكانت بحق راعية للمجتمع والقائمة على شؤونه.

المطلب الأول: أوقاف جامع القرويين

تعددت أوقاف جامع القرويين وتنوعت، واتسعت وفي هذا الصدد يتحدث العلامة محمد المنوني عن أوقاف جامع القرويين فيقول:» أوقاف جامع القرويين الذي يسجل عنه أبو القاسم محمد التازغدري أن غلة أحباسه متسعة، وقد كان مبلغها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري عشرة آلاف دينار فضية في بعض الأعوام.»[1]

وقدر الجزنائي غلات أوقاف جامع القرويين على العهد المريني، فذكر أنها تناهز في بعض الأعوام عشرة آلاف دينار فضة، وذكر في جملة الرباع التي حبسها السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فندقا من أفخم الفنادق التي تحتضنها مدينة فاس، ونعني به فندق الشماعين، وهو لا يبعد عن القرويين إلا بضع خطوات.[2]

يقول الجزنائي: « ثم سأل الخليفة أبو يعقوب المريني محمد بن أبي الصبر عن سبب أمره للحدودي ببنائه للفندق، فقال له: أمرته بذلك، فإنه غلب على ظني أنك تحبسه على جامع القرويين فاستحسن ذلك منه وشكره وأشهد في الحين بتحبيسه.[3]

بل وتوافرت أوقاف القرويين فأفاضت منها على سائر مساجد فاس وغير فاس وسرت أوقافها الزائدة حتى المسجد الأقصى بالقدس، وحتى الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإلى الجماعة الإسلامية في كل جهات المعمورة، وفضلت أحباس القرويين فشملت مشاريع الإحسان والبر بكل ما تشمله من نواحي وجوانب إنسانية، واتسعت مواد السجلات حتى شملت الوقف على قبر مجهول.

وقد توسعت دائرة الأوقاف حتى كان المحسنون والموسرون في مدينة مراكش يقومون بتحبيس عدد من العقار على مرافق القرويين بالرغم من بعد البلاد بعضها عن البعض

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:125.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:456.

(3) جنى زهرة الآس ص:80.

الآخر، بل هناك عدد من الأراضين النائية وعدد من غابات الزيتون والنخيل في الصحراء خصص ريعه للقرويين من فاس.[1]

كما حبست دار ابن البشير الكائنة بدرب ابن حيون بفاس على جامع القرويين.[2]

المطلب الثاني: الأوقاف على جوامع فاس

أوقفت الدولة المرينية أوقافا عديدة على مساجد فاس، يقول روجيه لوتورنو: « ولولا كثرة تردد الناس على المساجد، لما بنيت بهذا العدد الكبير، ولما وقفت عليها الأوقاف اللازمة لها بهذه الكثرة.[3]

ومن التشريعات التي وضعت للأحباس في هذا العصر، ما أفتى به أبو محمد عبد الله العبدوسي في مسألة جمع أحباس فاس في نقطة موحدة، فقد قرر إباحة جمعها كلها في نقطة واحدة وباب واحد لا تعدد فيه، بأن تجمع مستفادات مختلف المساجد كلها، ويقام منها ضروري كل مسجد، ولو كانت أوقاف بعض المساجد قليلة فيوسع عليها من غنيها، ويقدم الجامع الأعظم قبل جميعها، ثم الأعمر فالأعمر.[4]

وأشار الونشريسي من خلال بعض النوازل والفتاوى إلى العديد من الأحباس على مساجد المغرب، ومن ذلك: أحباس على جامع المدينة البيضاء، وكانت فائدتها تنفق على تعهد الجامع بالإصلاح والمرمات ودفع رواتب قومته من الإمام والمؤذنين والناظر (أي ناظر أو مشرف الحبس) وما إلى ذلك، ويضيف الونشريسي أن فائدة أحباس هذا الجامع كانت تزيد -أحيانا- عن حاجته، فطلب الإمام الزيادة في أجره فزيد له.[5]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:455-456.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي لكمال سيد أبو مصطفى مركز الإسكندرية للكتاب الإسكندرية مصر (بدون رقم طبعة) سنة:1996 الصفحة:28.

(3) فاس في عهد بني مرين ص:191.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:126.

(5) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ص:28.

وكان وقف مسجد الصابرين بفاس من طرف الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن خنوسة، وأمه فاطمة بنت الشيخ أبي الفضل الزرهوني بتاريخ عشي يوم الثلاثاء 5 رجب 791هـ/1389م، وفيها أن مرجع الوصية بعد انقراض الموصى لهم: تحبيس ذلك على جامع الصابرين بحي أوزقور الداخل بباب الفتوح، ليشترى به طعام، ويطعم الواردين بهذا الجامع: الملتزمين به من الفقراء والمرابطين.[1]

وعندما أسس عبد الله الطريفي، حاجب السلطان أبي سعيد الثاني جامع لالة غريبة بفاس، حبس عليه كتاب الشفاء للقاضي عياض ليقرأ منه العامة، بعد صلاة الصبح كل يوم، وكانت أجرة القارئ عليه من الأحباس ستة دنانير شهريا.[2]

المطلب الثالث: التحبيس على مسجد تازة

تفيد إحدى النوازل أن مسجدا بمدينة تازة، كانت له حوانيت كثيرة محبسة عليه.[3]

المطلب الرابع: التحبيس على مسجد أبي مدين

مسجد أبي مدين الذي أسسه السلطان المريني أبو الحسن بعد سنتين من استعلائه على تلمسان، ويظهر أن مداخيل أوقاف مسجد ومدرسة أبي مدين كانت ضخمة لدرجة أنه كان يفضل من نفقتها أموال استغلت لشراء أراضي أخرى.[4]

المطلب الخامس: التحبيس على مسجد سيدي الحلوي

خص السلطان المريني أبو عنان سنة 754هـ/1359م على مسجد سيدي الحلوي جملة من الأحباس، تضم أسماء الدكاكين الموقوفة عليه للقيام بمهمة المسجد والتكفل بجميع متطلباته.[5]

---

(1) مذكرات من التراث المغربي (من تثمين الدولة إلى المخاطر الجزء الثالث) مطبعة الكتابة الفتوغرافية الرباط طبعة فبراير 1985 مقال بعنوان: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية لمحمد المنوني الصفحة:81.

(2) الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية بالمغرب المريني والسعدي القرنان (الثامن والتاسع الهجري) لمحمد الشريف جامعة عبد الملك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان المغرب الصفحة:22.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ص:28.

(4) الوقف الإسلامي ما بين القرنين 7-9هـ و13-15م ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعبيد بوداود مكتبة الرشاد للطباعة والنشر الجزائر الطبعة:1 سنة:2001 الصفحة:171.

(5) دور الأوقاف في النهضة العلمية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين 7-9 هـ/13-15م مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي من إعداد: زوالي أمال تحت إشراف: ذة: رزيوي زينب جامعة مولاي الطاهر سعيدة الجزائر كلية العلوم الإنسانية قسم التاريخ الصفحة:44.

المطلب السادس: التحبيس على مسجد مستغانم

حبس السلطان أبو الحسن المريني على مسجد مستغانم العتيق الذي بناه سنة742هـ العديد من الأوقاف ليقوم بدوره التعليمي والديني، ولقد تعددت أحباسه من حانوتين وجرار من الزيت للإضاءة كما تصرف من ربع الأحباس لدفع مرتبات الإمام والمؤذن، وهذا ما أثبتته لوحة التحبيس المثبتة على أحد جدران المدرسة.[1]

لهذا نجد أن الدارسين للتاريخ المغربي ذهبوا إلى أن الوقف عرف نهضة كبرى في العصر المريني، حيث اهتم السلاطين ببناء المؤسسات الدينية نتيجة الأوقاف والتحبيس.

(1) دور الأوقاف في النهضة العلمية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين 7-9 هـ/13-15م ص:44.

المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمسجد في العهد المريني

إن المسلمين في عصورهم الأولى توسعوا في فهم مهمة المسجد، فتخذوه مكانا للعبادة، ومعهدا للتعليم، ودارا للقضاء، وساحته تتجمع فيها الجيوش، ومنزلا لاستقبال السفراء... والذي دعا المسلمين إلى التبكير بإنشاء المساجد هو إحساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم، ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ومن هنا -فيما يبدو- أسسوا المسجد وأطلقوا عليه بيت الله، إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئذان.(1)

والمسجد قام بدور تربوي هام، وكان مركزا للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية. فتاريخ المغرب سجل لنا العديد من أدواره التي لم تنحصر فقط في العبادة وأداء الصلوات بل تعدى إلى الكثير من الأمور الاجتماعية خاصة في العهد المريني الذي نحن بصدده.

فبعد إقرار الحكم المريني على المغرب ازداد عدد المساجد بشكل كبير وبخاصة في عاصمتهم فاس الجديدة، وما إن توسعت الدولة المرينية حتى صارت المساجد تغطي كل أراضي المغرب الأقصى.

المطلب الأول: دور المسجد في الحياة العلمية

كان التعليم في المساجد يقوم على تعليم أمور الدين وتذكير الناس بالآخرة، وكان التعليم في هذه الأمور يعتمد على أسلوب القصة ممتزجا بالعلوم والحكمة والموعظة، كما كانت تدرس أيضا العلوم الدينية من قرآن وتفسير وحديث.(2)

ويتضح من بعض النوازل والفتاوى الفقهية أن المرحلة الأولى من التعليم في المغرب هي التي يتلقى فيها الصبي العلم على أحد المؤدبين، وتبدأ تلك المرحلة عندما يبلغ الصبي سن التمييز فيما يبن الخامسة والسادسة من عمره. وكان المؤدب يعلم الصبيان في تلك المرحلة الأولى القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن وتجويده... حيث جرى العمل بالكتاتيب على

(1) التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها لأحمد شلبي طبعة جامعة القاهرة الطبعة:6 سنة:1978 الصفحة:102.

(2) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية لمحمد منير مرسي دار المعارف طبعة منقحة سنة:1987 الصفحة:202.

اجتماع الصبية لتلاوة آيات القرآن بصوت واحد على وجه التعليم، علاوة على الإلمام ببعض علم اللغة والنحو والفقه.[1]

كان المسجد من أهم مراكز العلم بالمغرب الإسلامي، حيث كان يموج بالفقراء والعلماء والطلاب وكان الشيوخ يجلسون عند أحد الأعمدة ويتحلق الطلاب حولهم ثم يتولى هؤلاء الشيوخ تدريس العلوم الدينية والشرعية والنحو واللغة... غير أن الونشريسي يشير إلى تدهور الحالة العلمية في بلده المغرب في أواخر عصر دولة بني مرين، فيذكر أنه كثر آنذاك ادعاء الجهال للعلم وانتصابهم للفتوى والإلقاء والتدريس.[2]

ويتضح من نازلة ذكرها الونشريسي في كتابه حين سئل عن تعليم الصبيان في المسجد فأنكر ذلك عليهم، لأن الصبية لا يحترزون من النجاسات. ولذلك طالب المؤدبين بالخروج بصبيانهم من المسجد إلى بقاع يصلح فيها التكسب دون الاضرار بالمسلمين.[3]

يقول الونشريسي: « لم يجعل الله المساجد ليتكسب فيها الأرزاق، والذي سألت عنه ووصفته، الواجب على أهل تلك البلدة أن يمنعوا مساجدهم من مثل هذا، وآباء الصبيان في حرج من هذا... فليخرجوا من المساجد إلى بقاع يصلح فيها التكسب، ولا يضروا بالمسلمين.»[4]

فيفهم من كلام الونشريسي أن الفقهاء عارضوا تعلم الصبية في المسجد لأنهم يرون أن الصبية لا يحترزون من النجاسات، كما أن المسجد لا يصلح فيه التكسب. ولعل هذا الأمر الذي دفع بالدولة المرينية لإنشاء الكتاتيب لتعليم الصبية، وسيأتي الحديث عنها.

فالمسجد قام بدور مؤسساتي في البداية يتعلم فيه الصبية مبادئ الدين وحفظ القرآن الكريم.

والمسجد إذن لم يكن مجرد قاعة تؤدى فيها العبادات والصلوات، ولكن اتسم دوره بإغناء العلم والمعرفة لهذا كانت تلقى الدروس التي ترشد الناس لما فيه الصواب والفلاح.

(1) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ص:113.
(2) المرجع نفسه ص:115-117.
(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ص:115-116.
(4) المعيار المعرب ج/7 ص:36.

لذلك خصصت السلطة القائمة على شؤون العباد الكراسي العلمية لتقوم بمهمة التعليم بين أفراد المجتمع ولمن يرغب في إثراء رصيده المعرفي، وكانت مقسمة إلى عامة وخاصة.

والعامة كانت مخصصة بالتعليم الشعبي التي تتماشى مع نمط فكرهم المتواضع، يقول الحسن الوزان: «يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة، حيث يلقون على الشعب دروسا تتعلق بأمور دينه وشريعته. تبدأ هذه الدروس بعد صلاة الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس.»[1]

أما دروس الخاصة فكانت تقدم لخاصة العلم والمهتمين به والطلبة المتضلعين في العلوم. يقول الحسن الوزان: «أما الدروس الأخرى فلا تسند إلا إلى رجال متضلعين من هذه المواد، يتقاضون عن دروسهم أجورا عالية حسنة وتقدم لهم الكتب والإنارة.»[2]

وكان للمسجد دور في تعليم الأميين الذين لا يُجيدون القراءة والكتابة. يقول إبراهيم حركات: «وللمسجد مبرات من الأوقاف إحداهما لتعليم الأميين والأخرى لإرواء الظامئين.»[3]

كما أن السلاطين كانت تعقد مجالس العلم في المسجد خصوصا بعد صلاة الصبح، ويحضر لتلك الدروس الفقهاء ونجباء الطلاب فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى ﷺ، وفروع مذهب مالك رحمه الله، وكتب المتصوفة، وفي كل علم منها له القدح المعلى.[4]

يقول أبو عيسى الوزاني: « وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه، والجلوس لذلك في المساجد.»[5]

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:224.

(2) المصدر نفسه ج/1 ص:224.

(3) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:159.

(4) فاس في عصر بني مرين ص:117

(5) النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى لأبي عيسى الوزاني تحقيق محمد سيد عثمان دار الكتب العلمية بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:12 الصفحة:81.

وعلى العموم كانت معظم دروس الفقه والكلام تعطى في المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدي المدرس.[1]

المطلب الثاني: انطلاق سفر السلطان من المسجد

من عادة السلطان أن يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح مباشرة، يقول القلقشندي: « فإذا صلى الصبح ركب الناس على قبائلهم في منازلهم المعلومة، ووقفوا في طريق السلطان صفاً إلى صف، ولكل قبيلة رجل علم معروف به ومكان في الترتيب لا يتعداه، فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس، ودارت عليه عبيده ووُصْفَانُهُ ونقباؤه، ويجلس ناس حوله يعرفون بالطلبة يجري عليهم ديوانه، يقرؤون حزبا من القرآن الكريم، ويذكرون شيئا من الحديث النبوي، على قائله أفضل الصلاة والسلام، فإذا أسفر الصبح ركب وتقدم أمامه العلم الأبيض المعروف بالعلم المنصور.»[2]

المطلب الثالث: المسجد مأوى الغرباء والمسافرين

كان المسجد في العهد النبوي ولا يزال مأوى الغرباء والزوار والشاردين ولعل هذا المنوال كان حتى في زمن المرينيين، فالمسافر أو الفقير العدم الذي لا يجد مأوى كان يلجأ إلى الجامع أو المسجد ليبيت هناك ويقضي ليلته. وهذا أمر معهود ومعروف قديما. يقول لوتورنو: «وكان أشد المسافرين فقرا يجد مأوى في جامع أو في حمى ولي.»[3]

ولمزيد من إيضاح للدور الاجتماعي للمسجد في باب المأوى، نلفت النظر أن تدوينات كبار الرحالة المغاربة أمثال ابن جبير والعبدري وابن بطوطة كانوا إذا نزلوا بلدا لا يعرفون فيه أحدا اتجهوا إلى المسجد وهناك يلقون الغرباء أمثالهم لأن أسعار الفنادق قد تكون أغلى وأعلى مما في جيوبهم فيضطرون إلى قضاء لياليهم داخل المسجد. ويحكي العبدري، وكان

---

(1) الحضارة الإسلامي في القرن الرابع الهجري لآدم متز. ترجمة محمد عبد الهادي أبوزيد دار الكتاب العربي بيروت الطبعة:5 (بدون تاريخ) الجزء:1 الصفحة:332.

(2) صبح الأعشى ج/5 ص:208.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:96.

شيخا شديد الحياء مرهف الحس، أنه ما نزل بلدا إلا قصد إلى الجامع رأسا، وهناك يتعرف على الشيوخ وطلبة العلم فيجد فيهم الصاحب والأهل.[1]

المطلب الرابع: إقامة عقد الزواج داخل المسجد

يظهر جليا دور المسجد من خلال اسهامه في الأعمال الاجتماعية خصوصا قضايا الزواج. ففيما مضى كان الزواج يعقد داخل أسوار المسجد، يجتمع والدي العريسين ويتفقان على إبرام عقد الزواج. فبعد انتهاء مدة الخطوبة يتم عقد القران في أحد الجوامع أو المساجد على يد القاضي أو صاحب الأنكحة، فيشير الونشريسي إلى عقد قران إحدى الزيجات في جامع مدينة تازة، أما المواضع البعيدة عن الحاضرة كالقرى والحصون فكان إمام المسجد هو الذي يتولى عقد القران دون إذن القاضي لبعد المسافة بينهما.[2]

وهذا ما يؤكده لوتورنو حين تحدث عن قضية الزواج وعقد القِران. يقول: «فمشروع الزواج، الذي كان قد أحيط أمره، يعلن عنه متى اجتمع الأبوان في المسجد، وأشهدا الله على نيتهما، وتم عقد الزواج.»[3]

المطلب الخامس: الاحتفال بالمولد النبوي في المسجد

ذكر صاحب الأنيس المطرب أن السلطان يوسف بن يعقوب عني بتعظيم عيد المولد النبوي، قال: «وفيه أمر أمير المسلمين يوسف بعمل المولد وتعظيمه والاحتفال له في جميع بلاده، وذلك في شهر ربيع الأول المبارك من السنة المذكورة 691هـ/1292م.»[4]

(1) المساجد ص:33-34.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي ص:13.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:101.

(4) الأنيس المطرب ص:383.

وسار سلاطين بني مرين بعد ذلك على هذه السنة من الاحتفال بالمولد النبوي، ففي عهد السلطان أبي الحسن، كان الناس يستعدون لهذه المناسبة بأنواع الطعام والحلويات، والطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق فيها.[1]

ويصف لنا ابن مرزوق أجواء الاحتفال بعيد المولد النبوي خصوصا في زمن السلطان أبي الحسن فيقول: «فحضرت ليلة المولد، فلم يصل أهل البلاد قاطبة على جري العادة فإنه حيث كان، يصل الشرفاء والقضاة والفقهاء والخطباء من أهل البلاد لشهودها، ومن العادة أن يستعد لهذا بأنواع المطاعم والحلويات وأنواع الطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس. فإذا صلينا المغرب، ركع (يقصد السلطان أبا الحسن) ركعات ثم قصد مجلسه الحافل، فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، ويأمر بأخذهم المجالس على طبقاتهم على أحسن وأجمل شارة، فإذا فرغ الترتيب وأخذ الناس مجالسهم، دعي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام... فإذا قضي الطعام أحضر من الفواكه الحاضرة في الوقت ما يوجد في إبانه، ثم يؤتى باليابس بعدها، ثم يؤتى بالكعك والحلاوات، ثم يؤتى بملاح السكر، وربما اختلفت العوائد في التوالي مرة وفي الفترة الأخرى... وتارة يقع الإطعام بعد العشاء الآخر، فإذا استوت المجالس وانقضى اللغط، ولا تكاد تسمع صوتا إلا همسا قام قارئ العشر فقرأ، ثم تقدم زعيم المسمعين ليشرع في قصائد المدح والتهاني.»[2]

وبعد ذلك يتلو المقرئون القرآن الكريم، وينشد المنشدون القصائد والمدائح النبوية فتطير بها قلوب الناس فرحا، وفي نهاية الحفل يوزع البخور والشمع على الفقراء والمسافرين، وفي نهاية الاحتفالات، يجلس الكتاب لتوزيع العطاء بهذه المناسبة على الشرفاء، وكبار الفقهاء والأئمة والخطباء والفضلاء.[3]

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:333.
(2) المسند الصحيح الحسن ص:152-153.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:334.

كما كانت تواكب هذه الاحتفالات الرسمية احتفالات أخرى شعبية، حيث تقام الأفراح وتستنير المدن بالأضواء، ويتجمل الناس وتزين المدن. وصار يوم الثاني عشر من ربيع الأول يوم دخول الصبيان بفاس للكتاتيب القرآنية، ومناسبة لختان الأطفال.[1]

فحسب ما تبين من المصادر التاريخية، أن الاحتفالات بعيد المولد النبوي كانت تقام بالمساجد بين العشاءين، وقد تستمر إلى غاية صلاة الصبح. بعدما يأكل الناس الطعام في المسجد وهذا ما يظهر لنا قيم التآزر والتكافل الاجتماعي السائد في تلك الحقبة التاريخية.

المطلب السادس: المسجد دار للقضاء وحلف اليمين

عرف المسجد في العهد المريني بحله للنزاعات والمخاصمات بين الأفراد فكان القضاة يجلسون للإنصات لشكوى الناس ثم البث والفصل فيها، فاتخذوا المسجد دارا للقضاء ليأخذ كل فرد من أبناء الوطن حقه العادل.

وكان المسجد إضافة إلى وظيفته الأساسية، مقرا للفصل في القضايا وحلف اليمين ويذكر الونشريسي

أنه كان يتم حلف اليمين في الجوامع والمساجد على من أنكر حق الآخر.[2]

ويسرد ابن مرزوق كيف كان السلطان أبو الحسن تعرض عليه القضايا فيجلس بعد صلاة الجمعة لينظر فيها، فيقول: «كان رضي الله عنه إذا صلى الجمعة غالبا جلس، فتعرض عليه القضايا وترفع له الشكايات، فيقضي فيها قضاءه. وربما يجلس يوم الإثنين والخميس هذا، وهو في كل يوم لا بد له أن تعرض عليه أنواعا وترفع له على اختلافها.»[3]

ويحدثنا ابن مرزوق عن قصة الرجل الذي حلف في مسجد الحطابين ليثبت حقه في ماله. يقول ابن مرزوق: « فسجد مولانا أمير المسلمين رحمه الله وقال: الحمد لله الذي رأيت في رعيتي من يعرف بهذا القدر من المال ولا يتقي، اذهب، فإن كان قال ما قال هؤلاء حقا،

---

(1) موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ma.gov.habous.www مقال بعنوان: الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف ودوره في التعبير عن فرح المغاربة بالمصطفى ﷺ. لمحمد التهامي الحراق. بتاريخ: 23 يناير 2013.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:109.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:173.

فبارك الله لك فيه، وإن كان كذبا، فأحرى وفاء الكاذب بالخزي، فأشار بعض الحاضرين إلى أن يحلف، فإن المال طائل، فقال لي حلفه في مسجد الحطابين. ثم قال: لا والله أمضي راشدا ومهما تكن لك من حاجة فارفعها إلينا.[1]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:144-145.

المبحث الرابع: بناء الزوايا في العهد المريني

اهتمت الدولة المرينية بوجه عام بالزوايا، التي بدأت تنتشر في مدنهم، ولتمتعنا بمنزلة دينية مقدسة وذلك لأنها غالبا ما كانت تؤسس قرب ضريح أحد الأولياء المتصوفة الذين يتمتعون بمكانة في نفوس المغاربة، فصارت مع الزمن محلا لاستقبال الغرباء الذين يقصدون البلاد، بل إنها صارت مساكن للمحتاجين والفقراء من سكان البلاد، على أن هذه الزوايا أحيانا كانت مراكز لتدريس بعض العلوم الدينية أيضا.[1]

والزوايا أو الأربطة التي انتشرت في شتى أنحاء المغرب، كان لها دور كبير في الحياة الدينية والاجتماعية والحربية في المجتمع المغربي في العصر الإسلامي ويشير الونشريسي إلى وجود ظاهرة الاجتماع على الذكر وتلاوة القرآن الكريم في الزوايا، علاوة على قراءة كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى وشيء من كتب الوعظ، ولم يكن هناك من ينكر ذلك، إذ كان الفقهاء يعتبرون هذا العمل من أنواع التعاون على البر والتقوى ووسيلة لتنشيط المتكاسل عن العبادة والذكر.[2]

ويطلق اسم ومصطلح الزاوية في بلدان المشرق على المسجد الصغير أو المصلى داخل حي من الأحياء، بينما يحدد الخطيب بن مرزوق في المسند أن الزوايا في المغرب تعني أماكن ارفاق الواردين واطعام المحتاجين من القاصدين. وهكذا أنشئت تلك المؤسسات الإحسانية بأرباض المدن أو بالخلاء لإيواء وضيافة الواردين، ورأى البعض أن الزوايا اتخذت أولا تبركا بصفة مسجد الرسول ﷺ يأوي إليها الفقراء.[3]

وقد أورد الأستاذ السقاط رأي الأستاذ الحسن اليوسي بكون الزاوية تهدف إلى التفرغ للعبادة في ركن بيت أو مسجد، أي بزاويته فسميت زاوية، ثم لإطعام الطعام وهو صدقة، كما أوجز الأستاذ السقاط تعريفات الأستاذ محمد بن تاويت بوجود زاوية بسيطة وأخرى ذات الولي تتحول حول الضريح إلى مركز عمراني وزاوية طرقية تنتسب إلى طريقة صوفية.[4]

---

(1) الحضارة العربية الإسلامية ص:226-227.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:109.

(3) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:264.

(4) المرجع نفسه ج/4 ص:264.

وتحدث الدكتور عثمان إسماعيل، عن الدكتور عباس الجراري أنه ذكر أنها تعني في الشمال الإفريقي مكانا لاجتماع الشيخ بأتباعه ومريديه، وللعبادة والتعليم، والايواء والاطعام، ثم التعبئة والجهاد عند الاقتضاء.(1)

وفي نفس السياق يشير الدكتور عبد اللطيف الشاذلي على أن مؤسسة الزاوية اعتبرت في عداد المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ذات الأساس ديني.(2)

وقد أصبحت الزاوية بالمغرب بديلا من مصطلح (الرباط) الذي يعني منشأة دينية وحربية للجهاد دفاعا عن الإسلام وهو المعنى الذي عرف عن (الرباط) قبل عصر المرابطين.

وقد ارتبط مفهوم الزاوية بمصطلحات متعددة كالشيخ والمريد والفقير والطريقة، وأما الطريقة فهي النهج الذي يختاره المتصوفة لأداء أورادهم، وتتعدد الطرق بتعدد المناهج كطرق الشاذلية والناصرية والتيجانية والدرقاوية وغيرها.(3)

ولازالت إلى اليوم بعض آثار الزوايا ومعالم عمارتها تقدم تعريفا لها ابتداء من زاوية السلطان أبي سعيد عثمان (المتوفي 731هـ) بخلوة شالة وزاوية سيدي عبد الله البابوري داخل خلوة شالة خلف مدخلها الغربي الكبير، والزاوية المتوكلية خارج فاس الجديد وزاوية النساك التي شيدها أبو عنان خارج مدينة سلا وأخيرا زاوية جد الأشراف القادريين بناها السلطان أبو سالم إبراهيم المريني وتم بناؤها أواخر شهر رمضان من سنة 762هـ للهجرة.(4)

ومع أن الزوايا تأسست بهدف تلقين المرينيين القيام بالشعائر الصوفية، فإنها لم تلبث أن تحولت إلى مدارس دينية، حيث لم تقتصر على تلقين الأوراد، والتفرغ للخلوة والعبادة، بل تعدد ذلك إلى تلقين العلوم الإسلامية بكل فروعها، وقد أقيمت حولها المدارس والأبنية لسكنى الطلبة، فأصبحت الزاوية تقصد لأخذ التصوف والعلم معا، كما هي مقصودة للضيافة وإيواء الغرباء والمسافرين حتى قيل في تعريفها أنها مدرسة دينية ودار مجانية

(1) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:264.

(2) التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري لعبد اللطيف الشاذلي منشورات جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء مطابع سلا، سلا الطبعة:1 سنة:1989 الصفحة:175.

(3) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:264.

(4) المرجع نفسه ج/4 ص:264.

للضيافة، حيث ولا زال هذا المعنى مفهوما عندنا بالمغرب حيث يفهم من دار الزاوية أنها الدار المقصودة للضيافة، وإطعام الطعام.(1)

وابتداء من القرن الثامن الهجري، الموافق للرابع عشر ميلادي، تكاثرت الزوايا في المغرب الإسلامي وخاصة المغرب الأقصى في عهد المرينيين، وانتشرت في كل الجهات، وتأسست حول هذه الزوايا مدارس لطلبة العلم، بحيث لعب أهل الزوايا دورا كبيرا وكان لهم السبق إلى تأسيس هذه المدارس، وهذا مما دعا المرينيين إلى العناية بها وإقامتها، بجانب المراكز العلمية بالمغرب وخاصة القرويين.(2)

ويحدد المقترب التاريخي اللحظة الزمنية التي انبثقت فيها مؤسسة الزوايا إذ شهدت النور لأول مرة على يد المخزن المريني الذي ساهم في دعمها وتقويتها.(3)

فكان المقصود في بداية أمر الزوايا في العهد المريني خاصة في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق أن تكون بمثابة استقبال الغرباء والمسافرين والموظفين المنتقلين.(4)

وكان للزوايا دور كبير في الحفاظ على المقومات الإسلامية، وكان لها أثر على أخلاق الناس خاصة في العهد المريني، وكانت تحث الزوايا على تهذيبهم وحملهم على التمسك بجادة الدين والتعلق بأحكامه وتعاليمه.(5)

المطلب الأول: بناء الزوايا في مدينة سلا

الفرع الأول: بناء زاوية أبي الحسن المريني

شيد السلطان أبو الحسن المريني داخل سور مدينة سلا زاوية حسنة التخطيط مكتوب على بابها الغربي الكبير العجيب البناء البديع المثال بخط كوفي رائع بعد الافتتاح

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: التصوف المغربي وتاريخه لمحمد علي بن الصديق العدد:285 سنة:32 غشت 1991 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط الصفحة:68.

(2) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: التصوف المغربي وتاريخه لمحمد علي بن الصديق العدد:285 سنة:32 غشت 1991 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط الصفحة:69.

(3) مؤسسة الزوايا بالمغرب لمحمد ضريف منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي (بدون رقم طبعة) سنة:1992 الصفحة:21.

(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:161.

(5) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: التصوف المغربي وتاريخه لمحمد علي بن الصديق ص:70.

بالتعود والبسملة والصلاة على النبي عليه السلام: «أمر بهذا مولانا السلطان الأجل العادل المقدس المجاهد أمير المسلمين ناصر الدين أبو الحسن ابن السلطان الأجل الصالح العادل المقدس المجاهد المقدس أمير المسلمين ناصر الدين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق خلد الله ملكهم. وكان الفراغ منه في آخر ذي الحجة عام 739هـ.[1]

الفرع الثاني: بناء زاوية النساك

تعد أطلال زاوية النساك الكائنة خارج سور سلا من جملة الزوايا العديدة الجميلة التي بناها السلطان أبو عنان فارس المريني في خارج المدن المغربية لتكون بمثابة دور للضيافة ينزل فيها الرحالة والمسافرون على اختلاف طبقاتهم. وزاوية النساك قد تم بناؤها في السابع والعشرين من شعبان سنة 757هـ الثاني عشر من غشت 1356م. وكانت تشتمل على حديقة جميلة وغرف عديدة وقاعة للصلاة وميضأة في الجهة القبلية منها مزودة بالمياه الجارية من بئر هناك. وكان للزاوية بابان كبيران أحدهما يتجه نحو مدينة سلا، والآخر يتجه نحو مدينة شالة -الجبانة الملكية لبني مرين- وقد تهدمت زاوية النساك عقب حريق شب فيها ولا يعرف تاريخه بالضبط وما زالت أطلالها باقية إلى الآن.[2]

وقد تحدث بِرَوْنق وعذوبة مليحة عن زاوية النساك التي بناها السلطان أبو عنان صاحب فيض العباب فقال» فهي من أحسن الزوايا، حسنة، جميلة، ذات ترتيبات فائقة، مزخرفة، بديعة الصنائع، رقشت ترقيشا باهر الجمال.[3]

الفرع الثالث: زاوية أبي زكرياء الحاحي

تقع زاوية أبي زكرياء الحاحي[4] غربي المسجد الأعظم بسلا.[5]

---

(1) مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري لمحمد عبد المنعم حسين مؤسسة شباب الجامعة القاهرة مصر (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:68.

(2) مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري ص:68-69.

(3) فيض العباب لابن الحاج النميري دراسة وإعداد محم بن شقرون دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان الطبعة:1 سنة:1990 الصفحة:94.

(4) **أبوزكرياء الحاحي**: هو يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى الحاحي ويقال إنه من آل البيت النبوي الكريم وشرفه غير ظاهر بين الناس في المغرب. وإنما انتسب أحفاده إليه وقبره بتيغرا من بلاد حاحة القريب من مراكش، لم يذكر تاريخ وفاة الشيخ إلا أن ظهوره كان في آخر المائة السابعة، وكان لأبي زكرياء هذا عند الجمهور قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو ولي.

-أنس الفقير وعز الحقير لأبي العباس ابن قنفذ اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأولف فور منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1965 الصفحة:64-65.

(5) مدينة سلا في العصر الإسلامي ص:69.

مؤسسها هو أبو زكرياء الحاجي، يقول ابن مرزوق: «والزاوية المنسوبة لسيدنا أبي زكرياء يحيى بن عمر (نفعنا الله بهم) بسلا غربي الجامع الأعظم منها، ولم أر لهما ثالثا على نحوهما في ملازمة السكان وصفاتهم وشبههم بمن ذكر.»[1]

المطلب الثاني: بناء الزاوية القديمة والجديدة بمكناسة

أقام أبو الحسن المريني زاويتين بمكناسة، كان لهما الصدى الواسع في المدينة، نظرا لانفتاحهما على معاقل العلم والمعرفة ومزية الجد وبركات الانتساب.

يقول الناصري: «ومن آثاره بمكناسة الزيتونة الزاويتان القُدْمَى والجديدة، وكان بنى القدمى في زمان أبيه والجديدة حين ولي الخلافة، وله في هذه المدينة عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها.»[2]

ووصفها ابن الخطيب فقال: «ومثلت بإزائها الزاوية القدمى المعمدة للوارد، ذات البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان، البديع المنصب، الحصين الغلق، الخاص بالسابلة والجَوَّابَة في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجد والانفساح وتفتن الاحتفال.»[3]

والظاهر أن لهاتين الزاويتين اسمين: الزاوية القورجية [4] والأخرى تعرف بزاوية باب المشاورين.[5]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:413.

(2) الاستقصا ج/3 ص:176-177.

(3) نفاضة الجراب في علالة الاغتراب للسان الدين بن الخطيب نشر وتعليق أحمد مختار العابدي دار النشر المغربية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:1 الصفحة:371-372.

(4) **زاوية القورجة:** هذه الزاوية تقع برأس عقبة الزياديين، تطاول على طرف منها وزير الحربية السابق الباشا عبد الله بن أحمد وصيرها من جملة روض له، وبقي الطرف الذي به المحراب على حاله، ولما احتل الفرنسيون مكناس جعلوها مركزا للبلدية والمراقبة والشرطة.

-الروض الهتون ص:37.

(5) **زاوية المشاورين:** تقع هذه الزاوية عن يسار الداخل لدرب سيدي غريب قرب ضريح سيدي سلامة من حومة الحمامصيين، ولا تعرف بهذا الاسم الآن، كما أن معالمها تغيرت وصارت مربطا للدواب.

-الروض الهتون ص:37. (أنظر إحالة الكتاب رقم 66)

وهذا ما ذكره محمد ابن غازي في كتابه الروض الهتون، فقال: «فبنى فيها مرافق كثيرة، كزاوية القورجة

وزاوية باب المشوريين وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها.»[1]

المطلب الثالث: زاوية أبي سعيد عثمان بخلوة شالة

يحتل ما يقرب من ثلث مساحة الخلوة (المشتملة على مسجد وأضرحة وحمام) في جانبها الشمالي الشرقي ما نسميه زاوية الخلوة وهي ما أسماه العلماء بمسجد يعقوب أو المسجد العتيق، من بناء السلطان أبي سعيد عثمان(ت731هـ). وشكل الزاوية الحالي عبارة عن مستطيل يمتد بطول الحائط الشمالي الشرقي للخلوة يتوسطه صحن مكشوف يمتد وسطه صهريج مستطيل به ماء الوضوء ويدور حول الصهريج أعمدة رخامية رقيقة بقي بعضها.

وعلى الجانبين الطويلين للصحن المحاط بالأعمدة ثماني مساحات صغيرة بقي من جدرانها ما يبلغ ارتفاعه المتر تقريبا تفتح أبوابها على الصحن. وكانت هذه في الأصل بيوتا للطلبة الذين يسكنون هذه الزاوية أو المدرسة، ولكن البيت الأول من كل من الجانبين من جهة الشمال بقيت فيه آثار السلالم التي تدل على وجود طابق علوي كان يمتد فوق الطابق الأسفل. ثم إن المساحة الثالثة بالجانب الجنوبي الغربي من جهة الشمال لازالت مخصصة للسلام التي توصل بين صحن هذا البناء وبين القاعة الواقعة بين المسجد العتيق الذي أرجعناه إلى عصر الأدارسة وبين هذه الزاوية أو المدرسة. وهكذا يبقى أمامنا ثلاثة عشر بيتا في الطابق الأسفل. ولا شك أن الأعمدة المحيطة بالصحن كانت تحمل عقودا وسقوفا تمتد بطول النبح الذي يسير أمام البيوت من كل جانب من الجوانب للصحن. وفي الجانب الجنوبي الشرقي من الصحن بيت للصلاة ليس به سوى كتفين يحمل كل منهما عقدين متعامدين على جدار القبلة، وهكذا ينقسم بيت الصلاة إلى أسكوبين اثنين وبلاطات ثلاث، ومحراب هذه المصلى قائم بذاته على محور الباب الموصل من الصحن الى بيت الصلاة بحيث تصنع

(1) الروض الهتون ص:36-37.

حوائطه وطاقيته بناء مستقلا يدور حوله الإنسان دورة كاملة عن طريق فتحتين يحيطان بتجويفه من كل جانب.[1]

المطلب الرابع: الزاوية المتوكلية بفاس الجديد

شيدت الزاوية المتوكلية سنة 754هـ على يدي المتوكل على الله أمير المؤمنين أبو عنان المريني، كان موقعها خارج فاس الجديد في الشمال الغربي منها اندثرت آثارها وبقي وصف عمارتها بفيض العباب إذ شاهدها النميري على الضفة الشمالية لوادي الجواهر في مواجهة فاس الجديد.[2]

يقول النميري في وصفها: «تخلصت الزاوية العظمى التي أمر أيده الله ببنائها على غدير الحمص الذي أنسى وادي حمص، وأطلعها بشاطئه مجموع كمال لا يعرف النقص، وروضة أذهان فحصت عن المحاسن فلزمت الفحص. وما الذي أقوله في زاوية أعجز وصفها كل بليغ، وأثنته وكأنه بحيات الأقلام جد لديغ. وتدور بهذه الزاوية المباركة من جهاتها الأربع براطيل بديعة الاختراع. متقابلة الأشكال والأوضاع. قد قامت سواريها كأنها عرائس تجلى، وبأرضها من الصنائع ما هو أبدع من حللهن التي تبلى.[3]

ونظم بن جزي في زاوية أبي عنان نظما رائعا فقال:

هذا محل الفضل والإيثار	والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى	فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ الواردين ومورد	لابن السبيل وكل ركب سار
آثار مولانا الخليفة فارس	أكرم بها في الجلد من آثار
لا زال منصورا اللواء مظفرا	ماضي العزائم سامي الأقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم	بابهم العلي محمد بن جدار
في عام أربعة وخمسين انقضت	من بعد سبع مئين في الأعصار[4]

(1) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:265.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:270.

(3) فيض العباب ص:206-207.

(4) أزهار الرياض ج/3 ص:196-197.

ثم صارت تعرف بدار الضيفان تلميحا لوظيفتها الإحسانية.[1]

كانت شامخة البناء، منفسحة الساحة، بقبليها جامع زينب سقفه ببدائع الزخارف. وقابله في الشمال قبة سامقة، ويدور بالزاوية من جهاتها الأربع مباحثات بديعة الاختراع متقابلة الأشكال والأوضاع قامت أساطينها كأنها عرائس تجلى وكسيت أرضها من الصنائع حللا. وقد امتد من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر ليقذفا من أفواههما الماء النازل للصهريج. وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء متناسبة الأجزاء مكتملة المنافع، الباب الواقع في الشمال الغربي يشرع إلى دار وضوء مستوفية المرافق.

والديار الثلاث أحدهما لإمام الصلاة والأخرى للقائم بالأذان والثالثة للناظر في الأوقاف المتصرف في إعداد الطعام، ويتصل بالزاوية دار معدة لاستقبال الواردين، تقابلها دار للطبخ.[2]

وللزاوية والدارين المتصلين بها باب جليل في جهة الشرق مقابل المدينة فاس الجديد، وبمقربة منه قامت المنارة العالية وهي من أحسن الصوامع صنعة تكسوها أشغال الزليج الملون، وتتوجها تفافيح مذهبة، ويتصل بالزاوية من الغرب الشمالي روض مغترس بالأشجار، ولتجهيز الزاوية بروافد للدورة المائية كان بغربيّها صهريج عميق تتدفق المياه في جنباته وخارجا عنها سانية بديعة الأشكال لسقي الروض وسد حاجة المرافق من الماء، ثم نصب على وادي الجواهر دولاب يضاعف كميات الماء حيث يتفرغ في قناة واصلة إلى الزاوية وبعد، فهذا وصف شاهد عيان معاصر دليل استكمال المؤسسة لجميع المرافق اللازمة للإقامة والاستجمام في حياة متكاملة للمأوى والراحة والاستجمام والعبادة بتوفر الغرف المستقلة ودور المكلفين والقومة وساحات الراحة والرياض والمسجد بصومعته العالية المستكملة.[3]

---

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:67.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:270.

(3) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:270. – (أنظر أيضا) ورقات عن حضارة المرينيين ص:68.

المطلب الخامس: زاوية سبتة

هذه الزاوية ابتناها السلطان الأشهر أبو عنان المريني بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك،[1] وأعدها هناك للغرباء ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم، مليحة البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة الساحة متعددة المساكن، وصومعتها من أبدع الصوامع بسبتة صنعة وأتمها احكاما، ولم تتخلص بعد إلى الآن.[2]

المطلب السادس: زاوية تافرطاست

تافرطاست وهي القرية التي دفن بها الأمير عبد الحق سنة 614هـ وقبره هناك معروف بمسجد وزاوية يطعم فيها أبناء السبيل على الدوام.[3]

قام ببنائها الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 684هـ/1285م بالقرب من مكناسة، حيث خصصت لتلاوة القرآن على روح الأمير المريني أبي محمد عبد الحق بن محيو وولده إدريس اللذين قتلا في معركة واجهران سنة 614هـ/1217م ضد بني عمومتهم بنو عسكر ومناصريهم بنو رياح.

يقول المؤرخ الناصري: « وأمر أن يبنى على قبر والده أبي الملوك عبد الحق بتافرطاست زاوية فاختط هنالك رباطا حفيلا وبنى على قبر الأمير عبد الحق إدريس أسمنة من الرخام ونقشها بالكتابة ورتب قراءة القرآن، ووقف على ذلك ضياعا وأرضا تسع حرث أربعين زوجا رحم الله الجميع بمنِّه.»[4]

المطلب السابع: زاوية سيدي الحلوي بتلمسان

أنشأها السلطان أبو عنان المريني بالقرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الملقب بالحلوي سنة 754هـ/1344م.[5]

---

(1) **أفراك**: كلمة بربرية من أصل عربي خباء على شكل دار كبيرة ذات بيوت ومقاصير ومرافق ينزل به السلطان وحرمه أثناء الأسفار الخاصة، ومكان أفراك معروف يقع في طريق الذهاب من سبتة عند الخروج منها مباشرة.
-اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة ص:32.

(2) المرجع نفسه ص:32.

(3) الذخيرة السنية ص:34.

(4) الاستقصا ج/3 ص:64-65.

(5) إفريقيا لمارمول كربخال ترجمة محمد حجي دار نشر المعرفة (بدون رقم طبعة) سنة:1989 الصفحة:298.
- (أنظر أيضا) تلمسان في العهد الزياني ج/1 ص:149.

المطلب الثامن: زاوية عبد الله اليابوري داخل أسوار شالة

وتقع الزاوية على يسار الداخل من الباب الكبير بينه وبين الركن الغربي لأسوار شالة، وهي عجيبة الشكل حسنة التخطيط والهيئة مستطيلة من الجوف إلى القبلة قليلة العرض.

ولها بابان أحدهما يفضي إلى خارج سور شالة من ناحية الغرب والثاني يؤدي إلى داخل شالة. وقبها الكبرى عشر، وبيوتها محكمة العمل ليس في بنائها خشب أصلا خوفا من أن يصيبها حادث النار وإنما جعل بناؤها حجرا وأجورا سقوفا ومعارج وأسوارا وحيطانا وقد تهدم جلها وقد كسيت واجهة مدخلها الواقع خلف الباب الكبير مباشرة بالحجارة المنحوتة. ويؤدي هذا المدخل إلى ساحة مستطيلة فسيحة يحف بها من ناحية اليسار حجرتان صغيرتان وثالثة أوسع منهما يغطي كلا منها قبو من الآجر، ويلي ذلك في الظلم الطويل من المستطيل حجرتان متشابهتان بعدهما خمس حجرات أخرى يغطي كلا منها قبة محمولة على مثلثات كروية وتفتح كل قبة على الساحة المستطيلة بعقد منكسر من الآجر بينما جعلت واجهة البناء من الحجر غير المنجور. ويلي الحجرات الخمس حجرتان أخرتان تشبهان الحجرتين المناظرتين في التغطية. وكان يقابل الحجرات الخمس أخر بالجانب الشمالي الشرقي لم يبق منها سوى علامات اتصال العقود بالحائط. وقد نزل بهذه الزاوية العارف بالله أحمد بن محمد بن عاشر الأنصاري المتوفي عام 765هـ وضريحه قرب ضريح سيدي عبد الله بن حسون بسلا.[1]

(1) تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية ج/4 ص:267.

المبحث الخامس: الوقف على الزوايا وخدماتها الاجتماعي

كانت للزاوية سواء في الريف أم المدن أوقاف، تستعمل في صيانة الزاوية وتغطية أجور المدرسين ومعيشة التلاميذ. كما أن الزاوية الريفية عادة ما يقدم إليها مسلمو الناحية جزءا معينا من انتاجهم الفلاحي السنوي. فالزاوية بالنسبة إلى سكان الناحية كانت على غاية كبيرة من الأهمية. فدور الزاوية كان يشتمل على مبيت الطلبة الداخليين ومساكن الغرباء والفقراء، وقد اشتهرت بعض الزوايا حتى أصبحت محجة للزوار والطلبة.(1)

وكانت تصلى في الزاوية الصلوات الخمس فضلا عن الدروس التي كانت تلقى على طلاب العلم، كما كانت تقوم بوظائف أخرى. يقول ابن مرزوق: «والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين.»(2)

ثم إن انتشار الزوايا في العديد من نواحي المغرب، كان لمد جسور التضامن لإقامة طالب العلم وعابري السبيل، كما كانت تضم مسجدا لإقامة الصلاة، وإلى جانب أهدافها التعليمية كانت تؤدي خدمات اجتماعية متعددة لأهل القرية أو البلدة. وكان ينشئها أهل الخير أو رجال طرق الصوفية أو كبار رجال الدولة من أموال خاصة، أو يشترك جماعة في إنشائها ويوقفون عليها أوقافا لتغطية نفقاتها، وكانت إدارتها ورعايتها توكل إلى قائم عليها يعرف بالناظر وجماعة من المساعدين، فكان الناظر هو الذي يصرف أمورها ويجتمع بأتباع زاويته.(3)

فقد أدت الزاوية أدوارا مختلفة اجتماعية وثقافية، من خلال مداخيل الأوقاف ويبدو أن الأوقاف المخصصة للزوايا أخذت تتعظم، ولكن بعض الفقهاء قاموا بتحريم الوقف على الصوفية وذلك لزيفهم وخروج البعض منهم عن الطريق الشرعي وذلك لما كانوا يقدمون به من طقوس كالتصفيق والرقص والغناء، التي كانوا يعتقدونها، إن حجم الأوقاف على الزوايا

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي ج/1 ص:66-68.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:413.

(3) العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان لبوداوية مبخوت رسالة لنيل شهادة الدكتوراه تحت إشراف: عبد الحميد حاجيات جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان قسم التاريخ سنة:2005-2006 الصفحة:77.

كانت ضخمة وذلك من خلال ما تركته كتب النوازل، ومن خلال أموال الأوقاف ثم بناء وإصلاح وترميم هذه المنشأة التعليمية والدينية والتي بقيت موروث حضاري إلى يومنا هذا.[1]

كذلك قامت الزوايا والأربطة بدور كبير في توفير الأمن والاستقرار في المواضع المخوفة، حيث أمنت الطرق ووفرت الطمأنينة للمسافرين والتجار، وقد ورد في إحدى الفتاوى أن بعض الصالحين كانوا يسهمون في تأمين السبل حيث يقيمون في المواضع المخوفة التي كانت فيما مضى مأوى لأهل الفساد وقطاع الطرق الذين يهاجمون القوافل والتجار لأجل النهب والسرقة.[2]

وهذا ما أكده ابن أبي زرع عن السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق أنه بنى الزوايا في الفلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات.[3]

ويمكن القول إن الزوايا كانت ملجأ خير يأوي إليه أبناء السبيل وذوي الحاجة فهم يتزودون منها ما يسد حاجتهم من طعام وشراب وكسوة وسكنى وذلك بالمجان ومن ثمة فهي تؤدي دورا إنسانيا عظيما على الصعيد الاجتماعي.[4]

ومن الزوايا التي أتحفتنا المراجع بذكر بعض أوقافها زاوية أبي مدين شعيب بتلمسان، التي كانت تضم بيوتا لاستقبال المسافرين وعابري السبيل، وطلبة العلم، وحبست عليها أوقاف متنوعة، حيث حبست عليها مجموعة من الجنان والحماميم والرحى والحوانيت.[5]

وكانت تصرف هذه الأوقاف في التكفل بالقراء والحجاج المقيمين بها والواردين عليها بتوفير الأكل والمشرب والمأوى وكذلك دفع رواتب المقيمين على خدمتها.

ثم إن الكلام عن الدور الاجتماعي للزوايا في المغرب عهد المرينيين يجرنا حتما إلى الكلام عن المعاهد والمدارس التي تخرج منها وترعرع فيها أقطاب الصوفية بهذا البلد.

(1) الوقف الإسلامي ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م ودوره في الحياة الاقتصادية ص:584.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:111.

(3) الذخيرة السنية ص:91.

(4) الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات ص:20.

(5) الوقف الإسلامي ص:590.

والتصوف في المغرب مقرون بذكر الزوايا، فلا يمكن بأي حال من الأحوال الكلام على أي صوفي مغربي، دون الكلام عن المدرسة التي نشأ فيها وترعرع فيها هذا الصوفي، وهي الزاوية، ومع أن الزاوية تأسست أول ما تأسست بقصد تلقين المريدين القيام بشعائر الصوفية، فإنها لم تلبث أن تحولت إلى مدارس دينية، لم تقتصر على تلقين الأوراد، والتفرغ للخلوة والعبادة. بل تعدت ذلك إلى تلقين العلوم الإنسانية بكامل فروعها.[1]

وأقيمت حولها المدارس والأبنية لسكنى الطلبة، فأصبحت الزاوية تقصد لأخذ التصوف والعلم معا. كما أصبحت مقصودة للضيافة وإيواء الغرباء والمسافرين، حتى قيل في تعريفها «إنها مدرسة دينية ودار مجانية للضيافة.» ولا زال هذا المعنى مفهوما عندنا في المغرب، حيث يفهم من دار الزاوية أنها الدار المقصودة للضيافة، وإطعام الطعام، فيقال مثلا: «دارهم دار الزاوية.»[2]

والزاوية المغربية نموذج الراعي المسؤول عن رعيته في مختلف شؤونها الدينية والدنيوية، خاصة في الفترات العصيبة مثلا حالات تعطل جهاز الدولة أو ضعف نفوذها في المناطق النائية، وكذلك الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية والروحية، ولا شك أن أبرز مثال بالنسبة للتاريخ المغربي يتمثل في أواخر دولة بني مرين خلال القرنين الثامن والتاسع الهجري فانتصبت الزاوية المغربية محليا وجهويا كساهر على أمن السكان، ومساهم في حل مشاكلهم اليومية كالتقاضي وحل المنازعات بين الأفراد والقبائل، وكمرجع لنشر الأخلاق وقواعده وتطبيق شريعته وفق الكتاب والسنة ومحاربة مختلف أنواع البدع ومظاهر الانحلال.[3]

المطلب الأول: دور الزاوية في الحياة العلمية

قامت الزاوية بدور هام وموسع في العهد المريني، حيث ساهمت بالدور العلمي إلى جانب المساجد والمدارس، فكانت تقصد الزاوية لتلاوة القرآن الكريم ودراسة كتاب الشفا وكذلك مدح النبي ﷺ بقصائد شعرية، وتعليم الصبية.

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه لمحمد بن الصديق عدد:285 غشت سنة:1991 الصفحة:68.

(2) المرجع نفسه ص:68.

(3) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: دور الزاوية المغربية في تدعيم المذهب السني لأحمد بوكاري العدد: 257.يونيو/ يوليوز 1986.موقع: www.habous.gov.ma

فكانت بذلك الزاوية مركزا ثقافيا علما إشعاعيا تشد إليه الرحال من رجال العلم وطلبته من مختلف أنحاء المغرب.

وجاء انتشار علماء الصوفية في مدن المغرب الأقصى، وتنقلهم بينها، إلى جانب المدارس التي أنشأها المرينيون، فرصة عظيمة لإذكاء الحركة الفكرية في المغرب الأقصى -مهد الدولة المرينية- وهذا بدوره فتح السبيل أمام نشر العلم والثقافة في أرياف المغرب الأقصى وبواديه.(1)

والزاوية هي في الأصل مركز للتعليم والوعظ، وقبلها كان الرباط أداة لتصحيح العقيدة والدفاع عن ملة الإسلام ضد كل أشكال الانحراف الديني، وباعتبار الزاوية شكلا متطورا للرباط، فقد تحولت العملية التعليمية البسيطة إلى ممارسة تعليمية دينية محكمة وفق شروط أكثر وضوحا، فتمكنت الزاوية من مقروءاتها وموادها المدروسة وفقهائها المقدمين للتحصيل، كما استقطبت المتعلمين من كل الآفاق موفرة لهم شروط التعليم والإقامة، بل أصبحت هذه الشروط من وظائفها الأساسية التي تحصلت بسببها كل ما يلزم لبقاء دورها العلمي والصوفي مستمرا. ومن بين الشروط (القيم الصوفية) التي فرضها بعض شيوخ الزوايا لولوج مؤسستها التعليمية.(2)

وكان الملوك والسلاطين -في العهد المريني- يهتمون بالزوايا والحبس عليها وتعميرها والنظر في مصالحها لدورها الهام في الحياة العلمية.(3)

ولا ريب أن الزوايا اعتبرت من المؤسسات العلمية، لما لها من دور هام في التربية والتعليم في العهد المريني.

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:357.

(2) مقال بعنوان: الزوايا والمجتمع من خلال أدوارها ووظائفها لبوشتى عربة بتاريخ 23 أبريل 2015 موقع: www.alwan.org.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:110.

ويذكر صاحب الذخيرة ابن أبي زرع أن السلطان يعقوب بن عبد الحق، أمر ببناء الزوايا وتخصيصها لطلبة العلم وإجراء الأوقاف عليها، حتى تكون سراجا منيرا لأهل العلم. يقول: « وبنى الزوايا في الفلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة.»[1]

فكانت وظيفة الزاوية في المجال التعليمي تقوم بتعليم الصبيان، إلا أن التعليم الصناعي أو الاحترافي، كان قليلا فيها، إلى غاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، حيث بدأ التعليم الرسمي فيها يزدهر بسبب انتشار نفوذ الزوايا، وهيمنة شيوخها على عقول الناس، وكثر نشاطها في البوادي، وبالتالي أصبحت تساهم بقسط كبير، في تضييق الفوارق التعليمية والثقافية بين سكان الريف وسكان المدن، وقد استطاعت أن تطبع هذا التعليم بطابع التصوف، وتجمع بين التدريس علم الظاهر وعلم الباطن أي بين ثقافة الفقهاء وثقافة المتصوفة.[2]

والزاوية اعتبرت هي الأخرى من المدارس والمعاهد لتعليم الشباب وتنوير العامة، فكانت الزاوية في العهد المريني تتخذ من التعليم وسيلة لجلب الناس والطلبة إلى زواياهم واعتناق مذاهبهم الصوفية واكتساب المال والصدقات والأحباس.[3]

ونخلص أن الزاوية شكلت الوعاء الاجتماعي للتعليم جنبا إلى جنب مع المدارس والمساجد.

المطلب الثاني: الزاوية دار لإطعام المحتاج ومأوى للغرباء والطلبة والفقراء والهاربين

أدت الزاوية دورا اجتماعيا في المجتمع المريني من إيواء للفقراء والغرباء وحماية الهاربين إليها من المجرمين والسياسيين المغضوب عليهم، واستقبال الدارسين في المساجد المجاورة.

وقد تخصصت الزاوية في العهد المريني باستقبال نوع معين من الضيوف بنصوص أوقافها، كما كانت ملاذا لجلوس النساء واجتماعهن. وكانت تستقبل الفقراء والمرضى

(1) الذخيرة السنية ص:91.

(2) تلمسان في العصر الزياني ج/2 ص:350-351.

(3) تاريخ الجزائر الثقافي ج/1 ص:268-318.

والعجزة، ومخصصة لاستقبال فقراء العلماء وسكنى لطلبة العلم، كما كانت ملجأ الهاربين من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم. فقد كان الولاة والعامة يعتقدون في حصانة حمى الزاوية والضريح، ويكفي أن يهرب الجاني إلى هذه الحمى فلا يلحق به أحد، ولا يمسه سلطان.[1]

يقول ابن مرزوق: «والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين.»[2]

الفرع الأول: الزاوية دار لإطعام المحتاج

أدرك شيوخ الزاوية أهمية الإطعام في تحقيق الشهرة لزواياهم، لذا فقد استخدموا كل مواردهم المالية والاقتصادية، بل حتى ثرواتهم الخاصة لإطعام أكبر عدد ممكن من الوافدين والزوار.[3]

ويتحدث العلامة محمد المنوني عن محمد بن موسى الحلفاوي الإشبيلي المدجن نزيل فاس والمتوفى بها عام 758هـ/1357م، غلب على تصوفه الاتجاه الاجتماعي، كان إلى جانب قيامه بالأمر والمعروف والنهي عن المنكر، سلك طريق الإثار على المحتاجين، وقد شرح مذهبه في السلسل العذب حيث قدم أمثلة في هذا الصدد هكذا:

وربما تكفلت صدقته بجميع مؤمن محتاج: من قوت ومن لباس مستوفي الجزئيات في الدفعة الواحدة، فيكفيه السؤال طويل مدة، ليمتعه بالانتفاع بنفسه، من توجه إلى الله أو استنهاض لتكسب.

ويصل تحنت عبادته بالطواف على الفقراء والمحتاجين في الحضرة: فاس ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة -في أوانها- من تميل إليها نفسه فلا توصله المتربة إليها فيبتاع منها الكثير مهما أظل زمانها، وتمكن إبانها، ويضعها في حانوته بالحلفاويين من فاس، ويتحمل

(1) تاريخ الجزائر الثقافي ج/1 ص:269-270-271.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:413.

(3) موقع هسبريس مقال بعنوان: عندما نافست الزوايا السلاطين في ملء البطون لاستقطاب العقول لمحمد شقير بتاريخ:13دجنبر 2017 www.hespress.com

نهاية ما يقدر على رفعه على رأسه، فيقصد به المضان إلى أن يفرغ الوعاء فيعيد امتلاءه، فيلحق تلطفه الضعفاء بالأغنياء، في استطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه ورزقهم من طيباتها.[1]

ويذكر ابن قنفذ أنه رأى الشيخ الصالح أبا الحسن علي اللجائي، وكانت له به معرفة سابقة فيقول: «إذا جلست معه لا تريد أن تفارقه. وله سعي في حوائج المسلمين وتفريق الصدقات على الفقراء والمساكين.»[2]

حتى إن ابن قنفذ سأل بعض الصالحين «من أين عيشتك؟ فقال: من نفقة أجراها علي اللجائي: يأتي بها عشية كل يوم.»[3]

والظاهر مما ذكر أن للزاوية وشيوخها دور بارز في التصدق على المحتاجين والفقراء والمساكين من مشرب ومأكل وملبس.

فالزاوية التي بناها أبو عنان المريني سنة757هـ بضاحية مدينة سلا وهي المعروفة بزاوية النساك، والزاوية المتوكلية على وادي حمص بضاحية فاس، وقفت عليهما أحباسا كثيرة لإطعام الواردين والفقراء والرحالة والمسافرين على اختلاف طبقاتهم.[4]

الفرع الثاني: الزاوية دار لإيواء الطلبة والغرباء

إن الفكر الذي قصده بنو مرين من تشييد الزاوية، هو جعلها تقوم بالخدمة الاجتماعية، فجعلوها بمثابة دور لاستقبال الطلبة والغرباء الوافدين عليها من خارج المملكة. فالزاوية اعتبرت مؤسسة منخرطة في أضلاع المجتمع، وتشكل إحدى لبناته، بل ساهمت وإلى حد ما في تفعيل وبلورة العمل الخيري إلى جانب الدور الروحي وأيضا السياسي.

---

(1) السلسل العذب ص:55 (أنظر أيضا) التيارات الفكرية في العهد المريني ص:37-38.

(2) أنس الفقير ص:76-77.

(3) المصدر نفسه ص:77.

-(أنظر أيضا) سلوة الأنفاس ج/1 ص:346.

(4) تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط ص:88.

يقول الدكتور إبراهيم حركات: «بنى ملوك بني مرين عددا من الزوايا في مختلف أرجاء مملكتهم لاستقبال الغرباء والمسافرين والموظفين المتنقلين.»[1]

ويزيد الدكتور عبد اللطيف الشاذلي الأمر إيضاحا عن دور الزاوية المندرجة ضمن العمل الاجتماعي، فيقول: «تمثل عملية الإيواء والإطعام عنصرا أساسيا في الجهاز الصوفي ونخرج من قراءة نص التشوف بانطباع واضح قوامه أن حركة الصلحاء بشكل كبير وبأعداد كثيرة ومظاهر تلك الحركة متنوعة كانتقال القروي إلى المدينة أو انتقال الحضري من مدينة إلى مدينة فلو لم يكن الأمن فيه قائما ولا الاستقرار دائما ما كانت لتتم البنية الاستقبالية التي تهيئ نظام الإيواء والإطعام المرتبط بجهاز التصوف وهو نظام تطوعي تكافلي مبني على التعامل بالمثل بكيفية توفر لكل مسافر من الصوفية إمكانية الاستفادة من بنية استقبال في أي مكان ذهب إليه.[2]

وجاء في تحفة النظار أن الزاوية مأوى للمتصوفين والفقراء وقد كان الملوك والأشراف ينشئون الزوايا لتقديم الطعام إلى المحتاجين والغرباء، ويفهم من كتاب ابن بطوطة مثلا أن هذه الزوايا كانت بمثابة مطاعم وفنادق للمسلمين خاصة إذا كانت تعبيرا عن الأخوة الإسلامية وتطبيق مثل الإسلام في الإحسان والتصدق على الفقراء المحتاجين وأبناء السبيل والغرباء، وكانت تقام لغايات اجتماعية أو دينية أو عن روح ملك توفي أو شريف يحب عمل الخير.[3]

ومن المعلوم أن الزوايا كانت أيضا من المؤسسات العلمية الهامة في البلاد المغرب، فبالإضافة إلى كونها موضعا لاجتماع المتصوفة للعبادة والذكر، كان يقصدها بعض الطلبة لتلقي العلم، كما كان يسمح لهم -أحيانا- بالسكنى فيها.[4]

---

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:161.

(2) التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري لعبد اللطيف الشاذلي مطابع سلا (بدون رقم طبعة) سنة:1989 الصفحة:134.

(3) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار شرحه وكتب حواشيه طلال حرب دار الكتب العلمية بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:2010 الصفحة:44.

(4) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:117.

ويمكن القول إن الزوايا في العهد المريني عرفت باستقبال الغرباء والمسافرين، كما كان يبنى بجانب الزاوية دار لنزول الواردين وأخرى للطبخ.[1]

الفرع الثالث: الزاوية ملجأ الهاربين

ساد في المغرب خصوصا المغرب الأقصى ظاهرة الهروب إلى الزوايا، وبالتحديد هروب المعارضين لنظام الحكم أو ما يسمى المخزن. فيلجأ الهارب إلى الزاوية هروبا من العقاب، وحتى لا يحاسب عما اقترفه من أعمال ضد المخزن. فكانت الزاوية الحصن الحصين له، حتى أن بعض الشيوخ كانوا يعتبرون الزاوية كمقام إبراهيم من دخلها كان آمنا.[2]

الفرع الرابع: قيام الزاوية بدور التحكيم وحل النزاعات والخصومات

تميزت دعوة سلاطين بني مرين منذ انطلاقتها بسمة التقوى والورع والدعوة إلى الله، لذلك شجعوا التصوف، وقاموا ببناء الزوايا، أولا باعتبارها سندا لهم، وثانيها للتسلح بهم كأداة فاعلة في المجتمع المريني. بل حتى أن السلاطين كانوا ينزلون عند رغبة شيوخ الزوايا ويقبلون بشروطهم.

ويتحدث ابن مرزوق عن مقابلة السلطان أبي الحسن المريني للولي الصالح أبي عبد الله الكومي الضرير المراكشي، وكان من أولياء الله بلا منازع ومن أصحاب التصوفات والمقامات، الذي اشترط شروطا لمقابلة السلطان، أن تكون هي الأولى والأخيرة وألا يعرض عليه شيئا من متاع الدنيا، فقال: «بل حتى تبلغوا عني ويتحمل سيدنا أمير المؤمنين شرطي. فرد السلطان: نعم قبلنا شروطه.»[3]

يتضح من هذا الكلام الذي أشار إليه ابن مرزوق أن للزاوية قبضة شديدة ويدا من حديد وأن كلام شيوخها وشروطهم كان يمشي حتى على السلاطين، وكان يرجع إليهم في حل النزاعات والخصومات والقيام بدور التحكيم.

(1) فيض العباب ص:93.
(2) تاريخ الجزائر الثقافي ج/1 ص:271.
(3) المسند الصحيح الحسن ص:156.

والزاوية عرفت بقوتها داخل المجتمع المريني وبكلمتها المسموعة، فكان الناس يقبلون بتحكيمها، بل الأكبر من ذلك أن شيخ الزاوية لما يتمتع به من سلطة نافذة وحُكما مقبولا ترتضيه كل الأطراف في حل الصراعات القبلية والنزاعات الفردية، حتى أن سلطته تعدت إلى السلطة المركزية القائمة على شؤون البلاد والعباد، بل وأن قوة سلطتها كانت تتدخل في ترسيم سلطان البلاد.

يقول الدكتور محمد مفتاح: «بل وفي بعض الحالات يتدخل شيخ الزاوية لتحقيق الصلح بين المتنازعين على السلطة فهو بذلك يشكل عامل استقرار وأمن لأنه يطفئ نار الفتن والحروب الأهلية ويحقن الدماء ويؤلف بين القلوب المتنافرة والاتجاهات المتصارعة.»[1]

والمتصوفة كانوا الوسطاء الطبيعيين بين السلطة والسكان. فالتأثير الذي كانوا يمارسونه إما بشكل مباشر عن طريق الفتاوى والأحكام بين المتخاصمين أو بشكل غير مباشر عن طريق النصيحة التي يقدمونها للسلطات، وكذلك بواسطة السلوك الأخلاقي والثقافي النموذجي الذي يقدمونه بسيرتهم الذاتية، كان تأثيرا كبيرا داخل المجتمع المريني.[2]

المطلب الثالث: الاحتفال بالمولد النبوي

دأب الصوفية على الاحتفال بعيد المولد النبوي بزواياهم أو البيوتات الخاصة، فهذا أبو مروان عبد الملك الريفي أحد تلامذة أبي محمد صالح الماجري دفين آسفي، يقيم المولد النبوي في منزله بسبتة بحضور المريدين ومن إليهم ويستعمل في الليلة السماع.[3]

إن الارتباط الوطيد للمتصوفة بهذا الحدث هو الذي يفسر ذلك الانتشار السريع لظاهرة الاحتفال بعيد المولد، فبهذه المناسبة، كان الولي السبتي الكبير، أبو مروان عبد الملك اليحاسني، يصنع لمريديه الطعام، وتقام ليالي السماع.[4]

(1) الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية لمحمد مفتاح مكتبة الرشاد المغرب سنة:1997 الصفحة:5.

(2) سبتة الإسلامية دراسة في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين) لمحمد الشريف منشورات جمعية تطوان الرباط الطبعة:2 سنة:2006 الصفحة:158.

(3) مقال بعنوان: الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ودوره في تشكيل فن السماع بالمغرب لمحمد التهامي الحراق بتاريخ:3 فبراير 2012. موقع الرابطة المحمدية www.arrabita.Ma

(4) سبتة الإسلامية ص:194.

ومع ذلك فإن المولد قد أثار معارضة بعض العلماء، باعتباره بدعة لكن هذه المعارضة لم تكن تنتقد سوى المظاهر الخارجية للاحتفال، وخاصة تلك المرتبطة بالممارسة الصوفية (رقص سماع واستعمال آلة اللهو) عند الاجتماع في ليلة المولد، كما أن هناك من أنكره خيفة وقوع المناكر واختلاط النساء والرجال. وعندما ترسخ العيد في التقاليد الدينية، لم يجد المدافعون عنه صعوبة في إيجاد نوع من الاجماع عليه، وعلى فوائده نظرا للخدمات التي يسديها عن طريق إطعام الفقراء، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وقراءة القرآن الكريم، وإلى مظاهر الفرح التي يدخلها على القلوب، فرحة كان الفقيه المؤسس يريدها أن تمس قلوب الأطفال قبل كل شيء.[1]

المطلب الرابع: كفالة الزوايا للأرامل والمسنين

أدت مخالطة أهل الزوايا لأفراد المجتمع، وحسن معاملتهم، ومعرفة همومهم ومشاكلهم اليومية، فتح أبوابها للعجزة والأرامل، فلم تبخل الزاوية عليهم في تحسين أوضاعهم والاهتمام بحياتهم والتكفل بهم. فوجدت بذلك الأرامل والعجزة في المؤسسات الصوفية ملاذا لهم ويحفظ لهم ماء وجههم من السعي والتكفف للناس، فكانت الزاوية سترا لهم من التسكع في الشوارع. فاشتغل البعض منها في عهد الدولة المرينية على كفالة الأرامل المعوزات، اللاتي لا يجدن من يعولهن.

الفرع الأول: كفالة الأرامل

ونقصد في هذا المقام أرامل الحرب، فقد تمخضت في مغرب هذه المرحلة شريحة النساء الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن في حروب وفتن هذه المرحلة، فظاهرة الترمل أضحت مشكلة حقيقية في مجتمع المغرب المريني. وعلى الرغم من أن المادة التاريخية التي تخص هذه الشريحة تظل ضئيلة ونادرة، فلا مجال للشك في أن قاعدتها كانت كبيرة، وأن ظروفها الاجتماعية كانت صعبة للغاية.[2]

(1) سبتة الإسلامية ص:194.

(2) الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني لحميد تيتاو مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:2009 الصفحة:395.

ولا سبيل إلى الشك في أن أحوال الأرامل كانت أكثر بؤسا وعوزا وخصاصة، وبخاصة الفقيرات منهن اللواتي لم يخلف لهن أزواجهن ما يعلن به أنفسهن وأولادهن.[1]

الفرع الثاني: رعاية المسنين

إن الزاوية إذا نظرنا إليها من الناحية الاجتماعية، فقد أدت دورا اجتماعيا مهما كإيواء المسنين المغلوب على أمرهم، فهم الشريحة من الشيوخ الذين وهنت قوتهم واتصفوا بالضعف فلا يجدون من يعولهم، فكانت الزاوية هي الأخرى تقوم بالرعاية لهؤلاء مع ما يقدمه المخزن من خدمات اجتماعية لهذه الفئة. يقول صاحب الذخيرة: « وبنى الزوايا في الفلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات.»[2]

فالمؤرخ ابن أبي زرع يشير إلى بناء الزوايا والغرض من إنشائها ألا وهو إعانة المحتاجين كالمسنين، حيث أوقف عليها المخزن أوقافا عديدة لتفي بغرض الإنفاق على من يحتاج من العاجزين.

فالتصوف المغربي في عصر المرينيين أقر مبدأ التسامح والسلام في المجتمع وإسعاف طبقاته المعوزة وإجراء الإمدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس، وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهر الإحسانية فاضطر الملوك إلى المساهمة فأسسوا الزوايا في الفلوات وأوقفوا لها الأوقاف الوفيرة.[3]

ويشير ابن مرزوق إلى أن السلطان أبا الحسن المريني كان أشفق خلق الله على من علت سِنُّه ووهنت قوته، وقد أجرى على من اتصف بالشياخة من الضعفاء ولازم الخير رواتب تكفيهم ورسمهم في جرائد عماله شيوخ الجامع، وبنى لهم دورا شبه الربط وأجرى لهم كساء في كل عام تكفيهم.[4]

---

(1) الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني ص:396.

(2) الذخيرة السنية ص:100.

(3) معطيات الحضارة المغربية ج/1 ص:167.

(4) المسند الصحيح الحسن ص:427.

ويمكن اعتبار دور الزوايا في الخدمة الاجتماعية من تقديم الصدقات والطعام من بين الواجبات المهمة، وإن كان عملها الخيري يمول من طرف المساعدات التي كان المخزن يقدمها للكثير منها، وكذلك الهبات و«الفتوح» التي يأتي بها الأهالي.[1]

(1) وقفات في تاريخ المغرب دراسة مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب منشورات كلية الآداب بالرباط مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2001ص:154.

الفصل الثاني:
المؤسسات التعليمية

المبحث الأول: بناء المدارس العلمية

منذ مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كانت المدارس المغربية موجودة في العصر المرابطي، غير أن توسيع ونشر حركة البناء على العصر المريني، يعد إيذانا ببدء مرحلة جديدة على صعيد التعليم في المغرب الأقصى، عندما أسس مؤسس دولتهم السلطان يعقوب بن عبد الحق أول مدرسة لهم في فاس قرب جامع القرويين.(1)

وقد تخصصت المدارس في هذه الفترة في المغرب زمن بني مرين بتدريس العلوم الدينية خاصة الفقه وعلى مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله، حيث تولى بنو مرين الدفاع عنه وحمايته.

وساهم تشييد المدارس في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية وزيادة الإشعاع الثقافي والعلمي بالمغرب الأقصى خلال حكم الدولة المرينية.

ولعل ازدهار الثقافة في العصر المريني تمثل في بناء المدارس، وإلحاق خزائن الكتب بأكثرها والإنفاق على العلماء والطلبة، وسار اثنان -في هذا العصر- على إجراء المرتبات على الشعراء والأطباء المختصين بهم، حسب الواقع بالنسبة ليوسف الناصر، ثم أخيه أبي سعيد الأول. هذا إلى أن بعض سلاطين وأمراء هذه الفترة كانوا على جانب من الثقافة، ويعقدون المجالس العلمية للمذاكرة والمناظرة، كما أن جميع هؤلاء يقدرون رجال الفكر ويرفعون مكانتهم.(2)

ولقد اتجه بنو مرين أول ما اتجهوا إلى بناء المدارس الداخلية لتقبل المزيد من طلاب العلم من سائر جهات المملكة. فإن المدارس الموحدية لم تعد صالحة لنشر المبادئ التي قامت عليها الدولة المرينية الجديدة.

---

(1) الحضارة العربية الإسلامية ص:181.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:234.

وقد كان للطلبة الحق في سكنى البيوت متى برهنوا على أنهم أهل لذلك، بما يحصلون عليه من مبادئ ضرورية في مختلف العلوم والفنون.[1]

وكانت المدارس على عهد بني مرين معاهد للفقه والنحو والقراءات، واعتبرت من أهم مميزات العصر الديني الأول، وهي المرحلة الأولى لبناء المدارس وانتشارها. حيث شيدت ستة مدارس بفاس، وكان القصد من بنائها إيواء الطلبة وتدريسهم.[2]

وقد كان للمدارس العلمية نظام خاص يستوعب المواد المدروسة والأساتذة والطلبة حتى تتميز عن التعليم في الجوامع. وتخضع سكنى الطلبة بهذه المدارس إلى قوانين وردت عن عبد الله العبدوسي «هكذا وإنما يسكن المدرسة من بلغ عشرين سنة فما فوق، وأخذ في قراءة العلم ودرسه بقدر وسعه. ويحضر قراءة الحزب صبحا ومغربا. ويحضر مجلس مقرئها ملازما لذلك إلا لضرورة من مرض وشبهه من الأعذار المبيحة لتخلفه. فإذا سكن فيها عشرة أعوام ولم تظهر نجابته أخرج منها جبرا، لأنه يعطل الحبس. ولا يختزن بالمدرسة من سكنها -باستحقاق-إلا قدر عولته على ما جرت به العادة في الأحباس.»[3]

واستنادا إلى المصادر والأبحاث المنجزة يتبين أن المرينيين أسسوا عدة مدارس علمية، وأشرفوا على سير التعليم بها حسب توجيههم الفقهي، وشجعوا الطلبة على الإقامة بعاصمة فاس ليرتووا من معين المذهبية الموجهة.[4]

يقول الدكتور محمد الفاسي: «إن المرينيين سلكوا طريق نشر العلم كمبدأ لازم دولتهم منذ نشأتها عندما قامت دولتهم على غير دعوة خاصة بخلاف الدول السابقة عليها واللاحقة لها.»[5]

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:356.

(2) المغرب في عصر السلطان أبي عنان للماحي علي حامد دار النشر المغربية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1986 الصفحة:195.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:254-255.

(4) الحضارة الإسلامية في المغرب ص:255.

(5) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:192.

والمدارس المغربية تتميز عن جميع مدارس المشرق الإسلامي بكونها من بناء الملوك أنفسهم وليس من بناء وزرائهم. فقد تبنى ملوك المرينيين بأنفسهم فكرة إنشاء المدارس بل وقرنوها بأسمائهم.[1]

فالمدارس المرينية تعتبر أبلغ دليل على روعة العمارة المرينية، حيث اهتم المرينيون باستكمال كافة لوازم هذه المدارس ومتطلباتها، حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المريني. وجاء اهتمام سلاطين بني مرين بالمدارس، لأنهم اتخذوا منها ميدانا لتدريس الفقه المالكي. ويبدو أن ذلك عجل برحيل مذهب التوحيد الذي سيطر على بلاد المغرب أمدا طويلا. وقد أنشأ المرينيون مدارسهم بمفهوم جديد، حيث لم تكن هناك في المغرب قبل العصر المريني مدارس للتعليم العالي المتخصص، ولسكنى الطلبة، وإنما كان العلماء المدرسون يلقون دروسهم في المساجد، وبصفة خاصة في جامع القرويين، وابتنى المرينيون مدارسهم في العاصمة فاس وفي غيرها من مدن المغرب الأقصى.[2]

المطلب الأول: مدارس مدينة فاس

الفرع الأول: مدرسة الصفارين أو الحلفاويين

كانت مدرسة الحلفاويين أولى المدارس التي بناها سلاطين بني مرين في دولتهم، بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق، وسميت بهذا الاسم لأنها أقيمت بالقرب من السوق الذي تصنع فيه أواني النحاس الأصفر.[3]

لقد كانت هذه المدرسة هي الأولى من نوعها التي أسسها بنو مرين، سنة 670هـ، وتعرف في الحوالات الحبسية القديمة باسم مدرسة الحلفاويين كما تحمل اسم المدرسة اليعقوبية وقد عرفت اليوم باسم مدرسة الصفارين.[4]

---

(1) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:192.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:324.

(3) المرجع نفسه ص:324.

(4) جامع القرويين ج/2 ص:357.

يقول ابن مرزوق: «إن إنشاء المدارس، كان في المغرب غير معروف حتى أنشأ مولانا المجاهد، الملك العابد، مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس وبعدوة القرويين منها.»[1]

وبنيت مدرسة الحلفاويين قرب رحبة البقر إلى القبلة من القرويين على يد قاضي الجماعة مفضل بن محمد الدلالي،[2] وهو أول من سن بناء المدارس بحضرة فاس، إذ لم تكن فاس تعرف المدارس حتى ذلك، حسب إفادة ابن مرزوق السابقة الذكر.[3]

وتتميز المدرسة باحتوائها على بركة مستطيلة الشكل، اصطفت على جوانبها غرفة الطلبة، كما اشتمل المربع على محراب.[4]

وألحق بها مصلى صغير تؤدى فيه الصلوات.[5]

ويدخل إلى المدرسة من طريق أسطوان ينفذ إلى صحن مستطيل الشكل، في وسطه صهريج مربع كانت بيوت الطلبة تحيط به، واتجاه المدخل بنيت قاعة للدرس والعبادة وهي مربعة، ماتزال لحسن الحظ تحتفظ بآثار فنية بديعة جميلة. ويعد محراب هذه القاعة أقوم محاريب مساجد فاس. وكانت توجد إلى جانب قاعة الصلاة في يسار الواقف أمامها خلوة ذات محراب خاص بها كانت مسكنا للإمام محمد بن سليمان الجزولي.[6] كما نلاحظ

(1) المسند الصحيح الحسن ص:405.

(2) **مفضل بن محمد العذري**: هو مفضل بن محمد بن محمد بن إبراهيم العذري من أهل مرية، أصله من دلاية من عملها، من ذرية الإمام المحدث أحمد بن عمر بن أنس العذري الدلالي، يكنى أبا أمية، ويعرف بابن الدلالي كان من أهل الفضل والمعرفة رحل إلى المشرق فسمع من العلماء تولى قضاء ألمرية وبرجة ووادي آش ومالقة، ولاه السلطان يعقوب بن عبد الحق قضاء الجماعة بحضرة فاس وجعل له النظر على صاحب الشرطة وصاحب الحسبة. بنيت على يديه المدرسة القديمة التي بالحلفاويين بقبلة جامع القرويين، وهو أول من سن سنة بناء المدارس بحضرة فاس. لم تذكر تاريخ وفاته.
-جذوة الإقتباس ج/1 ص:339.

(3) تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط للحسين أسكان منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مطبعة المعارف الجديدة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:2004 الصفحة:63.

(4) تاريخ إفريقيا الشمالية لشار أندري جوليان ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة الدار التونسية تونس الطبعة:2 (بدون تاريخ) الجزء:2 الصفحة:240-241.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:324.

(6) **محمد بن سليمان الجزولي** الشريف الحسني دفين مراكش، دخل مدينة فاس بقصد قراءة العلم، وتحصيله، وكان يسكن بمدرسة الحلفاويين، وبها ألف كتابه المسمى دلائل الخيرات. لم نقف على وفاته.
-جذوة الاقتباس ج/1 ص:319.

عن يسار باب قاعة حجرة ناتئة مغروزة في الجدار، يقال إنها جلبت من مكة المكرمة. وهي ثالث مدرسة لها صومعة صغيرة غَيَّر دخان سوق الصفارين من ملامحها وألوانها.[1]

ومن الملاحظ أن مدرسة الصفارين، قد أشار إليها صاحب كتاب الذخيرة السنية ولم يذكر شيئا مفصلا عن هذه المدرسة، لا من حيث التسمية أو الموقع وهذا يدل على أن مدرسة الصفارين هي من أقدم المدارس في المغرب الأقصى، وذلك لأنها موثقة تاريخيا في بنائها وموقعها وتسميتها.

يقول صاحب الذخيرة ابن أبي زرع: «وولى الفقيه أبا أمية الدلالي قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم فبناها بإزاء عين قرقف من جهة قبلة جامع القرويين، وأجرى فيها ماء العين وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود لعنهم الله.»[2]

الفرع الثاني: مدرسة العطارين أو المدرسة العظمى

في شعبان سنة 723هـ أمر السلطان أبو سعيد عثمان المريني أيضا ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار.[3]

وقد وضع حجرها الأساسي السلطان أبو سعيد عثمان المريني نفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير، ولم ينته العمل فيها إلا بعد سنتين. ورتب السلطان فيها إماما ومؤذنين وقومة يتعهدونها وشحنها بالطلبة، وخصص لها الفقهاء للتدريس وحبس عليها عدة أملاك كما يؤخذ ذلك من رخامة التحبيس المغروزة في الجدار، والمدرسة. ومن حيث الفن الذي تحتويه جوانبها تعد متحفا رائعا وبديعا، ولكل قطعة منها كانت مثار انتباه رجال الفن الذين سموها أعجوبة فاس، ففيها تبدو بهجة الفن المغربي في الخطوط والنقش والتركيب والأقواس. وحين تدخل من باب المدرسة تجد عن يمينك مطلعا إلى الطبقات العليا حيث غرف الطلبة، كما تجد عن يسارك دار الوضوء، وأمامك المدخل إلى صحن المدرسة، وفيه خصة عين، وقبالتها قاعة الدرس التي لا تحتوي على بلاطات وإنما على جانب في المؤخر

(1) جامع القرويين ج/2 ص:357.
(2) الذخيرة السنية ص:162-163.
(3) الاستقصا ج/3 ص:112.

يشتمل على ثلاث أقواس محمولة على ساريتين من رخام، كتب على تاجها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص الآية:1].

وبقية السورة في التيجان الباقية المغروسة، وهذا الجانب كان محل خزانة للمخطوطات في ذلك العهد، كالشأن في بعض المدارس الباقية.[1]

وكانت هذه المدرسة مزخرفة جدا بالخشب المحفور والجبس المقرنص والقيشاني (الزليج) المدهون، وهي أمور جعلتها إحدى جواهر العمارة المرينية.[2]

وتعد هذه المدرسة محل رياسة وتخصص لدراسة الفقه والنحو.[3]

الفرع الثالث: مدرسة الأندلس أو مدرسة الصهريج

تم بناء هذه المدرسة في عهد السلطان أبي سعيد عثمان المريني سنة 721هـ/1321م والذي تولى بناءها ولي العهد أبو الحسن المريني. وتقع المدرسة بغربي جامع الأندلس من حضرة فاس فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها وبنى حولها سقاية ودار للوضوء وفندقا لسكنى الطلبة وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس وأنفق على ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار، وشحنها بطلبة العلم وقراء القرآن الكريم وحبس عليها رباعا كثيرة، ورتب فيها الفقهاء للتدريس وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة.[4]

وتسمى بالصهريج لأن صهريجا مستطيلا يقع وسط فنائها جلب إليه الماء من عين بخارج باب الحديد، والصهريج جلب من إسبانيا من ألمرية وزنه 143 قنطارا قبل أن ينقل إلى المدرسة المصباحية وهي تساوي في مساحتها مدرسة فاس الجديدة، ثم إن الفن المعماري الذي ما تزال المدرسة تحتفظ ببقاياه، ولائحة الموقوفات التي نقشت على رخامة التحبيس، وتحتفظ بها إلى الآن بعض الحوالات الوقفية. كل ذلك يدل على ما كان لهذه المدرسة من قيمة. ولقد حملت هذه المدرسة في بعض المصادر التاريخية باسم «المدرسة الكبرى» تمييزا لها عن

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:358.

(2) فاس في عصر بني مرين ص:29.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:359.

(4) الاستقصا ج/3 ص:112. -(أنظر أيضا) الأنيس المطرب ص:412.

«المدرسة الصغرى» التي تتصل بها والتي تجاور مقاما هناك كان يعرف باسم (دار الضيوف)، كما حملت في بعض الحوالات الوقفية اسم مدرسة أشيخن باسم الزنقة القديم.[1]

ودرس في مدرسة الصهريج القاضي إبراهيم بن عبد الرحمان التسولي التازي.[2] وكان يدرس فيها كتاب التهذيب والرسالة.[3]

الفرع الرابع: المدرسة المصباحية

شيد السلطان المريني أبو الحسن مدرسة أخرى على مقربة من القرويين، لا يفصلها عنها إلا طريق من نحو خطوات، وكان ذلك سنة 747هـ/1346م كما هو منقوش على رخامة الوقف.[4]

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:362.

(2) **سيدي إبراهيم بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي** التازي الفاسي، الشيخ الحافظ الفقيه، الشهير الذكر في المغرب، يكنى أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى. من صدور المغرب، له مشاركة في العلم، وتبحر في الفقه، ووجاهة عند الملوك، واستعمل في السفارة، وكان حسن العهد، مليح المجالسة، أنيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب.

عرفه أيضا صاحب كتاب شجرة النور الزكية فقال:» هو الإمام الفقيه العلامة العمدة الفاضل الفهامة» وذكر بأنه لازم الكثير من الفقهاء والعلماء في وقته. كان الرجل قيما على التهذيب، ورسالة بن أبي زيد، حسن الإقراء لهما، وله عليهما تقييدان نبيلان، قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير... كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفيا حقوقها، وذلك لمشاركته الحضر فيما في أيديهم من الأدوات، وكان مجلسه وقفا على التهذيب والرسالة. وكان مع ذلك شيخا فاضلا، حسن اللقاء على خلق بائنة من أخلاق أهل مصره، امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسائل، فمر حظ كبير من عمره ضائعا، لا في راحة دنيا، ولا في نصيب آخرة.

ومن أهم تصانيفه أنه قيد على المدونة بحضرة شيخه أبي الحسن الصغير كتابا مفيدا وضم أجوبته على المسائل في سفر، وشرح كتاب الرسالة لأبي زيد شرحا عظيم الفائدة. فلج في آخره فالتزم منزله بمدينة فاس يزوره السلطان فمن دونه، توفي سنة 748هـ. وقيل سنة 747هـ.

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس للكتاني تحقيق عبد الله كتاني وحمزة الكتاني ومحمد حمزة الكتاني دار الثقافة للنشر - شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف تحقيق عبد المجيد خيالي دار الكتب العلمية بيروت ط:1 سنة:2003 ج/1 ص:317. والتوزيع الدار البيضاء (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) ج/3 ص:317.- -الإحاطة في أخبار غرناطة ج/1 ص:197

-جذوة الاقتباس ج/1 ص:86. -جذوة الاقتباس ج/1 ص:86.

(3) الحضارة العربية الإسلامية ص:183.

(4) جامع القرويين ج/2 ص:359.

وتنسب المدرسة المصباحية إلى أبي ضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتي[1] الفقيه المالكي بمدينة فاس لأن الأستاذ أبا ضياء مصباح كان أول من تصدى للتدريس فيها.[2]

وتسميها حجج الوقف مدرسة الخصة لأن بيلة من المرمر الأبيض تحتل وسط فنائها، وكان أبو الحسن المريني جلبها من ألميرية بالأندلس-كما سبق الذكر- من طريق البحر حتى العرائش إلى قصر عبد الكريم، حيث حملت على المركب إلى أن وصلت إلى ضواحي فاس، ومن ثمت حملت على عجلات من الخشب تجرها القبائل والرؤساء على أن وصلت أولا إلى مدرسة الصهريج، ثم حولت منها إلى مدرسة المصباحية حيث ما تزال إلى الآن، طولها 3,20 متر على عرض 1,05متر.[3]

وكان المدخل إليها عن طريق باب يقابل باب القرويين الشمالي المسمى باب الخصة، وقد كان هناك قطعة من الرخام بين القرويين والمدرسة، يعبر عليها الطلبة الذين يفضلون الحضور للدرس بدون أحذية.

وعلى يَسَارِكَ وأنت داخل إلى المدرسة منفذ دار الوضوء، وكذلك المطلع إلى الطبقتين العلويتين يسكنها الطلاب، حيث يوجد في وسط الدرج مسجد صغير له محراب إلى الآن، وكان هذا المسجد في ظروف ما مركزا لقاضي القضاة. وتحتوي الطبقة الأرضية كذلك على عدد من البيوت الطلابية الذي بلغ مجموعها بين الفوقي والسفلي زهاء سبعة عشر بيتا ومائة بيت، وقبالة المدخل باب قبة الدرس والصلاة، تتوسطها سارية من رخام، والقاعة لا تشتمل على محراب.[4]

---

(1) **مصباح بن عبد الله اليالصوتي**: اكتفى صاحب جذوة الاقتباس بذكر اسمه وتاريخ وفاته فيقول: هو مصباح بن عبد الله الياصولتي أبو ضياء الفقيه المالكي بمدينة فاس، وإليه تنسب المدرسة المصباحية هو حافظ وقته وعصره، وفريد أوانه، الشيخ الفقيه العلامة المدرس النبيه، النوازلي المفتي، البركة الصالح، أبو ضياء سيدي مصباح، الذي تضاف إليه المدرسة المصباحية بفاس لكونه أول من درس بها حين بناها السلطان أبو الحين المريني يعد من أكابر أصحاب أبي الحسن الصغير، كان فقيها صالحا نوازليا له عدة فتاوى نقل بعضها في المعيار المعرب، توفي رحمه الله بفاس سنة 750هـ.

- سلوة الأنفاس ج/2 ص: 64-65. -جذوة الاقتباس ج/1 ص:336. -نيل الابتهاج ص:608- 609.

(2) جذوة الاقتباس ج/1 ص:336.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:359.

(4) جامع القرويين ج/2 ص:359.

وكانت المدرسة المصباحية حقا آية من آيات الجمال والحسن في البناء والزخرشة وهذا ما يدل على الاعتناء الشديد والمميز للدولة المرينية في إنشاء المدارس والاهتمام البالغ بالعلم بصفة عامة والعلماء والطلاب بصفة خاصة.

الفرع الخامس: مدرسة فاس الجديد أو المدينة البيضاء

في سنة 720هـ أمر السلطان أبو سعيد عثمان المريني ببناء مدرسة فاس الجديد، فبنيت أتقن بناء، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن الكريم والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمــؤونة في كل شهر، وحبس عليها الرباع والضياع ابتغاء ثواب الله ورغبة فيما عنده.[1]

ثم كمل بناؤه وبدئ بالإقرار فيها وسكناها في ذي القعدة سنة 721هـ/1321م.[2]

الفرع السادس: مدرسة الوادي أو المدرسة الكبرى

أنشأ أبو الحسن المريني المدرسة الكبرى مدرسة الوادي، وهي التي يشق في وسطها الوادي الأعظم بالعدوة.[3]

غير أن ابن مرزوق لم يحدد تاريخ إنشائها، لكن الجزنائي يشير إلى أن المدرسة كانت موجودة من عام 724هـ/1324م.[4]

وعرفت مدرسة الوادي بأنها لا تسمح للطالب أن يداوم فيها ما لم يكن يحفظ صحيح مختصر الحاجبي. غير أن مدرسة الوادي بفاس تلتبس على كثير من الناس، لقلة المصادر التي تتحدث عنها، ولاختفاء معالمها منذ زمن، والحقيقة أنها غير مدرسة الصهريج، كما هو مذكور في مسند ابن مرزوق. وذكر الدكتور عبد الهادي التازي أن أبا علي اليوسي تكلم عن

(1) الأنيس المطرب ص:411-412.

-(أنظر أيضا) الإستقصا ج/3 ص:111-112.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:240.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:405-406.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:242.

الملوك الذين أحيوا العلم في المغرب وذكر أبا عنان ونظراءه فقال: «وكانت مدرسة الوادي بفاس -وهي اليوم خربة- تحتوي على نحو سبع مائة أستاذ.»[1]

ويشير صاحب كتاب فواصل الجمان محمد غريط أن مدرسة الوادي كانت خرابا ترتكب فيها عظائم الفحشاء ممن شرب خمر الفساد فانتشى. إلى أن أذن الله لتلك الخبايا أن تشهر. ولهاتيك البقعة أن تطهر فعثر فيها على قتيل، نجى ببدنه من التمثيل فأزعج منها أولئك السكان، وهدمت منها البيوت والأركان، ثم جعلت مسجدا جامعا، وأبدت من تلك الظلمات نورا لامعا، وكان هذا العمل على يد الباشا الأرشد الحاج عبد الله بن أحمد رحمه الله.[2]

كما أن الشيخ ابن هارون كان يدرس المدونة في هذه المدرسة في حياة ابن غازي، وهكذا نجد أن تاريخها يعود إلى عهد بني مرين وبالضبط سنة731هـ وأنها غير مدرسة الصهريج كما تؤكد ذلك الحوالات الحبسية الإسماعيلية التي تذكر أوقاف هذه المدرسة وأوقاف مدرسة الصهريج كلا على حدة.[3]

ومن الملاحظ أن مدرسة الوادي هي الوحيدة بين مدارس فاس المرينية التي غيرت معالمها، وتحولت إلى مسجد جمعة وبنيت له صومعة عام 1295هـ.[4]

والملاحظ أيضا أن هناك اختلاف في تاريخ بناء المدرسة. فحسب ما جاء عند الجزنائي أن المدرسة كانت موجودة منذ سنة 725هـ/1324م. غير أن الأستاذ الكتاني له رأي مخالف فهو يشير إلى قصة الشريف[5] الذي جاء إلى فاس راغبا في بيت في المدرسة لكنه لم يكن يحفظ جميع مختصر الحاجبي، لذلك لما جاء لم يجد بيتا فقعد عند سارية واشتغل بشرح الأجرومية حتى أكمله ورفعه إليهم ليعطى بيتا. يقول الأستاذ الكتاني: «الشريف شارح الأجرومية هو

(1) جامع القرويين ج/2 ص:362-363.

(2) فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريط المطبعة الجديدة فاس الطبعة:1 سنة:1346هـ الصفحة:215.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:363.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:244.

(5) **الشريف**: هو محمد بن أحمد بن يعلا الشريف الحسيني صاحب شرح المقدمة الجرومية في النحو من أهل مدينة فاس. -جذوة الاقتباس ج/1 ص:244.

محمد بن أحمد بن يعلا الشريف الحسيني أبوعبد الله الفاسي، أخذ عن منديل بن أجروم وغيره. واسم الشرح المذكور الدرة النحوية في شرح معاني الأجرومية. ولكن يؤخذ من أخذه عن منديل المذكور أنه من أهل القرن الثامن لأن شيخه المذكور مات سنة 772هـ، فعلى هذا تاريخ هذه المدرسة يرجع إلى ما قبل القرن الثامن.»[1]

الفرع السابع: مدرسة السبعيين

تزامن بناؤها مع بناء مدرسة الصهريج سنة 721هـ/1321م. أسسها الأمير أبو الحسن المريني، وسميت بالسبعيين لأنها كانت خاصة بالطلبة الذين يقرؤون القرآن الكريم بالروايات السبع، وقد كانت ملحقة تابعة لمدرسة الصهريج كما هو في رخامة التحبيس، التي تشترك فيها مع المدرسة السابقة. والمدرسة تحتوي من روائع الفن على الشيء الكثير بالرغم من إهمالها، وما يزال بإمكاننا أن نقف على نوع الرسوم التي كان المرينيون يهوونها، ونذكر على سبيل المثال زهور السوسن التي نقشت على قطعة من الرخام عند أنبوب السقاية.

وقد أحيطت ساحتها بأربع واجهات مسقفة حيث توجد بعض الغرف، وللمدرسة طبقة عليا، أما قاعة الدرس والعبادة، فإنها عبارة عن حجرة كبيرة وقد اكتفي للإشارة إلى قبلتها بقوس عوض المحراب المعهود.[2]

الفرع الثامن: المدرسة العنانية أو المتوكلية

تعتبر المدرسة العنانية التي تأسست سنة 750هـ/1349م على يد أبي عنان المريني قمة الفن المعماري المريني.[3]

الذي كان يرى ضرورة إنشاء مدرسة باسمه في سوق القصر الذي يحمل اليوم اسم الطالعة الكبرى، فكانت تحفة فائقة لا بما تتضمنه من عدد الغرف فقط ولكن بما اشتملت عليه من تجهيزات وبما فاقت به سائر المدارس الأخرى أيضا، إذ اشتملت بالإضافة إلى بهوين

(1) ماضي القرويين ومستقبلها لمحمد عبد الحي الكتاني ضبط وتعليق عبد المجيد بوكاري دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2006 الصفحة:93.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:362.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:325.

متقابلين للدرس على صومعة تشرف على المدينتين فاس القديم وفاس الجديد، وعلى قاعة صلاة، ازدانت بمنبر رائع بديع، أغرى رجالا من الأجانب بسرقته كما اشتملت على ساعة مائية كانت حديث الناس ردحا من الزمان، نصبت قبالة باب المدرسة الرئيسي في الطاعة الكبرى غير بعيدة عن دار الوضوء التي تعد متحفا رائعا، وكل خلية من خلايا المدرسة قطعة من القطع الفنية التي تستدعي منك امعان النظر.[1]

وقد وصفها لنا الشيخ محمد الكتاني بقوله: «ومدرسته العناية بهذه الحفرة-أعني فاسا- مشهورة، وهي من المدارس العجيبة. ولما تم بناؤها، ودخلها لينظر إليها، أعطاه القائم عليها هناك زمام صائرها وقد جمع فيه صائرا كثيرا، فرمى به في الوادي الجاري وأنشد:

ليس لما قرت به العين ثمن لا بأس بالغالي إذا قيل حسن»[2]

ووصفها ابن بطوطة فقال: «وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاوز قصبة فاس، ولا نظير لها في المعمورة اتساعا وحسنا وإبداعا وكثرة ماء وحسن وضع. ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخرسان ما يشبهها.»[3]

وتعتبر المدرسة العنانية قمة الفن المعماري المريني. إذ أن الآثار المعمارية المرينية السابقة، كانت لا تزال تحت تأثير الفن الموحدي، الذي يمتاز بالبساطة، والبعد عن كثرة الزخرفة، مسايرة لمبادئهم الدينية. فبناء هذه المدرسة يؤكد أن المرينيين أدخلوا على الفن الموحدي التنسيق والتزويق، وصاروا يهتمون بالنقش على الجبص، والخشب، ولا يتركون موضعا في الحيطان أو السقوف والأبواب، دون أن ينقشوه، وبالغوا في ترميم الأرض، وأسافل الجدران بالزليج الرقيق المختلف الألوان، واستخدموا الرخام بجميع أنواعه، وهذه المميزات، أضفت على منشآتهم البهاء الممزوج بالرقة والعذوبة.[4]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:360.

(2) سلوة الأنفاس ج/3 ص:278.

(3) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة تحقيق: محمد عبد المنعم العريان ومصطفى القصاص دار إحياء العلوم بيروت الطبعة:1 سنة:1987 الجزء:2 الصفحة:676-677.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:325.

المطلب الثاني: المدرسة العظمى بطالعة سلا

بنيت المدرسة العظمى بطالعة سلا قبلى المسجد الأعظم، بناها (السلطان أبو الحسن) على هيئة بديعة وصنعة رفيعة، وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر.[1]

وأشار ابن مرزوق في مسنده إلى مدرسة سلا بقوله: «فأنشأ بمدينة تازة قديما مدرستها الحسنة، وببلد مكناسة وسلا.»[2]

شيدت المدرسة سنة 733هـ، حسبما هو مكتوب على بابها نقشا في الخشب الذي هو فوق القوس الحجري، ونص ذلك:

اقتضى أَمْرُ أَمِيرِ المسلمين — هذه السُّنَّة في أسعد حين

لثلاث وثلاثين-بهـــا — أ سست - و ا لسبعمئيـــن

اضرعوا لله في النصر لـه — وادخلوا بسلام آمنيـــن[3]

هذه المدرسة من المدارس التي بناها السلطان الأسعد أبو الحسن المريني بأمصار مملكته، وهي وحدها شاهدة بقوة ملكه وعظم همته، من أحسن المدارس شكلا ورونقا، وأرفع المباني القديمة وأتقنها وضعا وإحكاما، وقد أودعها الصناع من بديع الصنائع ما لا مزيد عليه من الحسن والاتقان.

وقد فرشت هذه المدرسة بالزليج القديم الرفيع بصنعة عجيبة، وأدبر بحيطانها وسواريها حزام يزيد على الذراعين من الزليج المذكور، واتصل به حزام قدر أربعة أصابع دائر بحيطان المدرسة كلها، مكتوب نقشا في الزليج قصيدة دالية تضمنت مدح بانيها السلطان أبي الحسن المريني، والدعاء له وذكر محاسن المدرسة. وكان الفراغ من بناء هذه المدرسة كما هو في رخامتها يوم الجمعة التاسع عشر من جمادى الثاني عام اثنين وأربعين وسبع مائة (742هـ).[4]

---

(1) الاستقصا ج/3 ص:175.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:406.

(3) الإتحاف الوجيز ص:67.

(4) المصدر نفسه ص:62-63.

كما ابتنى السلطان أبو عنان فارس المريني بسلا المدرسة العجيبة بحومة باب حسين، وقد صارت اليوم فندقا يعرف بفندق أسكور.[1]

المطلب الثالث: مدارس مكناسة

الفرع الأول: مدرسة الشهود أو مدرسة القاضي

تعد مدينة مكناسة من بين المدن التي استفادت من نفحات الحركة العلمية والفكرية في عهد المرينيين، لإنشائهم الكثير من المدارس التي صارت شاهدة على تاريخهم الفكري والعلمي.

يذكر المقري صاحب نفح الطيب أنه كان بمكناس ثلاث مدارس لبث العلم، كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقدف فيها صافي الماء أعناق أسدية، وفيها خزائن الكتب، والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين.[2]

ذكرها صاحب الروض الهتون فقال: «وبنا بها السلطان يعقوب أيضا مدرسة الشهود التي بأعلى سماطهم هناك، ويقال لها مدرسة القاضي، لأنها كان يدرس بها القاضي الحسن ابن عطية الونشريسي.» [3] [4]

وصارت -من بعد- تحمل اسم المدرسة الفيلالية، ولا تزال قائمة شرقي الجامع الأعظم بهذه المدينة.[5]

---

(1) الإستقصا ج/3 ص:206. – (أنظر أيضا): مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري لمحمدي عبد المنعم محمد حسين مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1993. الصفحة:71.

(2) نفح الطيب ج/6 ص:212.

(3) **القاضي الحسن بن عطية الونشريسي:** هو الحسن بن عثمان بن عطية التجاني المكناسي، أبو علي عرف بالونشريسي. كان فقيها عدلا، من أهل الحساب، والقيام على الفرائض والعناية بفروع المالكية ولد في حدود أربع وعشرين وسبعمائة. ونقل الونشريسي في المعيار جملة من فتاويه لم يقف أصحاب الترجمة على تاريخ وفاته، قيل في حدود 770هـ. وذكر صاحب جذوة الاقتباس أنه لم يقف على تاريخ وفانه.

-سلوة الأنفاس ج/3 ص:326-327. (أنظر أيضا) جذوة الاقتباس ج/1 ص:179-180.

(4) الروض الهتون ص:38.

(5) ورقات عن حضارة المرينيين ص:244.

يقول صاحب إتحاف أعلام الناس: «حدثني والدي رحمه الله أنه كان يسمع ممن أدركه من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها، فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها، فغرقها في الصهريج قبل أن يطالع بما فيها وأنشد:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن   ليس لما قرت به العين الثمن»

ولما تولى ابنه السلطان أبو عنان نوه بها أيضا وتفقد أحوالها، وكان من جملة ذلك أن أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بها وعزل الباقي على كثرتهم.(1)

وتحدث الباحث مصطفى بنفايدة في مقال له عن المدرسة الفيلالية بأنها أقدم مدرسة مرينية بمكناس، تم تشييدها سنة 1275م شيدها السلطان يعقوب بن عبد الحق، كما تعرف أيضا بمدرسة القاضي، ونعتت بالفيلالية لإقامة الطلبة القادمين من تافيلالت بها أيام السلطان المولى إسماعيل. وتضم المدرسة قبة عبارة عن مسجد للصلاة، وأمامها صحن يتوسطه صهريج، وتحيط به بيوت الطلبة يمينا وشمالا. وفي الجهة الغربية منه توجد دار الوضوء المتوفرة على السقاية. وتضم المدرسة طبقا علويا توجد به بيوت، ولها باب واحد يقابل أحد أبواب المسجد الأعظم، والمعروف بباب الحجر.(2)

الفرع الثاني: المدرسة الجديدة أو المدرسة البوعنانية

المدرسة الجديدة فهي المعروفة اليوم بالبوعنانية نسبة لأبي عنان، ولا أعرف وجها لهذه النسبة والحال أنها إنما أنشأها والده أبو الحسن وهي مراد ابن غازي هنا لوجوده:

أحدهما: فإنه مشعر بفخامة بنائها وعلو شأنه، وهذه الصفحة لا توجد على الكمال من مدارس مكناس، لاسيما مع ما سبق عنه من أن باني مدرسة القاضي هو أبو يوسف، فلم يبق الاحتمال حينئذ إلا في مدرسة الخضارين، وهذا الاحتمال يدفعه كونها على غير الصفة المنوه بها.

(1) اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج/1 ص:146-147.

(2) موقع مكناس بريس com.meknespress.www مقال بعنوان: اطلالة على ذاكرة مكناس «المدرسة البوعنانية» لعيسى الكامحي تاريخ النشر:29 يوليوز 2012

ثانيا: تصريحه بأنه بناها على يد القاضي ابن أبي الغمر وقد وافق ذلك التنصيص عليه في سادس أبيات القطعة الشعرية المنحوتة في جبس محرابها كما سيأتي.

ثالثا: أن التاريخ المعين لبنائها في البيت السابع من القطعة الآتية الذي كان ملكا فيه هو أبو الحسن المذكور فهو الآمر بتأسيسها والحاضر عند كمالها وتمام تخطيطها والعيان في ذلك كله يغني عن البيان، فإنه يوجد إلى الحين الحالي منقوشا على يمين وشمال المحراب قبتها ما صورته.

نزه جفونا منك في مدرسة	أربت على كل سنى ونزهة
لقد تبدت في فنون وشيها	كروضة غب انسكاب ديمة
أكماها الباني على اتقانها	فكمل الحسن بها وتمت
بأمر مولانا المطاع أمره	على العالي الندى الخليفة
من شرف العلم وأعلى	قدره وأظهر الحق بكل وجهة
على يد قاضيه في مكناسة	ابن أبي الغمر الحميد السيرة
عام ثلاثين وستة خلت	من بعد سبعمائة للهجرة [1]

تقدر مساحة المدرسة بحوالي 315 مترا مكعبا، ويتميز بَابها بالاتساع والزخرفة وتحتوي على قاعة للصلاة مستطيلة الشكل. كما تضم 41 غرفة لإيواء الطلبة، وتقع هذه الغرف في طابقين السفلي والعلوي. ويذهب مصطفى بنفايدة إلى أن المدرسة البوعنانية، من أهم المدارس التي عرفتها مدينة مكناس في العهد المريني، وهي بذلك أهم معلمة حضارية تؤرخ للفترة المرينية. ويظهر شكلها الفني مدى اهتمام المرينيين بجمالية مبانيهم.[2]

الفرع الثالث: مدرسة الخضارين

أنشأ هذه المدرسة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، وتقع قرب المدرسة الجديدة، وتقابل باب العدول، وهو أحد أبواب المسجد العظيم وأصبحت في العصر العلوي تعرف بمدرسة الخضارين لوقوعها أسفل السوق القديم للخضر، وأخيرا أصبحت تحمل

(1) إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج/1 ص:151-152.

(2) مقال بعنوان: اطلالة على ذاكرة مكناس «المدرسة البوعنانية» لعيسى الكامحي تاريخ النشر:29 يوليوز 2012. موقع مكناس بريس www.meknespress.com

اسم مدرسة العدول، كما عرفت أيضا في إحدى المراحل بمدرسة مولاي عبد الله بن حمد المكاوي نسبة لهذا الولي الصالح.

وتضم المدرسة مسجدا صغيرا أمامه صحن تتوسطه نافورة وتحيط به بيوت لسكنى الطلبة، إضافة إلى بيوت أخرى في الطابق العلوي. كما تضم المدرسة أيضا دار وضوء بها بيوت وسقاية.[1]

والمدارس الثلاث الموجودة في مدينة مكناسة وردت عند المقري غير أنه ذكرها بدون تسميتها، فيقول: «وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التجنيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرط فياضة تقدف فيها صافي الماء أعناق أسدية.»[2]

المطلب الرابع: مدارس بتازة

الفرع الأول: المدرسة الحسنية

هذه المدرسة ذكرها ابن مرزوق في مسنده باسمها فقال: «فأنشأ بمدينة تازة قديما مدرستها الحسنية».[3]

فالمدرسة من تأسيس أبي الحسن أيام ولايته للعهد، وذلك ما يؤخذ من كتابة الرخامة الوقفية على مدرسة الأندلس بفاس وتلمح له أيضا فقرة ابن مرزوق وهو يشير بكلمة «قديمة» أي أيام ولايته للعهد.[4]

ويذكر الدكتور كمال السيد أبو مصطفى مدرسة أن مدرسة تازة كانت تشتمل على مسجد وعدد كبير من الغرف، التي كانت معظمها خالية، ولا يوجد من يسكنها.[5]

(1) مقال بعنوان: اطلالة على ذاكرة مكناس «المدرسة البوعنانية» لعيسى الكامحي تاريخ النشر:29 يوليوز 2012. موقع مكناس بريس www.meknespress.com
(2) نفح الطيب ج/6 ص:212.
(3) المسند الصحيح الحسن ص:406.
(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:244.
(5) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:118.

وجاء في المعيار المعرب ذكر لمدرسة تازة حينما سئل أحمد القباب عن المدرسة التي لا يوجد في أكثر الأوقات من يؤم فيها.[1]

وقد شيدت المدرسة سنة 1323م بالمدينة العتيقة لتازة العليا بجانب المسجد الأعظم. ويتكون فضاء المدرسة من عدة غرف وفناء شيدت بهندسة لازالت معالمها تقاوم إكراهات الزمن.[2]

الفرع الثاني: المدرسة اليوسفية

بنيت المدرسة اليوسفية بتازة إزاء بناء المسجد الجامع سنة689ه على يد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق.

يقول عنها ابن أبي زرع صاحب الأنيس المطرب: «وفي رمضان منها جاز أمير المسلمين يوسف برسم الجهاد، فنزل حصن يحيى، وفيه بنى جامع تازة.»[3]

وقد أورد الباحث محمد الراجي في مقال له ما جاء في كتاب الدكتور امحمد العلوي الباهي أن العهد المريني شهد ازدهارا في طلب العلم بتازة، حيث بنيت مدرسة الجامع الكبير اليوسفية، نسبة إلى بانيها أبي يعقوب يوسف.

وأن هذه المعلمة التاريخية لا زالت موجودة إلى يومنا هذا على نمطها القديم، وقد اعتنى بها السلطان المولى رشيد بعد توحيد المغرب انطلاقا من تازة حتى أخذت اسمه، وتسمى مدرسة المولى الرشيد، ولا يمكن زيارتها لأن بابها الخشبي نزع وسد بسور مانع.[4]

وخلاصة القول إن المدارس الثلاث التي أسسها المرينيون في مدينة تازة، تحدث عنها الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا وأشار إليها دون الخوض في تفاصيل تبين لنا السلطان

(1) المعيار المعرب ج/7 ص:86.

(2) مقال بعنوان: تازة: المدرسة المرينية معلمة تاريخية تندب حظها بسبب الإهمال بتاريخ:27مايو2014. موقع أجيال www.ajialpress.com

(3) الأنيس المطرب ص:408.

-(أنظر أيضا) الاستقصا ج/3 ص:90.

(4) مقال بعنوان: ثريا المسجد الأعظم بتازة العليا...إبهار السلاطين ونزهة المصلين لمحمد الراجي. بتاريخ: 23 مارس 2018. موقع هسبريس www.hespress.com

الذي تولى بناءها، كذلك لم يتعرض لوصفها بشكل دقيق، واكتفى بالإشارة إليها بقوله: «تحتل هذه المدينة (يقصد مدينة تازة) الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس، وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منتظمة كأسواق فاس.[1]

الفرع الثالث: المدرسة العنانية بعين أنملي قرب تازة

تقع المدرسة وراء أسوار مدينة أنملي، أسسها أبو عنان فارس ملوك بني مرين.[2]

ولم ترد معلومات كثيرة عن المدرسة ولا تاريخ تشييدها غير ذكر اسم بانيها، فبقيت مبهمة.

المطلب الخامس: مدرسة مراكش العجيبة

يستفاد من نص ورد عند ابن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن أن السلطان أبا الحسن المريني أنشأ مدرسة بمدينة مراكش. يقول فيه: «فمدرسة سبتة غاية وأعجب منها مدرسة مراكش، وتليها مدرسة مكناسة.»[3]

يتبين من كلام ابن مرزوق صراحة أن المدرسة التي ابتناها أبو الحسن المريني بمراكش حازت المرتبة الأولى ضمن المدارس التي شيدها هذا السلطان بالمغرب.[4]

ويصفها الرحالة ابن بطوطة بالمدرسة العجيبة المتقنة الصنعة. يقول: «وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة وهي من بناء الإمام مولانا أمير المؤمنين أبي الحسن رضوان الله عليه.»[5]

---

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:354.

(2) مقال بعنوان: ثريا المسجد الأعظم بتازة العليا...إبهار السلاطين ونزهة المصلين لمحمد الراجي.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:406.

(4) تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش لرشيد العفاتي وسمير آيت أومغار مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال مراكش (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:33-34.

(5) تحفة النظار ج/2 ص:686.

ويذكر ابن الخطيب أنه زار مراكش ولقي عددا من أهل العلم والمدرسين بالمدرسة المرينية وأشار إلى الأستاذ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفخار[1]، الذي كان من أهل العلم والفضل وكان أستاذا بالمدرسة العظمى بمراكش. يقول ابن الخطيب: «ومنهم الأستاذ المتفنن النظار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفخار، أستاذ المدرسة العظمى من أهل الفضل والعلم والمشاركة والتفنن، يقرئ بها علم اللسان والأصلين والفروع، فيمتع ويحسب على طرش كدّر رحمه الله الانتفاع به ونغص الأنس بمجلسه نفعه الله.»[2]

غير أن المؤرخ مارمول كربخال يذهب إلى أن المدرسة العجيبة تأسست في العهد السعدي، وهذا ما يتضح من كلامه فيقول: « أسس مولاي عبد الله الشريف الحاكم حاليا مدرسة أخرى أكثر جمالا في أسفل المدينة.»[3]

والشريف الحاكم المقصود هو الملك السعدي الذي عاصره مارمول كربخال، وهو عبد الله الغالب.[4]

على أن مارمول كربخال إذا كان قد استعمل لفظ التأسيس بخصوص المدرسة، فإنه عند كلامه على الجامع الكبير، وهو جامع علي بن يوسف الذي تقع المدرسة قبالته، قال: «أعاد الملك الحالي بناءه وزينه بمبان جديدة فخمة، وبقربه مدرسة كبيرة.» أي أن السلطان السعدي جدد بناء الجامع المذكور وأصلحه وأضاف إليه ما تقرر إضافته، ولم يكن هذا المسجد الجامع من بنائه أصالة.[5]

والذي يتبين لنا من خلال عدة شواهد وإشارات أن هذه المدرسة لم تؤسس من قبل عبد الله الغالب السعدي، وإنما الذي شملها في عهد هذا السلطان هو التجديد الذي أتى

---

(1) **أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار الألبيري** شيخ النحاة بالأندلس، درس عليه كثير من علماء ذلك العصر أمثال ابن الخطيب، وأبي إسحاق الشاطبي صاحب شرح الألفية، والشاعر الغرناطي المعروف بابن زمرك وغيرهم.
-نفاضة الجراب ص:66.

(2) المصدر نفسه ص:66-67.

(3) إفريقيا لمارمول كربخال ج/2 ص:49.

(4) تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش ص:34.

(5) المرجع نفسه ص:35.

تبعا للتجديد الشامل الذي مسَّ جامع ابن يوسف المجاور لها. وبالتالي فالمدرسة سابقة التأسيس على عهد الغالب بالله.[1]

والنص الموجود عند الإفراني يبين ويؤكد أن المدرسة من بناء أبي الحسن المريني. يقول الإفراني: «وفي عشرة السبعين -بموحدة- أنشأ مولانا عبد الله رحمه الله جامع الأشراف، والسقاية الملصقة بالجامع المذكور، التي عليها مدار المدينة بالمواسين. وهو الذي جدد أيضا بناء المدرسة التي بجوار جامع علي بن يوسف اللمتوني. وليس هو الذي أنشأها كما يعتقده كثير من الناس، بل الذي أنشأها أولا هو السلطان أبو الحسن المريني رحمه الله، حسبما ذكره ابن بطوطة في رحلته. وشاع على الألسنة أن السلطان مولاي عبد الله بنى ذلك بصنعة الكيمياء.»[2]

كما وقفنا على نص آخر عند الكانوني يثبت أن المدرسة العجيبة من بناء السلطان أبي الحسن المريني، يقول فيه: «يوجد بها الآن ستة مدارس أعظمها وأعجبها مدرسة جامع علي بن يوسف وهي من حسنات السلطان أبي الحسن المريني. وقد جددها السلطان الغالب السعدي وكتب اسمه على جدرانها وهو تلبيس وقلب للحقائق التاريخية.»[3]

ويبدو أن المدرسة التي شيدت من طرف أبي الحسن المريني كانت في العقد الرابع أو الخامس من القرن الثامن الهجري، وجدد بنايتها أبو محمد عبد الله الغالب السعدي عام 972هـ.[4]

ويزيد في وصفها محمد بن عبد الله الموقت صاحب كتاب السعادة الأبدية ويقول: «المدرسة اليوسفية وتعرف قديما بالمدرسة المرينية، والمدرسة عجيبة البنيان، بديعة الاتقان، والذي أنشأها السلطان أبو الحسن المريني، ومن وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبته لأهل للعلم وأهله.[5]

---

(1) تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش ص:35.

(2) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفراني تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1998 الصفحة:107-108.

(3) آسفي وما إليه ص:63.

(4) تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش ص:37.

(5) السعادة الأبدية ص:22.

والمدرسة ذات هندسة معمارية حقيقية، شيدت على خطة مستقيمة الخطوط منطقية موحدة، ويكاد تصميمها يكون على شكل مربع. ويجري المجموع على قانون التوازي والمقابلة، وهو عزيز على أهل الفن من المشارقة يدخل الداخل من باب جميل جدا، عليه مصراعان ثقيلان، يدوران على رتاجين، وله ساكف من خشب الأرز، عليه نقوش بخط أندلسي، تفيد أن السلطان أمر ببناء المدرسة للعلم والعبادة، وبين يدي الباب قبة على عرض الشارع، وعليها من جهة الشارع نقشان من زخرف مقشور، لا قيمة لهما، وسقفها المقرنص رائع المنظر. والصهريج الواسع الواطئ المستطيل في وسط الصحن، وتروع الناظر جلالة الأحجام، والصحن نير فسيح، يحفه من أكبر جانبيه رواقان مرفوعان على أعمدة غلاظ، لبست قواعدهما بالزليج، وعلى رؤوسهما سواكف من خشب رفيع النقش.

أما بيت الصلاة فهو من ثلاثة أجزاء، يفصل بينهما صفان من أعمدة رخامية جياد، تيجانها قليلة الرشاقة، بها نقوش تذكر بأصل بانيها وبأمجادها. أما المحراب، فزاخر بالزخارف الزهرية، تزينه عميدات متقنة الصنعة، عليها آيات قرآنية، وتعلو ذلك نوافذ في صنعتها رقَّة ولطف.

أما البيوت التي ليست مشرعة على الصحن الكبير تستصبح منه، فمطيفة بسبعة صحينات، يؤدي إليها جميعا دهليزان على جانبي الصحن، وتصميم الطبقة العليا بالجملة نسخة من تصميم الطبقة السفلى، وهذه بها صحن، وأيضا متوضآت. وعدد البيوت يتجاوز المائة بكثير، إلا أنه لا يبلغ الأربعمائة التي زعمها -عن غير رَوِيَّة- مرمول، ولعله كان يقيس ذلك على عدد الطلبة.(1)

المطلب السادس: مدرسة آنفا

خصص ابن مرزوق في المسند الصحيح -الكاتب الخاص للسلطان أبي الحسن المريني-، فصلا فيما بناه السلطان أبو الحسن من المدارس العلمية والمعاهد الدينية في المغرب

(1) تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش ص:41-42.

الأقصى والأوسط، ومن جملة ذلك مدرسة آنفا،[1] مما يدل على أن آنفا اشتهرت بحركة علمية نشيطة.[2]

كما اعتبر الدكتور محمد المنوني مدرسة آنفا من المراكز الثقافية المهمة، وصنفها ضمن المدارس المطلة على البحر المحيط. يقول: «استعادت الثقافة المغربية نشاطها في ظل العصر المريني الأول، وبلغت مراكزها في المدن خاصة- ثلاثة عشر- تستوعب مختلف جهات المغرب. فكانت المناطق المرتفعة: مكناس وفاس وتازة، وعلى الحوض المتوسط وما إليه: مدن باديس وسبتة وطنجة، وبعد القصر الكبير تأتي المدن المطلة على المحيط: سلا وآنفا (الدار البيضاء) وأزمور وآسفي.»[3]

المطلب السابع: المدرسة الجديدة بسبتة

قام أبو الحسن المريني بإرسال أبو حسان السوري إلى مدينة سبتة، حيث قام ببناء مدرسة أطلق عليها اسم مدرسة الفقه الجديدة سنة 748هـ/1347م.[4]

ويصفها محمد بن القاسم السبتي فيقول: «والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام وألواحه المتعددة الغالية الثمن التي ابتناها السلطان أبو الحسن مخلد الآثار الدالة على شماخة الملك وعلو المقدار.»[5]

ومن الأساتذة الذين درسوا في المدرسة الجديدة أبو عبد الله بن هارون الأموي الذي ذكره صاحب بلغة الأمنية بأنه كان أستاذ المدرسة الجديدة سبتي متفنن في المعارف بارع

---

(1) **آنفا**: وهي المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء وهي مدينة كبيرة على ساحل المحيط الأطلنتي بالمغرب الأقصى، وتقع على مسافة ستين ميلا شرق أزمور. وهي مشهورة بمنتجاتها الزراعية، وأشجار الفواكه. وكانت هذه المدينة تنافس ثغر قادس البرتغالي، ونتج عن ذلك التنافس التجاري أن دمرتها الأساطيل البرتغالية عام 1465م، ثم أعيد بناؤها سنة 1515.

- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1983 ص:106.

(2) عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء وما أضيف إليها من أخبار آنفا والشاوية عبر العصور لهاشم المعروفي مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1987 الجزء:1 الصفحة:66.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:250.

(4) مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات بحث بعنوان: المدرسة اليوسفية في مدينة غرناطة لشامخ زكريا علاونة العدد:42 سنة:2017 الصفحة:14.

(5) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة ص:28.

الخط مصنف شاعر، وهو من مشيخة شيخنا الخطيب الصالح أبي عبد الله بن عدل الكتاني توفي سنة 750هـ.[1]

وأشار ابن الخطيب إلى المدرسة الجديدة في رحلته، وذكر بأنها مدرسة علمية جديدة أنشأها السلطان أبو الحسن المريني.[2]

المطلب الثامن: المدرسة المرينية بالرباط

هذه المدرسة سميت بمدرسة الجامع الكبير وذلك لمجاورتها للجامع الكبير، وقد حولت بعد ذلك إلى مارستان.

وهذا ما ذكره صاحب كتاب تاريخ رباط الفتح فقال: «مدرسة الجامع الكبير، وهي المارستان المريني الذي كان في الأصل مدرسة لطلبة العلم المترددين على تلقي العلوم بالجامع الكبير.»[3]

وتضيف الدكتورة سحر سيد عبد العزيز قائلة: «هناك بناء آخر يطلق عليه مجازا اسم مدرسة الجامع الكبير، والواقع أنها أنشئت لتكون مارستانا وعرفت بالمارستان العزيزي المريني، لأنها كانت في الأصل مدرسة لطلاب العلم على الجامع الكبير.»[4]

المطلب التاسع: المدرسة المرينية بوجدة

تقع المدرسة بالقرب من الجامع الكبير، ونعتمد في تاريخ هذه المدرسة الوجدية، على النص الذي أورده الدكتور بدر المقري عن عبد الله الجراري فذكر ما يلي: «في هذه المدرسة الوجدية، مدرسة إسلامية مرينية نالت من الزخرفة والرقة ما يتناسب والاهتمام بالمؤسسات العلمية في المغرب.[5]

(1) بلغة الأمنية ص:176.
(2) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ص:101.
(3) تاريخ رباط الفتح ص:138.
(4) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:146-147.
(5) مساجد وجدة العتيقة لبدر المقري مطبوعات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الأول وجدة سنة:2011 الصفحة:70.

وللأسف لا نجد تاريخا محددا لبناء المدرسة، لكن حسب دراستي المتواضعة للمصادر التاريخية وتتبعها، وجدت تاريخين تم فيهما إنشاء المدرسة، فالتاريخ الأول عام 696هـ/1296م وهو التاريخ الذي يوافق بناء المسجد والقصبة بوجدة، وكان البناء على يد السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، وهذا ما ذكره ابن أبي زرع فقال: «فنزل على وجدة فأمر ببنائها فبنيت وحصنت أسوارها، وبنا بها قصبة ودارا ومسجدا وحماما.»[1]

ورغم أن المدرسة لم تذكر لفظا إلا أنه يمكننا أن ندلي أن المدرسة بنيت مع المسجد وهذا احتمال وارد بما أننا لا نمتلك حقائق تاريخية جديدة دالة وواضحة.

أما التاريخ الثاني هو ما بين سنة 735هـ و736هـ وهي السنة التي نهض فيها السلطان أبو الحسن إلى تلمسان، فمر بوجدة فجمهر عليها الكتائب للحصار.[2]

ففي هذه السنة قام السلطان أبو الحسن بتجديد أسوار مدينة وجدة وبنى المدرسة، وهذا ما يؤكده ابن مرزوق في مسنده فيقول: «ثم أنشأ رحمه الله في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة.»[3]

وما يؤكد أن المدرسة بنيت قديما هو تاريخ الإصلاحات، إذ تعرضت لترميم سنة 1934م بمناسبة زيارة الملك محمد الخامس لمدينة وجدة.[4]

وليس للمدرسة المرينية وصف داخلي أو خارجي في الكتب التاريخية إلا ما وقفت عليه شخصياً، فالمدرسة تتكون من طابقين وسطح كباقي المدارس المرينية، وتتخلها غرف التي تكون إيواء لطلبة العلم، كما تحتوي على بيت الصلاة والميضة. ومن خلال هذا الوصف يتبين أن المدرسة المرينية بوجدة تشبه إلى حد كبير المدرسة العظمى بسلا، وعرفت المدرسة تطورا من الجانب الجمالي نظرا لإعطائها قيمة كبيرة للزخرف بمختلف أنواعها، كما هو الحال لباقي المدارس التي شيدت في العهد المريني. وما تزال المدرسة محافظة على نظامها التعليمي العتيق إلى يومنا هذا.

---

(1) الأنيس المطرب ص:385.

(2) الاستقصا ج/3 ص:124.

(3) المسند الصحيح الحسن ص: 406.

(4) مساجد وجدة العتيقة ص:70.

المطلب الحادي عشر: مدرسة شالة

يصفها النميري وصفاً مقتضباً معرفاً بموقعها وبمظهرها العام فيقول: «مجاورة للروضة السريعة، مدرسة شامخة البناء، وثيقة الأساس، منفسحة الأرجاء حيطانها كالأسوار وسقفها كالفلك، لابسة البياض، رائعة الجمال، قد رتبت أحسن ترتيب وبوبت مداخلها أحسن تبويب، وفرشت. وكانت المدرسة من بناء السلطان أبي عنان المريني.[1]

ويقول الدكتور الحسن السايح: «وابنه أبو عنان الذي كان أحد بناة الحضارة المرينية التي ما زال آثارها واضحة في المدرسة البوعنانية وساعتها المائية وعدة مدارس للطلاب في فاس ومكناس وشالة وسلا.»[2]

المطلب الحادي عشر: مدرسة العباد بتلمسان

تحدث ابن مرزوق في مسنده عن مدرسة العباد وأشار إليها قائلا: « ثم أنشأ رحمه الله في كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة، وبالعباد ظاهرة تلمسان وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره.»[3]

ومدرسة الشيخ أبي مدين شعيب الغوث بحي العباد الأثري الذي تبدو منارته من بعيد لكل زائر لمدينة تلمسان، وقد شيدت المدرسة عام 747هـ/1346م وتمثل هي والمسجد طرازا جميلا للعمران العربي الإسلامي بالمدينة.[4]

بنيت المدرسة على يد السلطان أبي الحسن المريني، وذكرت المدرسة في الرخامتين الموجودتين على الساريتين منقوش على إحداهما ما يلي: «بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الحمد لله رب العالمين والعافية للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربه مولانا السلطان أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن بن مولانا أبي سعيد بن مولانا أبي يوسف

(1) فيض العباب ص:94.

(2) الحضارة المغربية ص:254.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:406.

(4) تلمسان عاصمة المغرب الأوسط. ص:38.

بن عبد الحق المريني أيد الله أمره وخلد بالعمل الصالح ذكره واخلص لله تعالى في عمل البر سره وجهره وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه على الجامع المذكور والمدرسة من الجنان العلي نفعهم الله بذلك وجميع الجنان القصير الذي بالعباد.»[1]

وقد نقشت أبيات شعرية بخطوط أندلسية تحت القبة من إفريز من الخشب، تتضمن تاريخ تشييدها وهي:

بناني كي يقيم لدي دينا	الإسلام أمير المسلمينا
أبو الحسن الذي فيه المزايا	تفوق النظم بالدم الثمينا
إمام لا يعبر عنه وصف	بما أجرى به الأعمال دينا
سليل أبي سعيد ذي المعالي	أقر إلي الأمام بها عيونا
وقد سماه خالقه عليا	فأعلاه وأعطاه يقينا
أبانا بالمصلحات منه دينا	وإيمانا يكون له معينا
لشهر ربيع الثاني لسبع	خلون من السنين وأربعينا
إلى سبع مئين فدام سعد	محوله مقاصده فنونا
وكان له الإله على اتصال	على مرضاته دأبا معينا [2]

كما وصفها ابن الحاج النميري فقال: «وتتصل بهذه الزاوية من جهة الجوف مدرسة متعددة البيوت، رفيعة السموت، بديعة النعوت. وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع، حسنة المقاطع. معينة للرؤساء القائمين بالوظائف المتولين لأرفاد البادي والعاكف.»[3]

وقد اشتهرت هذه المدرسة بفنها المعماري، وزخرفتها المميزة والمتضمنة لأقواس منكسرة، مبنية بالآجر المطلي باللون الأخضر لها فناء فسيح به صهريج للماء، مزين بالزخارف العديدة ويوجد بالقرب منه صحن دائري من الرخام، مخصص للشرب والوضوء. شيد أمام قاعة كبيرة للمحاضرات وإلقاء الدروس، تتسع لحلقة كبيرة، من الطلاب والمدرسين، تقدم فيها دروس عالية ومعمقة.

(1) باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان لمحمد بن رمضان شاوش ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:2011 الجزء:1 الصفحة:252.

(2) باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ج/1 ص:259.

(3) فيض العباب ص:488.

فالطابق السفلي يتألف من عشرة غرف، والطابق العلوي يحتوي على ثماني حجرات تتسع كل غرفة لطالبين، وهذا يدل عن أن الغرف هذه كانت مخصصة لنوم الطلبة الغرباء والفقراء، وهو ما يعرف اليوم بالنظام الداخلي.[1]

ولا تزال المدرسة قائمة بالعباد وتعد من أجمل ما بني من المدارس بتلمسان خاصة وبلاد المغرب على وجه العموم، آية من التراث الحضاري الإسلامي في هذه المنطقة.[2]

كما تحدث عن مدرسة العباد بتلمسان الحسن الوزان فقال: "ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرا ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيرا لوجه الله، ويسمى سيدي مدين. وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا، وفندق لإيواء الغرباء أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم".[3]

أشار جورج مارسييه إلى مدرسة العباد وقال: «وبالقرب من تلمسان في مدينة العباد يقع قبر «سيدي بومدين» ولحق به مسجد ومدرسة وحمامات وفنادق.»[4]

المطلب الثالث عشر: مدرسة سيدي الحلوي

يعزى بناء هذه المدرسة إلى السلطان أبي عنان المريني، وقت استيلائه على تلمسان والمغرب الأوسط سنة 754هـ/1354م، بالقرب من ضريح الوالي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي، الملقب بالحلوي، الذي يقع شمال المدينة، حيث يوجد المسجد، ولكن مدرسة الحلوي، لم تكن لها شهرة كبيرة مقارنة بالمدارس الأخرى، التي عاصرتها بتلمسان.[5]

وحسب ما وقفت عليه في الكتب التاريخية، تعتبر مدرسة سيدي الحلوي المدرسة الثانية التي تأسست في مدينة تلمسان.

---

(1) تلمسان في العهد الزياني لعبد العزيز فيلالي موقع النشر والتوزيع الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:2002 الجزء:1 الصفحة:143.

(2) المرجع نفسه ج/1 ص:144.

(3) وصف إفريقيا ج/2 ص:24

(4) الفن الإسلامي لجورج مارسييه ترجمة عبلة عبد الرازق وعاطف عبد السلام المركز القومي للترجمة القاهرة العدد:2648 الطبعة:1 سنة:2016 الصفحة:221.

(5) تلمسان في العهد الزياني ج/1 ص:144.

إن أبا عنان حذا حذْو أبيه في هذا المجال. وقد اختار لإنجاز مشروعه المعماري الكبير، الذي يتألف من المسجد والمدرسة والزاوية والضريح. مكانا منحدراً عبارة عن حي سكني، تشرف عليه أسوار تلمسان الشمالية الشرقية التي يتوسطها باب الزاوية.[1]

والمدرسة والزاوية ظلتا قائمتين حتى أوائل القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي.[2]

حيث أورد ابن مريم صاحب كتاب البستان في ترجمته للولي سيدي أحمد بن الحسن الغماري الذي بقي يحي الليل سنين كثيرة في جامع زاوية سيدي الحلوي رضي الله عنه، قال: «سمعت من كثير ممن أثق به ممن كان ساكنا بالزاوية، وقال لي أخي سيدي علي وقد كان ساكنا، في ابتداء أمره (بن الحسن الغماري) مدرسة الزاوية.» [3]

(1) تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر سلسلة المشاريع الوطنية للبحث منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نونبر 1954 الجزائر سنة:2007 الصفحة.177.

(2) المرجع نفسه ص:177.

(3) البستان لابن مريم ص:33.

المبحث الثاني: أوقاف المدارس المرينية

كان للمدارس دور كبير في تنمية الحركة العلمية في العهد المريني، فهم (المرينيون) شجعوا النهضة العلمية والفكرية وأوفقوا الأوقاف لها لضمان استمرارها.

والمدارس كانت تعتمد في تمويلها على الأحباس بالدرجة الأولى، ثم على الإعانات التي تأتي من المحسنين التجار، والعلماء وميسوري الحال ومن السلطان والأمراء.[1]

ومن خلال تصفح المصادر المتاحة يتضح أن المدرسة في العهد المريني كانت مركز إشعاع في الحقل الفكري والثقافي، وكانت تزود من طرف السلطة القائمة بالبلاد بأموال كثيرة متعددة المصادر، سواء من الأموال المتحل عليها من جباية الزكوات والأعشار، أو من أخماس غنائم الحروب، أو من أموال الأوقاف.[2]

يقول العلامة محمد المنوني في هذا الباب: «أوقاف المدارس والمستشفيات، وكانت لها مداخيل وافرة، إلى أن فوت أكثر أملاكها أبو سعيد الثاني ليسدد بثمنها نفقات حروبه، فقلت مداخيل هذه المؤسسات.»[3]

والثابت تاريخيا أن القرن السابع والثامن شَهِدَا على عهد المرينيين حركة كبيرة في تأسيس المدارس وتحبيسها على طلبة العلم بما رصد لها من موارد وأجرى عليهم من رتبات.[4]

غير أن بعض الكتابات التاريخية رأت في التحبيس وجها آخر، لأنه حسب رأيها يوجه المدارس حسب رغبات المحبسين وشروطهم، مما جعل التدريس يفقد تدريجيا حريته وديناميكيته السابقة، كما اتجه مضمونه نحو العلوم النقلية، بينما أقصيت بعض العلوم العقلية كالفلسفة مثلا، فكان الطالب الفقير الذي يلجأ إلى المدارس، لا يجد من العلوم إلا ما حبس عليه بهذه المدارس، وتقلص مجال الاختيار أمامه.[5]

---

(1) تلمسان في العهد الزياني ج/1 ص:141.

(2) الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية ص:3-4.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:125.

(4) بحث مقدم في مؤتمر بجامعة الشارقة يومي:9-10 مايو 2010 تحت عنوان: أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية. عنوان المداخلة: الأحباس العلمية عند المغاربة والأندلسيين. للدكتور حسن الوراكلي. الصفحة:3.

(5) تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط. ص:73.

وقد حبست أوقاف على تشجيع بعض العلوم، ففي نشر المثاني أن من أحباس جامع الأندلس قراءة التفسير وقراءة صحيح مسلم وكراسي العلم في التفسير وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها أحباس خاصة، وفي نيل الابتهاج أن من أحباس فـاس وقف على استيفاء ابن حجر على الصحيح.(1)

المطلب الأول: أوقاف مدرسة الحلفاويين

احتفظت الحوالات الوقفية القديمة بلائحة تحتوي على 25 بقعة في البلابغيين وفي البراطليين. وقد ورد في حوالة المدارس القديمة بفاس أن عدد أوقاف مدرسة الحلفاوين 30 ما بين حوانيت ورحى وبقعة جنان.(2)

المطلب الثاني: أوقاف مدرسة الصهريج والسبعيين

وقف على هاتين المدرستين 45 حانوتا وعُشْر فندق ابن خنوسة ونِصْف حمام درب اللميفي، والرحى العليا من زنقة الرطل، وأرحى الزليج السفلى وثُلُث رحيات ونِصْف رحى، كما وقفت عدة أجزية (3) منها بقعة جنان عقيرية وبقعة ثُلُث جبيل عقيرية، وبقعة جنان حضارة المختلطة، وبقعة أجنان ابن الشراط.

وثمن ونصف من أجنان سيدي أبي جيدة، وبقعة النصف من جنان، وبقعة عرصة، وبقعة أرحى، وبقعة أجنان ابن علي لِبَا بلخير، وبقعة عرصة، وبقعة عريصة، ونصف بقعة أرحى الكغادين، وبقعة حمام، وبقعة بدار محمد بوطيب، وبقعة أرحى الزليج ونصف غرز بأرحى، تستفيد منه حوالي سبعة دور.(4)

---

(1) الحضارة الإسلامية في المغرب ص:257.

(2) دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية لسعيد بورقبة طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة فضالة المحمدية (بدون رقم طبعة) سنة:1996 الجزء:1 الصفحة:89-90. -أنظر أيضا: جامع القرويين ج/2 ص:361.

(3) **أجزية**: جمع جزاء، والجزاء هو حق الاستئجار، وهو حق جلسة، لكن مع فارق أساسي، وهو أن الجزاء يقع على الأرض الخلاء والحقول، في حين أن الجلسة تقع على محلات مبنية.

-دور الأوقاف في الحياة العلمية. ص:90.

(4) دور الوقف في الحياة الثقافية ج/1 ص:91.

المطلب الثالث: أوقاف مدرسة العطارين

ذكرت أوقاف مدرسة العطارين فوصلت إلى 51 وقف ما بين حوانيت وواجب رحى، أو فيض ماء.[1]

المطلب الرابع: أوقاف المدرسة المصباحية

وقف على سير هذه المدرسة 22 حانوتا مع أجزائها و15 من الأراضي والزيتون و39 من الأجنة والعرصات، و25 من البقع الأرضية و11 من البقع في الوطا الكبير و14 من أرض الوطا الصغير و9 من الأجزية.[2]

تذكر الحوالات الإسماعيلية من أوقافها 19 عقارا و14 غابة من الزيتون و39 بقعة فيها الجنات وخزائن الدبغ و50 أروى وعددا من الحوانيت بحيث تعد المدرسة المصباحية أغنى مدرسة من حيث الموقوفات.[3]

فإن كانت المدرسة تعد من أغنى المدارس من حيث الموقوفات، فهذا يدل على اهتمام الواقفين بالنشاط الثقافي، وتشجيع كل من ينتمي إلى الثقافة، طلبة وعلماء.[4]

المطلب الخامس: أوقاف المدرسة البوعنانية أو المتوكلية

ذكرت حوالة المدارس القديمة بفاس أوقاف هذه المدرسة فنصت أن لها 46 حانوتا، ودارا بزنقة الفرن، وأرحى المزداع، وأرحى بطريانة، وحماما بشطارة، وربع كافة حمام السلطان، وحانوتا عن يسار الخارج منه، ومصرية، ونصف حانوت، وثلث حانوت، وأن 24 حانوت مما سبق ذكرنا متقابلة و11 حانوتا منها توجد في اللزازين.[5]

---

(1) دور الوقف في الحياة الثقافية ج/1 ص:91.

(2) دور الوقف في الحياة الثقافية ج/1 ص:92.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:363.

(4) دور الوقف في الحياة الثقافية ج/1 ص:93.

(5) المرجع نفسه ج/1 ص:93.

المطلب السادس: أوقاف مدرسة الوادي

أوقاف هذه المدرسة 41 حانوتا وأربعة أنصاف حوانيت، وخمس أثمان حانوت وأرضون وزيتون.[1]

المطلب السابع: أوقاف مدرسة الشهود أو القاضي بمكناسة

كانت هذه المدرسة محدقة المشاجر من كل جهة، كل مشجر بمزارعه وغراساته ومراعيه، وكان زيتونها الذي تنسب إليه متصلا بها وبحارتها من كل جهة، وكانت له غلة عظيمة لا يأتي عليها الحصر.[2]

المطلب الثامن: أوقاف المدرسة العظمى بطالعة سلا

ذكر صاحب كتاب الإِتْحَاف الوجيز قائمة الأملاك المحبسة على المدرسة المرينية بتاريخ الجمعة 19 جمادى الثاني عام 742هـ فقال: «فمن ذلك بداخل سلا المحروسة ثلاثة فنادق وربع الفندق، وذلك ففندق السبطريين، وفندق بأبي العاص، وفندق المصْدَع، وربع فندق ابن أحمد، وطرازان وهما طراز القصري، وطراز الحاج يعقوب، وخربة بإزاء فندق السبطريين، وثمانية وعشرون حانوتا ونصف حانوت، منها عشرة بسوق السبطريين، ومنها أربعة بالرحبة، وسائرها بالفندق الكبير، ومخزن للملح. ومن ذلك بخارج سلا المقصر، والملاحتان القديمة والصغرى وثلث ملاحة الشريف، وثلث ملاحة الخباط، وثلث ملاحة التيابن (كذا) وبحيرة الإفرنج، وأربعة فدادين بولجة بني معدان ومربعة بإسمير.[3]

المطلب التاسع: أوقاف مدرسة العباد بتلمسان

ذكرت أوقاف مدرسة العباد داخل مسجد سيدي بومدين وهي مكتوبة على لوح رخامي أبيض، عليه كتاب بالخط الأندلسي المغربي يشير إلى تأسيس الجامع والمدرسة ويذكر الأملاك المحبسة لكليهما بالتفصيل وهو كالتالي: «بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله عل

---

(1) دور الوقف في الحياة الثقافية ج/1 ص:94.

(2) الروض الهتون ص:40.

(3) الإتحاف الوجيز ص:67.

سيدنا محمد وآله وسلم تسليما، الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبو الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف بن عبد الحق أيد الله أمره وخلد بالعمل الصالح ذكرهن وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه، وحبس على الجامع المذكور والمدرسة المذكورة من الجانب العلي نفعهم الله بذلك جميع الجنات القصير وجميع الذي بالعباد الفوقي المشتري من ولدي عبد الواحد القصير، وجميع جنان العلوج المشتريمن علي بن المراني وجميع الجنان المعروف بابن حويته الكاين بزواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويته، وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة غربيه المعروف ذلك باسم داود بن علي المشتري من ورثته وهو أسفل غربيه العباد السفلي، وجميع الرقعتين الموروثتين أيضا عنه، واشترينا من ولده علي ونعزو إحداهما بابن ابي إسحاق والثانية بابن الصلاة المغروس منها وغير المغروس منها وغير المغروس وجميع الجنان المعروف بجنان الباديسي الموروث أيضا عنه المشتري من يحيى بن داود المذكور وهو بأسفل العباد السفلي، وجميع الجنان المسمى بن فرعوش القريب من جنان الباديسي المذكور الموروثتين عنه أيضا واشترى من ولديه عبد الواحد وعيسى وجميع غروسا لأربعة أن الفوقي منها يعرف بابن مكية والثاني بمحمد بن سراج والثالث بفج المدلسي والرابع بابن الفدا قيصن، وهي التي ورثت أيضا عنه واشتريت من جميع ورثته، وجميع دراية التين بجوفي مسجد العباد السفلي المشترات أيضا منهم والنصبي الواحد من جنان الزهري مع جميع بيتي الأرض المبني بغربه وذلك بجهة الوريط وجميع بيتي الأرض المبنى بقلعة بنى معلى خارج باب كشوط المذكورة بجهة باب الحديد مع حانوتية متصلة به على يمين الخارج من باب القبلي، ودويرته المتصلة به من جهة جوفه ومعصرته المحملة على أسطوانة، والنصف الواحد الحمام القديم الظي بداخل مدينة المنصورة حرسها الله، وخزن عشرين زوجا من زيدور من قطر تلمسان المذكورة برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمَّرها الله للفقراء والحجاج المقيمين والواردين عليها وأثره عشرة أزواج بالموقع المذكور باسم ساكني المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعا للطالب الواحد في كل شهر، وجميع جنان سعيد ابن الكماد المشترى من ورثته وهو الكائن فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصراني وجميع جنان القايد مهدي المشترى من ورثته الكاين بزواغ المحروسة وجميع جنان ورثة التفريسي الكاين

تحت الطريق المارين عليها للوريط المشترى من ورثته وجميع أرض جنان ورثته التفريسي المذكور الكاين غربي الزاوية المشتراة منهم وبقية الرجال المتصلة بالجامع المذكور الباقية من الجنان المريد بعضه في الجامع المشتري من ورثة محمد بن عبد الواحد ومن ورثة أبيه وأمه وعمتهم ميمونة.»[1]

وخلاصة القول إن بني مرين نقشوا تلك الموقوفات على رخامات غرزوها في جدران تلك المدارس. ونعيد إلى الذاكرة تلك اللوائح الطويلة الموقوفة على المدارس المرينية بما فيها الفنادق والتربيعات والمصانع، والبيوت والأفران والأرحية في شتى الجهات، فإذا قمنا بتجريد كل ذلك، تصورنا ما كان عليه سجل الأوقاف في ذلك العهد.[2]

(1) مدارس السلطان أبي الحسن «مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا» دراسة أثرية وفنية للعربي لقزيز جامعة أبي بكر بلقايد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية تلمسان سنة:2001 الصفحة:116-117.
(2) جامع القرويين ج/2 ص:456-457.

المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمدارس

قام بنو مرين بتنشيط المجال الثقافي العلمي، فاستطاعت بذلك الدولة المرينية أن تؤسس مدارس لتلقين أنواع المعرفة لتدعم بها المساجد ولتقوم بالدعاية لها، خاصة وأن المدارس الموحدية لم تستطع أن تقوم لها بهذه المهمة.[1]

وانعكس بناء المدارس على البنية الاجتماعية، خاصة فئة الطلبة الذين كانوا يتقاضون فيها راتبا زيادة على الثياب والكسوة والمأوى.

كما كان الهدف الأساسي من وراء بناء المدارس، والذي تلح عليه النصوص التاريخية، هو إحياء العلم وتوفير الظروف المعيشية المواتية لطلاب العلم والمدرسين ليتفرغوا لطلب العلم، وهذا ما نجده ظاهرا جليا في أغلب وقفات التحبيس على المدارس.[2]

المطلب الأول: مجانية التعليم في المدارس المرينية

لقد ساهمت المدارس بدون شك، نظرا لمجانية الدراسة بها، في نشر التعليم بين فئات اجتماعية واسعة حضرية وبدوية، وفي جعله في متناول أكبر عدد ممكن من الرعية، وخاصة الفقراء منهم، فخففت بذلك من استئثار وهيمنة الحكام والأعيان الدائرين في فلكهم بالقسط الأوفر من العلم والتعليم، وخففت متن حدة التفاوت الثقافي والاجتماعي بين المخزن (الحكام) والرعية (المحكومين)، وأصبح الحكام لا يستنكفون من الذهاب للمدارس وحضور حلقات العلم بها بجانب الطلاب، كما فعل السلطان أبو عنان المريني الذي كان يحضر أحيانا دروس صحيح مسلم في الحديث بمدرسته التي أسسها بفاس.[3]

والتعليم في العهد المريني كان مجانا بالنسبة لطلبة العلم، أما الأساتذة فكانوا يتقاضون من الدولة كل ما يحتاجونه خلال السنة على شكل أجور عينية من مواد غذائية، أما سكنهم فكان أيضا مجانا بشرط أن يسكن المدرس في العاصمة فاس.[4]

(1) دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب ج/1 ص:79.

(2) تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط ص:70.

(3) المرجع نفسه ص:73.

(4) الحضارة العربية الإسلامية ص:180.

المطلب الثاني: المدارس المرينية ودورها في دعم العلم الشرعي

اتسمت هذه المدارس بالإشراف الرسمي للدولة، فسجلت انتصارا كبيرا للسنة والعودة إلى المالكية مذهبا وانتشار الأشعرية اعتقادا، ولعل هذه المدارس الحكومية الرسمية التي أنشئت من أجل تعليم القوانين الشرعية والعلوم اللغوية، قد استعملت منهجين متعارضين في مظهرهما، وهما الاجتهاد والتقليد.

وقد خصصت السلطة الرواتب والأجور للمدرسين ولكل العاملين في المدارس، كما تكلفت بإعانة الطلبة ماديا وبتحمل جميع نفقاتهم ومصاريفهم.

وكان الهدف من نشر التعليم والثقافة في العهد المريني هو توجيه الرعية إلى الجهة التي تخدم المذهب المالكي والدولة، وبث الاستقرار والسكينة والهدوء والأمن بين الرعية، ولهذا كانوا يشرفون على المدارس إشرافا مباشرا، ويؤكدون على مواضيع الدراسة بها وإفهام الناس عامة، ومنهم مهيكلون في المدارس خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان سلاطين بني مرين مالكيين فقد كانوا يؤكدون على تدريس الفقه والأصول المستمد من أفكار المذهب المالكي وآرائه، وإنشاء المدرسة في حد ذاته يعد تطورا في الحياة الثقافية والتعليمية، كما كان لها دور في تنشيط الدراسات الفقهية والأدبية والعلمية، وساهمت في توحيد الفكر الإسلامي في حاضرة الدولة المرينية.[1]

ويذكر الونشريسي أن مدينة فاس-حاضرة بني مرين- كانت تشتمل على العديد من المدارس، وأنه قدم لتدريس الفقه بإحدى تلك المدارس في نهاية العصر المريني، ويضيف بأن للمدرس بالمدرسة المذكورة (مدرسة الحلفاويين) مرتبان أحدهما شهري والآخر سنوي.[2]

ومما يؤكد تشييد المدارس لتدريس العلم ما جاء بلوحة تحبيس مدرسة دار المخزن بفاس الجديد بأمر السلطان أبي سعيد سنة 721هـ: «دخره من أفعال البر في أيامه الخالية وعلى قراءة القرآن الكريم وتدريس العلم بمدرسته بمدينته المباركة.»[3]

(1) تلمسان في العهد الزياني ج/2 ص:326-327.
(2) المعيار المعرب ج/7 ص:302. -(انظر أيضا) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:120.
(3) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:206.

المطلب الثالث: المدارس مأوى لطلبة العلم

عمل المرينيون على بناء المؤسسات التعليمية ومنها المدارس، لتعليم الطلبة القادمين حتى من بلدان العالم، على الرغم من وجود المساجد التي كانت مخصصة أيضا للتدريس. ومن المعتاد كانت هناك أماكن مخصصة لسكن الطلبة علماء أو معلمين.[1]

يقول محمد المهدي الحجوي في سكنى الطلبة داخل المدارس: «كان الطلبة يقيمون في هذه المدارس سبعة أعوام سكنى وأكلا وكسوة. ولكن ليس لهم الآن إلا السكنى حيث أن حروب أبي سعيد المريني أتت على مداخل المدارس ولم يبقى منها إلا شيء قليل يصرف على الطلبة.»[2]

وإلى جانب تقديم المدارس مهمة التعليم للطلبة فقد ساهمت إلى حد ما في الجانب الاجتماعي، بإيوائها للطلبة في غرف خاصة، تابعة للمدرسة التي يدرسون فيها. أي أن المدارس كانت تعتبر داخلية وتتوفر على مرافق خاصة بالحياة الداخلية على غرار الأحياء الجامعية المعاصرة.[3]

ويصف لوتورنو في كتابه المهمة الاجتماعية للمدارس التي سادت في العهد المريني، فيقول: «كان الطلاب صنفين: أبناء فاس والغرباء عنها. فالأولون كانوا يستمرون على العيش مع أهليهم، ولم تكن اعاشتهم مشكلة قط. أما الصنف الثاني فكان أفراده يأتون من مختلف المدن المغربية حتى تلمسان، إذ أن هذه المدينة كانت، لمدة عشرين سنة بدء من عام 738هـ/1337م جزء من مملكة بني مرين، وكان ثمة عدد كبير من أهل الأرياف البعض من الشمال بين فاس والبحر المتوسط والبعض الآخر من السهول الأطلسي وآخرون من المناطق الصحراوية من تافلالت وغيرها من المواضع... وكان غالبية هؤلاء الطلبة الغرباء يقيمون في المدارس. وقد كانت هذه المدارس مبدئيا، تقدم غرفة لكل تلميذ، وقد كان في بعض هذه

---

(1) الثقافة والتعليم في العصر المريني لعدنان محمود عبد الغني الشاوي مجلة جامعة تكريت كلية التربية قسم التاريخ عدد:8 سنة:8نونبر2015 الصفحة:11.

(2) حياة الوزان الفاسي وآثاره ص:76.

(3) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:205.

المدارس ما يزيد عن المائة من الغرف. وكانت الغرف الصغيرة ضيقة غالبا وجدرانها عارية، إلا أنها كانت بالنسبة إلى هؤلاء الطلاب الذين كانوا يعيشون في بيوت صغيرة في الريف، أو أحيانا في مضارب، تبدو كأنها أماكن فخمة. وقد يستنتج، كما أصبحت الحال فيما بعد، أنه بسبب تدفق الطلاب كانت الغرفة الواحدة تخصص لتلميذين أو حتى لثلاثة، ولكنهم لم يكونوا يتضايقون فيها.»[1]

كما يشير الدكتور إبراهيم حركات إلى قضية إيواء الطلبة في المدارس فيقول: «وكان القصد من بناء هذه المدارس إيواء الطلبة، ولكن بعضها كان يستعمل للتدريس أيضا إلى جانب المساجد الكبرى كالقرويين مثلا.»[2]

كما أن المدرسة العظمى بمراكش كانت معدة للدراسة وسكن الطلبة وقد تحدث عنها الحسن الوزان فقال: «وفي القصبة أيضا مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة.»[3]

ويمكن القول إن الوضع الاجتماعي كان محفزا للكثير من طلبة العلم حتى يلتحقوا بالمدارس. فمن المؤكد أنه استفاد عدد كبير من الطلبة الذين يسكنون البادية أو بلدان بعيدة، فتوفير السكن لهذه الفئة من الطلبة يعتبر شيئا مغريا لتفادي صعوبة التنقل وحتى يستطيع الطالب مواصلة تعليمه في ظروف جد ملائمة. وكان الكثير من البيوت يتوارثها الطلبة من نفس العائلة عن طريق العدول. وقد يبيع الطالب مفتاح البيت إلى زميله، وللطلبة مؤونة يومية ظلت تتناقص مع الأيام حتى انحصرت في خبزة.[4]

المطلب الرابع: حصول الطالب على عمل في وظائف الدولة

كان للطالب متى أتم دراسته، فرص متعددة للعمل، فقد يدخل في خدمة الدولة الأمر الذي يفتح أمامه أبوابا عديدة، أو ينضم إلى جماعة المدرسين والأساتذة إذا كانت لأسرته

(1) فاس في عصر بني مرين ص:179-180.
(2) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:155.
(3) وصف إفريقيا ج/1 ص:131.
(4) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:155.

ارتباطات تيسر له ذلك، أو قد ينضم إلى الموثقين أو أهل الشرع، وهما مهنتان كان لهما مستقبل باهر في مدينة يغرم أهلها بالأمور الشرعية.[1]

وثمة من كان يكتفي بما حصل عليه من ثقافة وعلم، فينكفئ إلى العمل الذي كان يمارسه والده أو أسرته ويعمد إلى الإشراف على أملاك والده. وكان أكثر الغرباء يعودون إلى مدنهم، أو قراهم، أو قبائلهم للقيام بأعمال التعليم، أو الاهتمام بالقضاء.[2]

غير أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا عدد هؤلاء الطلبة المتخرجين سنويا من مدارس فاس. ويبدو أن عددهم كان يتناسب وحاجات البلاد، إذ ليس هناك ما يشير إلى أن البلاد مرت بها فترة عرفت فيها تخمة في أهل العلم. والنتيجة المؤكدة لهذا النوع من التعليم هي أن النخبة المغربية، على الأقل النخبة من أهل العلم، كانت تتلقى نوعا واحدا من التدريب. فسواء كانت القضية تتعلق بالعمل التجاري أم الإدارة، أم التعليم، أم القضاء، فجميع العاملين في هذا الميدان كانوا قد دربوا في قالب واحد، وكانوا يعبرون عن أنفسهم بأسلوب فكري واحد.[3]

المطلب الخامس: تخصيص المدارس رواتب لطلبة العلم

من مزايا المدارس المرينية أنها كانت تمتلك أوقافا مخصصة عائداتها لتسيير شؤونها، ويتقاضى الطالب فيها راتبا، أو يزود بالمؤن والثياب لمدة سبع سنين.[4]

ولما أتم السلطان أبو سعيد المريني بناء المدرسة غربي جامع الأندلس وأسكنها بطلبة العلم أجرى عليهم الإنفاق والكسوة وحبس عليها رباعا كثيرة.[5]

كما كتب الحسن الوزان أن المدارس كانت تنفق على الطلبة وتكسوهم مرة في السنة وهذا إن دل فإنما يدل على الاهتمام البالغ بالعلم وبطلبته.[6]

(1) فاس في عصر بني مرين ص:180-181.
(2) المرجع نفسه ص:181.
(3) المرجع نفسه ص:181.
(4) الحضارة العربية الإسلامية ص:182.
(5) الأنيس المطرب ص:412.
(6) وصف إفريقيا ج/1 ص: 131-132.

وحين شيد أبو عنان مدرسة شالة أحدث لطلابها ومدرسيها النفقة والعطاء، يقول النميري: «ويهتم بالعلم والعلماء إذ أمر ببناء مدرسة عظيمة قرب شالة، وإعطاء الكساء الرفيعة والملابس الفخمة البديعة للطلاب والمدرسين.»[1]

وجاء في المعيار المعرب بعض الفتاوى المتعلقة برواتب الطلبة وأحقيتهم في نفقات الأحباس التي كانت تصرف لهم شهريا أو فصليا أو سنويا، وقد أفتى الونشريسي أن الطالب يأخذ راتبه كاملا حتى ولو غاب حين تقسيم الرواتب لأنه يعتبر حقه بالكامل.[2]

ولم تكن أرزاق الطلبة أو مرتباتهم مالية فقط بل كانت متنوعة كالمواد الغذائية من سمن وزيت ولحم وفحم وكل ما يحتاجونه من المؤونة.[3]

وخصصت الجزية المفروضة على اليهود للطلبة والمقرئين بمدرسة الحلفاويين بفاس.[4]

وبالإضافة إلى المساعدات التي يحصلون عليها من الدولة، كان هؤلاء الطلاب، وعلى الأقل الذين كانوا على شيء من اليسار، يتلقون بعض المآكل من ذويهم. أما الآخرون فقد كانوا يستطيعون أن يزيدوا ايرادهم بإسهامهم في الصلاة على الجنائز حيث كانوا يقرؤون آيات الذكر الحكيم أو يرددون الأدعية، أو بإعطاء دروس خاصة، على نحو ما يعرف عن الطلاب في كل زمان ومكان. وباختصار فإنه يبدو أنهم لم يكونوا يشكون العوز. فقد عمل المرينيون الكثير لهؤلاء الطلاب.[5]

كما خصصت لهم الهدايا النقدية أو العينية، تدفعها لهم الحكومة في مناسبة الأعياد الدينية والمناسبات الهامة التي كان البلاط المريني يحتفي بها.[6]

(1) فيض العباب ص:131.
(2) المعيار المعرب ج/7 ص:352.
(3) البستان ص:40.
(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:123.
(5) فاس في عصر بني مرين ص:180.
(6) المرجع نفسه ص:176.

المبحث الرابع: كتاتيب الصبية ودورها العلمي في المجتمع المريني

تعد الكتاتيب المرحلة التعليمة الأولى على صعيد العالم الإسلامي، أما في بلاد المغرب فقد لقيت عناية خاصة من قبل العلماء الذين كتبوا عنها رسائل نالت شهرة واسعة وكانت بمثابة منهج اقتدى به المعلمون لفترة طويلة.(1)

إذ تستقبل هذه الكتاتيب الصبيان فيتعلمون بين أروقتها القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية وآدابها والفقه والحكمة.(2)

يقول ابن خلدون: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدَارَسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب، ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارس القرآن الكريم بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم.» (3)

فابن خلدون يرى أن الهدف الأول لأهل المغرب في المرحلة العمرية الأولى للصبي هو تحفيظ القرآن الكريم، واكتساب الخط، وهذا كان من أدوار الكتاتيب في العهد المريني.

ووصف لوتورنو طريقة تعليم الصبية في الكتاتيب زمن المرينيين ونعتها بالمدارس القرآنية يقول في هذا الصدد: «من المؤكد أنها كانت تشبه جميع المدارس القرآنية في العالم الإسلامي بأجمعه. كان الأولاد يرسلون إليها متى بلغوا الخامسة أو السادسة، وكان هؤلاء يتعلمون القرآن الكريم قراءة وكتابة وحفظا، والمشرف عليهم معلم واحد يتحلقون حوله بقطع النظر عن تباين أعمارهم واختلاف تحصيلهم وكفاياتهم، وفي الوقت ذاته، وبسبب

(1) الحضارة العربية الإسلامية ص:167.

(2) الإمارة الغورية في المشرق لعبد الستار درويش دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحة:317.

(3) مقدمة ابن خلدون ج/2 ص:353.

من سير الأمور، كانوا يتلقون تدريجا اللغة العربية ونحوها، ولو أن هذين لم يكونا الهدف المباشر من التعليم، إذ أن الهدف المباشر هو معرفة القرآن الكريم وحفظه. وقد تقوم قاعة الدرس في جوار مسجد، وكانت إدارة الحبوس تقدم القاعة مجانا.»[1]

يبدو من كلام لوتورنو أن الكتاتيب منذ ظهورها تميزت بالبساطة، فراشها الحصير المصنوع من الدوم والحلفاء وأدواتها اللوح والصلصال.

وأشار الحسن الوزان إلى الكتاتيب وسماها بمدارس الأطفال، ومن باب المعرفة توجد قرابة مائتي مدرسة (كتاب) للأطفال الراغبين في تعلم القراءة، في كل مدرسة كبيرة بمدرجات كمقاعد للأطفال، ولا يعلمهم المعلم القراءة والكتابة في كتاب بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التلاميذ. ودرس كل يوم عبارة عن آية من القرآن، فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاث، ثم يستأنفون ذلك عدة مرات، إلى أن يحذقه الطفل جيدا ويحفظه عن ظهر قلب. يحصل على ذلك بعد سبع سنوات على أبعد تقدير. وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأطفال شيئا من قواعد الكتابة، ولو أن هذه المادة مثل النحو وسائر العلوم تدرس في مدارس أخرى كبرى.[2]

ويمكن القول إن الكتاتيب القرآنية، هي بمثابة مدارس أولية للصغار، تعتني بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الخط وتهتم -إلى جانب ذلك- بتحفيظ بعض المصنفات الابتدائية وتحليلها للمتعلمين.[3]

ويتضح من بعض النوازل الفقهية، أن المرحلة الأولى من التعليم في المغرب هي التي يتلقى فيها الصبي العلم على أحد المؤدبين في الكتاتيب، وتبدأ تلك المرحلة عندما يبلغ الصبي سن التمييز فيما بين الخامسة والسادسة من عمره. وكان المعلم يعلم الصبيان في تلك المرحلة الأولى القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وتجويده حيث جرى العمل بالكتاتيب على اجتماع الصبيان لتلاوة آيات القرآن بصوت واحد على وجه التعليم، علاوة على الإلمام ببعض علم اللغة والنحو والفقه.[4]

---

(1) فاس في عصر بني مرين ص:169.

(2) وصف إفريقيا ج/1 ص:261.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:254.

(4) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:113.

كما أن أهل الفتوى والعلماء في المغرب كانوا يحثون المعلمين على أن ينظروا في ألواح الصبيان وإصلاح ما فيها من خطأ في الحروف، وتعليمهم إعراب القرآن وحسن قراءته وتجويده وأحكام الصلاة والوضوء والهجاء والخط الحسن، كذلك كانوا يوصونهم بمنع زجر المتعلمين (الصبيان) بالسب القبيح، أما من اتصف من الصبيان بأذى أو لعب أو هروب من الكتاب، فإن المؤدب يستشير وليه في قدر ما يرى من الزيادة في ضربه حسب طاقته.[1]

واتسعت رقعة الكتاتيب في أنحاء المغرب الأقصى عهد المرينيين، وأصبحت ذات أهمية في المجتمع المغربي، باعتبارها المرحلة الأولى بل أهم مراحل التعليم، ولم تكن لها أماكن معنية، بل قد تكون في غرفة منزل، أو حانوتا يُكْتَرى، أو فناء، وقد كانت عادة تقام بالقرب من المسجد.[2]

وساعد الكُتّاب على ضمان استمرارية المعرفة والعلم، والتي لها تأثير مباشر على بقاء المنظومة الاجتماعية متماسكة من الناحية العلمية والوحدة الدينية.

المطلب الأول: أهمية الكتاب في تعليم الصبية

يرى ابن خلدون أهمية تعليم الصغر فيقول: «وسبب ذلك أن تعليم الصبي في الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب الأساس للملكات، وعلى حساب الأساس وأساليبه، يكون حال ما بني عليه.»[3]

كما ذكر محمد عبد الحميد عيسى أن ابن الجزار أوصى بضرورة التأديب في الصغر، لأن الصغير أساس قيادة، وأحسن مواتاه. وأن يؤدب الصبيان وهم صغار، لأنهم ليس لهم عادات تصرفهم لما يؤمرون به من المذاهب الجميلة، والأفعال الحميدة، والطرائق المثلى إذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من ذلك، فمن عود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة في الصغر، حاز بذلك الفضيلة.[4]

---

(1) المرجع نفسه ص:113.

(2) تاريخ التعليم في الأندلس لمحمد عبد الحميد عيسى دار الفكر العربي الطبعة:1 سنة:1982 الصفحة:220-221.

(3) مقدمة ابن خلدون ج/2 ص:353.

(4) تاريخ التعليم في الأندلس ص:224-225.

كما يقول الدكتور فؤاد الأهواني: «والواقع أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في تلقي العلم، وإنما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان، فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والإدراك، دفعوا به إلى الكتاب.»[1]

ثم وصف ابن مسكويه أهمية العلم للصبي وفضائله فقال: «فمن اتفق له في الصبا أن يربى على أدب الشريعة، ويأخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين، ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان، ثم يتدرج في منازل العلوم، فهو السعيد الكامل.»[2]

ويرى ابن خلدون أن التعليم ضروري وطبيعي يحتاجه كل إنسان، خصوصا التعليم الأولي الذي يفتح به الصبي ملكات ذهنه. يقول ابن خلدون: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما سبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن الكريم وبعض متون الأحاديث.»[3]

ويضيف ابن الحاج العبدري قوله بأن تعليم الصغار لكتاب الله يطفئ غضب الله وإن تعليم الشيء في الصغر كالنقش على الحجر.[4]

المطلب الثاني: نظام الكتاب

وعن نظام الكتاب المغربي في العصر المريني الأول، فمن حسن الحظ أننا نلتقي بمؤلف مغربي عاصر هذه الفترة بالذات، وخلف أفكارا عن طريقة تعليم الصبيان في الكتاب. وهو العالم محمد بن الحاج العبدري الفاسي في كتابه المدخل، وسنحاول في هذا البحث ذكر بعض أنظمة الكتاب.[5]

(1) التربية الإسلامية لأحمد فؤاد الأهواني دار المعارف مصر (بدون رقم طبعة) سنة:1968 الصفحة:60.
(2) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن مسكويه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1985 ص:42.
(3) مقدمة ابن خلدون ج/2 ص:353.
(4) المدخل لابن الحاج العبدري مكتبة دار التراث القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:2 الصفحة:330.
(5) ورقات عن حضارة المرينيين ص:271.

الفرع الأول: اختيار مؤدب الصبية

ينصح العبدري أولياء الأطفال باختيار أفضل المؤدبين، حتى وإن كان كتابهم بعيدا عن سكناهم.[1] يقول العبدري: «وينبغي لآباء الصبيان أن يتخيروا لأولادهم أفضل ما يمكنهم في وقتهم ذلك من المؤدبين وإن كان موضعا بعيدا فيختارون لهم أولا أهل الدين والتقوى، فإن كان مع ذلك عنده علم من العربية فهو أحسن، فإن زاد على ذلك بالفقه فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجل، فإن زاد عليه بورع وزهد فهو أوجب إلى غير ذلك، إذ أنه كفيها زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملا ورفعة وإذا كان ذلك كذلك فيتعين النظر فيما ذكر.»[2]

وبالإضافة إلى هذا فإن الكمال في المعلم أن يحصن نفسه بالزواج، حيث يغلب التسرع إلى سوء الظن بمن كان غير متأهل، وعليه أن يوطن نفسه على الإخلاص في مهمته، وأن يقصد نفع العموم بانتصابه لنشر القرآن الكريم. وليتحل بالوقار أثناء عمله، حتى إنه لا يجمل به الإكثار من الكلام مع من يزوره في الكتاب من أصدقائه.[3]

الفرع الثاني: واجبات مؤدب الصبية

من واجبات المؤدب ملازمة كتابه، وأن يتولى -بنفسه- تعليم الأطفال، وفي حالة ما إذا شق عليه مقابلة جميعهم فإنه ينتدب كبار الأطفال أن يقرؤوا صغارهم، شريطة ألا يجعل صبيانا معلومين لشخص واحد، وإنما يبدلهم في كل وقت على العرفاء.[4]

وفي هذا الجانب يشير ابن الحاج العبدري إلى واجبات المؤدب ويقول: «وينبغي له ألا يغيب عن المكتب أصلا ما دام الصبيان فيه إذ أنهم لا عقل لهم يمنعهم عما يخطر لهم فعله فلا بد لهم من راع يرعاهم بنظره ويسوسهم بعقله ويؤدبهم بكلامه.[5]

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:272.
(2) المدخل لابن الحاج العبدري ج/2 ص:323-324.
(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:272.
(4) المرجع نفسه ص:272.
(5) المدخل ج/2 ص:323.

وأجاز العبدري للمؤدب التغيب للضرورة القصوى وألا تكون بالطويلة، حيث قال: «ولا بأس أن يغيب الغيبة اليسيرة لضرورته، ولا يفعل ذلك إلا ألا يجد من يقوم بها عنه.»[1]

وعليه أن يمنع الصبية -إطلاقا- من قضاء حاجتهم في الطرقات وخلف جدران البيوت.

وعند الضرورة يسرح المؤدب الصبي إلى قضاء حاجته في بيته.[2]

فخص صاحب كتاب المدخل بشرح هذه النقطة بالذات شرحا مفصلا ومدققا، لأنه جانب من التربية الملزمة على عاتق المؤدب وصاحب الكتاب. فأشار إلى ذلك بقوله: «فليحذر أن يتركهم يفعلون ذلك في غيرها مثل ما يفعل بعضهم في هذا الزمان من أنهم يقضون حاجتهم في جدران بيوت الناس وطرقاتهم فينجسون ذلك عليهم فمن جلس إلى تلك الجدران تلوث ثوبه بالنجاسة، وكذلك الماشي قد يصيبه منها الأذى.»[3]

ومن واجبات المؤدب أن يساوي بين ابن الفقير وابن الغني داخل الكتاب وأن يكونوا عنده بمنزلة واحدة لا يشرف بعضهم على بعض فابن الفقير وابن صاحب الدنيا على حد واحد في التربية والتعليم وكذلك من أعطاه ومن منعه إذ بهذا يتبين صدق حاله فيما هو بصدده.[4]

كما أن وظيفة المؤدب لا تقف عند تحفيظ القرآن الكريم، وعليه أن يلقن الصغار قواعد الخط، ويدربهم على الفهم والإدراك، حيث يستطيعون الحفظ والفهم، وهما أكبر الأسباب المعينة على قراءة الكتب والاستفادة منها، كما يربيهم على الآداب الإسلامية، فيحملهم على اتباع السنة، ويغرس في نفوسهم الاهتمام بالشعائر الدينية، ويفرق في هذا بين البنين والبنات.[5]

---

(1) المرجع نفسه ج/2 ص:323.
(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:273.
(3) المدخل ج/2 ص:319.
(4) المرجع نفسه ج/2 ص:309.
(5) ورقات عن حضارة المرينيين ص:274.

الفرع الثالث: أجرة المؤدب

كثيرا ما كان المؤدب فقيرا كل رأس ماله أنه يحفظ القرآن الكريم، فلذلك كان يتلقى من المتعلمين أو الصبية أجرا أسبوعيا زهيدا بالإضافة إلى الهدايا النقدية أو العينية التي كانت تحمل إليه في الأعياد

الكبرى، أو الاحتفالات المدرسية الخاصة، وخاصة الاحتفال بختم القرآن الكريم.[1]

يقول الدكتور فؤاد الأهواني: «أجر المعلم: فبعض الصبيان دفع أجرا أكثر من غيره، وأن بعض الصبيان يقدم للمعلم هدايا لا يستطيع غيرهم أن يقدمها، وأن هذا الاختلاف في الجعل ينبغي ألا يترتب عليه اختلاف في التعليم، بل العكس أن تكون معاملة المعلم للصبيان على قدم المساواة. ومن الطبيعي أن هؤلاء الذين يدفعون أجورا عالية، إنما هم من أبناء الأغنياء لا الفقراء، وفي هذا دليل على افتتاح أبواب الكتاتيب لجميع الصبيان على السواء، من غير اختصاص الموسرين بالمؤدبين على انفراد.»[2]

وأجرة هؤلاء المعلمين طفيفة، ولكن كلما بلغ التلميذ إلى قسم من القرآن قدم أبوه صلة للمعلم. وإذا ختمه أقام الأب حفلة لسائر رفقاء ابنه، فيأتي ابنه محفوفا بهم في أثواب فاخرة راكبا على جواد رفيع يعيره عامل المدينة بسلاحه الثمين لكل من ختم القرآن الكريم، ويركب حوله سائر رفقائه على الفرسان.[3]

وهناك من العلماء الذين أنكروا على المؤدب أخذ أجرة التعليم داخل الكتاب. ومن كتاب البيان والتحصيل سئل الإمام مالك رحمه الله عن إجارة المعلمين فقال: لا بأس بذلك يعلم الناس الخير فيعطى، قيل له: إنه يعلم مشاهرة ويطلب ذلك، فقال مالك رحمه الله: لا بأس به ما زال المعلمون عندنا بالمدينة يفعلون ذلك.[4]

(1) فاس في عصر بني مرين ص:169-170.

(2) التربية الإسلامية ص:254.

(3) حياة الوزان الفاسي وآثاره ص:170.

(4) البيان والتحصيل لأبي الوليد ابن رشد القرطبي تحقيق أحمد الشرقاوي إقبال ومحمد حجي دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:2 سنة:1988الجزء:8 الصفحة:452.

وكان إذا ختم الصبي القرآن الكريم كاملا وحفظه متقنا، كان له مكافأة عرفها المغاربة منذ عهد مبكر باسم الحذقة.[1]

والظاهر أن نفقة التعليم في الكتاب، كان يتحملها أولياء الأطفال، لأن الدولة لا تتدخل في شؤون التعليم بالكتاب باستثناء دور المحتسب، الذي كان يراقب معاملة المعلمين للأطفـال وسلوكهم معهم، والقاضي الذي كان يسهر على تعليم اليتامى.[2]

الفرع الرابع: عادات الكتاب

عادة الكتاب هي تلك الصورة النمطية اليومية المعتادة للصبية والمؤدب، فكانوا يأتون كل يوم مبكرين بعد تناولهم الفطور، ويجلسون على الحصير الذي كان يغطي أرض الغرفة، ويظلون هناك حتى قرب الظهر إذ يذهبون إلى البيت لتناول طعام الغداء، ويعودون بعد ذلك مباشرة ويتابعون تعلمهم حتى صلاة العصر، إذ ينتهي يومهم الدراسي. وكان هذان الاجتماعان اليوميان مخصصين للكتابة وللحفظ. وكانت القطع المعنية للحفظ تحتاج إلى يوم أو يومين، وكان يختلف طولها باختلاف التلاميذ. فهي قصيرة مكونة من بضع أسطر للمبتدئين الذين يأخذون أنفسهم بالحفظ متى تعلموا الحروف العربية، طويلة لمن تدربوا على أعمال المدرسة.[3]

وكان لتلاميذ الكتاب عطلة يومين في الأسبوع ليس لهم فيها قراءة ولا درس.[4]

المطلب الثالث: احتفالات الكتاب

كانت الكتاتيب تقيم عدة احتفالات خصوصا الدينية منها، فكانت تدخل على المتعلمين البهجة والسرور ومتنفسهم، باعتبار ما سيحصلون عليه من الهدايا والعطاء، والحلوى، والمأكولات طوال فترة الاحتفالات.

---

(1) **الحذقة**: الحذق بالذال المعجمة والحاء المهملة، نقله في مختصر العين في بابه، والحذقة حفظ، أو هو حفظ القرآن كله ونظرا قراءته في المصحف، فإن نقص تعلم الصبي في حفظه وقراءته وخطه فليسقط من الحذقة بقدر ما تعلم، فإن لم يستمر الصبي في حفظ أو في القراءة في المصحف فلا شيء لمعلمه، ويؤنب المعلم على تفريطه إن كان يحسن التعليم.
-المعيار المعرب والجامع المغرب للونشريسي تحقيق محمد عثمان دار الكتب العلمية بيروت. الجزء:6. الصفحة:195.

(2) تلمسان في العهد الزياني ج/2 ص:344.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:170.

(4) حياة الوزان الفاسي ص:88.

وكانت الكتاتيب تقيم للمتعلمين احتفالات عيد المولد النبوي فيعطي كل أب شمعة كبيرة تساوي ثلاثين ابرة ومنها ما يساوي أكثر وأقل حسب ثروة الأب، وعلى الشمعة نقوش وزخرفة بالألوان والخطوط الهندسية وصور أزهار بارزة من شمع، وتوقد من أول الليل إلى المشرق، ويأتي المؤدب أو المعلم بمنشدين يتغنون بالأمداح النبوية طول الليل، وما بقي من الشمع يأخذه المعلم ويبيعه وربما اجتمع لديه من ذلك مائتا دكة فأكثر على حسب كثرة التلاميذ.[1]

ومن الاحتفالات التي سادت في العهد المريني وكانت امتدادا لما بعده تلك الاحتفالات التي ينظمها الكتاب، لمن اختتم حفظ القرآن الكريم بقصد أن يقدموا -جميعا- هدايا للمعلم، ويظهر سائر الأطفال بهذا الاحتفال في أثوابهم الرفيعة كما تقتضيه العادة.[2]

يقول الحسن الوزان: «إذا ختم الطفل القرآن وحفظه كله، أقام الأب وليمة كبيرة دعا إليها جميع التلاميذ، وألبس الطفل لباسا فخما وكأنه ابن أمير، وأركبه متن جواد أصيل ثمين يعيره إياه أمير المدينة الملكية (فاس الجديد)، كما يعيره اللباس أيضا. ويركب الأطفال الآخرون متون الخيل ويصحبونه إلى قاعة الاحتفال، وهم ينشدون أناشيد في تمجيد الله تعالى ورسوله ﷺ، ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد، ويقدم كل واحد منهم هدية للمعلم، كما يقدم له الطفل المحتفل به كسوة جديدة، تلك هي العادة المتبعة.»[3]

المطلب الرابع: أهم الكتاتيب في العهد المريني

عرفت المدن المغربية في العهد المريني الكثير من الكتاتيب ومنها: كتاب النحوي أبي عبد الله بن الأصفر من أهل سبتة الذي قيل عنه أنه كان يدرس الأولاد أكابرها. كذلك عبد الله

(1) حياة الوزان الفاسي ص:87-88.

(2) المرجع نفسه ص:87.

(3) وصف إفريقيا ص:261.

بن أبي مدين الذي درس لأولاد محمد الكتاني والسلطان يعقوب بن عبد الحق والوزير عمر بن مسعود الحشمي.[1]

كما برز كُتّاب محمد بن محمد بن إبراهيم الخراز الفاسي قال عنه صاحب سلوة الأنفاس: «كان يعلم الصبيان بمدينة فاس وبها كان سكناه.»[2]

ثم ابن أجروم: محمد بن داود الصنهاجي الفاسي مؤلف المقدمة الأجرومية، كان من مؤدبي أهل مدينة فاس حسب تعبير ابن القاضي. ابن آجطا عبد الله بن عمر الصنهاجي الفاسي، يحليه السراج بالشيخ المقرئ المكتب المنجب. وأخيرا أبو سالم إبراهيم بن عبد الكريم المكناسي، وصفه ابن غازي بالفقيه الحافظ.[3]

وذكر ابن القاضي في ترجمة إبراهيم بن عبد الكريم المكناسي، أنه الفقيه المدرس بمدينة مكناس، كان يقرر التهذيب ويذكر كلام الناس عليه والمختصرين وأقوال الأئمة وكان يدرس المدونة ويعلم الصبية.[4]

(1) الحضارة العربية الإسلامية ص:172.

(2) سلوة الأنفاس ج/2 ص:128.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:279.

(4) درة الحجال ج/1 ص:199.

المبحث الخامس: الخزانات العلمية في العهد المريني

حض الإسلام معتنقيه على العلم والتعلم، فهذا التوجيه نحو النور والعلم والتعلم لا مثيل له في تاريخ البشرية قديما وحديثا. فقد حث القرآن الكريم المسلمين على التعلم ومدح العلم والعلماء في أكثر من موضع. فالنهضة العلمية التي بدأها الإسلام وتبناها المسلمون كانت هي السبب الأعظم في اهتمام المسلمين بالكتب والمكتبات، لأن الكِتَاب كما لا يخفى هو وعاء المعرفة. لذلك ظهرت المكتبات وتطورت نتيجة العلم والمعرفة في العالم الإسلامي، واعتبرت المكتبات في الإسلام مثل كائن حي انبثق عن المجتمع الذي وجد فيه، نتيجة لتطوره وحاجته إليها وهي في الوقت نفسه ساعدت على تطور المجتمع ودفعه في طريق الرقي والنجاح. فالمكتبات هي نتاج تفاعل هذه الحياة، ولذلك فإن هذه المكتبات مرت كالمجتمع في أدوار حضانة ونمو وأدوار وازدهار ونضج.[1]

وحرص المرينيون على تدعيم العلم والعلماء، بإنشاء المكتبات اللازمة لهم، وكانت هذه المكتبات ركائز للحركة الفكرية في الدولة المرينية.[2]

فلقد انهمك المرينيون وبعدما آنسوا عقلية جديدة مثيرة لرغبة جامحة في القراءة والتثقيف لدى كل الطبقات الاجتماعية، أولا في بناء المدارس-كما سبق الذكر- المرفقة بخزانة الكتب، وبعد ذلك انهمكوا في تشييد المكتبات.[3]

والتراث الوافر والإرث العلمي والأدبي الذي انتقل إلى بني مرين عبر الدولة السابقة (الموحدين) هي العوامل الحقيقية التي أدت إلى الازدهار الكبير للخزانة المغربية انطلاقا من القرن 14م.[4]

(1) عمارة المكتبات في الإسلام لعبد الوهاب مصطفى ظاهر مركز دراسة العمارة الإسلامية العالمي موسوعة العمارة في الإسلام كتاب منشور على شبكة الألوكة www.alukah.net المجلد:12 الصفحة:17-18.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:349.

(3) تاريخ خزائن الكتب بالمغرب لأحمد شوقي بنبين ترجمة مصطفى طوبى المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة:1 سنة:2003 الصفحة:85.

(4) نفسه ص:85.

فالحركة العلمية التي جادت بها قريحة العصر المريني، والحركة العلمية التي نمت بشكل كبير لم تكن بعيدة أو بمعزل عن المصادر والكتب العلمية، وبذلك ظهرت في تلك الحقبة المكتبات والخزانات العلمية.

والمرينيون قصروا اهتمامهم على الحواضر الكبرى، فشيدوا فيها المكتبات من سبتة وطنجة وتازة وفاس شمالا إلى آسفي ومراكش جنوبا.[1]

وسيقودنا التحليل الشامل للمكتبات المغربية في العهد المريني إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من خزانات الكتب: أولها الخزانات الملكية، والخزانات الخاصة، وأخيرا الخزانات العمومية.

المطلب الأول: خزانة الكتب الملكية

خزانة الكتب الملكية هي خزانة شخصية أسسها السلطان، وهي تختلف عن الخزانات الخاصة بغنى مجموعاتها التي تتشكل في غالب الأحيان من الكتب النادرة، والفريدة والنفيسة.

وجرت العادة في المغرب أن تكون دور الكتب بالمساجد والأربطة والمدارس، وأعظمها ما يكون بقصر السلطان.[2]

وملوك المغرب على اختلاف دولهم يمدون تلك الخزائن بتصانيف خاصة من خزائنهم الملكية الخاصة رغبة منهم في نشر الثقافة بين العموم. وما برحت هذه الكتب التي حبسها السلاطين المرينيين أن تخلوا من توقيعاتهم التي ما زالت مسجلة إلى يومنا هذا.[3]

إن ازدهار المكتبة المغربية في العهد المريني كان من ورائه حبهم للعلم والمعرفة وتأليف الكتب، فهذا الشغف وفر كماً هائلا من الكتب.

فلا شك أن السلاطين كانوا يعرفون دائما طرق الحصول على الكتب الهامة التي يحتاجونها، فالوسائل الموظفة للحصول على الكتب المكلفة كثيرا لم يكن لها مبرر إلا هذا

(1) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (بدون رقم طبعة) سلسلة التاريخ 2 سنة:1976 الجزء:1 الصفحة:182.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:349.

(3) خزائن الكتب العربية في الخافقين الفيكنت فيليب دي طرازي مؤسسة دار الحكمة اللبنانية لبنان (بدون رقم طبعة) سنة:1947 الجزء:1 الصفحة:229.

الحب للعلم والعلوم والمعرفة، فقد نزع هذا الحماس وهذا الشغف بالناس إلى الحفاظ على الكتاب، ومن هنا جاء تأسيس الخزانة الملكية كبداية أولية.[1]

وعلى ما يبدو أن اهتمام السلاطين المرينيين بالجانب العلمي، جعلهم ينشؤون مكتبات خاصة داخل قصورهم.

وللإشارة فإن ما وصلنا عن الخزانة الملكية عند المرينيين ناقص جدا، لعدم اكتراث المؤرخين المغاربة بتراثهم. فقد تم جمع المعلومات المتعلقة بهاته المؤسسات الملكية انطلاقا من إشارات مكتوبة في مخطوط أهداها أصحابها إلى مختلف الخلفاء أو أنجزوها بإشارة منهم. وتعود أقدم المخطوطات التي تطابق اهداءاتها الدولة المرينية إلى يعقوب بن عبد الحق وابنه أبي يعقوب يوسف، وعلى الرغم من أن هذين الخليفتين الأولين كانا مهتمين بإعادة بناء إمبراطورية أسلافهم الموحدين، فقد اشتهروا بوضع أسس مكتبة دولتهم الملكية التي زودها وأغناها ورثتهم. وإذا كان أصل هاته المؤسسة غير واضح بجلاء، فنحن نتوفر مع ذلك على عدد من المعلومات التي من شأنها أن توضح لنا واقعنا.[2]

والمؤلفات التي أنجزت برسم هاته الخزانة، والمخطوطات التي تم التوصل بها كهدايا أو في إطار التبادل مع الخلفاء كانت إحدى العناصر المشكلة لمجموعة هاته المؤسسة الملكية. فقد كان يطيب لهؤلاء الخلفاء أن ينشدوا من العلماء والأدباء كتابة الرسائل والمؤلفات بشأن مواضيع بعينها، وكانت النسخ الأولى موجهة بطبيعة الحال إلى خزانة السلطان.[3]

الفرع الأول: خزانة يوسف بن يعقوب

خزانة أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المريني جاء ذكرها في طالعة كتاب «الامتناع والانتفاع في معرفة أحكام السماع» لمحمد بن أحمد بن محمد السبتي المعروف بالدراج بمناسبة تقديم الكتاب للخزانة اليوسفية.[4]

---

(1) تاريخ خزائن الكتب ص:49.

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:87.

(3) المرجع نفسه ص:87-88.

(4) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى العدد:228 بتاريخ أبريل 1983 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ma.gov.habous.www.

فالمصادر التاريخية لم تشر إلى هذه الخزانة الملكية الخاصة بهذا السلطان إلا ما ذكره صاحب الامتناع، وربما يرجع ذلك إلى عدم الاهتمام بتدوين هذه الأمور من طرف المؤرخين، لتبقى الضبابية والشكوك تحوم حول خزانة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني.

الفرع الثاني: خزانة أبي سعيد عثمان المريني

رغم قلة المصادر عن خزانة أبي سعيد إلا أنه بقي لدينا بعض منتسخات برسمها تتمثل في شذرات من ربعة قرآنية، ثم نسخ من الشمائل الترمذي.[1]

ومعرفتنا بالخزانة الملكية لأبي سعيد ناقصة جدا، فنحن مرة أخرى نشهد عدم اكتراث المؤرخين المغاربة في العهد المريني بتراثهم وتدوينه ليبقى محفوظا في ذاكرة التاريخ، فنجد بعض الإشارات مكتوبة في مخطوط الذي يحيلنا إلى هذه الخزانة وهو مخطوط مُهدى إلى السلطان من قبل مؤلفه.

يقول الدكتور أحمد شوقي بنبين: « فنحن نجد بعض الأجزاء من القرآن الكريم إضافة إلى نسخة من الشمائل للإمام الترمذي اهداءات باسم السلطان المريني أبي سعيد محفوظة أولهما في المكتبة العامة في الرباط، ثانيهما في الخزانة الوطنية بتونس.»[2]

الفرع الثالث: خزانة أبي الحسن المريني الخاصة

كان من العادة أن تهدى بعض الكتب إلى السلاطين في عهد بني مرين مما كان يساهم في تشكل الخزانات الخاصة لكل سلطان، ومن ذلك ما أهداه أبو الحسن المراكشي للسلطان أبي الحسن، فقد أهداه مؤلفين له في الطب. وألف ابن مرزوق مؤلفه الشهير «المسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن»، لأجل السلطان يسرد فيها مناقبه وحياته، وهي دراسة وافية.[3]

وعلاوة على هذه الكتب المؤلفة، فإن مكتبة المرينيين الملكية كانت تغتني أيضا من التبادل في الكتب الذي أقامه السلاطين مع ملوك الأقطار الإسلامية الأخرى.[4]

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى العدد:228 بتاريخ أبريل 1983 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية www.habous.gov.ma

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:89.

(3) المرجع نفسه ص:89.

(4) المرجع نفسه ص:89.

تحدث المؤرخ السلاوي عن السلطان أبي الحسن حينما بعث بنسخة عتيقة من المصحف الشريف، نسخها بيده وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها، والقراء لضبطها وتهذيبها، ليجعلها وقفاً على الحرم الشريف قربة إلى الله تعالى وابتغاء للمثوبة والأجر، فراسل الملك الناصر محمد بن قلاوون بذلك.(1)

الفرع الرابع: خزانة أبي عنان الخاصة والمتنقلة

كان سلاطين بنو مرين دائما يرغبون في تدوين تاريخهم أو كتابة الرحلات التي قام بها العلماء والفضلاء لتبقى مسجلة في تاريخهم الحافل. فقد أمر السلطان أبو عنان كاتبه ابن جزي وكلفه بكتابة رحلة ابن بطوطة التي يرغب في وضعها ضمن مجموعته الخاصة. كما كان لهذا السلطان مكتبة متنقلة خاصة يحملها معه في رحلاته. إنها نوع من الخزانات السيارة الملكية التي كان السلطان يصحبها معه في تنقلاته، فهي خزانة متنقلة، أو إنها ببساطة كتب متحركة لم يكن السلطان ينفصل عنها أبدا.(2)

وجاء في الديباج المذهب أن الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي شاهد بعض الكتب التي تضمنتها خزانة أبي عنان المريني ومنها كتاب أنوار الفجر للقاضي أبي بكر بن العربي في سنة 760هـ فقال: «رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي في تفسير القرآن الكريم المسمى «أنوار الفجر» كاملا في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان بن السلطان أبي الحسن، وكان أبو عنان إذ ذاك بمراكش، وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار، وكنت أخدم مع جماعة في حزم الكتب ورفعها، فعددت أسفار هذا الكتاب، فبلغت عدتها ثمانين مجلدا ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء.»(3)

(1) الاستقصا ج/3 ص:127.
(2) تاريخ خزائن الكتب ص:88.
(3) الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب لابن فرحون تحقيق محمد الأحمدي أبو النور دار التراث للطبع والنشر القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:2 الصفحة:255.

فهذا المقطع يحملنا على الاعتقاد بأن أبا عنان كان يتوفر على خزانة كتب كبيرة تضم ثروات عجيبة. فكل السلاطين الآخرين تقريبا قد تصرفوا بهذا الشكل، وأمروا كتاب القصر أن يؤلفوا كتبا برسم مكتباتهم.

هذا وقد أهدى مؤلف «الذخيرة السنية» مخطوطه إلى الخليفة يعقوب أبي يوسف الذي أمره بتأليفه، فما زالت مخطوطات عديدة تحمل إهداءات مكتوبة إلى هؤلاء الخلفاء، محفوظة إلى يومنا هذا سواء في المغرب أو خارجه.[1]

وكان في خزانة أبي فارس موسى المريني مخطوط «السلسل العذب» للحضرمي، و«الدوحة المشتبكة» للمديوني، و«تخريج الدلالات السمعية» للخزعي.[2]

الفرع الخامس: خزانة أبي سالم الخاصة

ونذكر أيضا في هذا المقام خزانة السلطان أبي سالم المريني، حين وجه أمره الملكي لكاتب البلاط أبي القاسم بن رضوان طالبا منه أن يؤلف كتابا عن سياسة الملوك، وماهي إلى أيام قلائل حتى مثل الكاتب أمام سيده، وسلم إليه باكورة عمله: «الشهب اللامعة في سماع السياسة الجامعة»، قال ابن شقرون: «يتعلق الأمر بمؤلف أصلي خاص بالمعلومات عن السياسة العامة للملوك وعن المؤسسات الإدارية التي جرى بها الأمر آنذاك.»[3]

ومن جملة المخطوطات التي تضمنتها الخزانة الملكية في عهد السلطان أبي سالم المريني كتاب لابن الخطيب «عمل من طب لمن حب.»[4]

الفرع السادس: خزانة أبي فارس عبد العزيز الأول بن أبي الحسن المريني

أشار العلامة محمد المنوني في كتابه ورقات، إلى خزانة السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني، حين تحدث عن دار السكة من خلال كتاب «الدوحة المشتبكة في أحكام دار السكة»

(1) تاريخ خزائن الكتب ص:89.
(2) المرجع نفسه ص:89.
(3) تاريخ خزائن الكتب ص:88.
(4) المرجع نفسه ص:88.

فصاحب هذا الكتاب أهدى نسخة منه إلى السلطان أبي فارس لتكون ضمن مجموعة خزانته.

يقول العلامة المنوني: «وقد قدم النسخة الأولى منها لخزانة أبي فارس عبد العزيز الأول بن أبي الحسن، ثم قدم نسخة أخرى منها للوزير الوصي على العرش المريني أبي يحيى بن أبي مجاهد الغازي.»[1]

الفرع السابع: خزانة أبي فارس موسى بن أبي عنان المريني

وإليها أشار صاحب كتاب «تخريج الدلالات السمعية للخزاعي «حين أهدى نسخة إلى السلطان أبي فارس. فقال: «ولما منَّ الله تعالى على هذا الصقع الغربي بقدوم مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي فارس موسى بن مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي عنان فارس ابن موالينا الخلفاء الراشدين أسود العرين وملوك بني مرين، أيده الله تعالى ورضي عنهم، أهديته لمقامهم الكريم أسماه الله تعالى جريا على العادة في اتحاف الملوك الخادم لمولاه القادم، وعملا على ما جاء عن النبي ﷺ من الحض على الهدية والأمر بها.» [2]

يقول صاحب كتاب تاريخ خزائن الكتب للدكتور شوقي بنبين: «وأنجزت مخطوطات أخرى برسم المكتبة الملكية الخاصة على عهد أبي فارس مثل تخريج الدلالات السمعية للخزاعي. «كما سبق الذكر.»[3]

الفرع الثامن: خزانة أبي سعيد الثاني المريني

خزانة أبي سعيد المريني بن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم، لم تشر إليها المصادر التاريخية، ولم يسعفن الحظ إلا ما جاء في كتاب جذوة الاقتباس حينما ترجم له. فقال أحمد بن القاضي المكناسي: «بنى مسجد السوق الكبير بالبلد الجديد وحبس كتبا كثيرة.»[4]

---

(1) ورقات عن حضارة المرينيين ص:132.

(2) تخريج الدلالات السمعية للخزاعي تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1985 الصفحة:23.

(3) تاريخ خزائن الكتب ص:89.

(4) جذوة الاقتباس ج/2 ص:457.

وإن كانت هذه الإشارة تدخل في باب تحبيس الكتب، غير أنني لم أجد بُداً لذكر خزانة السلطان أبي سعيد الثاني.

وقيل عنه أنه كان مولعا بجمع الكتب ونوادرها، حسب ما جاء في كتاب بغية الناظر والسامع.[1]

المطلب الثاني: الخزانات العامة

ما من شك أن الخزانات العامة عرفت نموا خاصا في العهد المريني، ولم تكن بعيدة عن مصادر المعرفة، فقد ظهرت في عصرهم الخزانات العلمية، وساهموا هم أيضا في إنشائها وتزويدها بالكتب العلمية النافعة والضرورية حتى تؤدي مهمتها على أكمل وجه.

فالخزانات العلمية في العهد المريني، كان لها دور هام في الحياة الثقافية وفي نشرها.[2]

والخزانات بمعناها العصري كانت مجهولة في المغرب الأقصى قبل نشر الحماية الفرنسية. غير أن المساجد العظمى والزوايا الكبرى حفلت بخزائن الكتب حبسها العلماء والموقفون من أهل البر وسجلوا التحبيس عليها. فكانت تلك الخزائن بمثابة مكتبات عامة يرتادها طلاب المعارف ويرتشقون من مناهلها الفياضة.[3]

الفرع الأول: الخزانة العامة بفاس

إن إنشاء خزانة عامة في العهد المريني كدار مستقلة للكتب بوجه خاص، يرجع الفضل فيه للسلطان أبي عنان المريني، فمن رغبة هذا السلطان في العلم وحبه له، نبعت فكرة إنشاء دار للكتب على نحو ما هو معروف لدينا اليوم، إذ احتوت هذه الدار على كتب تخدم شتى العلوم.[4]

---

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى العدد:228 بتاريخ أبريل 1983 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية www.habous.gov.ma.

(2) دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب ص:98.

(3) خزائن الكتب العربية في الخافقين ج/1 ص:229.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:349-350.

فكانت فكرة أبي عنان أن ينشئ في الركن الشمالي الشرقي خزانة للكتب العلمية، يستفيد منها طلبة العلم الذين يتواردون على فاس، وهكذا أصدر أمره إلى العملة ببنائها هناك. لقد كانت قبة من نحو خمسة أمتار ونصف طولا، وجعل لها مدخلا من أعلى المستودع، يمتاز بألواح منقوشة، وفوق الباب مباشرة كتابة من خمسة عشر سطرا بخط نسخي جميل.[1]

والخزانة العامة بفاس احتوت على عدد من النفائس والذخائر، وما يزال بعضها إلى الآن، طائفة من الكتب كتبت سنة750هـ، وقد كتب عليها: «بالخزانة السعيدة التي ابتدع أيّده الله إنشاءها، ورفع للطالبين لواءها.» وهي بالجانب الشرقي من صحن جامع القرويين الذي بفاس المحروسة، وعقب الوثيقة يكتب أبو عنان العبارة التالية بخط يده: «وكتب بخط يده عبد الله ووليه أبو عنان أمير المؤمنين بن علي بعثمان بن يعقوب بن عبد الحق جار الله سبحانه له.» وأكثر الكتب التي تمت إلى الأندلس بصلة وثيقة، والتي هي الآن في خزانة القرويين، يرجع تاريخ وقفها إلى السلطان أبي عنان، أو إلى والده أبي الحسن أو جده أبي سعيد وربما إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق.

وقد عهد العاهل المريني بالخزانة المذكورة إلى أحد العلماء الأعلام بالسهر عليها وصيانتها، كان بمثابة القيم أو الحافظ كما نسميه اليوم، وخصص له في مقابلة ذلك جراية يستعين بها على القيام بوظيفته.[2]

ويزيدنا علي الجزنائي صاحب زهرة الآس تأكيدا لما أدرجناه فيقول: «أما خزانة الكتب التي يدخل إليها من أعلى المستودع الذي بالجامع فإنه لما كان من شيم مولانا المتوكل أبي عنان المريني رحمه الله حب العلم وإيثاره، والتهمم به والرغبة في انتشاره والاعتناء بأهله ومتحمليه، والتودد بقرائه ومنتحليه انتدب لأنْ صنع هذه الخزانة وأوسع طلبة العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان، وغير ذلك من العلوم على اختلافها وشتى ضروبها وأجناسها، ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى، وعين لها قيما لضبطها، ومناولة ما فيها، وأجرى له على ذلك جراية، وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة.»[3]

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:331.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:331.

(3) جنى زهرة الآس ص:76.

وتحدث الدكتور عبد العزيز فارح عن شهرة هذه الخزانة وأوقافها الكثيرة، فيقول: «خزانة جامع القرويين بفاس وهي خزانة وقفية مشهورة شهرة جامع القرويين أسست الخزانة في عصر بني مرين، ووقفت عليها الكتب الكثيرة تنافس في ذلك الخاصة والعامة.»[1]

العلامة الدكتور محمد بنشريفة رحمه الله تحدث عن الخزانة وذكر بأنها تحتوي على أجود الكتب في مختلف العلوم، يقول: «ووقف عليها عددا كبيرا من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم كما يقول بعض المؤرخون، وما يزال النقش الذي كتب على الخشب بباب الخزانة محفوظا.»[2]

وتحيلنا المصادر التاريخية أن أبا عنان هو الذي زود مدينة فاس بأكبر خزانة للمطالعة عرفتها العاصمة العلمية في عصر بني مرين، خزانة الكتب وخزانة المصاحف، وجمع فيها أكبر عدد ممكن من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأديان والأبدان والأذهان واللسان وغير ذلك.[3]

ويمكن القول إن هذه الأنواع والأقسام والأصناف من الكتب كان الهدف منها تيسير العمل على الطلبة والباحثين، وأعلن السلطان أبا عنان المريني أن هاته الكتب مؤسسة خيرية لفائدة هذه الخزانة ولفائدة الطلبة، في سبيل المجد الذي اكتسبه وأملا في جزاء من الله العلي.[4]

الفرع الثاني: خزانة المصاحف بفاس

أضاف السلطان أبو عنان المريني خزانة المصاحف ملحقة بالخزانة الكبرى تيسيرا لتلاوة القرآن الكريم في كل وقت من الزمان، وأعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة ذات الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن أراد التلاوة فيها.[5]

---

(1) البحث العلمي في التراث الإسلامي معوقات شروط أولويات أسس البحث لعبد العزيز فارح مطبعة أنفدو برانت فاس الطبعة:1 سنة:2008 الصفحة:36.

(2) مجلة القرويين الصادرة عن عمادة جامع القرويين مقال بعنوان: دور المكتبة الإسلامية مثال خزانة القرويين بفاس لمحمد بنشريفة العدد:3 سنة1412هـ/1991م الصفحة:22.

(3) فيض العباب ص:132. -(أنظر أيضا) ماضي القرويين ص:27.

(4) تاريخ خزائن الكتب ص:120.

(5) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:350.

أنشأت الخزانة بتاريخ شهر شوال سنة 750هـ الموافق ل 13 دجنبر 1349م وهو نفس التاريخ تقريبا الذي بنيت فيه الخزانة العلمية العامة على يد أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين أبو عنان المريني. وقد نقش في أعلى الخزانة تاريخ تأسيسها وهو على ما يلي: «الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره ونصره بتاريخ شوال سنة خمسين وسبعمائة (750هـ) رزقنا الله خيرها الموافق ليوم 13 دجنبر 1349م.[1]

يقول الجزنائي: «وأما خزانة المصاحف التي جعلها مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله قبلة صدر هذا الجامع فإنه صنعها لما سهله على الناس من تلاوة القرآن في الوقت المتخير من الأزمان، بأن أعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجميلة السنية، وأباحها لمن أراد القراءة فيها بعد أن كتب على كل جزء منها بخط يده بتوقيفها مدى الأعوام والليالي والأيام».[2]

ويمكنني القول بأن خزانة القرويين العامة بما تتضمنه من كتب علمية ومصاحف، تعتبر من أعرق الخزائن في العالم العربي، إذ تضم مخطوطات يعود تاريخ كتابتها إلى القرن الثامن الميلادي، كما تضم مخطوطات فريدة بعضها بخط مؤلفيها، من بينها مؤلف لابن خلدون وابن طفيل وابن رشد، ومؤلفات مختلفة لبعض ملوك المغرب.[3]

ويصفها الدكتور عبد الله كنون بحكمة بالغة ولمسات تعبيرية رائعة الذوق فيقول: «وخزائن الكتب كذلك لا تزال تنطق بفضلهم على الحركة العلمية في هذه البلاد منذ أسسوها، ولاسيما خزانة القرويين التي أنشأها السلطان أبو عنان، وأسس كذلك بالقرويين خزانة المصاحف، احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يسبق إليه، وأعد فيها جملة كبيرة من المصاحف الحسنة الخطوط وكلف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط.»[4]

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:332

-(أنظر أيضا) ماضي القرويين ص:26-27.

(2) جنى زهرة الآس ص:76.

(3) صحيفة دنيا الوطن الالكترونية بفلسطين مقال بعنوان: قصة أدم جامعة في التاريخ لأحمد الظرافي بتاريخ 25 يونيو 2008 مبحث 11 مكتبة القرويين وأهميتها العلمية والتاريخية على موقع http//pulpit.alwatanvoice.com.

(4) النبوغ المغربي ج/1 ص:185.

ويبرهن بناء خزانة المصاحف بشكل جيد على المظهر الجامعي الذي اكتسبه جامع القرويين بعد أن أحدث أبو عنان الخزانة الكبيرة المزودة أساسا بما يحتاجه الطلبة والباحثون من الكتب. فمما لا شك فيه أن السلطان المريني استوحى في تأسيسه لخزانتين في مسجد القرويين الوحيد أمثلة موجودة سواء في الشرق الإسلامي أم أوروبا.[1]

الفرع الثالث: الخزانات العامة بسبتة

إن الحديث عن خزانات سبتة يرجع بالأساس إلى العهد الموحدي الذي حاز السبق في سبتة غير أن هذا لا يمنع البتة أنها استمرت في العهد المريني، وازدادت تألقا، وحملت ذلك الاشعاع الفكري والعلمي مع العصر المريني، إلى جانب مساهمة الملوك المرينيين على إرساء رخائها العلمي على عامة الناس، لتكون الفائدة عامة قاطبة لجميع شرائح المجتمع. وبهذا تواصل ازدهار الخزانات في هذا العصر بالذات ازدهارا منقطع النظير.

ومن هذا الجانب نترك صاحب كتاب «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة» يصف لنا الخزانة العلمية بسبتة، يقول: «وعدد الخزائن العلمية اثنتان وستون خزانة، كان منها في الزمن القديم بدور الأكابر وذي الأقدار خمس وأربعون خزانة كبني العجوز كان جدهم الذي نَوَّه بهم قد رحل إلى عبد الله بن زيد بالقيروان وأخذ عنه جميع تواليفه. كذلك خزانة الشيخ علي الشاري المذكور التي بالمدرسة المنسوبة إليه التي ابتناها من ماله، وهي أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم نفعه الله بها، وأعظمها إحدى خزانتي الجامع العتيق الكائنة بشرقي صحنه، وبإزاء باب الشواشين أحد أبوابه، وكانت في الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف أصلا مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه، وباقي هذه الخزانات مفترق.»[2]

وما دام القلم يسيل بمداده عن خزانات سبتة في العهد المريني فلا بأس أن نسجل ما كتبه الأستاذ محمد عابد الفاسي في مجلة دعوة الحق فقال: «فعندما احتل البرتغال مدينة سبتة سنة 818هـ/1416م أيام أبي سعيد الثاني المعروف بالصغير وجدوا بها -أي مدينة

(1) تاريخ خزائن الكتب ص:121.
(2) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة ص:29-30.

سبتة- ست عشرة خزانة علمية عمومية محتوية على معدات والمرافق الضرورية لحفظها وعموميتها.»[1]

وأشار لسان الدين بن الخطيب إلى الخزانة العلمية بسبتة، إشارة خفيفة دون تفصيل كبير أو شرح طويل، عن منظومة الخزانة التي ذكرها. يقول: « والمدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم.»[2]

وجاءت إشارة أخرى عن خزانة سبتة عند الدكتور كمال سيد أبو مصطفى حين تحدث عن المكتبات فيقول: « خصصت بعض المكتبات أو الخزائن في كثير من مدن المغرب وحواضره خاصة في تونس وفاس وسبتة، فيذكر الأنصاري أن عدد الخزائن العلمية بسبتة اثنتان وستون خزانة.»[3]

المطلب الثالث: خزانات الجوامع أو المساجد

يتضح من خلال النصوص التاريخية أن خزانة الجوامع أو المساجد كانت مفتوحة في وجه العموم، فأضحت بذلك الجوامع هي الأخرى توفر المصنفات والكتب قصد الاستفادة منها. فانتشرت الخزانات في الجوامع الكبرى والعتيقة في بعض المدن المغربية.

وخزانات الجوامع لم يكن المؤرخون يعتبرونها عمومية فحسب بل كانت تشكل خزانات عامة حقيقية يستطيع الجميع الدخول إليها، وكانت توجد فيها كل طبقات المجتمع، وكان يتم تزويدها بالوقف. فقد كان الواقفون الذين يحبسون كتبهم في المساجد يشترطون أن تكون عطاياهم رهن إشارة كل الناس الذين يختلفون إلى هاته الأماكن المقدسة. وكانت هاته المجموعات المحبسة تعتبر بإحكام عن الطابع العمومي لخزانة المساجد.[4]

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: على هامش كتاب الخزانة بالمغرب لمحمد العابد الفاسي العدد:36 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

(2) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب تحقيق محمد كمال شبانة مكتبة الثقافة الدنيوية القاهرة طبعة:2002 الصفحة:146.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:121.

(4) تاريخ خزائن الكتب ص:69-70.

الفرع الأول: خزانة الجامع الكبير بمكناس

يرجع تأسيس خزانة الجامع الكبير بمكناس إلى عهد الدولة المرينية. وقد كان موقعها الأول في الجهة الغربية من الجامع الكبير، ثم نقلت إلى مجلس الأسبوع الواقع في أعلى ساباط الأسبوع المحمول على الجدار الشرقي للجامع الكبير، وعلى الجدار المقابل له من المدرسة الفلالية. ومجلس الأسبوع هذا هو من مؤسسات أبي زكريا الوطاسي وزير عبد الحق المريني.[1]

ورغم أن المصادر التاريخية لم تشف الغليل في بسط معلومات جادة وصريحة عن خزانة الجامع الكبير، إلا ما جاء عند صاحب كتاب الروض الهتون حينما ترجم لأحد الشيوخ والفقهاء وهو محمد بن عمر بن الفتوح.[2] فيقول:» وقرأ البخاري بمكناسة عند خزانة الكتب من مسجدها الأعظم.»[3]

كما تحدث ابن غازي عن خزانة الجامع الأعظم بمكناس حين تحدث عن الفقيه محمد بن عمر بن الفتوح وأشار إلى نفس ما جاء في كتاب الروض الهتون تقريبا. يقول ابن غازي:» وأنه أصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري بالجامع الأعظم من مكناسة عند خزانة الكتب.»[4]

وتميزت الخزانة بكتب متنوعة ككتب التفسير والحساب والتوقيت والتعديل وعلم الموسيقى والهندسة، وعلم الكيمياء، وعلم الطب، واللغة والأدب وغيرها من الكتب الهامة.[5]

وهناك من اعتبر خزانة الجامع الأعظم فرع من فروع جامعة القرويين بفاس.

---

(1) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: خزانة الجامع الكبير بمدينة مكناس لمحمد العرائشي العدد:234 مارس1989 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

(2) **محمد بن عمر بن الفتوح** الفقيه المحدث، ولد بتلمسان ودرس بها على علمائها، ثم انتقل منها لسبب ديني عاطفي فاستقر بفاس ودرس في المدرسة المتوكلية العنانية، ثم عرض عليه رياسة تدريس الفقه بمدرسة العطارين فرفض، ثم انتقل إلى مكناس ولازم شيخها عبد الله بن حمد وكان يدرس البخاري بالجامع الأعظم توفي بها بجانب الخزانة مطعونا سنة808هـ وهو أول من أدخل مختصر خليل للمغرب عام 805هـ

-اتحاف أعلام الناس ج/3 ص:676-677.

(3) المصدر نفسه ج/3 ص:677.

(4) الروض الهتون ص:59.

(5) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: خزانة الجامع الكبير بمدينة مكناس لمحمد العرائشي العدد:234 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

الفرع الثاني: خزانة الجامع الأعظم بتازة

خزانة جامع تازة الأعظم من تأسيس الدولة المرينية، وهي تعتبر إرثا تاريخيا يبقى شاهدا على عصرهم، فلم نحض من المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة عن خزانة الجامع الأعظم، لذلك ارتأيت أن أسلط الضوء من خلال ما كتب عنها في بعض المراجع المحدودة أو ما كتب على بعض المواقع الإلكترونية.

فخزانة تازة المرينية واحدة من أقدم خزانات المغرب والغرب الإسلامي، والتي جعلت المدينة واحدة من مراكز المخطوطات التي كانت ولا تزال قبلة للدارسين والباحثين. ومن جملة ما تحتويه الخزانة من كتب التفسير والحديث والفقه والفلك والتاريخ والرياضيات والتصوف. فضلا عن رسائل ووثائق موحدية أصلية في مجملها للمهدي ابن تومرت نشر البعض منها في كتاب «أعز ما يطلب» وجزء هام من كتاب «الذخيرة السنية» التي كانت تحفظها هذه الخزانة ضاع مع الزمن لأسباب عدة ومتداخلة.[1]

وهناك حديث على أن خزانة تازة المرينية، كانت تتوفر على حوالي عشرة آلاف مجلد لم يبق منها سوى حوالي سبع مائة مخطوط، في وضعية تجمع بين المبتور والمتلاشي والقابل للقراءة.

وخزانة تازة المرينية من المرافق الملحقة بجامع المدينة الأعظم من جهة القبلة، كانت ربما لفترة في بيت المواقيت أسفل الصومعة. ومن المفيد للإشارة أن هذه المعلمة العلمية كانت مصدر معرفة واجتهاد عدد من العلماء والفقهاء كما هو الحال بالنسبة للسان الدين ابن الخطيب، وابن خلدون والحسن الوزان والونشريسي وغيرهم.[2]

ومن نماذج المخطوطات التي توجد بهذه الخزانة نجد شرح حزب البحر للشاذلي، وكتاب النصيحة لمن خصه الله بالعافية لأحمد زروق، ومخطوط إرشاد المسافر للربح الوافر للشيخ ابن يجبش ومخطوط روض القرطاس لابن زرع وهو مبتور، ومخطوط الشفا في التعريف

(1) جريدة أصوات مقال بعنوان: الخزانات العلمية بالمغرب لعبد السلام أنويكة بتاريخ 29 يونيو 2019 على موقع www. journalaswat.com

(2) المقال نفسه.

بحقوق المصطفى للقاضي عياض. منها من يحتوي على إشهاد السلطاني المريني بالتحبيس على جامع المدينة الأعظم.(1)

وقد وقفت على ما كتبه المرحوم عبد الحي الكتاني عن خزانة تازة وقد تحدث عن آثارها العظيمة وعلى ما تحتويه من نفائس المخطوطات، فيقول: «وأما مكتبة تازة ففيها أثر عظيم لا تقوم، وليس لها ثمن، من أهمها: أحد عشر مجلدا من مختصر إعراب القرآن ومعانيه لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج النحوي في آخر جزء من أحد مجلداته: ثم الجزء وذلك في رجب عام 385هـ.

وفيها أيضا جزء من الموطأ كتب في المائة الخامسة، عليه سماعات وإجازات وملكيات، وفيها مجلدات من الصحيح المسموعة، منها مجلد من تحبيس سلطان المغرب عبد الحق المريني، والتحبيس بخطه. ومنها نسخة عتيقة من الشفا لعياض مكتوبة في الرق من تحبيس السلطان أبي عنان المريني على مسجد تازة، بشرط أن يقرأ فيها كل يوم ويدعو القارئ للسلطان المحبس المذكور، وعليها خط أبي عنان بنفسه في ذلك. وفيها جزء من جامع الترمذي مسموع على الحافظ أبي علي الصدفي بتاريخ سنة 506هـ وفيها جزء قديم جدا فيه غريب القرآن لابن قتيبة وشرح أسماء الله الحسنى لابن دهاق.»(2)

الفرع الثالث: خزانات جوامع سبتة

ذكر محمد بن القاسم صاحب اختصار الأخبار أن باقي الخزانات كانت متفرقة على بعض الجوامع غير أنه لم يأت بتفاصيل دقيقة حول هذه الخزانات مكتفيا بذكر المساجد التي جمعت الخزانات. وهذا يدل على قلة المصادر التي تغني عن القلة ويمكن سرد ما جاء عنده في كتابه حيث يقول: «وباقي الخزانات متفرقة منها بالمدرسة الجديدة خزانتان، وبمسجد القفال خزانة واحدة وبمسجد مقبرة زكلو أخرى، وهو أكبر مساجد سبتة بعد

(1)جريدة أصوات مقال بعنوان: الخزانات العلمية بالمغرب لعبد السلام أنويكة بتاريخ 29 يونيو 2019 على موقع www.journalaswat.com

(2) تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب لعبد الحي الكتاني تحقيق أحمد شوقي بنبين وعبد القادر سعود المكتبة الحسنية الرباط الطبعة:2 سنة:2005 الصفحة:126-127.

المسجد الجامع الأعظم منها، بلاطاته سبعة، وله صحنان وصومعة عجيبة من بناء الفقيه محمد العزفي صاحب سبتة، وخزانة أخرى بجامع الربض الأسفل.[1]

الفرع الرابع: خزانة جامع لالة غريبة بفاس

حينما أسس عبد الله الطريفي حاجب السلطان المريني أبي سعيد الثاني المعروف بالصغير جامع لالة غريبة بفاس، جعل فيه خزانة الكتب، نالت أيضا العناية من قبل المحبس، حيث اشترط على إمام المسجد القيام بأمرها والسهر على تدبير رصيدها والمحافظة عليه. ووجود مثل هذه الخزانة في مسجد ذي حجم صغير يدل على مدى انتشار ظاهرة الخزانات بفاس، وإن كان أكثرها اختفى واندثر بفعل التقلبات السياسية والقلاقل التي عرفتها المدينة عبر التاريخ.[2]

الفرع الخامس: خزانة جامع الأندلس بفاس

قام ببناء خزانة جامع الأندلس بفاس السلطان المريني أبي سعيد الثاني وذلك عام 816هـ/1414م. تحتل هذه المكتبة الدرجة الثانية بعد مكتبة القرويين، ومعظم كتبها قديمة من مؤلفات عصر الموحدين والمرينيين في التفسير والحديث بصفة خاصة.[3]

المطلب الرابع: خزانات المدارس

عرفت المدارس خلال العصر المريني تطورا ملحوظا، خصوصا حينما أدرجت الخزانات العلمية ضمنها إذ لا يمكن أن تكتمل المدرسة إلا بها.

(1) اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة ص:30.

(2) الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية ص:22. – (أنظر أيضا) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بفاس خلال العصر المريني للحاج موسى العوني العدد:404 بتاريخ يناير 2013 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.

(3) الحركة الفكرية في العهد السعدي ص:184.

وهذا ما جعل المؤسسات الجديدة ترفق بخزانات الكتب، التي امتلأت بالاقتناءات والعطايا، والوقف. فقد اعتاد الملوك والسلاطين أن يتحملوا شراء الكتب في ميزانية التسيير أو تمكينها من الاهداءات من طرفهم.[1]

انهمك المرينيون بعدما آنسوا عقلية جديدة مثيرة لرغبة جامحة في القراءة والتثقيف لدى كل الطبقات الاجتماعية، أولا في بناء المدارس المرفقة بخزانات الكتب، وثانيها إنشاء الخزانات وسط المدارس.[2]

ونلاحظ فيما يتعلق بطبيعة مجموعات خزانات كتب المدارس، أنها كانت مكونة مما كان يدرس في هاته المؤسسات من علوم. توجد في ورقة تأسيس المدرسة البوعنانية العبارة التالية: «بمثل ما كان التعليم يعطى في هاته المدرسة يعني العلوم الدينية فإن كان يعني العلوم النظرية ونعني بها الفلسفة والرياضيات والطب.» فقد كانت مجموعة خزانات المدارس متنوعة.[3]

الفرع الأول: خزانة مدرسة الحلفاويين أو الصفارين

حين أنشأ السلطان يعقوب بن عبد الحق مدرسة الصفارين، زودها بمجموعة فريدة من الكتب، ذكر بعض المؤرخين أنها تألفت من ثلاثة عشر حملا، وهذه الكتب هي التي طلبها السلطان يعقوب بن عبد الحق من شانجة ملك قشتالة أن يرسلها إلى المغرب بعد أن تم توقيع الصلح بينهما في أثناء العبور الرابع-كما سبق الذكر- إلى بلاد الأندلس سنة 684هـ/1285م، وكانت هذه الكتب هي النواة.[4]

وهذا ما أكده وأشار إليه المؤرخ السلاوي صاحب الاستقصا حين تحدث عن موجة إرسال الكتب العلمية التي كانت بأيدي النصارى منذ استلائهم على المدن الإسلامية بالأندلس. يقول رحمه الله: «وفيها جملة من مصاحف القرآن وتفاسيره كابن عطية والثعلبي، ومن كتب

(1) تاريخ خزائن الكتب ص:130-131.
(2) المرجع نفسه ص:85.
(3) المرجع نفسه ص:132.
(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:349.

الحديث وشروحها كالتهذيب والاستذكار، ومن كتب الأصول والفروع واللغة العربية والأدب وغير ذلك. فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم.»[1]

الفرع الثاني: خزانة مدرسة السبعيين

مدرسة السبعيين يتم فيها تدريس القراءات السبع وكان الحفاظ يحفظون القرآن الكريم على القراءات السبع المتنوعة وكان مقرها بمدينة فاس تأسست على يد السلطان أبي سعيد المريني، وتم إحداث خزانة خاصة بعلوم القرآن وكل ما يتعلق به.[2]

الفرع الثالث: خزانة مدرسة العطارين

خزانة مدرسة العطارين بفاس التي اختصت بمؤلفات الفقه وأصوله لأن المدرسة اختصت بدراسة وتعليم علوم الفقه وأصوله.[3]

الفرع الرابع: خزانة مدرسة المارستان

نشير في نهاية الفقرة إلى وجود نوع آخر من خزانات كتب المدارس المتخصصة في المغرب عهد المرينيين، ويتعلق الأمر بخزانة المارستان التي كانت مركزا استشفائيا ومدرسة للطب في آن واحد. والمطلع على كتب التاريخ يجد أن العاهل المريني أبا عنان بنى في مدينة سلا سنة 757هـ/1356م مستشفى ومدرسة للطب والجراحة. فلازمها أطباء نالتهم الشهرة وكانت تتم على أيديهم علاجات هامة.

وإذا كانت تنقصنا المعلومات عن وجود خزانة كتب متفرقة بالمدرسة، فإننا نذهب في المقابل، إلى أن المدرسة كانت مرفقة على غرار المارستانات في الدول الإسلامية بخزانة كتب تضم بدون أدنى شك مؤلفات طبية.[4]

---

(1) الاستقصا ج/3 ص:64.

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:132.

(3) تاريخ خزائن الكتب ص:132.

(4) المرجع نفسه ص:132-133.

الفرع الخامس: خزانة مدرسة مكناس

هناك إشارات عابرة عن خزانة مدارس مكناس، فالخزانة جاءت عابرة عند صاحب نفح الطيب، فهو أشار إليها إشارة خفيفة. يقول المقري: «وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم، كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ما شئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين.»[1]

(1) نفح الطيب ج/6 ص:212.

المبحث السادس: الدور الاجتماعي للخزانات العلمية

مما يتصل بالحديث عن المؤسسات الخيرية والعلمية في حضارتنا، الحديث عن المكتبات والخزانات. فقد كانت المدارس للتعليم، ومؤسسات ينفق عليها الأمراء والأثرياء والعلماء، لينتشر العلم بين الناس، وخصوصا في زمن المرينيين الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة، وكانت الكتب تنسخ على أيدي النساخ المختص لهذا العمل، فكان يبلغ بذلك ثمن الكتاب حدا قد يتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يتخصص فيه؟ ومن هنا كان قيام المكتبات والخزانات في المجتمع المريني، منبعثا عن عاطفة إنسانية وعن نزعة علمية في وقت واحد.[1]

قامت الخزانات بدور فعال في تألق الحياة الثقافية في المغرب عصر المرينيين. فهي قد ساهمت بشكل واسع في تطور الآداب والعلم في هذا البلد. ولعل شغف السلاطين بالكتب ورغبتهم في نشر الثقافة

ضمن شعوبهم هو ما حثهم على تشجيع العلماء والأدباء على تأليف مؤلفات برسم خزاناتهم. والفقهاء في تلك الفترة أكثروا من المؤلفات الفقهية خاصة ما كان من علم الفروع. وعلى الرغم من أن خزانات الكتب المغربية أضحت مشرفة وثرية في ظل الدولتين السابقتين (المرابطين والموحدين) فإنها لم تكن قد وصلت بعد إلى أوجها. إنها ستنتظر زمن المرينيين لكي تعرف نهضة لم يسبق لها مثيل.[2]

فالمكتبات والخزانات العلمية ساهمت بشكل كبير في تطور منظومة التعليم الشرعي. ويمكن اعتبار المكتبات الإسلامية المغربية زمن بني مرين، من أهم المؤسسات الثقافية التي يفخر بها الإسلام، والتي كان لها دور كبير في نشر المعرفة والثقافة بين المسلمين. وكتب الكثير من الباحثين العرب فصولا ومقالات عن هذه المؤسسات الثقافية والعلمية وأهميتها في حياة الأسلاف وتطورهم.[3]

---

(1) من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي دار الوراقة للنشر والتوزيع بيروت الطبعة:1 سنة:1999 الصفحة:244.

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:72.

(3) دور نظام الوقف الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعاصرة لأحمد محمد عبد العظيم الجمل دار السلام للطباعة والنشر القاهرة الطبعة:1 سنة:2007 الصفحة:113.

وكان الهدف من إنشاء المكتبات والخزانات العلمية هو المساهمة في تنشيط الحركة العلمية في ذلك الوقت، ولكثرة الدارسين بدأ الشعور بأهمية توفير الكتب لأكبر عدد من المستفيدين يتعمق في نفوس الحكام والوزراء والعلماء والأثرياء، ووجد هؤلاء في الكتاب وسيلة من وسائل العمل الخيري من منطقة الرغبة في إشاعة العلم والتغلب على مصاعب الحصول على الكتب لطلبة العلم في مدن ومناطق معينة، فأدى إلى ظهور الكتب والمكتبات.[1]

وصارت الخزانات والمكتبات قبلة لطلاب العلم يتزودون منها من مختلف المعارف. إضافة إلى مساعدة العلماء والباحثين بتوفير أكبر قدر من مصادر المعلومات لهم لتسهيل سبل الدرس والمطالعة والتأليف.

كما سهل السلاطين على الناس سبل المطالعة والدرس في الخزانات بتوفير الكتب النادرة إلى جانب الكتب الضرورية والمطلوبة.[2]

فمثلا خزانة القرويين بفاس كانت تضم حوالي 3823 مخطوط و24000 عنوان من الكتب المؤلفة، وقد ذكر الدكتور عبد الهادي التازي أن خزانة القرويين جعلت لطلبة العلم وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة.[3]

(1) الوقف وبنية المكتبة العربية ليحى محمود ساعاتي مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض الطبع:2 سنة:1996 الصفحة:32.

(2) المرجع نفسه ص:32.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:32.

المبحث السابع: أوقاف الخزانات العلمية

لقد شكل الوقف في المغرب، شأن الأقطار الإسلامية الأخرى، المصدر الأساس لإغناء المكتبات والخزانات العمومية عبر التاريخ. كما حصل الاتفاق من الفقهاء حينما شرعوا للمغاربة في تحبيس المجموعات من الكتب على المكتبات العمومية.

ونقف في هذا المقام باستشهاد للمفتي المغربي الذي عاصر زمن المرينيين أحمد القباب(ت780ه)، عن نازلة في قضية استنساخ المخطوط المحبس، فذكر أنه إذا لم تذكر في الوقفية كلمة نساخة فهذا المؤلف لا يجب أن يستنسخ. فيجب أن تحترم شروط الوقف على آخرها. فالوقف كان بداية قاعدة فقهية مقبولة من طرف الفقهاء زمن المرينيين في المغرب.[1]

وقد تكاثرت خزانات الكتب العمومية مثل خزانات المساجد الكبرى، والجوامع، والمدارس تقريبا في كل مكان من المغرب في نهاية القرن 13ه وبداية القرن 14ه. وكان الوقف هو العنصر الشرعي الذي كان وراء بنائها ودوام خدمة الكتب فيها.

وكان الواقفون يعلنون في نهاية تشييد أحد هاته المؤسسات ذات الطابع العمومي، تحبيسها على طلبة العلم ابتغاء وجه الله العظيم. وما زالت أبواب العديد من هاته المكتبات العمومية تحتفظ بتقييد الوقف نذكر على سبيل المثال صيغة التحبيس المنقوشة على ساكف مدخل خزانة القرويين والتي كتبها السلطان المريني أبو عنان مؤسس الخزانة «جعلناها وقفا مؤبدا لجميع المسلمين. حضاً منه أيده الله على طلبة العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره، وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة.»[2]

كما يتضح من بعض النوازل والفتاوى أن هناك العديد من الأشخاص حبسوا كتبا لهم على طلاب العلم أو على المساجد لينتفع بها المصلون، وكانوا يحبسون الكتب على القراءة والمطالعة أو النسخ منها وغير ذلك من وجه الانتفاع.[3]

(1) تاريخ خزائن الكتب ص:194-197-199.

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:202.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:121.

فقد شيد السلاطين المرينيون خزانات جديدة، ووسعوا القديم، وحبسوا عليها الكثير من الكتب والرباع المختلفة.

المطلب الأول: التحبيس على خزانة يعقوب بن عبد الحق بمدرسة الحلفاويين

حبس السلطان يعقوب بن عبد الحق الكتب على خزانة مدرسة الحلفاويين، وهي الكتب التي أرسلها ملك قشتالة سانشو، والتي تضمنت مجموعة من المصاحف وكتب التفسير والحديث وكتب الأصول والفروع واللغة والأدب، فصارت محبسة على طلبة العلم.[1]

كما حبس السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق على مدرسة الحلفاويين المصنفات التي تنازل عنها الملك كاستلان دوسانت، وذلك أثناء السّلم الذي انتهى إليه هذان العاهلان في سنة 1285م.[2]

المطلب الثاني: تحبيس أبي الحسن المريني على المدارس

حبس السلطان أبو الحسن المريني على خزانات المدارس التي أسسها، وهذا ما يذكره ابن مرزوق في مسنده بهذا الخصوص.[3]

يقول ابن مرزوق: «هذا مع ما حبس في جلها من أعلاق الكتب النفسية والمصنفات المفيدة، فلا جرم كثر بسبب ذلك طلب العلم وعدد أهله، وثواب المعلم والمتعلم في ميزان حسناته بلغه الله ذلك.»[4]

وكان السلطان أبو الحسن المريني كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وأوقف عليها أوقافا جليلة.[5]

---

(1) الاستقصا ج/3 ص:64.
(2) تاريخ خزائن الكتب ص:202.
(3) المرجع نفسه ص:202.
(4) المسند الصحيح الحسن ص:406-407.
(5) نفح الطيب ج/4 ص:399.

ونقل لنا السلاوي في كتابه التاريخي الوقفية التي ذكرت في الورقة الأولى من نسخ المصاحف تقول الوقفية: «وهو الذي مد يمينه بالسيف والقلم فكتب في أصحابها وسطر الختمات الشريفة فأيد الله حزبه بما سطره من أحزابها، واتصلت ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرف: لابد للفقراء من فتوح، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقلمه المجيد المجدي وخط سطورها بالعربي، ورتب عليها أوقافا تجري أقلام الحساب في إطلاقها وطلقها وحبس أملاكا شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها، والله تعالى يمتع من وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف، وبنفع الجالس من ولادة الأمور في تقريرها ويتقبل من الواقف. ويذكر السلاوي، أن المقري قد رأى أحد المصاحف المذكورة وهو الذي ببيت المقدس وربعته في غاية الصنعة.»[1]

وجاء عند الونشريسي صاحب المعيار المعرب أن السلطان أبا الحسن المريني حبس كتبا على مدرسة ابتناها بالقيروان، وأخرى بتونس، وجعل مستقرها بيتا بجامع الزيتونة بها.[2]

المطلب الثالث: التحبيس على خزانة أبي عنان بالقرويين

تعتبر هذه الخزانة من أغنى الخزانات وأعظمها برصيدها العلمي والمعرفي وبضمها العديد من المؤلفات والمدونات. فالخزانة كانت تحتوي على عدد من النفائس والذخائر، وما يزال بعضها إلى الآن. وقد أوضح الدكتور عبد الهادي التازي أن أكثر الكتب التي تمت إلى الأندلس بصلة وثيقة، والتي هي الآن في خزانة القرويين، يرجع تاريخ وقفها إلى السلطان أبي عنان، أو إلى والده أبي الحسن، أو جده. فكان السلاطين يحبسون عليها نفائس الكتب وجليل الذخائر في مختلف العصور.[3]

ساعدت خزانة القرويين الطلبة والمدرسين في مهمة التدريس والتحصيل، وبقيت تؤدي مهمتها بعد أن أغدق عليها الوقف بنسخ نادرة من المخطوطات والكتب العلمية، إلى أن قام السلطان المريني أبو عنان بالاعتناء بها رسميا سنة750هـ/1349م، ووضع لها قانونا للقراءة

(1) الاستقصا ج/3 ص:131.

(2) المعيار المعرب ج/7 ص:335.

(3) الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية بالمغرب المريني ص:17.

والمطالعة والنسخ وزودها بكتب نفيسة في مختلف العلوم والفنون، والكتب والمؤلفات القيمة والنادرة.[1]

والسلطان أبو عنان نفسه حبس على المساجد والمدارس التي بنيت في عهده مخطوطات قيمة. وكما هو معلوم أن هذا السلطان قد زود خزانة القرويين بعدد من المخطوطات اختارها من مكتبته الشخصية.[2]

وبالإضافة إلى خزانة القرويين العلمية، جعل السلطان أبو عنان مكتبة وخزانة للمصاحف، وحبسها لمن أراد التلاوة فيها، وأعد لهذه المكتبة قَيِّمًا بجراية كافية ليرضي رغبة الناس، ويتناول المصاحف بالعناية والصيانة وردها إلى موضعها.

وفي هذا السياق يشير الشيخ عبد الحي الكتاني رحمه الله بقوله: «وأجرى عليها جراية مؤبدة تكرمة وعناية.»[3]

ومن الكتب التي حبسها السلطان أبو عنان المريني على خزانة القرويين مخطوط «قانون التأويل» وهو مجلد واحد في مكتبة القرويين وعليه خط أبي عنان.[4]

المطلب الرابع: تحبيس الكتب على مسجد السوق الكبير

في زمن السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي سالم المريني بني مسجد السوق الكبير بفاس الجديد، وتم إحداث خزانة للكتب بمقره، ليتسنى للناس المطالعة والتشبع بمناهل العلم. وكان حاجبه أبا محمد عبد الله الطريفي هو من تولى بناء المسجد وإحداث الخزانة العلمية بداخله، وحبس عليه الكثير من الكتب وهذا ما ذكره صاحب الاستقصا فقال: «لما توفي الحاجب فارح بن مهدي ولي الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفي وكان من فضلاء

(1) مؤتمر كلية الشريعة الدولي بفاس مداخلة بعنوان: الوقف التعليمي وأثره في دعم التعليم الشرعي وتطويره لعبد الكريم بناني بتاريخ:2017/09/20 الصفحة:9.

(2) تاريخ خزائن الكتب ص:204.

(3) تاريخ المكتبات الإسلامية ص:82.

(4) المرجع نفسه ص:83.

الحجاب وهو الذي بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتبا كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده.»[1]

المطلب الخامس: تحبيس بعض العلماء لكتبهم

ساهم العلماء والمحسنون بتعزيز الخزانات العلمية بكتب تكون بمثابة وقف على الخزانات العلمية، وذلك قصد إثراء رصيد الخزانات بالمخطوطات والكتب القيمة والنادرة والمؤلفة حديثا.

ومن طليعة العلماء والمؤلفين الذين حبسوا على خزانة القرويين نجد في مقدمتهم العالم الذي حفر اسمه بماء من ذهب ألا وهو ابن خلدون الذي حبس كتابه العبر، ووضع له وقفية مكتوبة بخط يده، تقول الوقفية: «وقف على الوجه المذكور لوجه الله الكريم وطلب لثوابه الجسيم يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين.»

هنا يشير ابن خلدون إلى الغاية التي من أجلها وقف هذا الكتاب وهو ابتغاء مرضاة الله، ورجاء ثوابه الكبير. وهذه هي الغاية القصوى التي يهدف إليها الواقف. ويختم ابن خلدون وقفيته بعبارة الإشهاد وتصحيح الوقف على غرار الوقفيات المغربية، فقال: «وأشهد على ذلك» بمعنى أنه كان حاضرا وشاهدا على ما كتب.[2]

ويذكرها أحمد المقري في نفح الطيب فقال: «ورأيته بفاس وعليه خطه في ثمان مجلدات كبار جدا، وقد عرف في آخره بنفسه وأطال.»[3]

كما حبس ابن الخطيب (ت776هـ) بعض مؤلفاته على مدرسة جامع غرناطة بالأندلس.[4]

---

(1) الاستقصا ج/4 ص:90.

(2) مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة مقال بعنوان: ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية لأحمد شوقي بنبين الصفحة.432.

(3) نفح الطيب ج/6 ص:191.

(4) مداخلة بعنوان: الوقف على المسجد في المغرب والأندلس وأثره في التنمية والتوزيع لمحمد أبو أجفان، دراسات في الاقتصاد الإسلامي: بحوث مختارة من المؤتمر الدولي الثاني للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز معهد الاقتصاد الإسلامي تاريخ النشر:31 دجنبر 1985.ص:328.

الفصل الثالث:
الرعاية الصحية

من المبادئ التي قامت عليها حضارتنا، جمعها بين حاجة الجسم، والروح واعتبار العناية بالجسم ومطالبه ضرورة لتحقيق سعادة الإنسان وإشراق روحه، ومن الكلمات المأثورة عن واضع أسس هذه الحضارة رسول لله ﷺ: «إن لجسدك عليك حقا.»[1] ومن الملاحظ في عبادة الإسلام تحقيقها أهم غرض من أغراض علم الطب وهو حفظ الصلاة والصيام والحج وما تتطلبه هذه العبادة من شروط وأركان وأعمال، كلها تحفظ للجسم صحته ونشاطه وقوته، وإذا أضفنا إلى ذلك مقاومة الإسلام للأمراض وانتشارها، وترغيبه في طلب العلاج المكافح لها، علمت أية أسس قوية قام عليها بناء حضارتنا في ميدان الطب، ومبلغ ما أفاده العالم من حضارتنا في إقامة المشافي والمعاهد الطبية، وتخريج الأطباء الذين لا تزال الإنسانية تفخر بأياديهم على العلم عامة والطب خاصة.[2]

وليس من شك في أن علم الطب كان ولا يزال من العلوم المفيدة والقريبة من الناس، وسكان المغرب ظلوا وعلى مختلف العصور شأنهم شأن الأمم الأخرى يسعون إلى تطوير هذا العلم، ورعاية المختصين به، لاسيما أهل القرنين الخامس والسادس الهجريين الذين بلغوا في رقبة إلى مرتبة الازدهار. ويكفي أن نقول إن هذا العلم ظل بعيدا عن أذى أو محاربة السلاطين.[3]

وللإشارة فقد تحدث بعض الباحثين على أن هذا الميدان لم يحقق نجاحا على مستوى الدراسة النظرية في العصر المريني، إلا أنه حقق المطلوب على صعيد الطب التقليدي، إضافة إلى دورهم في المستشفيات المنتشرة في قسم من المدن المغربية كما سيأتي لاحقا.[4]

---

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم رقم الحديث:1839 ج/1 ص:472.

(2) من روائع حضارتنا ص:219-220.

(3) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب ص:148.

(4) المرجع نفسه ص:148.

وعبرت الكتب التاريخية عن المستشفيات بكلمة البيمارستان[1] وهي إحدى المنشآت والعمائر كالمساجد والمدارس... التي كان يشيدها السلاطين والخلفاء وأهل الخير والإحسان على العموم صدقة وحسبة وخدمة إنسانية وتخليدا لذكراهم. ولم تقتصر مهنة هذه البيمارستانات على مداواة المرضى، بل كانت في نفس الوقت معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون.[2]

والمصادر التي اهتمت بتاريخ بني مرين تعرضت إلى الحديث عن هذه المنشآت العمرانية التي أسست في هذا العصر لكنها في تعرضها هذا كانت وجيزة عابرة ثم كثيرا ما اختلفت في تسمية هذه المؤسسات التي كانت في نظر البعض مدارس طبية أو مستشفيات بمعناها الحديث أو مارستانات خاصة بالعلاج وإطعام المساكين والمعوزين، وهكذا وقع الخلط والالتباس في موضوع يكتسي صبغة مهمة بالنسبة لتاريخ الحضارة المغربية في عصر بني مرين ولاسيما الجانب الاجتماعي منها. مثال ذلك ما وقع في تسمية المارستان الذي بناه أبو عنان المريني بسلا، فقد ذكر الكانوني أنه كان مدرسة على ما جزم به الشيخ الوالد المقدس في تاريخ الاستقصا أو مارستانا على ما حققه تلميذه المحقق الفاضل السيد محمد بن علي في تاريخه الاتحاف ويتدخل الكانوني للتوفيق بين هذا الخلاف قائلا: «ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانا بأنه كان أقساما على حسب المدارس الكبرى الطبية والعلمية، فقد كانت المارستانات الإسلامية جامعة بين مواضع المرضى ومواضع الأطباء، وغالبا ما كان هؤلاء الأطباء يشتغلون في جامعة بين مواضع المرضى ومواضع الأطباء، وغالبا ما كان هؤلاء الأطباء يشتغلون في بعض الأوقات بتحضير الأدوية واستخراجها من المواد الكيماوية ويعلمون التلاميذ صناعة ذلك علما وعملا، فكان القسم المعين للتعليم وإلقاء الدروس مدرسة ويسمى مارستانا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم وهذا

---

(1) **البيمارستان**: بفتح الراء وسكون السين كلمة فارسية مركبة من كلمتين بيمار بمعنى مريض أو عليل أو مصاب وستان بمعنى: مكان أو دار فهي إذن دار المرضى، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه.
-تاريخ البيمارستانات في الإسلام لأحمد عيسى مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2012 الصفحة:8.

(2) المرجع نفسه ص:7.

شأن الكليات الآن في العواصم الأوروبية والمدن الكبرى، فلا تنافر بين تسميته مدرسة أو مارستانا بحسب هذا الاعتبار.»[1]

والمارستانات كانت في غالب الأحيان مكانا معدا للحمق والمجانين وذوي العاهات العقلية والأمراض النفسية يحبسون فيها خاضعين لنظام طبي إلى أن يعالجوا بصفة نهائية، أما الدروس النظرية فقد كانت تعطى ببعض المدارس التي بناها بعض سلاطين بني مرين، وقد بقيت بعض آثار هذه المارستانات إلى اليوم شاهدة بما كان لبني مرين من عناية بهذا الجانب الاجتماعي.[2]

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نعرج الحديث عما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته، حينما خصص فصلا عن علم الطب وصناعة الدواء، يقول: «وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في السجية والفضلات والنبض، محاذين لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض، وإنما الطبيب محاذيها لذلك قوة الطبيعة، فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب.»[3]

(1) مظاهر الثقافة العربية ص:224-225.

(2) المرجع نفسه ص:225.

(3) مقدمة ابن خلدون ج/2 ص:268.

المبحث الأول: بناء المارستانات وتشييدها

منذ تقلد بني مرين زمام الأمور في بلاد المغرب الأقصى وهم يحرصون على بناء المارستانات (المستشفيات) لعلاج المرضى، فكان أول سلاطينهم يعقوب بن عبد الحق الذي بنى المارستانات للمرضى.(1)

المطلب الأول: مارستانات مدينة فاس

الفرع الأول: مارستان سيدي فرج

بعد بَسط المرينيين لدولتهم في المغرب الأقصى وتوحيده تحت حكمهم، شرع السلطان يعقوب بن عبد الحق في بناء مارستان في فاس للمرضى والمجانين، وخصص لها أوقافا، كما وفر لها كل ما يحتاجه المرضى من الأغذية والفواكه، وخصص لها أطباء لتقديم الخدمات الصحية للراقدين فيها، وكان هذا المكان قد اشتهر باسم سيدي فرج، وهو الواقع بقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس.(2)

وقيل إن هذا المارستان كان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض، وهم المجانين، ويسمى ذلك المكان سيدي فرج على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به قبر، وإنما بنى هذا المكان السلطان يعقوب بن عبد الحق ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وسمي باب الفرج لأن المرضى كانوا يجدون فيها ما يفرج كربهم، وقد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه.(3)

وقد وصف الدكتور دومازل المارستان فقال: «بناؤه قديم يرجع تأسيسه إلى عهد سلاطين بني مرين -يقصد هنا يعقوب بن عبد الحق- وهم في أوج عزهم وعظمتهم يعاونون على نشر العلوم وتجميل المدن.»(4)

(1) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:326.
(2) الحضارة العربية الإسلامية ص:151.
(3) تاريخ البيمارستانات ص:284-285.
(4) تاريخ البيمارستانات ص: 286.

وجاء ذكر هذا المارستان عند الناصري صاحب الاستقصا وهو يتحدث عن أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته فقال: «ولما استقام له الأمر بنى المارستانات للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود.»[1]

وذكر مارستان فاس عند ابن أبي زرع صاحب الذخيرة، الذي هو من تأسيس السلطان يعقوب بن عبد الحق، وفي هذا الجانب يقول: «وهو الذي صنع المارستانات في بلاد المرتضى للغرباء والمجانين وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه.»[2]

ونولي وجوهنا قبل ما كتبه الحسن الوزان عن مارستان سيدي فرج، ويصفه لنا وصفا دقيقا أحوال المرضى وغرف المارستانات بشكل يوحي للقارئ شكل المارستان وكأنك بداخله. فيقول: «ولا يجد المريض المسكين فيه غير حجرته وطعامه ومن يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه. وفي هذا البيمارستان حجرات مخصصة للحمقى، أي أولئك المجانين الذين يقذفون بالحجر أو يرتكبون أنواعا أخرى من الأذى، يقيدون فيها بالأغلال والسلاسل. وحواجز هذه الحجرات من جهة الممر وداخل البناية مسورة بعوارض خشبية متينة جدا. وإذا رأى المكلف بتقديم الطعام للحمقى هياج أحدهم انهال عليه بضربات متوالية من عصا يحملها معه دائما لهذا الغرض. وقد يقترب بعض الغرباء من هذه الحجرات فيناديه الحمقى ويشتكون إليه استمرار حجزهم في السجن رغم شفائهم من حمقهم، وما

يتعرضون إليه من كثرة سوء معاملة حراسهم كل يوم. وإذا صدق المارة كلام أحدهم واتكأ على جانب نافذة حجرته، مد الأحمق إليه يده وأمسك بتلابيبه ولطخ يده ولطخ بيده الأخرى وجهه بالغائط، لأن هؤلاء الحمقى، وإن كانت لهم ميضأة، يتغوطون غالبا وسط الحجرة، وعلى الحراس أن ينظفوا هذه الأقذار باستمرار. ولذلك فإنهم ينبهون الغرباء أن يأخذوا حذرهم ولا يقتربوا كثيرا من الحجرات. وأخيرا فإن البيمارستان يتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتاب وممرضين وحراس وطباخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى

(1) الاستقصا ج/3 ص:65.

(2) الذخيرة السنية ص:91.

- (أنظر أيضا) الأنيس المطرب ص:298.

كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرا حسنا، ولقد عملت وأنا شاب كاتبا في هذا البيمارستان مدة عامين، حسبما هو معتاد عند صغار الطلبة.»[1]

والغريب في علاج مرضى الجنون أنهم كانوا يعالجون بالموسيقى والغناء مع استعمال آلات الطرب المختلفة، وقد كان على أرباب الطرب أن يحضروا في كل أسبوع مرة أو مرتين لأن ذلك يفيد في انشراح الصدر وإنعاش الروح فتقوى ضربات القلب وتعود الأعضاء الجسمية إلى تأدية وظائفها، وهكذا كان اللجوء إلى الموسيقى والغناء من الوسائل النافعة لعلاج داء الحمق كما هو الشأن اليوم في مستشفياتنا العصرية.[2]

غير أن لوتورنو نحا منحا آخر في حديثه عن مارستان سيدي فرج، فهو اعتبر هذا المارستان بمثابة سجن لهؤلاء المرضى ذكورا وإناثا والمصابون بأمراض عقلية خطيرة. فيقول في حديثه عن هذا المارستان: «ففي ذلك الزمان لم يكن المريض يذهب إلى المستشفى، كان يعنى بالمريض في البيت وكانت أسرته ترى معرة في أن يرسل أحد أفرادها إلى المستشفى بسبب مرضه. فكان يؤم المستشفى إذن المرضى الذين لم يكن لهم من يعنى بهم -وكان هؤلاء نادرين- أو المرضى الذين لم يكن بالإمكان الاحتفاظ بهم في البيت أولئك المصابون بأمراض عقلية خطرة. ويتضح حالا لما كانت فكرة السجن مرتبطة بفكرة المستشفى. ومستشفى فاس الذي كان يطلق عليه سيدي فرج، كان يتألف من غرف صغيرة تدور بعرصة. وكانت سلاسل الحديد تتدلى من أعلى السطح إلى كل من هذه الغرف، ويربط بها هؤلاء المرضى المساكين ليظلوا هادئين.»[3]

الفرع الثاني: مارستان أبي الجنود

هذا المارستان الذي يطلق عليه أبو الجنود هو من تأسيس أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني.[4]

---

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:228-229.

(2) مظاهر الثقافة المغربية ص:225-226.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:79.

(4) مظاهر الثقافة المغربية ص:225.

فالمؤرخون للدولة المرينية اقتصروا على ذكر اسم المارستان، دون الخوض في تفكيك منظومته ومعالمه وبوارقه، مما يجعلنا نفقد الشيء الكثير عن مضامين هذه المارستانات. ومارستان أبي الجنود من المارستانات التي غاب عنها الكثير من التوضيحات التي تهمه، وبقي الغموض يكتنفه إلا إشارة لاسمه وإلى من شيده، كما يغيب عنا تاريخ تأسيسه. وربما هذا راجع حسب نظرنا المتواضع أن هذا المارستان لم يبلغ الأهمية المطلوبة كباقي المارستانات الكبيرة، أو ربما لم يكن يؤدي مهمة كبيرة على غرار باقي المارستانات المعروفة.

الفرع الثالث: تجديد المارستان بمدينة فاس

ذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن جدد المارستان بمدينة فاس، وجعله الموضع المتخذ لمداواة المرضى ومعاناتهم. يقول: «جدد إمامنا رضي الله عنه رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها. وهو عبارة عن الموضع المتخذ لمداواة المرضى ومعاناتهم.»[1]

وكان هذا المارستان بالقرب من القيسارية بفاس.[2]

الفرع الرابع: المارستانات في نواحي فاس

كان هناك بعض المارستانات المنتشرة بنواحي فاس مخصصة للمصابين بداء الجذام وكان يشرف عليها نظار وعدول لتسيير الأموال والأملاك التي كانت توقف عليها من طرف الرؤساء وبعض العناصر الشعبية الموسرة وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن هذه المارستانات كانت كثيرة بفاس وضواحيها.[3]

وهذا ما بينه لوتورنو حينما أشار إلى هذا النوع من المارستانات المنتشرة خارج أسوار مدينة فاس، بقوله: «وكان مستشفى الجذام القائم خارج الأسوار، نوعا من السجن أيضا، إلا أنه كان أقل قسوة. وليس ثمة شيء مؤكد نعرفه عنه.»[4]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:415.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:326.

(3) مظاهر الثقافة المغربية ص:226.

(4) فاس في عصر بني مرين ص:80.

كما أشار الحسن الوزان إلى مستشفيات واعتبرها بالكثيرة خصوصا التي بخارج المدينة أو ضواحيها فقال: «توجد بفاس مستشفيات ومدارس عديدة في الرونق والاتقان، وكل غريب دخل المدينة له أن يقيم بهذه المستشفيات مدة ثلاثة أيام، وتوجد خارج المدينة عدة مستشفيات لا تقل اتقانا عن التي بداخلها وكانت له قبل مداخيل وافرة.»[1]

المطلب الثاني: مارستانات مدينة سلا

الفرع الأول: مارستان أبي عنان بسلا

يعتبر مارستان مدينة سلا من أعظم المارستانات التي بناها بنو مرين، وكان الذي تولى بناءه السلطان أبا عنان المريني والذي ما زال يحمل اسمه إلى اليوم، ويوجد قريبا من باب حسين، ويتوفر على بنايات ضخمة يغلب على الظن أنها كانت بيوتا يحبس فيها المرضى ويعالجون، ويحكي بعض المؤرخين أن هذا المارستان كان قبل بنائه فندقا للزيت إلى أن تولاه أبو عنان بعناية فبناه ثم جلب له الأطباء المهرة ليعالجوا المرضى المقيمين فيه، كما عين موظفين ليشرفوا على تسييره، وأغدق عليهم أموالا كثيرة مقابل خدمتهم الإدارية والاجتماعية.[2]

وبه كان سكنى العارف بالله أبي موسى الدكالي، ولا يزال بيته معروفا إلى الآن. فبنى أبو عنان به المارستان المذكور وعين له أطباء مهرة من الذين يعانون العلم قراءة وعلاجا. وكان مرتبا لهم الجرايات والصلاة على ما يعانون، فكان سوق الطب كسائر المعارف والعلوم رائجا بأقطار المغرب لاعتناء الملوك به. ولما تقهقر حال الدولة المرينية وضعف حال ملوكها، فهجر المارستان لذلك، ولا سيما لكونه بحارة اليهود، فلم تبق منه منفعة الطب ولا صلات الملوك وجراياتهم أشبه الفندق المعطل، وتطرق إليه الخراب لهجرانه، وأشرف بناؤه الرفيع على الخراب فنقض بناؤه وأعيد لحالته الأولى كما كان فندقا، وبقي بابه شاهدا لحسن بنائه،

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:228. - (أنظر أيضا) حياة الوزان الفاسي وآثاره ص:88.
(2) مظاهر الثقافة المغربية ص:225.

وعلى بابه كتابة اشتملت على رسم بانيه أبي عنان المريني وعلى تسميته بالمارستان، مكتوب ذلك في الزليج الأسود الملصق على تاج الباب المذكور.(1)

الفرع الثاني: مارستان سيدي ابن عاشر بسلا

لما قدم أبو العباس أحمد بن محمد بن عاشر الأنصاري الأندلسي من بلاد الأندلس جعل إقامته بسلا، وذلك في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، بعد أن تنقل في بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة وشالة، وأخد ابن عاشر يعالج المرضى واشتهر اسمه بسيدي ابن عاشر الطبيب، وأنشئ بالقرب من قبره مارستان. وفي سنة 1247هـ/1846م جدد السلطان مولاي عبد الرحمان العلوي بناء هذا المارستان.(2)

المطلب الثالث: مارستان مراكش

يعود تأسيس المارستان إلى يعقوب المنصور الموحدي الذي اختار مكانا له في مدينة مراكش، وخصص له أوقافا.(3)

قال عبد الواحد المراكشي وهو يتحدث عن مناقب الخليفة يعقوب المنصور الموحدي(4): «وبنى بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش

---

(1) موجز تاريخ سلا لكنيت براون ترجمة محمد جبيدة وأناس لعلو مجلة أمل التاريخ والثقافة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2001 الصفحة:44.

-(أنظر أيضا) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:161. (وأيضا) موقع ar.wikipedia.irg

(2) تاريخ البيمارستانات ص:282-284.

(3) الحضارة العربية الإسلامية ص:152.

(4) **الخليفة يعقوب المنصور الموحدي**: هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المومن بن علي القيسي الكومي صاحي بلا المغرب، بايعه أشياخ الموحدين بعد وفاة والده وعقدوا له بالولاية ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن القيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقام الحدود، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت وهو ثالث خلفاء الدولة الموحدية حكم مدة خمس عشرة سنة متصلة، من سنة 580هـ/1184م حتى سنة 595هـ/1199م ويعد أقوى شخصية في تاريخ الدولة الموحدية. ولقب عصره بالعصر الذهبي توفي سنة 595هـ/1199م

-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1972 الجزء:7 الصفحة:3-4.

البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد عن الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشرية والأدهان والأكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنيا دفع إليه ماله وترك وسببه ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت.»[1]

وفي عهد الدولة المرينية حظي هذا المارستان بعناية شديدة نظرا لأهميته، فقد قام السلطان أبو الحسن المريني بتجديد معظم المارستان، كما ذكر ذلك ابن مرزوق في مسنده.[2]

يقول ابن مرزوق: «جدد [3] إمامنا رضي الله عنه رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها.»[4]

وإن كنت قد أشرت إلى مارستان مراكش رغم أنه من تشييد وبناء سلاطين الموحدين، فعلاقته بالدولة المرينية تبقى قائمة باعتبار التحديث والتجديد من طرف أحد سلاطينهم.

المطلب الرابع: المارستان العزيزي بالرباط

كان هذا المارستان في الأصل مدرسة بالجامع الكبير بالرباط لطلاب العلم المترددين على الجامع الكبير، وينتسب المارستان العزيزي والسقاية بجواره إلى مؤسسها السلطان أبي فارس عبد العزيز بن علي بن عثمان المريني، ويرجع تاريخ البناء إلى القرن الثامن الهجري.[5]

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي مطبعة الاستقامة القاهرة الطبعة:1 سنة: 1949.ص:287-288.
-(أنظر أيضا) تاريخ البيمارستانات ص:280-281.
(2) الحضارة العربية الإسلامية ص:152.
(3) يقصد السلطان أبا الحسن المريني.
(4) المسند الصحيح الحسن ص:415.
(5) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:147.

وتحدث الدكتور عبد الله السويسي عن المارستان فقال: «مدرسة الجامع الكبير، وهي المارستان المريني الذي كان في الأصل مدرسة لطلبة العلم المترددين على تلقي العلوم بالجامع الكبير، والمارستان العزيزي والسقاية بجواره منسوبان إلى مؤسسهما السلطان أبي فارس عبد العزيز بن علي بن عثمان المريني ويرجع تاريخ البناء إلى القرن الثامن الهجري.»[1]

ويتكون بناء المارستان من صحن مركزي مربع الشكل تحيط به أروقة تطل على الصحن بسواري وأقواس بسيطة. والبناء بوجه عام شبيه ببناء المدارس المرينية ولكن ينقصه بيت الصلاة، كما يفتقر إلى الزخرفة ويغلب على البناء في الوقت الحاضر الطابق العلوي حيث أنه جدد في عصر الأسرة العلوية.[2]

المطلب الخامس: مارستان المنصورة قرب تلمسان

ورد ذكر مارستان المنصورة بتلمسان في كتاب العبر لابن خلدون. حين حاصر السلطان المريني يوسف بن يعقوب مدينة تلمسان حصارا طويلا، فقام بتشييد وتخطيط مدينة جديدة بالقرب من تلمسان سماها المنصورة وذلك سنة 698هـ/1299م. وأمر الناس بالبناء فبنوا المنازل والدور، واتخذوا البساتين وأجروا المياه، وأمر ببناء سور كسياج للمدينة الجديدة سنة 702هـ، وقام بتشييد وبناء المسجد الجامع والمارستان والحمامات.[3]

فالمارستان الذي نحن بصدد الحديث عنه لا نملك عنه معلومات ثرية سوى ما جاء عند ابن خلدون الذي اقتصر على ذكر المارستان ولم يفصل الحديث عن شكله ولا تاريخ بنائه ولا الأمراض التي كانت تعالج فيه، غير أنه فقط شيد بمدينة المنصورة وقت حصار تلمسان، وبذلك يبقى الغموض يكتنف هذا المارستان وتحوم عليه أكثر من علامة استفهام.

ولا بأس أن نذكر ما كتبه ابن خلدون عن هذا المارستان فيقول: «وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان، وابتنى مسجدا جامعا، وشيد له مئذنة رفيعة، فكان أجل مساجد الأمصار

(1) تاريخ رباط الفتح ص:138.

(2) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:147.

(3) العبر ج/7 ص:292-293.

وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها ونفقت أسواقها. ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت إحدى مدائن المغرب.»[1]

المطلب السادس: مارستان آسفي

حين زار لسان الدين بن الخطيب مدينة آسفي سنة 761هـ/1360م، أشار إلى وجود المارستان وقد يكون السلطان أبو عنان هو من تولى تأسيسه مع المدرسة العلمية، وإن كانت المادة التاريخية غير متوفرة بشكل يجعلنا متأكدين من مؤسسه وتاريخ إنشاءه.

ونقف على ما كتبه ابن الخطيب عن المارستان فيقول: «وبهذه البلدة، المدرسة والمارستان، وعليها مسحة من قبول الله، وهواؤها أطيب أهوية البلدان، يستدعي الدثار في القيظ لبرده ولطيف مسراه. وتردد بها إلى صاحب السوق ومقيم رسم المارستان، الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد ابن منير الهاشمي الجزيري من أهل الظرف والخيرية والتمسك بأذيال أهداب الطلب.»[2]

زيادة على ما ذكره ابن الخطيب حول مارستان آسفي، ذكر الكانوني هذا المارستان واعتبره من آثار المرينيين، رغم أن ما كتبه كان نقلا عن ابن الخطيب.

وبدوره أشار الكانوني إلى الاختلاف الحاصل فيمن بنى المارستان وإلى من يرجع تأسيسه، فذهب أنه من المرجح أن يكون تأسيسه من طرف السلطان أبي عنان، ويحتمل أن يكون من تأسيس السلطان أبي الحسن.[3]

فتبقى الشكوك واردة، كما يبقى الاختلاف أيضا قائما، مما يجعلنا نبقى حبيسي الشكوك واختلاف الآراء، كما أنه لا توجد لوحة تحبيسية تدل دلالة قاطعة على بانيه.

المطلب السابع: مارستان مكناس

مارستان مكناس من تأسيس السلطان أبي عنان المريني، ولا تزال بنايته قائمة في حي الحمام الجديد، يميزها باب لطيف، تتوجه لوحة خشبية مستطيلة، تنقش بها كتابة بخط

(1) العبر ج/7 ص:293.

(2) نفاضة الجراب ص:72-73.

(3) آسفي وما إليه ص:106.

الثلث فيقرأ فيها اسم المؤسسة وبانيها. ويشتمل المستشفى-في وضعه الحالي-على قسمين: الأول: كان فيما يظهر مخصصا لعلاج

المرضى، ويتكون من طابقين تدور بكل منهما حجرات صغيرة تتنافس من ثلاث جهات، ويتوسط ساحة الطابق الأسفل مربع داخله غرسات مناسبة تحف بصهريج صغير.

أما القسم الثاني: فكان موقعه شرق البناية الأولى، في طابق واحد مقسم إلى بيوت مخصصة لإقامة المعتوهين، وبعد نقل هؤلاء إلى مكان آخر داخل المدينة تحول مستقرهم الأول إلى بناية متسعة تستخدم الآن معملا للنجارة، وقد اقتطع القسم الثاني من المستشفى العناني خلال ستينيات الهجرية الأخيرة. ومن حديث هذا المارستان: أن أديب مكناس ابن عبد المنان[1] سكن به في زيارته لهذه المدينة صحبة السلطان المريني أحمد بن أبي سالم، فكانت هذه السكنى مثار حوار شعري بين العاهل المريني والشاعر المكناسي، حتى نستفيد منها تأكيد مرينية هذا المارستان.[2]

وقال السلطان أحمد بن أبي سالم مناشدا الأديب ابن عبد المنان:

يا شاعرا قد خبرناه ففاض لنا بالشعر والكتب من تلقاه بحران

نبئت أنك قد بدلت دارك في مكناسة فشجا من عندك أنباني

ما زال يتبعك الغاوون من زمن حتى لقد همت في وادي المارستان

فأجابه الأديب ابن المنان قائلا:

لما بدا لي في حمى مكناسة مثوى الذين مضوا من الأتراب

أيقنت أني لست ذا عقل بها أتعبت نفسي في هوى وتغاب

فتركت داري لم أعرج نحوها ورأيت مارستانها أولى بي [3]

(1) **ابن عبد المنان:** هو أحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجي الفقيه الأديب الكاتب، حكي عنه أنه قدم من مدينة فاس إلى مكناسة مع السلطان أحمد بن أبي سالم، ونزل ابن عبد المنان في مارستان مكناسة لكونه كان خاليا. توفي سنة 792هـ. -جذوة الاقتباس ج/1 ص:124-125.

(2) مذكرات من التراث المغربي مقال بعنوان: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية. لمحمد المنوني ج/1 ص:74.

(3) جذوة الاقتباس ج/1 ص:124 – (أنظر أيضا) درة الحجال ج/1 ص:53.

المطلب الثامن: مارستان تازة

يبقى مارستان تازة يكتنفه الغموض لأن الكتابات التاريخية لم تشر إليه، وما جعلني أشير إلى مارستان تازة ما كتبه عنه، وجاد به قلم العلامة محمد المنوني قال: «فكان بداخلها مستشفى مريني حسب اللوحة لوقف أبي عنان عليه، فضلا عن أحد أجزاء الحوالة الحبسية لنفس المدينة، وهي تحتفظ بفقرة صغيرة تذكر نصيف أشجار عرصة المارستان.»[1]

المطلب التاسع: العيون السخنة للتداوي

اعتنى السلطان أبو الحسن المريني أيضا بالعيون السخنة التي يتداوى بها الناس، فبنى حمة خولان، على وجه محكم وبنى وَشْتَاتَة وحمة أبي يعقوب.[2]

فهذه العيون من عطاء الله على بلاد المغرب الأقصى، يندفع منها الماء ساخنا وقد يشتمل على كميات من الكبريت الذي يكون علاجا لبعض الأمراض خصوصا الأمراض الجلدية والعظام والمفاصل لذلك يقصدها الناس للانتفاع بمائها.

الفرع الأول: حمة خولان

هي من العيون الساخنة، وهي الحمة التي تعرف اليوم بسيدي حرازم تقع على بعد 15 كلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة فاس، تنبع فيها مياه غنية بالغاز الكاربوني تبلغ حرارته حوالي 35 درجة، وقد شرعت الدولة المغربية في السنين الأخيرة في تجهيزها وتزويدها بالمرافق العصرية التي تجعل إقامة المستحمين فيها مريحة.[3]

تحدث الجزنائي عن الحمة وأشار إلى أن السلطان أبا الحسن اهتم واعتنى بها نظرا لأهميتها فيقول عنها: «ومنها حمة خلان وهي من العيون الساخنة وهي مرفقة للاستحمام والتداوي، وقد اعتنى مولانا أمير المسلمين أبو الحسن نور الله ضريحه ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم مصالح الناس فيها ومنافعهم.»[4]

---

(1) مذكرات من التراث المغربي مقال بعنوان: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية ج/1 ص:74.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:326.

(3) جنى زهرة الآس (أنظر الإحالة) ص:36.

(4) جنى زهرة الآس ص:36.

ونالت حمة خولان حظ الذكر عند صاحب «جذوة الاقتباس» لأحمد بن القاضي المكناسي الذي تحدث عن منافعها وعن السلطان الذي اعتنى بها، فقال: «اعتنى أمير المسلمين أبو الحسن المريني ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم به مصالح الناس ومنافعهم.»[1]

ولا تزال بناءات السلطان أبي الحسن المريني ماثلة للعيان حتى الآن بحمة خولان المعروفة اليوم بحمة سيدي حرازم، وخلفها شمالا أسس السلطان المنعم سيدي محمد بن يوسف العلوي دارا كان ينزل بها رغبة في الاستحمام، وقد وسعها الملك الراحل الحسن الثاني رحمه الله.[2]

الفرع الثاني: حمة أبي يعقوب

حمة واقعة في الشمال الغربي من فاس على بعد 15 كلم منها تعرف اليوم بمولاي يعقوب، تنبع فيها مياه سخنة تشتمل على كميات وفيرة من الكبريت، يأتيها الناس من كل صوب لعلاج أمراض الجلد والروماتيزم والزكام الدماغي. ووقفنا على هذه الحمة عند الجزنائي رغم إشاراته الخفيفة لها، وتحدث

على أن الحمة هي للاستحمام والتداوي وهي من الحمات التي اعتنى بها السلطان المريني أبو الحسن.[3]

الفرع الثالث: حمة وشتاتة

حمة واقعة في المنحدر الشمالي لجبل زالغ المطل على فاس، في مائها كل خصائص ماء حمة مولاي يعقوب، إلا أنه أضعف منه كمية إذ لا يتجاوز كمية نبعه ثلاثة أمتار في الثانية، فلذلك لا ينتفع به إلا السكان المجاورون.[4]

(1) جذوة لاقتباس ج/1 ص:45.
(2) جنى زهرة الآس (أنظر الإحالة) ص:36.
(3) المصدر نفسه ص:36.
(4) جذوة الاقتباس ج/1 ص:45.
-(أنظر أيضا) جنى زهرة الآس ص:36.

لم يتطرق صاحبي الجذوة وزهرة الآس إلى تفاصيل كثيرة حول الحمة، مما يجعلنا نقف عند هذه الإشارات الضئيلة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وما يزال الغموض يكتنف الحَمَّات في المصادر التاريخية التي أرخت للحقبة المرينية.

المبحث الثاني: أوقاف المارستانات

كان أول واقف في الإسلام النبي المعظم سيدنا محمد ﷺ، ثم تبعه الصحابة رضي الله عنهم، ثم سارت الأمة الإسلامية على درب هؤلاء الأفذاذ، ومع مرور العصور وتوالي الأزمان بدأت تكتشف القيمة الحقيقية للأوقاف، إذ إنها ساهمت بدور حيوي في حل المشاكل التي واجهتها الأمة عبر تاريخها الحضاري الطويل.[1]

كما خصصت أوقاف لتسيير المارستانات ضمان لاستمراريتها وفعاليتها، وهي الخدمة التي تقدمها للناس في المجال الصحي فكان لا بد من وجود أوقاف سواء من نفقات الدولة أو المحسنين لمراعاة هذه المستشفيات، والتي ترفع الحرج عن المرضى وخاصة الفقراء منهم الذين لا يستطيعون تحمل تكاليف العلاج وما يترتب عليه، فيكون الوقف سببا في راحتهم وسعادتهم.[2]

ونسجل أن الأوقاف المتعلقة بالمجال الصحي لم تُذكر بشكل مفصل في المصادر التاريخية التي أرخت للدولة المرينية.

يقول محمد المهدي الحجوي عن مارستانات فاس: «وكانت لها قبل مداخيل وافرة.»[3]

جاءت إشارات قليلة عن أوقاف المارستانات في كتاب الذخيرة السنية، فقال عنها: «وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية وما يشتهون من الفواكه.»[4]

وتحدث الدكتور عبد الهادي التازي عن أوقاف المارستانات خصوصا ما وقف وحبس على مارستان فاس. ويقول في هذا الصدد: «بيد أن فكرة شمول المارستان لكل مشاريع الإحسان والبر تجسدت، على ما يظهر في بداية عهد بني مرين لما كثر بناء البيمارستانات. وقد كان للسلطان أبي الحسن فضل تجديد المارستان في فاس، واقتفى أثره أبو عنان في العناية به والتحبيس عليه، فكان قدوة لعدد من المحسنين والمؤسرين الذين أشفقت

(1) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية لراغب السرجاني نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع مصر الطبعة:1 سنة:2010 الصفحة:4.

(2) المرجع نفسه ص:9.

(3) حياة الوزان الفاسي ص:88.

(4) الذخيرة السنية ص:91.

قلوبهم على الأسرى والمنكوبين، فقدموا العطاءات الجزيلة المتوالية، فلم تمض مدة حتى كانت للمارستانات نظارة على حدة تتعهد المصابين بأمراض نفسية، والمتعبين والمحرومين والغرباء، وقد كانت لفكرة المصالح المرسلة التي يمتاز بها الفقه المالكي في المغرب أثر انتشار الأوقاف وتسبيلها على المرافق العامة، من المدارس والمارستانات، والأواني المكسرة، وتزويج المقلين.»[1]

والظاهر أن أوقاف المارستانات كانت كثيرة ومتنوعة حتى أنه في عهد السلطان أبي سعيد عثمان الثاني بن أبي سالم آخر ملوك بني مرين، حين احتاج إلى المال لتمويل الجيش، أشار عليه بعضهم ببيع أوقاف المارستانات، وإذا دفع العدو وانتهت الحرب أعاد شراء هذه الأملاك. غير أن أمه عارضته معارضة شديدة وقالت له: عن هذه المارستانات نفسها هي من أوقاف وصدقات أجداده الأمراء.[2]

وبعض سلاطين بني مرين نتيجة لطمعهم، كانوا يطمعون في أخذ الأملاك والأموال التي كانت توقف على هذه المارستانات والمستشفيات، تسديدا للعجز الذي حل بهم وبشؤون دولتهم، وليس بغريب أن يقع مثل ذلك في أيام السلطان أبي سعيد عثمان الثاني المريني، الذي كان يتخبط في مشاكل سياسية خطيرة أدت به تلافيا للعجز، إلى التسلط على الأموال التي كانت مرصدة لهذه المؤسسات الاجتماعية فصرفها عبثا في قمع الثورات التي كانت تنشب ضده من حين لآخر.[3]

وجاء في بعض الحوالات الحبسية أنه تم تخصيص من طرف بعض الناس أوقافا للموسيقيين الذين يسمعون المصابين في أوقات معينة ما يخففون به عنهم. وخصصت أوقاف لسيدي علي بوغالب[4] حيث يوجد ملجأ لأصحاب القروح والجروح.[5]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:457.

(2) حياة الوزان الفاسي ص:88-89.

(3) مظاهر الثقافة المغربية ص:226.

(4) كان السلطان المولى سليمان جدده وأضاف إليه مسجدا غير بعيد عن الغرف المخصصة للمرضى.

-جامع القرويين ج/2 ص:476.

(5) المرجع نفسه ج/2 ص:457.

المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمارستانات

كان الغرض من إنشاء المارستانات الذي كان يدعم عن طريق نظام الأوقاف أن يكون مثالا على النزعة الخيرية للإسلام. فالأهمية العظمى للمارستانات تكمن في شموله على الرعاية الصحية والتعليم الطبي في العهد المريني.(1)

فساهم أطباء ذلك العصر بمعالجة المرضى داخل هذه المنشآت. التي قامت بدور اجتماعي يلفت النظر، وذلك حينما ساعدت في إعانة الفقراء والمحتاجين الذين يسعون للتداوي فيها.

ويمكن القول إن المارستانات التي كانت في عهد بني مرين، كانت مهمتها بالدرجة الأولى مهمة إنسانية. وتم الاهتمام والعناية ببناء المارستانات، وتنظيم حرفة الطب حفاظا على صحة الناس، وإبعادا للمشعوذين والمدّعين لمهنة الطب، غير المؤهلين له.(2)

وتعتبر البيمارستانات أحد المظاهر الطبية التي أظهرت التفوق العلمي والعملي الذي برع فيه المسلمون ووصلوا بها إلى درجة متقدمة من التطور الحضاري والتقدم العلمي، وكانت الأهداف والغايات التي تنشدها رسالة البيمارستانات نبيلة وسامية لا يقصد من ورائها إلا خدمة الإنسان والمجتمع دون أي ثمن أو مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير والحاضر والبادي والمسافر والمقيم.(3)

وكان يشرف على هذه المارستانات أطباء أكفاء ويساعدهم في عملهم الفراشون والقومة لخدمة المرضى وللقيام بأعمال النظافة، وكان رئيس الأطباء يدور على المرضى ويتفقد أحوالهم وبين يديه مساعدوه، من أطباء وطلاب الطب، والمشرفون والقوام على خدمة المرضى، فكان كل ما يكتب للمريض من دواء وغذاء يجري تنفيذه ولا يؤخر. وكانت المارستانات التي أقيمت في مدة ازدهار الحضارة المغربية تتمتع بسمعة طيبة بلغت من التطور في كل النواحي كالبناء

(1) المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية أعمال ندوة المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية طرابلس، مداخلة بعنوان: المدارس الطبية في المغرب والأندلس لعبد اللطيف صطاف منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو سنة: 2011 الصفحة:228-229.

(2) مجلة الجمعية المغربية للتواصل الصحي مقال بعنوان: تاريخ البيمارستانات في المغرب للبشير بنجلون العدد:3 سنة:2012 موقع:www.tawassol.ma

(3) مقال السابق بعنوان: تاريخ البيمارستانات في المغرب للبشير بنجلون.

والعلاج وكذلك الأطباء الذين ضمتهم هذه البيمارستانات وهم من خيرة الأطباء المهرة الذين ساهموا بجهودهم في تطور الطب. فدور المارستانات هو دور كبير في النهوض والتعريف بالحضارة الإسلامية عامة والمغربية في العهد المريني خاصة وخصوصا في الميدان الصحي والرعاية الاجتماعية للمرضى.[1]

كما اهتمت السلطة المرينية بالرعاية الاجتماعية للمريض بعد خروجه من المارستان، فكانت تصرف لهم الكسوة والإعانة، أما إذا مات المريض في المارستان فعلى المارستان تجهيزه ودفنه حتى لو كان بين أهله. وكان الغرباء قديما يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام لمن لم يجد سكنا أو لا يقدر على دفع ثمن الفنادق.[2]

وكانت المارستانات توفر لهؤلاء المرضى كل الضروريات بحيث لا يحتاجون إلى شيء، فالمارستانات كانت تنقسم إلى قسمين منفصلين عن بعضهما، قسم للذكور وآخر للإناث كل منهما مجهز بالمعدات والأدوية، وله أطباء وممرضون وفراشون، داخل كل قسم قاعات لأمراض مختلفة.[3]

والظاهرة الاجتماعية التي سادت في العهد المريني كون المارستانات اهتمت بالخصوص بذوي الأمراض النفسية، كما ذكرت المصادر التاريخية. ففي الوقت الذي كانت أوروبا تجهل كيفية التعامل مع هؤلاء المرضى كان المغرب في عصر بني مرين يهتم ببناء المارستانات خصوصا للمرضى النفسيين، وتوفير الأطباء والممرضين لهم، فكانت عنايتهم بالصحة النفسية لكل عابر سبيل من داخل الوطن أو خارجه وكيفما كان حاله غنيا أو فقيرا.[4]

والمارستانات تكتسي أهمية قصوى داخل المجتمع المغربي خلال العهد المريني، لأنها عكست مدى وعي الدولة واهتمامها بالرعاية الصحية لمختلف طبقات المجتمع، وإن كان التركيز على وجود المارستانات داخل المجال الحضري والمدن الكبرى، في حين ينعدم وجودها في الأرياف والبوادي حيث تقل الخدمات الصحية.

(1) تاريخ البيمارستانات في المغرب.

(2) وصف إفريقيا ج/1 ص:227.

(3) مجلة الجمعية المغربية للتواصل الصحي مقال بعنوان: تاريخ البيمارستانات في المغرب.

(4) موقع نون بريس مقال بعنوان: تعرف على المارستان المغربي الذي علم الغرب أصول الطب النفسي لسكينة التوزاني موقع: www.nonpresse.com

وعلى خلاف ما حظيت به المؤسسات الدينية والمؤسسات العلمية من عناية بالغة الأهمية لدى مؤرخي دولة بني مرين، فلم تحظ المارستانات باعتبارها مؤسسة اجتماعية بنفس الاهتمام الذي وجدناه في المؤسسات الدينية والعلمية، إلا بعض الإشارات الخجولة عنها ويرجع ذلك إلى قلة الاهتمام بالجانب الصحي في المؤلفات التاريخية.

مما يجعلنا نضع أكثر من علامة استفهام عن غياب المادة التاريخية الدقيقة عن المارستانات خلال فترة حكم المرينيين.

وإضافة إلى الدور الصحي الذي تجسده المارستانات من الاهتمام بالمرضى ووصف الدواء المناسب لهم، كان لهذه المؤسسة دور آخر تجلى بوضوح، حينما اعتبرت المارستانات بمثابة الملاجئ الخيرية التي يأوي إليها غالبية الفقراء والمساكين، بعد أن جمعتهم الدولة هناك حتى يسهل عليها توزيع الصدقات عليهم والاهتمام بهم على أكمل وجه.[1]

وتجدر الإشارة إلى أن المارستانات توقف عملها بعد بيع أملاكها لصد العدو في عهد السلطان أبي سعيد عثمان بن العباس بن أبي سالم الذي توفي قبل أن يعيد شراء ما باعه من أملاك المارستانات الموقوفة عليها.[2]

وبقيت المارستانات فقيرة محرومة تقريبا من وسائل العمل. ومع ذلك فإنها تستضيف اليوم بعض الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة، حفاظا على الغرف لتبقى في حالة جيدة. فهذا كان حال المارستانات حتى بعد توقف الخدمات الصحية التي كانت تجود بها على عامة الناس.[3]

(1) المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط لمزدور سمية بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط تحت إشراف الدكتور محمد الأمين جامعة منتوري قسنطينة كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم التاريخ والآثار السنة الجامعية 2008-2009 الصفحة:155-156.

(2) وصف إفريقيا ج/1 ص:228.

(3) المصدر نفسه ج/1 ص:228.

المبحث الرابع: أطباء المارستانات

يعتبر علم الطب واحدا من أهم العلوم العقلية والبدنية، فقد أحاطه الأطباء المغاربة في العهد المريني باهتمام وعناية بالغة وخصوصية متميزة. وقد تجلى هذا الاهتمام والعناية في شكلين أساسيين: شكل نظري يتعلق بالأطباء وإنتاجهم وشكل ثاني يتعلق في إنشاء المارستانات.

وقد عرف الطب تطورا ملحوظا خصوصا بعد ظهور أطباء أجلاء برزوا في المجال الطبي فكان لهم فضل دراسته وتدريسه والتأليف في مجاله.

كما أدت الرعاية التي أبداها سلاطين الدولة المرينية بالأطباء إلى علو وسمو علم الطب، وبذلك تركت بصمة علمية في تلك الحقبة التاريخية. فساهم الأطباء في تطوير هذا العلم والنهوض به ومعالجة الكثير من الأمراض التي أصابت المغاربة، ونجحوا في علاج الكثير من الحالات المستعصية التي كان علاجها مستحيلا في بعض العصور.

ويمكن القول إن التطور الذي حدث في الطب المغربي زمن العهد المريني لم يأت من فراغ، وإنما حدث بتطور الأطباء أنفسهم وإبداء النجاعة والبحث المتواصل، والاهتمام بمنظومة الطب وسيلةً إنسانية بالمقام الأول والعناية الخاصة للمرضى، أو بالمؤلفات الطبية التي ألفت ودونت في تلك الحقبة الزمنية للدولة المرينية.

وفي هذا الجانب يتحدث الدكتور محمد بن شقرون فيقول: «أما الجانب النظري فقد كان يتجلى في تخرج الأطباء ونبوغهم وما خلفوه من إنتاج. ورغم كون هؤلاء الأطباء كانوا إلى جانب اشتهارهم بهذا الفن يلمون بفنون أخرى.»[1]

ومن أكبر الدلالات على كثرة الأطباء في العصر المريني، أن نجد كتابا مجهول المؤَلِّف ألا وهو «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ طبيب». وإذا كان هذا العدد من الأطباء في مدن المغرب ومن بينهم طبيبة بارعة هي عائشة بنت الجيار، فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة، ولا بد من أنهم كانوا كثيرين، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس في الداخل أو في داخلها مارستانات بديعة وعدة

(1) مظاهر الثقافة المغربية ص:227.

مارستانات أخرى خارج أبوابها، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلي وطبيب إن لم يكن أكثر.[1]

ولا بأس أن نقف على ترجمة بعض الأطباء الذين كان لهم صيت وباع في عهد بني مرين.

المطلب الأول: الطبيب أبو عبد الله الشريشي

يعرف عند عامة الناس بالحكيم وحكيم الرعاء، كان رحمه الله ممن له تقدم في صناعة الطب ومعرفة بما يرجع إليها من علم وعمل وكانت مكانته مكينة عند الأمراء والملوك مع رصانة العقل وحسن الشارة وصباحة الوجه استدعاه السلطان أبو عنان إلى حضرته فاجتمع هناك مع جماعة من الأطباء ونظر في شكيته فاستحسنه غاية الاستحسان وأجزل عطاءه، وكان السلطان يقول بعد ذلك في كلامه اختصت سبتة بأربعة رجال دون سائر بلاد المغرب كملوا في عصرهم خلقا وخلقا وسماهم من جملتهم الطبيب أبو عبد الله هذا، وكان له سلف في طريقته وحانوته برحبة الوزان من سبتة معروف إلى اليوم.[2]

ذكره صاحب جذوة الاقتباس بترجمة مقتضبة مقتصرا على ذكر اسمه ومهنته المعروف بها وهي الطب، ولم يقف على وفاته.[3]

غير أن صاحب بلغة الأمنية ذكر تاريخ وفاته التي كانت في سنة 771هـ.[4] ولم نقف على مصنفاته في مجال الطب.

المطلب الثاني: الطبيب محمد بن يحيى العزفي

هو محمد بن يحي بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي، من أهل سبتة، يكنى أبا القاسم، من رؤساء سبتة، بويع بعد أبيه يحيى في شعبان عام 719هـ، وخلع في صفر سنة 720هـ أمه بنت عم أبيه وهي عائشة بنت إبراهيم، انتقل إلى غرناطة عند خلعه وانصرافه

(1) المحكم في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب لمحمود عبد العزيز الزعبي أمانة عمان الكبرى بعمان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:2 الصفحة:596.

(2) بلغة الأمنية ومقصد اللبيب ص:186.

(3) جذوة الاقتباس ج/1 ص:317.

(4) بلغة الأمنية ومقصد اللبيب ص:186.

عن بلده، ونظر في الطب ودوَّن، وبرع في التوشيح، وانتقل إلى مدينة فاس فاستعمل بها في الخطط الفقهية وكتب عن ملوكها وقام له سوق نافق بها وعلى تدفق أنهاره، وكثر غالي نظمه واشتهاره.(1)

كما وصفه صاحب الإحاطة بأنه من أهل الظرف والبراعة، والطبع المعين، والذكاء.(2) توفي بفاس التي رحل إليها سنة 768هـ.(3)

المطلب الثالث: الطبيب أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي الفاسي

أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي من أهل مدينة فاس يعرف بابن شعيب، وجزناية قبيلة من قبائل البربر من الريف الغربي، كان من أهل المعرفة بصناعة الطب والتدقيق النظر فيه وتهتك في علم الكيمياء وخلع فيه العذار. قرأ ببلده مدينة فاس على كثير من شيوخها كالأستاذ ابن آجروم نزيل فاس، والأستاذ أبي عبد الله بن رشيد، ووصل إلى تونس فأخذ الطب على الشيخ يعقوب بن الدراس.(4)

وذكره صاحب الإحاطة بأنه من أهل المعرفة بصناعة الطب، وتحقيق النظر فيها. دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد (من سلاطين بني النصر حكم من 733هـ إلى 755هـ) لقرب من ولايته في بعض شؤونه، وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة التي يتشوف الطيب إليها والشحرور.(5)

فالطبيب الجزنائي كان إماما في الطب ماهرا في صناعته دقيق النظر فيه، غاية في معرفة النباتات والأشجار.(6)

توفي رحمه الله بتونس في يوم عيد الأضحى من سنة 749هـ.(7)

(1) جذوة الاقتباس ج/1 ص:300.
-(أنظر أيضا): الإحاطة ج/3 ص:3.
(2) الإحاطة ج/3 ص:3.
(3) مظاهر الثقافة المغربية ص:227.
(4) جذوة الاقتباس ج/1 ص:119-120.
(5) الإحاطة ج/1 ص:134-135.
(6) مظاهر الثقافة المغربية ص:227-228.
(7) الإحاطة ج/1 ص:138.

المطلب الرابع: الطبيب أبو عبد الله بن مروان المعافري

شيخ نحيف البدن معتدل القامة، نبيل العقل ذاكراً لأيام الناس وأخبارهم كثير المخالطة للطب والاطلاع على دواوينه وكتبه مستحضرا لنصوص علمائه من المقدمين كديا سقوريدوس وابقراط وجالينوس ومن المتأخرين كالرازي والزهراوي وابن سينا وابن طفيل وسواهم، عارفا بالعلل والشكايات بصيرا بالعقاقير والأعشاب، والنبات ينص ما يسأل عنه من ذلك لأول وهلة ويفتي فيه إملاء من حفظه على البديهة من غير روية وكان يثني على كلام حنين بن إسحاق في البول ويحفظ كثيرا من رجز ابن أبي طفيل الطبي، وهو أزيد من ثلاثة آلاف بيت ويأتي بأخبار وحكايات من طبقات الأطباء لابن جلجل، ويحسن التراكيب والتدابير ويعرف خواص الأحجار، سخيا بما يعمله من ذلك لا يحسد فيه أحدا، ولا يلتفت إلى أخذ أجر عليه بل يبادر إلى إجابة السائل ويقدمها على أشغاله ومهماته، مع احتياجه وعدم غناه طبعا طبع عليه نفع الله، وولي آخر عمره أحباس سبتة والنظر في كتب الخزانة الشهيرة التي بشرقي صحن الجامع العتيق منها، فانتفع الطلبة مدة نظره بكتبها الطبية بسبب إرشاده وإفادته. توفي رحمه الله زمن الطاعون في عشر ذي الحجة من عام 817هـ.(1)

المطلب الخامس: الطبيب علي بن هيدور التادلي الفاسي

يكنى أبا الحسن عالم في الطب، من أهل فاس.(2)

ترجم له صاحب جذوة الاقتباس ترجمة مقتضبة مختزلة فقال عنه: «إمام الفرائض والحساب، له شرح على تلخيص ابن البنا في الحساب، وتقييد على رفع الحجاب له أيضا، وكان له خط راق، وكان كثير التقييد وله مشاركة في فنون شتى.»(3)

فالطبيب علي بن عبد الله اشتهر بالطب إذ ترك فيه أثرا يدل على تضلعه فيه وهو عبارة عن رسالة سماها «المقامة الحكيمة في الأمراض الوبائية» وقد ألفها في هذا العصر الذي

---

(1) بلغة الأمنية ومقصد اللبيب ص:187.

(2) ترتيب الأعلام على الأعوام للزركلي تحقيق زهير ظاظا فهرسة وترتيب محمد نزار تميم وهيثم نزار تميم دار الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر لبنان الطبعة:1 سنة:2006 الجزء:1 الصفحة: 502.

(3) جذوة الاقتباس ج/2 ص:475.

اجتاح فيه الطاعون المغرب وغيره من الأقطار الأخرى. توفي رحمه الله في المجاعة التي حلت بالمغرب سنة 826هـ.[1]

المطلب السادس: الطبيب علي بن أبي غالب الإدريسي

يعتبر من الأطباء الجراحين ولد بفاس سنة765هـ، نشأ يتيما تحت حضانة والدته فعلمته صناعة الحجامة ثم درس الطب حتى مهر فيه واشتهر وأخذ يباشر العمليات الجراحية فكان موفقا فيها، الشيء الذي لفت الأنظار إليه وجعل الطلبة وغيرهم يقصدونه من كل حدب وصوب ليأخذوا عنه أو لينتفعوا بنصائحه وإرشاداته العلمية.[2]

ويذكر الدكتور بن شقرون أنه حاول التعرف على ما قد يكون تركه من أثر، لكن المصادر لم تشر لا بقليل ولا بكثير إلى انتاجه إما لضياع أو إما لإهمال توفي رحمه الله سنة 801هـ.[3]

المطلب السابع: الطبيب لسان الدين بن الخطيب

هو محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد بن علي السلماني، كان سلفه يعرفون بقرطبة ببني وزير وهم بها أهل نباهة، وبيتهم بيت فقه ونجارهم نجار فرسان، كان جدهم الأعلى بلوشة قاضيا وهو المضاف إلى اسمه، وبه يعرف بني الخطيب، يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين، وله تأليف مشهور. أخذ الطب وتعلمه عن أبي زكريا بن هذيل، وأخذ عن جماعة كابن المهنى، وغيره.[4]

جاء في ترجمته من كتاب نيل الابتهاج أنه الإمام الأوحد صاحب الفنون المنوعة والتآليف العجيبة ذو الوزارتين، وألف تآليف عديدة أكثرها في الأدب وتاريخ الطب. كان مولده سنة 713هـ وتوفي مقتولا فاتح عام 776هـ.[5]

(1) مظاهر الثقافة المغربية ص:228.

(2) المرجع نفسه ص:228.

(3) المرجع نفسه ص:228.

(4) جذوة الاقتباس ج/1 ص:308-309.

(5) نيل الابتهاج ص:445.

ولسان الدين بن الخطيب غني عن البيان والتعريف نظرا لشهرته الواسعة وشهرة تآليفه خصوصا المؤلفة في المجال الطبي، ولقد أحببنا في باب المعرفة والعلم بالشيء أن نذكر ثلة من مؤلفاته ونستعرض منها ما وجدناه وما ذكر منها وهي:

-المسائل الطبية

-الرجز في عمل الثرياق

-اليوسفي في صناعة الطب

-رسالة تكوين الجنين يبدو من عنوانه أنه يبحث في علم تكوين الأجنة في الإنسان عبر مراحل وهو كتاب مفقود.

-عمل من طب لمن حب وهو كتاب ضخم يقع في سفر ويبحث في مختلف الأمراض التي تصيب الإنسان وطرق معالجتها والوقاية منها، ألفه ابن الخطيب للسلطان أبي سالم المريني.

-المعتمد في الأغذية المفردة وهو عبارة عن أرجوزة تتحدث عن منافع الأغذية ومضارها.

-مقنعة السائل عن المرض الهائل أو الوفاد. انتشر هذا الكتاب في الولايات الإسلامية تحت اسم رسالة في الطاعون وأسبابه وطرق مكافحته والوقاية منه بأسلوب علمي رصين.

-الفصول لحفظ الصحة في الفصول وهو كتاب يبحث في الحمية الغذائية، يقع في جزئين: جزء التعريف ويعالج فيه الجانب النظري، وجزء التصويف، ويعالج فيه الجانب العلمي في الوقاية وحفظ الصحة.

-البيطرة ويقع في سفر واحد وهو يبحث في طرق العناية بالخيول ومحاسنها وعلاج الأمراض التي تصيبها.

-البيزرة يقع في سفر واحد ويبحث في الطيور الجوارح وأنواعها وصفاتها وطرق العناية بها وهو مفقود.

-تكملة الأغراض في مزاولة الأمراض وهو مخطوط في خزانة الحاج الهادي السودي القرشي بفاس ويقع في 117 ورقة.[1]

تقول محققة كتاب مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل الدكتورة حياة قارة:»» وكان ابن الخطيب يعالج المرضى مجاناً وبدون مقابل خدمة اجتماعية منه لأهل الفقر والحاجة، كما أخبرنا أبو عبد الله الشقوري في كتابه «تحفة المتسول وراحة المتأمل» أنه حكى علمُ العلماء وتاج الرؤساء البلغاء، وكبير مهرة الأطباء سيدي أبو عبد الله ابن الخطيب، أنه كان ذات يوم جالسا ومعه بعض وجوه الناس، وهو إذ ذاك ينظر في الطب، فشكى إليه مريضا وجعاً وتقطيعاً ولذعا تحت السرة، وأنه يبول دما عبيطا، فسأله كم له بذلك؟ فأخبره أنه منذ زمن يسير، فحدس بذكاء فطنته وجودة عقله، وحسن إدراكه أن ذلك من حيوان سمي خاصته ذلك، فقال له: ما صناعتك؟ فقال له: أخدم في الفحص. فقال له: وفيما تشرب؟ قال: في قرعة. فأمره بكسرها، فوجد فيها ذراريح قد تفَسَّخَتْ، وهذه خاصة هذا الحيوان الإضرار بالمثانة يقرحها فيبول الدم، ولذلك يخلط منها اليسير جدا في أدوية الحصى، لتنفذ بها بسرعة وتوصلها قبل أن تغير الطباع تلك الأدوية فتضعف قواها لطول المسافة، ثم إنه بادر لعلاجه بعلاج ألصق صنعا وأغرب نوعا فكانت الراحة.»»[2]

المطلب الثامن: الطبيبة عائشة بنت الجيار

الطبيبة عائشة ابنة الشيخ الكاتب الوجيه أبي عبد الله بن الجيار المحتسب بسبتة قرأت علم الطب على صهرها الشيخ الشهير أبي عبد الله الشريشي المذكور، ونبغت فيه وكانت امرأة عاقلة عالية الهمة نزيهة النفس معروفة القدر لمكان بيتها، لها تقدم بالطبع وجزالة في الكلام، عارفة بالطب والعقاقير وما يرجع إلى ذلك، بصيرة بالماء وعلاماته وتأثل لها بطريقتها صيت شيده الأمراء فطالما كانوا يجيزونها بالهدايا والتحف وغيرها، لأجل ما خبروه

---

(1) مظاهر الثقافة المغربية ص:229.

-(أنظر أيضا) مجلة كلية التربية للبنات مقال بعنوان: المؤرخ الوزير بن الخطيب شيخ علماء غرناطة لمحمد بشير العامري وزينة داود سالم العدد:2 سنة:2016 المجلد:27 الصفحة:564-565.

(2) مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل للسان الدين بن الخطيب تحقيق حياة قارة مطبعة دار الأمان الرباط الطبعة:1 سنة:2015 الصفحة:6-8-9-10.

من حرفتها، وكان لها رباع تغتلها ولم تزل سيدة محفوظة المنصب إلى أن توفيت بعد أن عهدت بتوقيف رباعها في وجوه البر وسبيل الخيرات رحمها الله.[1]

صنفها الدكتور عبد الله كنون في خانة الميدان العلمي باعتبارها احترفت الطب وميادينه ومن جهابذته في العصر المريني. فقال: «أما في الميدان العلمي فسنترجم للطبيبة عائشة بنت الجيار مكتفين بها، ونحن على يقين من أن هناك كثيرات من السيدات الفاضلات اللاتي كن يشاركن في غير ما ذكر من ضروب المعارف.»[2]

المطلب التاسع: الطبيب الأندلسي محمد بن القاسم القرشي المالقي

من الأندلسيين الذين عملوا بالطب في العاصمة المرينية فاس محمد بن القاسم بن أبي بكر القرشي المالقي، رحل هذا الطبيب إلى فاس، حيث تولى بها الإشراف على المارستان، كان ذلك في ربيع الثاني سنة 754هـ/1353م في عهد السلطان أبي عنان.[3]

المطلب العاشر: نظارة المارستان

ممن تقلد نظارة المارستان محمد بن القاسم بن أبي بكر القرشي المالقي نزيل غرناطة، ثم فاس، والمتوفى سنة 754هـ/1353م، كان ناظر مارستان فاس. والشيخ الحاج أبو ضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري نزيل آسفي وبها لقي ابن الخطيب الذي خططه بصاحب السوق ومقيم المارستان، وذلك سنة 761هـ/1359م.[4]

المطلب الحادي عشر: أطباء السلاطين

وهم الأطباء المختصين بمداواة السلاطين ملازمين لهم في بلاطهم، وقد يتعدون إلى الأمراء والحاشية باعتبارهم أطباء القصر، وتجرى عليهم مرتبات خاصة.[5]

(1) بلغة الأمنية ومقصد اللبيب ص:187-188.
(2) النبوغ المغربي ج/1 ص:203.
(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:349.
(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:90.
(5) المرجع نفسه ص:95.

الفصل الرابع:
الرعاية الاجتماعية في عهد بني مرين

الرعاية الاجتماعية نسق منظم للخدمات الاجتماعية والمؤسسات ينشأ لمساعدة الأفراد والجماعات لتحقيق مستويات ملائمة للعيش والصحة ويستهدف العلاقات الشخصية والاجتماعية التي تسمح للأفراد بتنمية أقصى قدراتهم وتحقيق تقدمهم وتحسين حياتهم بحيث تنسجم وتتوافق مع حاجات المجتمع.[1]

والإسلام الحنيف دعا ورغب على القيام بالرعاية الاجتماعية، واعتبره عملا طيبا نافعا يقوم به المرء المسلم ويؤديه ابتغاء مرضاة الله وفضله مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [سورة المزمل الآية:18] [2]

سلك الإسلام سبيل الرعاية الاجتماعية بين الأسرة والأمة وفي المجتمعات الصغيرة، وجعل لهذا التكافل منابع متعددة وطرق متنوعة.[3]

والرعاية الاجتماعية في معناها اللفظي أن يكون أحاد الشعب في كفالة ورعاية جماعتهم، وأن يكون كل قادر أو ذي سلطة كفيلا في مجتمعه يمده بالخير، وأن تكون كل القوى الإنسانية في المجتمع متلاقية في المحافظة على مصالح الآحاد، ودفع الأضرار، ثم في المحافظة على دفع الأضرار عن البناء الاجتماعي وإقامته على أسس سليمة. ولعل أبلغ تعبير لمعنى الرعاية الاجتماعية قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.»[4] فالرعاية الاجتماعية في مغزاها ومؤداها أن يحس كل واحد في المجتمع بأن عليه واجبات لهذا المجتمع يجب عليه أداؤها، وإن تقاصر في أدائها، فقد يؤدي ذلك إلى انهيار البناء عليه وعلى غيره، وأن للفرد حقوقا في هذا المجتمع يجب على القوامين عليه أن يعطوا كل ذي حق حقه من

(1) مجلة التراث العلمي العربي مقال بعنوان: رعاية المسنين في التراث الإسلامي لأحلام محسن حسين العدد:38 سنة:2018 الصفحة:224.

(2) الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية لمحمد المكي الناصري طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1992 الصفحة:3.

(3) التكافل الاجتماعي لأبي زهرة ص:113.

(4) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا رقم الحديث:5567 ج/3 ص:220.

غير تقصير ولا إهمال، وأن يدفع الضرر عن الضعفاء، ويسد خلل العاجزين، وأنه إن لم يكن ذلك تآكلت لبنات البناء. والرعاية الاجتماعية توجب أن يكون جميع الناس متساوين في أصل الحقوق والواجبات، ويوجب أن تكون نتائج الأعمال بمقدارها، من غير تجاوز للحد ولا شطط. كما تساهم الرعاية الاجتماعية في سد حاجة المحتاجين ممن لا يستطيعون القيام بعمل، يسد عجز العاجزين.[1]

وجدير بالذكر أن أهل المغرب في العهد المريني اهتموا بالرعاية الاجتماعية وحفروا هذه الرعاية بماء من ذهب بقيت منقوشة إلى يومنا هذا، وكان هذا الاهتمام في مختلف المجالات، وقد أشار الونشريسي ضمن نوازله إلى العديد من الأمثلة التي توضح نظام الرعاية الاجتماعية في المغرب الإسلامي. ولم يغفل أهل الثراء والبر أيضا عن المشاركة في رعاية الأيتام، وقد حظي المرضى، والمسجونين، والأسرى أيضا باهتمام ورعاية أهل الخير من الأثرياء. كما نلاحظ أيضا أن الموسرين في بلدة ما كانوا يوصون عند شعورهم بدنو أجلهم في حالة حدوث وباء بجزء من أملاكهم لفداء الأسرى وبعض جهات البر والخير.[2]

وسلاطين الدولة المرينية عبر سنوات حكمهم للمغرب ساهموا في وضع لبنات الرعاية الاجتماعية وتشجيع الناس من أهل الثراء على إغناء منظومة الرعاية الاجتماعية، فبادروا بدورهم بفتح مبادرة الأعمال الخيرية والإحسانية في مختلف الميادين، ولجميع شرائح المجتمع، فخصصوا العطاءات السخية والصلات المستمرة، فكان لهذه البادرة أهمية كبيرة ظهرت نتائجها في حياة الناس وأوضاعهم الاجتماعية، والتي تمثلت في مساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين والمسنين والأرامل، وتجهيز الموتى ودفنهم، وذوي الاحتياجات الخاصة والمطلقات والعميان، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تروم في نفس السياق.

يتبين مما تقدم أن روح الرعاية الاجتماعية كانت مدعمة بتدعيم سلاطين الدولة المرينية تقربا بها إلى الله تعالى وخدمة للمواطنين الذين هم في وضعية الحاجة والفاقة.

(1) التكافل الاجتماعي لأبي زهرة ص:7.

(2) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:24-25-26.

المبحث الأول: رعاية الشيوخ المسنين

المطلب الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للشيخ المسن

الفرع الأول: الشيخ المسن في اللغة

الشيخ من أدرك الشيوخة، وهي غالبا عند الخمسين، وهو فوق الكهل ودون الهرم. ونقول شاخ الإنسان شيخا وشيوخة شيخوخة: أسن، ويقال شاخ النبات: يبس جوفه وتليَّف.[1]

والشيخ من استبانت فيه السن، من خمسين أو إحدى وخمسين إلى آخر عمره أو إلى الثمانين. جمع شيوخ وأشياخ وشيخة ومشيخة وتصغيره شييخ.[2]

وقيل شاخ يشيخ شيخا، بالتحريك وشيوخة وشيوخية، عن اللحياني، وشيخوخية فهو شيخ، وشيخ تشييخا أي شاخ، وأصل الياء في شيخوخة متحركة فسكنت لأنه ليس في الكلام فعلول.[3]

الفرع الثاني: الشيخ المسن في الاصطلاح

1 -تعريف المالكية: عرف أهل المذهب المالكي بأنه الشيخ الكبير الهرم الذي لا يقدر على الصوم بوجه من الوجوه.[4]

2 -تعريف الحنفية: عرفه أصحاب الإمام أبي حنيفة وقالوا: الشيخ الهارم الذي لا يقدر على الصوم، وفنيت صحته وقوته، وهذا ما ذكره الشيخ شلبي في حاشيته حينما عرف الشيخ

(1) المعجم الوسيط [مادة شاخ] ص:502.

(2) القاموس المحيط [مادة شيخ] ص:904-905.

(3) لسان العرب [مادة شيخ] ج/3 ص:32.

(4) مواهب الجليل في شرح مختصر شيخ خليل لمحمد بن محمد المالكي المغربي الحطاب أبو عبد الله تحقيق محمد يحى بن محمد اليعقوبي الشنقيطي دار الرضوان نواكشوط الطبعة:1 (بدون تاريخ) الجزء:3 الصفحة:192.

الهرم فقال: «قوله للشيخ الفاني الذي قارب الفناء أو الذي فنيت قوته. وفي جامع البرهان في تفسيره أن يعجز عن الأداء ولا يرجى له عود القوة، ويكون مآله الموت بسبب الهرم.»[1]

3 -تعريف الشافعية: يرى الشافعية أن الشيخ الهرم الذي له عجز يعجزه في حالة الكبر.[2]

ويتبن من خلال التعاريف اللغوية والاصطلاحية أن الشيخ المسن هو الذي بلغ عتبة الكبر وصار جسمه ضعيفا يعجزه عن القيام بالأعمال سواء الأعمال الشرعية أو الأعمال اليومية المعتادة للبشر.

المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للشيخ المسن في العهد المريني

إن رعاية المسنين تختلف باختلاف العصور والمراحل التاريخية، وباختلاف المجتمعات من جهة أخرى. وقد شهدت الحياة الاجتماعية ضروبا من رعاية المسنين التي تمثلت في الخدمات التي كانت وما تزال محطة عناية أولي الأمر على اختلاف مسمياتهم كانوا أمراء أو ملوك أو ما أجمع عليه أصحاب الشأن في تلك المجتمعات، ولا بد من القول إن كل مجتمع وكل عصر وزمان أسلوبه في التعامل مع أبنائه خصوصا رعاية الشيخ المسن.[3]

فالشيخوخة طور من أطوار الحياة، وهي ليست مرضا، وإنما هي فترة يتغير فيها الإنسان تغيرا فسيولوجيا إلى صورة أخرى ليست بأحسن مما كان عليه سابقا كون الصورة الجديدة يصاحبها ضمور في كثير من الأعضاء، وفقدان ملموس للقوة.[4]

يقول عز وجل: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضُعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضُعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [سورة الروم الآية:53]

(1) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخر الدين عثمان بن علي الويلعي الحنفي بحاشية الشيخ شلبي مكتبة إمدادية ملتان باكستان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:1 الصفحة:337.

(2) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لابن شهاب الدين الرملي تحقيق علي بن علي الشبراملسي وأحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:3 سنة:2003 الجزء:3 الصفحة:193.

(3) مجلة التراث العلمي العربي مقال بعنوان: رعاية المسنين في التراث الإسلامي لأحلام محسن حسين العدد:38 سنة:2018 الصفحة:225.

(4) المرجع نفسه ص:227.

فقد سبق الإسلام كل الأنظمة السابقة أو الحديثة لرعاية الشيخ المسن، إذ يحظى الشيخ المسن في مجتمعاتنا الإسلامية عادة بكثير من التقدير والاحترام، فالإسلام كفل للشيخ المسن الرعاية الاجتماعية كالنفقة والمسكن والملبس والصحة وتجهيزه إذا لقي ربه ودفنه.[1]

الفرع الأول: تخصيص النفقة للشيوخ المسنين

إن المؤلفات التاريخية التي أرّخت للزمن المريني بالمغرب، خصوصا فيما يتعلق بجانب العمل الاجتماعي، كانت معلوماتها جد يسيرة، بسبب التركيز على الجانب السياسي والعسكري والاقتصادي للدولة المرينية، وربما يكون إهمالا من طرف المؤرخين الذين اهتموا بكتابة تاريخ الدولة من جوانب أخرى. ذلك كله دفعني إلى البحث في كتب غير الكتب التاريخية، مما جعلنا نتخبط في بركة شح المعلومة الدقيقة والمؤكدة التي تكون فصلا للجدال خصوصا أن التاريخ يحتاج للدقة وإثبات النصوص الصحيحة دون الخروج عن الحقيقة.

غير أنني أرجع وأقول: إن سلاطين بني مرين اهتموا كثيرا بالشق الاجتماعي خلال هذا العصر، وهذا ما يتبين من خلال استقراء النصوص التاريخية، التي تحدثت عن المجهدات المبذولة من طرف الدولة والمجتمع لأجل تحقيق هذه الرعاية الاجتماعية.

وانطلاقا من كل هذا فالدولة أخذت على عاتقها رعاية الشيوخ الضعفاء، الذين لا يجدون النفقة ولا الإعالة بسبب الضعف والعجز وعدم القدرة على القيام بالشؤون الخاصة. فخفضت لهم الدولة جناح الذل من الرحمة، فخصصت لهم بناء يشبه الربط لسكناهم ورواتب تصرف لهم بأسمائهم.[2]

ويتحدث ابن مرزوق عن هذه الفئة بتخصيص النفقة ورواتب لهم فيقول: «كان مولانا رضي الله أشفق خلق الله على من علت سنه ووهنت قوته، وقد أجرى على من اتصف بالشياخة من الضعفاء ولازم الخير رواتب تكفيهم ورسمهم في جرائد عماله شيوخ الجامع.»[3]

(1) مجلة التراث العلمي العربي مقال بعنوان: رعاية المسنين في التراث الإسلامي ص:227.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:327.

-(أنظر أيضا) الحضارة العربية الإسلامية في المغرب ص:239.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:427.

ومن الحوادث التي وقعت عهد السلطان أبي الحسن المريني ما وقع لشيخ مسن من الموحدين الذي ناله عطف وإحسان السلطان، ويروي لنا ابن مرزوق هذه الحادثة فقال: «قال أبو الحسن: ترى هل بقي في هذه المدينة أحد من ذريتهم وعقبهم؟ فقال الفقيه أبو الفضل بن أبي مدين وغيرهم نعم يا مولاي، هاهنا شيخ ظريف المنزع، حسن الهيئة، سري الهمة متعفف، متقلل صالح، ملازم لمواضع الخير، قد طعن في السن وقارب الهرم. فقال لهم: وبما يتعيش؟ فقالوا له: سبب ضعيف. فقال لهم: وَلِمَ لم يجر له من المخزن ما يتعيش به؟ فقالوا: ما نعلم له سببا. فقال: عليّ به الآن، فجيء به فقربه مولانا رحمه الله وأدناه وأجلسه بين يديه فسأله عن نسبه، فأخبره أنه أبو جعفر بن فلان بن يحيى بن المنصور، فألبسه مولانا بلباسه الذي يلبسه فعاد ملكا في هيئته، فأمر بالإحسان إليه وتعاهده الطعام في كل ليلة يصل إليه. ويزيد ابن مرزوق بقوله: ودعونا لمولانا يوم أحسن إليه بمن أحسن، فقال: أليس من ذوي الأحساب ومن أبناء الملوك وممن خانه الزمان، فإن لم يصنع المعروف مع مثل هذا وإلا فمع من يصنع.»[1]

من خلال استقراء النصوص التاريخية يتبن أن الدولة المرينية أرخت سِدال الرحمة والرأفة في وجوه الضعفاء من المسنين احتراما لكبر سنهم وعجزهم، فكانت هذه المبرّة من النعم التي أظلت ظلالها، وأثمرت ثمارا يانعة نافعة للأمة، ولقيت استحسانا وترحيبا من جميع أطياف المجتمع المريني.

الفرع الثاني: تخصيص مساكن خاصة للشيوخ المسنين

بذلت الدولة المرينية جهودا جبارة في الميدان الاجتماعي تحمد عليها خاصة لهذه الفئة الضعيفة والعاجزة، فأحدثت دورا خاصة بالمسنين لتكون مأوى لهم بدل الشارع ولحفظ كرامتهم من السؤال والتعفف عنه وربطهم اجتماعيا بين أفراد المجتمع، ورفع حرج العوز والفاقة عنهم.

وهذه المبرة تضافرت فيها جهود الدولة مع مبادرات المحسنين، فعمد السلطان أبو الحسن المريني إلى بناء دور شبيه بالربط برسم سكنى من دخل مرحلة الشيخوخة من

(1) المسند الصحيح الحسن (بتصرف) ص:337-338-339-341.

الضعفاء الملازمين للخير. وقد ورد في لوحة الأوقاف على مدرسة الأندلس بفاس هذه الفقرة: «وأمر أبو الحسن مع ذلك ببناء دار أبي «حباسة» للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع الأندلس والغالب أن هذه البنية هي نفس الفندق المواجه لدار الوضوء التابعة لمدرسة الأندلس. وقد كان حينها مسكنا للمكفوفين.»[1]

وبفاس قصر يحمل اسم دار الشيوخ عند زقاق رياض جحا بين الصاغة ورحبة قيس. وكان بمكناس دار شيوخ وهي بالضبط فندق الجزارين داخل باب الحديد.[2]

وكتب ابن مرزوق عما أحدثه السلطان أبو الحسن من بناء دار للمسنين العجزة فيقول في هذه المنقبة العظيمة والفضيلة والتي كانت مرضاة لله: «وبنى لهم دورا شبه الربط وأجرى لهم كساء في كل عام

تكفيهم، وهذه منقبة عظيمة وفضيلة جسيمة نفعه الله بها وأعظم له أجرها.»[3]

كما أوقف السلطان أبو عنان ما جبى من الأبواب على العجائز والمشايخ الملازمين للمساجد بجميع الجهات المرينية.[4]

ويمكن القول إن السلطة المرينية وأهل البر والإحسان، كان لهم الفضل في خدمة هذه الفئة من المجتمع، وحققوا لها جانبا من الطمأنينة التي حث عليها ديننا الحنيف، فكانت بذلك خير مزية.

(1) مذكرات من التراث المغربي ص:77.

(2) المرجع نفسه ص:77-78.

(3) المسند الصحيح الحسن ص:427.

(4) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي لمصطفى بنعلة منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط الطبعة:1 سنة:2007 الجزء:1 الصفحة:72.

المبحث الثاني: رعاية اليتيم

اهتم الشرع الحنيف بموضوع كفالة ورعاية اليتيم، ومما زاد اليتيم شرفا أن سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ كان يتيما، فآواه الله جل جلاله وهداه وأغناه فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فَأَاوىٰ﴾ [سورة الضحى الآية:6]. فمنزلة اليتيم في الإسلام منزلة عزيزة لفقده من يقوم برعايته وسبب وجوده الأول، فحث ربنا سبحانه المجتمع كله على رعاية الأيتام بتنوع جميل. فتارة يحثهم على رعايته بالترغيب لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰامىٰ قُلِ اِصْلَٰح لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۖ﴾ [سورة البقرة الآية:218] وتارة يحثهم على ذلك بالترهيب بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْۖ﴾ [سورة الضحى الآية:9].(1)

ومما لاريب فيه أن الإسلام حرص على رعاية الإسلام لليتيم والعناية به، بل وأَوْلَاه اهتماما خاصا نظرا لفقدانه سند الأسرة، التي يقوم عليه الطفل الصغير، واعتبر كفالة اليتيم من أجَل أفعال الخير التي لا يكون جزاؤها إلا الجنة. حتى أن منهجنا الإسلامي يقوم على الاحترام والتعاون على إقامة البر والإحسان لهذه الفئة المكْلُومة، بل طالب الشارع في جلب المصلحة له والحفاظ على ماله، ودفع المضرة عنه، والطفل اليتيم هو بحاجة ماسة إلى رعاية خاصة باعتباره محروما من والديه أو وأحدهما، فكم من آية في القرآن الكريم أوجبت بر اليتيم والإحسان إليه، وكان أمرا مقضيا من الله تعالى.

فقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْر فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَالَاقْرَبِينَ وَالْيَتَٰمِىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ اِلسَّبِيلِۖ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْر فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌۖ﴾ [سورة البقرة الآية:213]

وجاء في الحديث الشريف عن ابن أبي حازم قال: حدثني أبي قال: سمعت سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بِإِصْبَعَيْه السبابة والوسطى.»(2)

وتقوم حقوق الأيتام في الإسلام على قواعد الإسلام الكلية وتنبع من فيض عدالته وحكمته، حيث انطلقت أسسها من منطلقات ثابتة مستمدة أصولها من الإسلام، ونحن هنا نعدد الأسس التي تقوم عليها حقوق الأطفال الأيتام في التشريع الإسلامي، ليعلم أن ما

(1) تحفة اليتيم واللقيط لمحمد أحمد أبو مسلم مكتبة الألوكة (بدون رقم طبعة) سنة:2015 الصفحة:2-9.

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيما رقم الحديث:5546 ج/3 ص:216.

يقدم لليتامى ليس منطلقا من عطف مؤقت، أو رحمة عارضة أو إحسان يمارسه المسلم في يومه ويتلاشى في غده، بل تقوم رعاية اليتامى في الإسلام على أسس ركيزة ومنطلقات راسخة تحفها تعاليم هذا الدين العظيم.(1)

وصفوة القول إن الإسلام اعتنى بالأيتام عناية كبيرة، وما تلك الآيات العديدة في كتاب الله وذلك الحث المتوالي من رسول الله ﷺ إلا دليل ومؤشر قوي على هذه العناية، والتي ترجمتها القرون الأولى عمليا وتعاملت معها أمرا واقعا، فمن يتتبع التاريخ الإسلامي يرى بوضوح مقدار الحرص على رعاية اليتيم وكفالته بحثا عن الأجر ومرافقة النبي ﷺ في الجنة.(2)

كما تنوّع الأسلوب التشريعي في بيان حقوق اليتيم الاجتماعية، ولكنه شرع معه من حين الطفولة المبكرة لما لهذه المرحلة من الأهمية البالغة في احتضان اليتيم، وإيوائه ليعيش في جو من الحنان الدافئ لينسيه مرارة اليُتْم، وليعوض عليه ما فاته من عواطف الأبوة. ولذلك نرى الكتاب الكريم يسلك طريقا جديدا للوصول إلى بيان حقوق اليتيم الاجتماعية ذلك هو توجيه الخطاب إلى النبي الأكرم ﷺ، متخذا من الواقع المرير الذي مر به وهو طفل خير درس يوجهه إلى الأفراد لرعاية اليتيم. فمن هذه النقطة سيكون المنطلق لمسيرة الإسلام مع الحملة التوجيهية لليتيم.(3)

المطلب الأول: مفهوم اليتيم

الفرع الأول: اليتيم لغة

اليُتْم الانفراد عن يعقوب، واليتيم الفرد. واليُتْم واليَتْم: فقدان الأب. وقيل اليتم في الناس من قبل الأب وفي البهائم من قبل الأم، ولا يقال لمن فقد الأم من الناس يتيم ولكن

(1) حقوق الأيتام واللقطاء في الإسلام لعبد الله بن ناصر السدحان مركز النشر والإعلام السعودية (بدون رقم طبعة سنة:2009 الصفحة:5.

(2) فضل كفالة اليتيم لعبد الله بن ناصر السدحان مركز النشر والإعلام السعودية (بدون رقم طبعة) سنة:1421هـ الصفحة:7.

(3) اليتيم في القرآن والسنة لعز الدين سيد علي دار الزهراء للطباعة والنشر بيروت الطبعة:2 (بدون تاريخ) الصفحة:22-23.

منقطع. واليتيم الذي يموت أبوه. ويقال يتم ويتم وأيتمه الله، وهو يتيم حتى يبلغ الحلم. فاليتيم الذي مات أبوه فهو يتيم حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتم. والجمع أيتام ويتامى. وأصل اليتم الغفلة وبه سمي اليتيم يتيما لأنه يتغافل عن بره. واليتم الابطاء، ومنه أخذ اليتيم لأن البر يبطئ عنه. وتدعى الأرامل اليتامى يتيمة ما لم تتزوج فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتم.[1]

وجاء في القاموس المحيط، اليتم بالضم: الانفراد، أو فقدان الأب، ويتمان: ما لم يبلغ الحلم، جمع أيتام ويتامى ويَتَمَة وميتمة.[2]

وقيل يتم ييتم يتما يتم ويتما أعيا وأبطأ وفتر وقصر ومن الأمر انفلت يتم ييتم يتما: يتم. وقيل أيتمت المرأة: صار ولدها يتيما. وقيل الحرب ميتمة تهلك الرجال فيصير أولادهم يتامى، ونسائهم أيامى. وقيل اليتم: الهم والضعف والحاجة.[3]

الفرع الثاني: اليتيم اصطلاحا.

عرفه الشيخ أبو بكر أحمد الشيباني فقال: «اليتيم من مات أبوه من الذكور ولم يبلغ الحلم ومن الإناث من لم تحض.»[4]

عرفه ابن قدامة وهو من فقهاء الحنابلة فقال: «هو من لا أب له، غير بالغ، لأن اليتيم فقد الأب مع الصغر، ويدخل فيه الغني والفقير لشمول الاسم لهم.»[5]

وعرفه الحطاب الرعيني بقوله: اليتيم من لا أب له، مات وتركه صغيرا.[6]

(1) لسان العرب [مادة يتم] ج/12 ص:645.

(2) القاموس المحيط [مادة يتم] رقم:10329 ص:1789.

(3) المعجم الوسيط [مادة يتم] ص:1063.

(4) أحكام الأوقاف لأبي بكر الشيباني تحقيق محمد بن عبد السلام شاهين دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1999 الصفحة:277.

(5) الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل لابن قدامى المقدسي تحقيق محمد فارس ومسعد عبد الحميد السعدي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1994 الجزء:2 الصفحة:275.

(6) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمان المعروف بالحطاب الرعيني تحقيق الشيخ زكريا عميرات دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ودار الكتب العلمية بيروت طبعة خاصة سنة:2003 الجزء:8 الصفحة:26.

عرفه الشيرازي بقوله: «اليتيم هو كل صغير فقير لا أب له، فأما من له أب فلا حق له فيه لأن اليتيم هو الذي لا أب له، وليس لبالغ فيه حق، لأنه لا يسمى بعد البلوغ يتيما.»[1]

وعرفه أبو بكر القرطبي فقال: «اليتيم الذي لا أب له وقد مات أبوه.»[2]

عرفه الشيخ الطاهر بن عاشور بقوله: «اليتيم الصبي الذي مات أبوه، وقد كان أبو النبي ﷺ توفي وهو جنين أو في أول المدة من الولادة.»[3]

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية لليتيم في عهد بني مرين

بادرت السلطة المرينية في وضع وإرساء لبنات البر والإحسان وسط المجتمع المريني المعوز، والتي تمثلت خصوصا في رعاية الأيتام باعتبارهم الفئة المتضررة من الجانب الأسري، فكانت الالتفاتة إلى هذه الفئة من الرعية، فسخرت جهودا حتى يستغني اليتيم عن التكفف، وحتى لا يتلاطم اليتيم بين أمواج الحياة. فاليتم يترك أثرا في النفس وبؤس وروعة فكانت الدولة في العهد المريني ترى أن كفالة اليتيم يجزل الثواب وبه تنصر الأمة وبه يغاث الناس حين ينقطع القطر من السماء. وكانت قاعدتهم الأساسية أنه من لم يهتم بأمر المسلمين ليس منهم. فلقيت دعوتهم استجابة من أهل البر والخير والإحسان فتكفل الناس يومها باليتيم واعتنوا به عناية بالغة، بغية الثواب والفوز بصحبة خير المرسلين عليه السلام.

فأهل الثراء والبر لم يغفلوا أيضا عن المشاركة في رعاية اليتيم فكان الجاري بالمغرب أن يقوم جماعة من العدول بتقديم أحدهم على صبي يتيم الأب تقديما مطلقا لرعايته والاهتمام بشؤونه، كما ألمحت إحدى النوازل إلى أن رجلا أوصى لصبية يتيمة بأن يدفع لها بعد وفاته ريع حانوته، وينفق عليها منه إلى أن تتزوج. وهناك إشارة إلى رجل كان يكفل يتيما فأوصى له قبيل وفاته ببقرة ومبلغ من المال ليتعيش من ذلك.[4]

(1) المهذب في فقه الإمام الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي تحقيق محمد الزحيلي دار القلم دمشق ودار الشامية بيروت الطبعة:1 سنة:1996 الجزء:5 الصفحة:302.

(2) الجامع لأحكام القرآن لأبي بكر القرطبي تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة:1 سنة:2006 الجزء:14 الصفحة:363.

(3) التحرير والتنوير ج/30 ص:399.

(4) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:25-26.

الفرع الأول: إجراء الأجرة المادية والعينية على الأيتام

سن أبو الحسن المريني سنة كتب الله أجرها وأجر من يعمل بها وهي أنه أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يتماشى به أحوالهم ويستغنون به عن التكفف والعالة، فسوغ لهم فيما علمت محرث زوجين ومجباها في كل وطن بحسب خراجه وجبايته وفيه كفاية حتى إذا بلغ حد الخدمة، ألحق بمن عاده فلا يكاد يقع بصره على اليتيم في بلاد المغرب إلا وهو مكفول.[1]

وأكثر من ذلك فإن أبا الحسن أعطى كل يتيم قطعة من الأرض تكفيه. كما خصصت الدولة مبلغا من المال لفائدة اليتيم الذي حدد نصابه في عشرة دراهم.[2]

واهتم أيضا أبو الحسن المريني بإسعاف طبقات من اليتامى الفلاحين في سائر القبائل قطعا أرضية مقدار حرث زوجين لكل فرد، مع إعفاء الأرض الممنوحة من اللوازم الجبائية (وحرث زوجين يقدر بنحو 16 هكتارا).[3]

الفرع الثاني: ختان اليتامى وكسوتهم

كانت عاشوراء موسما لختان اليتامى وكسوتهم فكانت الدولة تصرف لكل يتيم قميصا واحزاما.[4]

وتابع المرينيون عادة ختان اليتامى في كل سنة، وهي مبرة عرفت في المغرب من العصر الموحدي وبالضبط أيام يعقوب المنصور، حيث يسجل ابن عذارى أنه عمل لم يسبق إليه أحد من الملوك المتقدمين، وفي المعجب أنه كان يأخذ في الاستعداد لذلك عند دخول السنة الهجرية. وفي العصر المريني-الذي نعرضه- استمر هذا التقليد واستقر يوم عاشوراء موعدا له، فكان من عمل أبي يوسف المريني ماهد الدولة أن قرر القيام في كل عاشوراء بتطهير الأيتام وختانهم وكسوتهم والإحسان عليهم بالدراهم والطعام.[5]

---

(1) المسند الصحيح الحسن ص: 420.

(2) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:327.

(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:148.

(4) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:327.

(5) مذكرات من التراث المغربي ص:80-81.

ولا تعدوا إشارات لوتورنو عن سعادة الأطفال والصبية سواء الأيتام أم غيرهم في يوم عاشوراء فهم لم يعرفوا الحزن يَوْمَهَا، نظرا للعطاء الذي يغدو عليهم والمنايا التي تحذوهم. يقول لوتورنو: «وبقطع النظر عن الأسباب فإن أطفال فاس لم يعرفوا الحزن في يوم عاشوراء.»[1]

وبقي اعذار اليتامى معلّق بأثواب البر والإحسان، حين تابع السلطان أبو الحسن دأب أسلافه وأجداده، فكانت حسناته مستمرة على اليتامى وأجزل العطاء والعناية للأيتام، ولنترك صاحب سره وكاتبه يسرد لنا ما قام به السلطان قِبَل اليتامى فقال: «ومن صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنَّها هو أن في كل عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان فيختن كل واحد ويكسوه قميصا وإحراما ويعطي عشرة دراهم وما يكتفي به من اللحم فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام من سائر البلاد ما لا يحصى وهو عمل مستمر في بلاده وسنة جارية قام بها الخلفاء من أولاده من بعده.»[2]

وغير بعيد عن هذا، أكد السلطان أبو عنان هذه الاستمرارية بعد والده، وتابع منواله بإعذار اليتامى وكسوتهم في يوم عاشوراء تأسيا بأسلافه. وهذا ما أورده ابن جزي فيقول: «ومنها إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء.[3]

فهذه العناية البالغة والمتابعة من طرف السلاطين نسجت خيوط التواصل ومدت يد أهل البر والإحسان لإكمال حلقة التعاون في مجال إعذار اليتامى ماديا ومعنويا.

---

(1) فاس في عصر بني مرين ص:200.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:420.

(3) تحفة النظار ج/2 ص:675.

-(أنظر أيضا) مذكرات من التراث المغربي ص:81.

المبحث الثالث: رعاية الفقراء والمساكين

الرعاية في الإسلام تشمل كافة المسلمين، ولا يعرف الإسلام الأقلية الضيقة، التي تجعل كل إقليم وحدة مستقلة، منفصلة عن سائر المسلمين، كذلك يرفض العنصرية المتعصبة، وينظر إلى المسلمين عامة باعتبارهم أمة يكفل بعضها بعضا.[1]

فالإسلام يدعو إلى الإيجابية في المجتمع المسلم، لأنها تجعله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، كما تجعله كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وعلى النقيض من ذلك فإن السلبية وإهمال عمل الخير يتسببان في ضياع المجتمع وهلاكه، فكان لابد من الإيجابية النابعة من حب الخير للنفس وللناس جميعا، بعيدا عن الأنانية والأثرة.

ومن عظيم عناية الإسلام بالمساكين والفقراء أن جعل الله سبحانه الاعتناء بهم ورعايتهم والاهتمام بشؤونهم من مفاتيح النصر. ومن ذات الاقتناع فرفع الحرج والمعاناة عن الفقراء والمساكين وتقديم العون والمساعدة لهم، لأن ذلك منهج الأنبياء والصالحين.[2]

وهكذا يفتح الإسلام أبواب الخير للناس جميعا حتى يستطيع كل فرد قادر على عمل الخير بمد يد العون، والمساهمة في إشاعة البر والخير في المجتمع خصوصا للفقراء والمساكين يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ اَلْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ اَلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنِ اِلْبِرُّ مَنَ اٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلَاخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيٓـِٔينَ وَءَاتَي اَلْمَالَ عَلَيٰ حُبِّهِۦ ذَوِے اِلْقُرْبِيٰ وَالْيَتَٰمِيٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ اَلسَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِے اِلرِّقَابِ﴾ [سورة البقرة الآية:176] ويقول أيضا: ﴿ إِذَا حَضَرَ اَلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ اُ۬لْقُرْبِيٰ وَالْيَتَٰمِيٰ وَالْمَسَٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلا مَّعْرُوفاً ﴾. [سورة النساء الآية:8]

فهذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع

(1) التكافل الاجتماعي في ضوء الشريعة الإسلامية ليوسف القرضاوي مكتبة وهبة القاهرة الطبعة:1 سنة:2009 الصفحة:39.

(2) مجلة منار الإسلام مقال بعنوان: العمل الخيري الإسلامي لكمال عبد المنعم محمد العدد:384 سنة:32 ذي الحجة 1428هـ/دجنبر 2006 الصفحات:94-96-98.

من أصول العقيدة وصالحات الأعمال. فالإيمان وإقامة الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، إذ عنهما تنبثق سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمساواة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسديد مصالح للأمة كثيرة وبذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحرار. والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية.[1]

وقد تجاوزت الشريعة في أكثر من ذلك، وإنها لصورة تستحق الوقوف عندها، حين بينت الشريعة أن رعاية المساكين والفقراء شملت الإرث، فقد بين الله تبارك وتعالى أنه إذا حضر القسمة من المساكين والفقراء الذين لا يرثون، أن يكرموا ولا يحرموا، وإن كان المال كثيرا، والاعتذار إليهم إن كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرَّضْخَ، وإن كان عطاء من القليل، ففيه أجر عظيم.[2]

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. [سورة التوبة الآية:60]

فقد حث الله تبارك وتعالى عباده برعاية الفقير والمسكين في عدة مواضع من كتابه العزيز، فالله خص الناس بالأموال دون البعض الآخر، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له، نيابة عنه سبحانه وتعالى، وقد بين مصاريف الصدقات والمحل، حتى لا تخرج عنهم.[3]

المطلب الأول: مفهوم الفقير والمسكين

الفرع الأول: الفقير لغة

جاء في لسان العرب أن الفقر ضد الغنى، نقول رجل فقير من المال، وقد فقر فهو فقير والجمع فقراء. والفقير الذي لا شيء له، والفقير إنما سمي فقيرا لزمنة تصيبه مع حاجة شديدة تمنعه الزمانة من التقلب في الكسب على نفسه فهذا هو الفقير.[4]

---

(1) التحرير والتنوير ج/2 ص:132.

(2) الجامع لأحكام القرآن ج/6 ص:83.

(3) الجامع لأحكام القرآن ج/10 ص:244-245.

(4) لسان العرب [مادة فقر] ج/5 ص:60.

وقيل الفقر العوز والحاجة، وافتقر: صار فقيرا وإلى الأمر احتاج.[1]

والفقير أن يكون له ما يكفي عياله أو الذي يجد قوت يومه، والفقير الذي لا حرفة له أو من أهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا.[2]

الفرع الثاني: المسكين لغة

يلاحظ أن كلمة مسكين لم تحظ في المعجم العربي، وفي كتب فقه اللغة، بما حظيت به لفظة فقير، وإن ظلت المقارنة بينهما باستمرار.[3]

ولعل المادة اللغوية التي نجدها هي مادة سكن بمعنى سكن يسكن سكونا إذا ذهبت حركته، وسكن في معنى سكت وسكنت الريح وسكن المطر والغضب. والمسكين هو مفعيل. والمسكنة مصدر فعل المسكين وإذا اشتقوا منه فعلا قالوا تمسكن الرجل أي صار مسكينا ويقال أسكنه الله وأسكن جوفه أي جعله مسكينا.[4]

والمسكين أسوء حالا من الفقير، وهو الذي لا شيء له. والمساكين الطوافون على الأبواب.[5]

الفرع الثالث: الفقير والمسكين في الاصطلاح

مع إقرار العلماء بأن الفقر والمسكنة لفظان يراد بهما معا الحاجة وضعف الحال، فإن الخلاف في درجة الحاجة هذه عند كل من الفقير والمسكين، وما يكون لهما من أثر على كل واحد منهما. والفقير هو الذي لا مال له، إلا أنه لم يُذَل، ولا بَذَلَ وجهه، وذلك إما لِتَعَفُّفٍ

(1) المعجم الوسيط [مادة فقر] ص:697.

(2) القاموس المحيط [مادة فقر] ص:1258

(3) فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة لعبد السلام الخرشي مؤسسة الرسالة دار المؤيد بيروت الطبعة:1 سنة:2002 الصفحة:22-23.

(4) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري تحقيق علي حسن الهلالي ومحمد علي النجار المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:10 الصفحة:66.

(5) لسان العرب [مادة فقر] ج/5 ص:60-61.

مفرط وإما لبلغة تكون له كالحلوبة وما أشبهها، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال، فهذه هي المسكنة، فعلى هذا كل مسكين فقير وليس كل فقير مسكينا.[1]

1 -تعريف المالكية: قال ابن جزي: «فأما الفقراء فهم الذين لا يملكون ما يكفيهم وأما المساكين فهم أشد حاجة من الفقراء. وقيل الفقير الذي يعلم به فيتصدق عليه والمسكين الذي لا يعلم به.»[2]

2 -تعريف الشافعية: قال الشافعي: «الفقير والله أعلم من لا مال له، ولا حرفة تقع منه موقعا، زمنا كان أو غير زمن، سائلا أو متعففا. والمسكين من له مال أو حرفة لا تقع منه موقعا ولا تغنيه، سائلا كان أو غير سائل.»[3]

3 -تعريف الحنفية: الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل. وهذا ما ذكره الزهري، وكذا روى أبو يوسف عن أبي حنيفة وهو المروى عن ابن العباس رضي الله عنهما وهذا يدل على أن المسكين أحوج، وقال قتادة: الفقير الذي به زمانة وله حاجة، والمسكين المحتاج الذي لا زمانة به، وهذا يدل على أن الفقير أحوج وقيل الفقير الذي يملك شيء يقوته، والمسكين الذي لا شيء له.

قال الشاعر:

أما الفقير كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

سماه الشاعر فقيرا مع أن له حلوبة هي وفق العيال والأصل أن الفقير والمسكين كل واحد منهما اسم ينبئ عن الحاجة إلا حاجة المسكين أشد وعلى هذا يخرج قول من يقول الفقير الذي لا يسأل والمسكين الذي يسأل.[4]

(1) فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة ص:25.

(2) القوانين الفقهية لابن جزي الغرناطي تحقيق ماجد الحمودي دار ابن حزم بيروت الطبعة:1 سنة:2013 الصفحة:200.

(3) الأم للشافعي تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة الطبعة:1 سنة:2001 الجزء:3 الصفحة:182-183.

(4) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني الحنفي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:2 سنة:1986 الجزء:2 الصفحة:43.

4 -تعريف الحنابلة: الفقير هو أسوأ حالا من المسكين لبداءة الله بهم. وهو من لا يجد شيئا ألبتة أي قطعا أو يجد شيئا يسيرا من الكفاية دون نصفها من كسب أو غيره مما لا يقع موقعا من كفايته. والمسكين من يجد معظم الكفاية أو نصفها من كسب أو غيره.[1]

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية للفقراء والمساكين في العهد المريني

حرص المرينيون منذ قيام دولتهم على تلبية أوامر الله عز وجل وذلك بالوقوف عند أوامره، والمساهمة في رعاية الفقراء والمساكين، فخصصوهم بمختلف الصدقات والمبرات، بل أوقفوا بعض المرافق لتكون مورد تمويلهم والإنفاق عليهم. وقد تكاثفت الجهود بين المخزن الذي يمثل سلطة البلاد وبين أهل البر والإحسان كيد منوطة للدولة في مجال الرعاية.

وكان أول سلطان عني برعاية الفقراء والمساكين وإعطائهم الصدقات والإحسان إليهم هو الأمير عبد الحق بن محيو، فقد كان يوثر على نفسه المساكين والفقراء ويقدمهم على بقية الناس. وهذا ما أكده ابن أبي زرع فقال: «وكان الأمير عبد الحق في قبائل بني مرين مشهور بالتقوى والفضل الدين، والصلاح والبركة واليقين، معروفا عندهم بالورع والعفاف، موصوفا في أحواله وأحكامه بالعدل والانصاف، يطعم الطعام ويكفل الأيتام ويوثر على نفسه المساكين ويحنو على الفقراء والمستضعفين.»[2]

وبعد الأمير عبد الحق جاء ابنه عثمان الذي عرف بالعطاء والصدقة لأهل الفقر والحاجة فقد سلك نهج أبيه ودأبه وشيمه في العطاء. وهذا ما ذكره ابن أبي زرع، فقال: «كثير الصوم والصلاة والصدقة مستمرا في أحواله على أحسن طريقة، وسلك نهج أبيه وسيره وشيمه وطريقه، فلم يزل على السنن القويم والهدي المستقيم حتى أتاه اليقين.»[3]

وكان السلطان يعقوب بن عبد الحق كثير البر والإحسان والصلاح مكرما للناس خصوصا طبقة الفقراء والمساكين الضعفاء الذين لا يملكون حيلة ولا قوة. فقد رتب لهم نفقات من بيت المال يقبضونه في كل شهر وذلك ابتغاء لمرضاة الله وطمعا في مغفرته وجنته.

(1) كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي عالم الكتب بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1983 الجزء:2 الصفحة:271-272.
(2) الذخيرة السنية ص:30.
(3) المصدر نفسه ص:37.

فأورد صاحب كتاب الاستقصا قولا يشير فيه إلى بر هذا السلطان وحبه للفقراء والمساكين، فقال: «كان صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء، رتب للفقراء مالا معلوما يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود، كل ذلك ابتغاء ثواب الله تعالى.»[1]

كما سعى السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى الاعتناء بالمرضى الفقراء، الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم لرفع بأس الضرر عنهم، حينما أجرى على الجذامى والمكفوفين الفقراء مرتبات منتظمة عن كل شهر.[2]

ثم استرسل هذا النمط من أعمال الخير والإحسان أبو سعيد عثمان المريني، وذلك حين أقر نظام رعاية الفقراء والمساكين من الدولة فأمر بالصدقات لذوي الفاقات والحاجات على قدر حاله وضعفه، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار، ولم يزل من يوم ولايته إلى الآن يأمر بالجباب والأكسدة في زمن الشتاء والقر للضعفاء والمساكين، وأمر بمن مات من الغرباء أن يجهز ويكفن في الثياب الجديدة ويقام بحق دفنهم أحسن قيام.[3]

وللسلطان أبي الحسن مناقب ذكرها له التاريخ إذ عرف باعتنائه بشريحة الفقراء والمساكين وبسط يده كل البسط لهذ الفئة، فتذكر المصادر أنه وزع على فقراء تلمسان اثني عشر ألف دينار واثني عشر ألف كساء ومن الطعام مطامير، لا تعد ولا تحصى فضلا عن مكافأته للأعيان والفقراء والصلحاء، كما كانت له صدقات جارية لهم.[4]

يتحدث ابن مرزوق وهو شاهد عيان في زمن حكم السلطان أبي الحسن، عما قام به اتجاه الفقراء والمساكين فقال: «وكم من سنة مسنهة عال فيها إمامنا رضي الله عنه عن مواحيج أهل بلاد المغرب عموما، يخرج زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أولا المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجدب.»[5]

(1) الاستقصا ج/3 ص:65.

(2) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي ج/1 ص:223.

(3) الأنيس المطرب ص:401.

(4) تلمسان في العهد الزياني ص:226.

(5) المسند الصحيح الحسن ص:191.

وكان الوجه في العطاء لأبي الحسن، أن يسأل عن الرجل ومن عنده من العائلة، وما خلف حيث تُعلم عادته، وأين يختار السكنى، فإذا اختار موضعا نظر فيما يحتاج إليه من كراء فيعطاه بحسب ذلك.[1]

وعلى نفس الوتيرة والمنوال دأب السلطان أبو عنان دأب أبيه، في إرساء الصدقات والعطاءات على الفقراء والمساكين في كل يوم، وإطعام الطعام على كل وارد وصادر. ولا يفوتنا النظر فيما كتبه ابن جزي عما كان يقدمه السلطان في الصدقات والهبات على المساكين والفقراء، فقال: «اخترع مولانا أيده في الكرم والصدقات أمورا لم تخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام. ومن هذه الصدقات خبزا مخبوزا للانتفاع به، وكسوة المساكين والضعفاء. منها أيضا صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم.»[2]

وعرف عن السلطان أبي عنان أنه خصص يوم الجمعة للجلوس إليهم وسماع شكاياتهم.[3]

وجاء في فيض العباب أن السلطان أبا عنان المريني أجزل العطاء للفقراء والمساكين، وأمر بإطعام الطعام لهم.[4]

ويتحدث لوتورنو عن فريضة الزكاة التي كان القصد منها تخفيف مصاب المساكين والفقراء، وكانت تعطى لهم للتخفيف من المعاناة التي يعاني منها أولئك الضعفاء. فكان الأثرياء كما يصف لوتورنو يقدمون الهدايا لهم في أوقات متعاقبة إضافة إلى ما يدفعونه إلى الدولة ضريبة. وكان شهر رمضان فاتحة خير وسرور على الفقراء والمساكين، لأن الهدايا قد تكون نقدية إلا أنها في الغالب كانت عينية وخاصة من الطعام. وقد كان من المألوف أن يكون لكل أسرة ميسورة الحال في فاس فقراء يطرقون بابها في أوقات معينة لا ليستجدوا بل ليحصلوا على حقهم من الهدايا التي كانت على المحظوظين أن يقدموها باعتبارها فرضا لا

(1) المسند الصحيح الحسن ص:193.

(2) تحفة النظار ج/2 ص:674-675.

(3) المصدر نفسه ج/2 ص:671.

-(أنظر أيضا) فاس في عصر بني مرين ص:119.

(4) فيض العباب ص:129.

منة. ومع أن هذا الأمر لم يكن السبب الوحيد لانعدام الاضطراب الاجتماعي في المدينة، فلا شك في أنه كان واحدا من هذه الأسباب، فأولئك المساكين لم يكونوا يشعرون بأنهم معزولون أو أنهم ممن لفضتهم الأرض، وكان هؤلاء يشعرون بأن الأثرياء لم يعطوهم بعض ما أفاء الله به عليهم فحسب، بل إنهم كانوا يعطونهم حقا من حقوقهم، كائنة ما كانت من القلة. ويبدو أنهم كانوا قانعين بهذا. والدليل أن مدينة فاس في العهد المريني لم تعرف اضطرابا اجتماعيا.[1]

وقد كان سفراء الدولة المرينية وهم في طريق مهمتهم إلى البلدان والأمصار يجزلون العطاء للفقراء والمساكين تأسيا بسلاطينهم أو ربما هو حث من السلاطين لسفراء دولتهم على الإحسان والإنفاق على الضعفاء والمساكين.

حين زيارة السفير أبو الفضل لأرض مصر قصد تعزية الملك الشرقي في والده وتهنئته بوراثة ملك الديار المصرية سنة745هـ، وقد قام هذا السفير بإظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحجاج في طريقه.[2]

وهذا العمل يدل على أن الدولة المرينية كانت لها رغبة شديدة في رعاية الفقراء والمساكين سواء داخل المغرب أو خارجه، وهي رغبة جامحة دلت على أن الدولة تسعى لخدمة هؤلاء المستضعفين.

كما ساعد السلطان أبو عنان المريني المحتاجين باقتطاعهم أراضي زراعية وفلاحية، مع إمدادهم بأزواج الحرث من البقر.[3]

وكان يكسو المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ، والملازمين للمسجد بجميع بلاده.[4]

ويسهل الاقتناع بأن الدولة المرينية عملت بجد وحزم لتوفير الرعاية الاجتماعية لرعيتها خاصة المساكين والفقراء، وكما سبق الذكر فأغلب سلاطين الدولة صبت جهودهم في هذا

(1) فاس في عصر بني مرين ص:194-195.

(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:200.

(3) الإحسان الإلزامي في الإسلام وتطبيقاته في المغرب لمحمد الحبيب التجكاني طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1990 الصفحة:601.

(4) المرجع نفسه ص:601.

المجال، بضمان المال وفرص العمل حتى يعيش الفرد الفقير من ناتج عمله، ثم أموال الدولة عند العجز عن العمل، أو عند عدم وجود العمل، فبالتكافل الاجتماعي يعول القدر منهم العاجز الفقير والمسكين، وعندما لا يستطيع بيت المال النهوض بعبئه، يتحمل المجتمع عبئ كفاية الفقير والمسكين والمحتاج.[1]

أما بالنسبة للعقارات الموقوفة على الفقراء والمساكين، فقد بنى السلطان أبو الحسن أربع ديار بفاس لسكنى الضعفاء والمساكين، وكانت أكبر ديار فاس ضخامة وسعة رحاب، وجهزها بالفرش والأثاث. كما أوقف أبو عنان عرصة قرب باب المسافرين أو بني مسافر موقوف على الفقراء والمساكين، وأوقف أيضا أبو عنان نفسه ما يجبى من الأبواب على الفقراء والمساكين.[2]

ومن جهة أخرى يلمح كمال السيد أبو مصطفى إلى وجود بعض الأراضي المحبسة على المساكين في المغرب، أطلقت عليها «أرض المساكين» كانت تزرع وتوزع غلتها على الفقراء والمساكين قي هذا الموضع.[3]

وأشار الونشريسي بأن رجلا من المغاربة يدعى ابن عريق حبس بعض أملاكه على المساكين كان يتولى اختيار المساكين المستحقين لربع الوقف، وتحديد مقدار ما يستحقونه، وفقا لنظره واجتهاده، كما كان يقوم بتأجير بعض الأوقاف المحبسة على المساكين، ويؤخذ ثمن الكراء، ويشترى به غالبا ثياب توزع على المساكين لكسوتهم في الأعياد الدينية.[4]

وجاء في المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق أن عبد الله بن عامر بن خالد بن عقبة بن أبي معيط اشترى داره التي في السوق، بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد، فأعطاهم الدار والمال جميعا. وقد سن السلطان أبو الحسن المريني سنة مسنهة فكان يخرج لمحاويج أهل بلاد المغرب عموما، زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجدب، كما سبق الذكر، وجرى على سنته في ذلك ولده المرحوم

(1) الإحسان الالزامي في الإسلام ص:97-98.

(2) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي ج/1 ص:71-72.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ص:31.

(4) المعيار المعرب ج/7 ص:82.

السلطان أبو عنان، فكان يطعم بين يديه ويتولى القيام عليهم بنفسه ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجدب.[1]

أما الحوالات الحبسية الموجهة للمساكين والفقراء، فسنتعرض لبعض حوالات فاس الحبسية، وهي تذكر أعيان الموقوفات، بعدما تعنون لها بذكر اتجاه الوقف وصاحبه، فنورد منها العناوين التالية: وصية ابن كسيبة على المساكين، وصية ابن عطو على المساكين، وصية الحاج عبابو على المساكين، وصية الحكيم على المساكين، وصية يوسف بن عميرة على المساكين، وصية الدنياري على المساكين، وصية القبائلي على المساكين، وصية الكناني على المساكين، وصية ابن جشار على المساكين، وصية الجينارية على المساكين، وصية ابن أبي الصبر على المساكين، وصية القفاز على المساكين، وصية الحرة صفية على المساكين، وصية الميساوي على المساكين، وصية العريف على المساكين، وصية التازدغري على المساكين، وصية البانوخي على المساكين، وصية طلوقة على المساكين، وصية المزوار على المساكين، وصية مجهول صاحبها، وصية المرابط على المساكين.[2]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:191.

(2) مذكرات من التراث المغربي ج/1 ص:81.

المبحث الرابع: قضاء الديون عن المدين

اعتنى الإسلام بالقرض الحسن وساعد في تمهيد فكرته، وذلك لأن وضع القرض بهذه الصورة المثالية حسب نظرة الإسلام وتوجيهه، ستعطي زخما واضحا لإمكانية الاستفادة القصوى والمثلى من استخدام الطريقة الأنجع في المساعدة بالقرض وقضائه لمن لم يستطع تأديته. فالإسلام لم يتجاهل تلك الظروف والأحوال، التي يمر بها الإنسان في حياته، خصوصا عند عوز الإنسان فيحتاج إلى قرض ينفق منه، ويساير به الحياة، غير أن المشكلة التي تطرح هي كيفية ارجاع الدين وقضائه؟ (1)

جاءت الشريعة الإسلامية لترسيخ مبدأ التعاون والتكافل بين جميع المسلمين، بل وحثت ورغبت على الانتصار على الفاقة بتوحيد الجهود والتظافر، أولا عبادة يتقرب بها العبد لربه، وثانيا لتفريج الكرب وتنفيسه عن المدين المثقل بالديون ولا يقدر على أدائه، وهي مبرة عظيمة خصوصا إذا خلت من شوائب الرياء.

وفي نفس المنظومة حثت المقترض أو المدين على قضاء دينه وإبراء ذمته، ونهته عن المماطلة في سداد الدين إن تيسر له ذلك، لأنه إن وقعت المماطلة من الواجد كان ذلك احجاما من المقترضين عن اقراض غيرهم.(2)

ويُعد قضاء الديون عن المدين أو الغارم من أفضل الأعمال لما لها من بُعْد إنساني على نفس الغارم، بل هو تفريج كربة من كرب الدنيا. يقول تعالى»﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي اِلرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اِللَّهِ وَابْنِ اِلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌۖ﴾ [سورة التوبة ص:60]

(1) القرض الحسن في الفقه الإسلامي لمحمد نور الدين أردنية كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين (بدون رقم طبعة) سنة:2010 الصفحة:7.

(2) مقال بعنوان: أحكام رد القرض في الفقه الإسلامي لسامي محمد أبو عرجة ومازن مصباح مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) المجلد:13 العدد:2 يونيو2005 الصفحة:105.

والغارمون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون، بحيث يرزأ دائنوهم شيئا من أموالهم، أو يرزأ المدينون ما بقي لهم من مال لإقامة أود الحياة، فيكون من صرف أموال من الصدقات في ذلك رحمة للدائن والمدين.[1]

فقضاء الدين عن المدين الغارم يحدث ذلك التوازن في المجتمع، وهو أمر ديني وضرورة اجتماعية وأخلاقية، يجب أن ينظم ليؤدي الهدف منه ويدفع القادرين على الإنفاق لتحقيق التضامن الاجتماعي. فالإسلام له شريعته التي تنظم العلاقات بين الدائن والمدين، ولم يترك مجالا يمكن أن تحدث فيه خصومات بين الناس، أو يمكن أن يقع فيه ظلم أو حيف إلا نظمه. لذلك رغب الإسلام في بسط مساعدة الغارم وذلك لضمان حياته داخل المجتمع وحتى لا تبخس كرامته ويكون المال حكرا على البعض، ويبقى الآخرون في خصاصة وشدة.[2]

جاء في الحديث الشريف، أن النبي ﷺ قال: «إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفظع أو لذي دم موجع.»[3]

يقول شهاب الدين الرملي في شرح الحديث: «أو لِذي غُرْم بضم الغين المعجمة وسكون الراء، وهو ما يلزم أداؤه مكلفا إلا في مقابلة عوض.»[4]

ويقول القرطبي: «الغارمين هم الذين ركبهم الدين، ولا وفاء عندهم به، ولا خلاف فيه. اللهم إلا من ادَّان في سفاهة، فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب، ويعطى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقتضي به دينه، فإن لم يكن له مال وعليه دين، فهو فقير وغارم فيعطى بالوصفين.[5]

---

(1) التحرير والتنوير ج/10 ص:237.

(2) مجتمع المؤمنين من هدي القرآن ص:262.

(3) رواه أبو داود في سننه كتاب الزكاة باب ما تجوز فيه المسألة رقم الحديث:1641 تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل دار الرسالة العالمية دمشق الطبعة:1 سنة:2009 الجزء:3 الصفحة: 82.

(4) شرح سنن أبي داود لابن رسلان الرملي تحقيق خالد الرباط ومجوعة أخرى دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث الفيوم مصر الطبعة:1 سنة:2012 الجزء:7 الصفحة:684.

(5) الجامع لأحكام القرآن ج/10 ص:270.

المطلب الأول: مفهوم الغارم

الفرع الأول: الغارم لغة

جاء في لسان العرب: غَرِمَ يغرم غرما وغرامة، وأغرمه وغرَّمه. والغرم: الدين.

ورجل غَارِم: عليه دين. وفي الحديث لا تحل المسالة إلا لذي غرم مفظع أي ذي حاجة لازمة من غرامة مثقلة. وقال الزجاج: الغارمون هم الذين لزمهم الدين في الحمالة. قال ابن كثير:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه   وعزة ممطول مغنى غريمها [1]

في نفس السياق اللغوي يشير الفيروز أبادي: أن الغريم هو الدائن، والمديون ضده.[2]

والغريم جمع غرماء وهو الدائن وغرم غرما وغرامة: لزمه مالا يجب عليه. ويقال: غرم الدّية والدين: أداهما من غيره.[3]

الفرع الثاني: الغارم اصطلاحا

1 -عرفه الحنفية بقولهم: «الغارم الذي عليه الدين أكثر من المال الذي في يده أو مثله أو أقل منه لكن ما وراءه ليس بنصاب.[4]

2 -تعريف المالكية: قالوا الغارم هو من فدحه الدين للناس في غير سفه ولا فساد يعطى قدر دينه. واختلف: هل يعطى من عليه دين الكفارات والزكاة؟ وهل يشترط أن يكون المديان محتاجا؟ [5]

(1) لسان العرب [مادة غرم] ج/12 ص:436.
(2) القاموس المحيط [مادة غرم] ص:1185.
(3) المعجم الوسيط [مادة غَرِمَ] ص:651.
(4) بدائع الصنائع ج/3 ص:45.
(5) القوانين الفقهية ص:201.

3 -تعريف الشافعية: يقول الإمام الطبري: «وأما الغارمون الذين استدانوا في غير معصية الله، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عوض.»[1]

ويتضح مما سبق ذكره أن الغارم هو شخص مسلم، استدان ثم لم يقدر على أداء ما عليه من دين عند حلول الأجل، فيعطى من المال لقضاء دينه، من باب الإحسان والرحمة على عباد الله تعالى.

وقيل يعطى من أموال الزكاة قدر ما يؤدي به دينه، وإذا ظل فقيرا بعد أداء الدين أعطي من الزكاة بصفة الفقر، فيأخذ في هذه الحالة من أموال الزكاة بصفتين: صفة الغارم وصفة الفقير.[2]

المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للغارم في العهد المريني

إن التاريخ يشهد للدولة المرينية على اشتغالها بالعمل الاجتماعي ورعايته وتخصيص أموال كثيرة لهذا الغرض، وإن كانت منظومته متنوعة ومختلفة. فالمصادر التاريخية التي أرخت للدولة المرينية أشارت إلى فقرات مقتضبة حول رعاية الغارمين وقضاء ديونهم ومساعدة الطبقة العاجزة والمعوزة وقضاء ديونها.

وإنها لفتة اجتماعية تحمد عليها السلطة المرينية والمحسنون، وقد اعتبرها أهل التاريخ بادرة نوعية وفريدة لم يسبق لتاريخ المغرب عبر العصور أن عرف مثلها.

ونستشهد على هذا ما جاء عند ابن بطوطة في تحفة النظار الذي اعتبرها اختراعا ومنقبة لم تكن في الحسبان، فقال: «اخترع مولانا أيده الله (أبو عنان) في الكرامات والصدقات أمورا لم تخطر في الأوهام، ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام، ومنها تعيين الصدقة على الغارمين المسجونين في جميع البلاد أيضا، وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير.»[3]

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري تحقيق بشار عواد معروف وعصام فارس مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت الطبعة:1 سنة:1994 الجزء:4 الصفحة:126.

(2) الإحسان الإلزامي ص:471.

(3) تحفة النظار ج/2 ص:674-675.

لمعت هذه المبرة أيام السلطان أبي عنان، فكان له اهتمام بقضاء الديون عن المدينين، وسجنوا بسبب عجزهم عن أداء الدين، فاتخذ قرارا بالتزامه الأداء من ماله الخاص، لديون المعسورين المسجونين بسائر الجهات المغربية، ويطلق سراحهم. وكتب لجميع الأقاليم المرينية بأن جميع من توفي وعليه دين من الديون، أو حق من الحقوق المدركة ولو بالظنون، فيؤدى عنه ذلك من بيت المال وأمر أن تستمر هذه المبرة وسابقاتها على الدوام.[1]

وهناك أيضا وقف الأموال من أجل قضاء الديون وتقديم السلف بدون فائدة وهي أوقاف لمعت أيام أبي عنان، فكان له ذلك الاهتمام بقضاء ديون الطبقات العاجزة، وفي هذا الصدد اتخذ قرارا بالتزامه بوقف جزء من ماله الخاص لتسديد ديون المعسرين بسائر الجهات المغربية وكتب مع هذا لجميع الأقاليم المغربية بأن جميع من توفي وعليه دين من الديون أو حق من الحقوق ولو بالظنون فيؤدى عنه ذلك من بيت المال، وأمر أن تستمر هذه المبادرة على الدوام، وكان ابن الحاج النميري (ت774هـ) هو المكلف بكتابة جميع الأقاليم في هذا الشأن. وتشير ترجمة تحتفظ بها حوالة فاس السليمانية إلى استدامة هذا العمل بعد عصر بني مرين حسب هذه الفقرة: «الوصية العبد حقية لقضاء الديون والمساكين.» كما خصصت الأوقاف عددا من المال للسلف بدون فائدة ولا عوض بمدينة فاس يستقرض منه المحتاج ويعيده متى وجد.[2]

وفي المعاملات التجارية لا يفوتنا الحديث عن التجار الصغار الفقراء جدا، الذين كانوا مضطرين لشراء البضائع بالدين على تجار الجملة، وهم وحدهم الذين كانوا قادرين على إقراض أولئك الفقراء، الذين لا يملكون رأسمال لشراء البضائع، فيقرض إليهم البضائع إلى أجل حتى تباع ويرد الدّين إلى تجار الجملة، وهذه مبرة تعامل بها تجار الجملة مع فقراء التجارة.

يقول لوتورنو: «فكان تجار المفرق في أغلب الأحيان صنفا من التجار الفقراء، الذين كان مستوى المعيشة عندهم قريبا جدا من مستوى المعيشة عند الصناع. وكثيرا ما كان

(1) مذكرات من التراث المغربي ص:81.

(2) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي ج/1 ص:72-73.

-(أنظر أيضا) جامع القرويين ج/2 ص:457.

هؤلاء مضطرين إلى شراء البضائع على الدين فكانوا يعتمدون على تجار الجملة، الذين كانوا وحدهم القادرين على التسليف لأجل.»[1]

ويرجعنا التاريخ لهذه المبرة إلى صدر الإسلام الأول، ولعمري أن السلطان أبا عنان المريني اقتدى بالعهد النبوي الشريف وعهد العُمَرَيْن. فقد طالب النبي ﷺ بقضاء دين المدين أو الغارم، لقوله ﷺ: ««ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤا إن شئتم ﴿اِلنَّبِيءُ أَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْۖ﴾ [سورة الأحزاب الآية:6] فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتني فأنا مولاه.»»[2]

واستمرت هذه البادرة بعد وفاته ﷺ خصوصا في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه حينما فشي العدل والرخاء، فقد ذكر العلماء أنه كان معمولا به في عهده رضي الله عنه.[3]

ولقد وصل الأمر في عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن أرسل والي الصدقات بإفريقية إليه يقول: لم يبق فقير محتاج في إفريقية وبيت المال ممتلئ، فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يأمره بأن يسدد الديون عن المدين، فسدد ديون الناس حتى لم يبق مدين يستحق السداد لم يسد دينه.[4]

---

(1) فاس في عصر بني مرين ص:161-162.

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن باب النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ج/2 ص:569-570.

(3) سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ومقارنتها بالأنظمة الحديثة لعبد الله جمعان سعيد السعدي مكتبة المدارس الدوحة قطر الطبعة:1 سنة:1983 الصفحة:180.

(4) فقه الزكاة على ضوء الكتاب والسنة لمحفوظ إبراهيم فرج الدار المصرية اللبنانية الطبعة:1 سنة:2009 الصفحة:266.

المبحث الخامس: رعاية الأرامل والمكفوفين

من مفاخر الإسلام أن تعاليمه مبنية على الرحمة والرأفة وتشريعاته تقوم على المساواة، وجبر الخواطر، وتفريج الكرب والهم، وإيناس الوحشة، وتهوين الفاجعة.

ومن الأمثلة الواضحة على تحقيق هذه المعاني في تشريعات الإسلام ما رتبه من حقوق للأرملة، ودعا إلى السعي في مد يد العون لها.

حث الإسلام ورغب على رعاية الأرملة، فقضاء حوائجها والسعي على مساعدتها، له أجر عظيم عند رب العزة، خصوصا الأرملة التي ترعى العيال الصغار. فقد جاء عن المصطفى ﷺ أنه قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل.»[1]

وذكر ابن حجر عن الإمام مالك رحمه الله أن الساعي على الأرملة والمسكين له صدقة. فالساعي الذي يذهب ويجي في تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين. والأرملة بالراء المهملة التي لا زوج لها.[2]

جعلت الشريعة الإسلامية من ضمن أولى أولوياتها المحافظة على كرامة هذه الشريحة من المجتمع «الأرامل»، فتكفلت بتغيير نظرة المجتمع إليها فضلا عن توفير العيش لها، وإحاطتها بالعطف والحنان للتخفيف من مصيبتها بفقدان زوجها، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك حين جعلت من خدمة هذه الشريحة قربة من القربات العظيمة تتساوى مع أجر المجاهد في سبيل الله، وأجر من واظب على قيام الليل وصيام النهار، ولم يكتف النبي ﷺ بالتوجيه القولي، بل قام بكفالة بعض أرامل المسلمين الذين استشهدوا في حركة الجهاد، فقد جاء في صحيح البخاري أنه بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة، جاءت

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب باب الساعي على الأرملة رقم الحديث:5547 ج/3 ص:217.

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد دار الرسالة العلمية دمشق سوريا الطبعة:1 سنة:2013 الجزء:16 الصفحة:337.

زوجته أسماء بنت عميس إلى رسول الله ﷺ بولديها عبد الله ومحمد، وجعلت تذكر ترملها ويتم ابنيها، فقال النبي ﷺ: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة.»[1]

وانطلاقا من هذا التوجيه النبوي الشريف أخذت الأمة تعمل على إيجاد آليات تجسيد رعاية الأرامل في الواقع الملموس من خلال حركة اجتماعية مؤسسية تقوم على مبدئ التكافل الاجتماعي، لمساعدة هذه الشريحة في المجتمع، وقد كان حكام الدولة الإسلامية على رأس الرواد في مباشرة هذا العمل الاجتماعي السامي، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخطط قبل استشهاده لتقديم إعانة دائمة للأرامل، إلا أن استشهاده حال دون تحقيقه لهذا الهدف في حياته، وكان عمر رضي الله عنه قد بدأ في تقديم المعونات للأرامل في المدينة المنورة. وقد تطور العمل الاجتماعي في الحضارة الإسلامية لخدمة هذه الفئة إلى درجة إنشاء مؤسسات اجتماعية متخصصة لرعاية الأرامل والنســاء المطلقات، أو اللواتي هجرن من قبل أزواجهن، أو اللواتي تقدم بهن السن.[2]

المطلب الأول: مفهوم الأرملة

الفرع الأول: الأرملة لغة

تقول العرب أرمل القوم: نفذ زادهم، وأرملوه أنفذوه قال السليك بن السلكة:

إذا أرملوا زدا عقرت مطية تجر برجليها السريح المخد ما

والمرمل الذي نفذ زاده. ورجل أرمل وامرأة أرملة: محتاجة وهم الأرملة والأرامل والأراملة، كسروه وتكسير الأسماء لقلته، وكل جماعة من رجال ونساء أو رجال دون نساء أو نساء دون رجال أرملة، بعد أن يكونوا محتاجين. ويقال للفقير الذي لا يقدر على شيء من رجل أو امرأة أرملة، ولا يقال للمرأة التي لا زوج لها وهي موسرة أرملة.

---

(1) رواه أحمد بن حنبل في مسنده. مسند الزبير بن العوام حديث عبد الله بن جعفر رقم الحديث:1750 تحقيق محمد صدقي ومحمد جميل العطار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة:1 سنة:2009 الجزء:1 الصفحة:315-316.

(2) الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها لعلي محمد الصلابي دار المعرفة بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الصفحات:389- 390-391.

والأرامل المساكين. ويقال جاءت أرملة من نساء ورجال محتاجين، ويقال للرجال المحتاجين الضعفاء أرملة، وإن لم يكن فيهم نساء.[1]

وجاء في القاموس المحيط رجل أرمل وامرأة أرملة: محتاجة أو مسكينة جمع أرامل وأرملة، وقيل الأرملة: الرجال المحتاجون الضعفاء. وكذلك نسوة أرملة، والأرملة هي التي مات زوجها. ورجل أرمل ذهب زاده.[2]

الفرع الثاني: الأرملة اصطلاحا

عرف الإمام النووي الأرملة فقال: «اسم الأرامل يقع على من مات زوجها، والمختلعة والمبتوتة، دون الرجعية، والأيامى غير ذوات الأزواج، هذه عبارة الأستاذ وبها أخذ الإمام وقال: الفرق أن الأرملة من كان لها زوج، والأيم لا يشترط فيها تقدم زوج ويشتركان في اشتراك الخلو عن الزوج في الحال. وعبارة صاحبي «المهذب» و«التهذيب» لا يعتبر تقدم زوج في الأرملة. وفي اشتراط الفقر الوجهان المذكوران في الأيتام. وقطع الإمام بالاشتراط هنا. وفي دخول رجل لا زوجة له في الأرامل وجهان. والأصح تخصيص الأرملة بمن فارقها زوجها، والأصح أن الرجل لا يدخل في الأرامل.»[3]

المطلب الثاني: مفهوم المكفوف

الفرع الأول: المكفوف لغة

قيل الرجل مكفوف أي كف بصره من أن ينظر.[4]

(1) لسان العرب [مادة رَمَلَ] ج/11 ص:296-297.

(2) القاموس المحيط [مادة رَمَلَ] ص:671-672.

(3) روض الطالبين للنووي تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع طبعة خاصة سنة:2003 الجزء:5 الصفحة:166-167.

(4) لسان العرب [مادة كفف] ج/9 ص:305.

وجاء في القاموس المحيط المكفوف هو الذي كف بصره بالفتح والضم: عمي.[1]

والكفيف الذي ذهب بصره. كما يقال كف بصره فهو مكفوف. جمع مكافيف وهو كفيف أيضا.[2]

الفرع الثاني: المكفوف اصطلاحا

المكفوف هو الذي ذهب بصره كله من العينين كلتيهما وهو العمي والجمع عميان، وهو عبارة عن منع البصر عما يبصر. والكفيف أو المكفوف فأصلها من الكف ومعناها المنع والمكفوف هو الضرير.[3]

وهناك ألفاظ كثيرة مستعملة للتعريف بالشخص الذي فقد بصره وهذه الألفاظ هي: الأعمى، الضرير العاجز، المكفوف والكفيف.

وليس كل المكفوفين يولدون عميانا، فلا يصح إطلاق الكلمة بتعميم واستغراق، وقد أثبتت الإحصاءات أن أكثر المكفوفين قد أصيبوا بكف البصر في حياتهم، من جراء الإهمال في العلاج أو غير ذلك من الأسباب.[4]

الفرع الثالث: مكانة المكفوف في نظر الفقهاء

جرت العادة عندنا على اعتبار المكفوف غير صالح تماما لكثير من الأمور والواجبات الاجتماعية كالإمامة والولاية في الزواج والقضاء...ولكننا حينما ننظر في الفقه الإسلامي نجد أن الأئمة قد حفظوا للمكفوف كرامته وراعوا شخصيته، وإذا كانوا قد منعوه من بعض الأعمال، فإنما فعلوا ذلك تيسيرا عليه لا تحقيرا له. فمن احترام الفقهاء مثلا لشخصية المكفوف قولهم بوجوب الاجتهاد عليه في الأواني، لأنه يعرف بالملمس والشم اعوجاج الإناء، واضطراب الغطاء، وحال الماء، وما إلى ذلك من العلامات...وكأن هذا إيحاء منهم إلى المكفوف

(1) القاموس المحيط [مادة كفف] ص:1425.

(2) المعجم الوسيط [مادة كفف] ص:793.

(3) شعر العميان الواقع الخيال المعاني والصور الفنية لنادر مصاروه مراجعة وتقديم غالب عنابسه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2008 الصفحة:31-32.

(4) في عالم المكفوفين لأحمد الشرياصي مطبعة نهضة مصر بالفجالة القاهرة مصر الطبعة:1 سنة:1956 الصفحة:18-20.

بأن لا يتواكل، أو يتكل على كف بصره، بل عليه أن يتحرك، وأن يستخدم مواهبه، وأن يبذل جهده، ويقدم ما يستطيع. ويجوز له الاجتهاد في أوقات الصلاة، وجاء عن الإمام مالك والإمام أبو حنيفة «إن المكفوف يجوز منه البيع والشراء.»(1)

فعاهة الأعمى الكفيف توجب النفقة إذا كان صغيرا تجب نفقته باسم الصغر، وباسم العارض، وإذا كان بالغا تجب له النفقة باسم العارض وحده وهذا محل اتفاق بين الأئمة الأربعة.(2)

المطلب الثالث: الرعاية الاجتماعية للأرامل والمكفوفين في العهد المريني

استطاعت الدولة المرينية أن تحقق بعض جوانب الرعاية الاجتماعية، خصوصا وأنها وفرت المال المطلوب للغرض، سواء من الضرائب أو الجزية أو الزكاة ومعونات المحسنين وغيرها، وبذلك استعملت الدولة موارد بيت المال والأوقاف في المجال الإحساني المتمثل في مساعدة فئات المجتمع المعوزة خصوصا الأرامل والمكفوفين.

وساعد المرينيون الأرامل والمكفوفين بالطعام والملابس، فالسلطان يوسف بن يعقوب المريني رتب لفقراء العاهات والعمي والأرامل مالا معلوما يقبضونه كل شهر من جزية اليهود.(3)

كما بني السلطان يعقوب بن عبد الحق الزوايا في الفلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذي الحاجات.(4)

ويسترسل العلامة محمد المنوني الحديث عن المؤسسات الإحسانية التي تخص هذه الفئة من ذوي الاحتياجات والأرامل فيقول: «ومن المؤسسات الإحسانية في نطاق الأشغال العامة بهذا الدور: بنايات تتشابه إلى حد مع شكل المدارس، غير أن هذه تكون معدة لإرفاق

(1) في عالم المكفوفين ص:34-35-36.

(2) الإحسان الإلزامي ص:216.

(3) الإحسان الإلزامي ص:601.

(4) الذخيرة السنية ص:91.

المسافرين وذوي الحاجات، وكانت هذه البنايات تعرف الواحد منها باسم الزاوية، وصارت في هذا الدور تبنى بأرباض المدن.»[1]

وأجرى السلطان أبو يوسف يعقوب المريني على المعوقين والمكفوفين مرتبات منتظمة عند كل شهر.[2]

وفي هذا الجانب يقول صاحب الاستقصا: «وكذلك فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالا معلوما يقبضونه كل شهر من جزية اليهود.»[3]

وعلاوة على هذا خصصت دار بين الصاغة ورحبة قيس لتزويج العمي.[4]

وكان السلطان أبو الحسن المريني يهتم بالأرامل، والأيتام والمحتاجين والضعفاء والمساكين، وأهل السجون، ويقدم لهم الجرايات في المناسبات المختلفة ويستمع إلى مظالمهم وانشغالاتهم مرة في الأسبوع. وكانت عطاياه لا تعد ولا تحصى. فضلا عن مكافأته للأعيان والفقراء والصلحاء، والكتاب وذوي الوجاهة من أهل تلمسان.[5]

وخصص السلطان أبو الحسن المريني فندقا خاصا لسكنى المكفوفين المواجه لدار الوضوء التابعة لمدرسة الأندلس.[6]

(1) مذكرات من التراث المغربي مقال بعنوان: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم المعمارية لمحمد المنوني ص:25.

(2) الإحسان الإلزامي ص: 601.

(3) الاستقصا ج/3 ص:65.

(4) جامع القرويين ج/2 ص:457.

(5) تلمسان في العهد التلمساني ج/1 ص:226.

(6) مذكرات من التراث المغربي ص:77.

المبحث السادس: رعاية المسجونين

لجأت مختلف المجتمعات إلى السجن وسيلة للعقاب، وقد أشار القرآن الكريم إلى السجن في سورة يوسف قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف الآية:33].

وقال أيضا: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [سورة يوسف الآية:42].

ودون الخوض في المقاصد الدينية والفلسفية لوجود السجن، فإنها تروم تقويم سلوك الجانح وحماية المجتمع من العناصر الخطرة، وإعادة الاعتبار لضحايا سلوك الجانحة، وتقديم العبرة لمن هو في الحاجة إليها. وفي حالة سجن «الفعل السياسي» فإن السلطة القائمة تبتغي منه تكميم من تعتبر خارجين عنها، أو الحد من تحركاتهم، أو القضاء عليهم. إن البحث في تاريخ السجن والسجناء بالمغرب الوسيط، هو بحث في تاريخ التهميش والمهمشين. فالسجن في منظور السجان والمجتمع خارج عن الضوابط المتعارف عليها. إن فضاء السجن يبعث على التقزز ويوحي بالظلمة، حتى إن كثيرا ما تأتي صفة الغياهب ملازمة للسجون.[1]

وينعكس مثل هذا الموقف على حضور مادة السجن والسجناء بالمصادر التاريخية، فالأمر لا يعدو أن يكون مجرد لمع وشذرات وردت في الغالب بالمصادر الإخبارية بصفة شاردة. فقد بادر السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بعد توليته السلطة إلى إخراج الصدقات إلى الضعفاء وتسريح المسجونين في جميع البلاد. وبعد وصول أبي ثابت المريني إلى الحكم، أمر بتسريح من يوجد بسجن فاس. واقتفى السلطان أبو سعيد الأثر ذاته عند بيعته بأن سرح أهل السجون، واستثنى منهم أهل الفساد في الأرض وأصحاب الدماء ومن حبس في حق شرعي.[2]

ومن أهم مقاصد الكتابة لدى الاخباريين، تقديم صورة عن الحاكم «المثال» الذي نجح بفعل سطوته في بث الأمن بالبلاد، ودانت له العباد. وإذا كانت المصادر الإخبارية تتحدث عن فعل الاعتقال، فإنها -في الغالب- عند حدود إعطاء الأمير أو الولي أوامر اعتقال الخارجين

(1) السجن والسجناء نماذج من تاريخ المغرب الوسيط لمصطفى نشاط طبعة المجلس الوطني لحقوق الإنسان (بدون رقم طبعة) سنة:2012 الصفحة:12.

(2) السجن والسجناء ص:12.

عن الحكم أو تنفيذه فيهم. ومما يسجل على بعض المصادر التي اتخذت من المدن فضاء لها، أنها لم تقدم أي إشارة عن سجونها. فهذا كتاب «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» للسبتي، يصف مختلف المكونات العمرانية للمدينة ويعددها انطلاقا من المساجد والخزائن العلمية والأسواق والربط والزوايا، والحمامات والفنادق والسقايات والطواحن... دون الإشارة عن سجن المدينة. قد يفسر ذلك بغياب فضاء خاص بالسجن في المدينة، وقيام بعض الدور مقام السجن.

كذلك أشار الجزنائي الذي أفرد كتابه جنى زهرة الآس للحديث عن تاريخ فاس وعمرانها، لا يشير إلى السجن، والملاحظة ذاتها تنسحب على كتاب روض القرطاس لابن أبي زرع.[1]

المطلب الأول: مفهوم المسجون

الفرع الأول: المسجون لغة

من سجن سجنه سجنا بمعنى حبسه فهو مسجون وسجين جمع سجناء، وسجنى وهي مسجونة وسجينة. ويقال سجن لسانه. والسجن المحبس. والسجين (بكسر فشدة) كسكين موضع السجن، ومكان فيه كتاب الفجار. وسجن الهم: لم ينشره ولم يظهره.[2]

الفرع الثاني: المسجون اصطلاحا

عرفه ابن القيم فقال: «المسجون هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان في بيت أو مسجد.»[3]

عرفه الكاساني بقوله: «منع الشخص من الخروج إلى أشغاله ومهماته الدينية والاجتماعية.»[4]

(1) السجن والسجناء ص:12-13.

(2) المعجم الوسيط [مادة سَجَنَ] ص:418.

(3) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم الجوزية تحقيق نايف بن أحمد الحمد دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:1 الصفحة:269.

(4) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني المطبعة الجمالية مصر (بدون رقم طيعة) سنة:1910 الجزء:7 الصفحة:174.

وقيل المسجون هو الذي وضع في محل معين، استبراء لأمره، أو جبرا على الوفاء، أو عقوبة له بسبب يقتضي ذلك. وقيل أيضا المسجون هو الذي تم امساكه ووضعه في مكان معين لتعويقه ومنعه من الخروج لمزاولة نشاطه.[1]

هذه جملة من بعض التعاريف المصطلحية للسجين والتي تتفق في معناها على مدلول متقارب.

المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للمسجونين في العهد المريني

يصعب الظفر بمعطيات كافية عن الضوابط والإشارات التي تبين الإنفاق على المسجونين خلال فترة الحكم المريني، فهناك لمحات وإشارات طفيفة حول موضوع السجن والسجناء وعن الرعاية التي كانت تقدمها سواء السلطة أم المحسنين، وكذلك المعطيات عن سير الحياة اليومية داخل السجون.[2]

فمبادرة رعاية المسجونين ساهمت في رفع الضرر عنهم زمن بني مرين، وكانت جد طيبة وحسنة بل وأثمرت بذورها، خاصة حينما يساهم سلاطين الدولة في إنجاح هذه البادرة الفريدة من نوعها. وإن كانت هذه الجوانب مسكوت عنها في المصادر التاريخية، باعتبارها من الأمور الحساسة خصوصا إذا تعلق الأمر بالخصوصيات السياسية، ولا يسعنا في هذا المقام سوى الوقوف عما جاء ذكره في قريحة المؤلفات التاريخية التي أشارت للرعاية الاجتماعية للسجناء.

تكاد المصادر التاريخية الإخبارية الرسمية تقرن وصول أي حاكم جديد للسلطة بذكر مناقبه، بما فيها تسريحه للسجناء، فبمجرد بيعة أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني وتسلمه مقاليد الحكم، حتى بادر إلى تسريح من في السجون. إن تسريح السجناء من لدن الحاكم عند وصولهم إلى السلطة، يقترن بمناقب أخرى كتفريق الأموال

(1) أحكام المعسر في الفقه الإسلامي لعبد الله حسن حميد الحذيفي مكتبة نزار مصطفى اليار مكة المكرمة الطبعة:2 سنة:2005 الصفحة:170-171.

(2) السجن والسجناء ص:80.

والصدقات على المحتاجين ورفع المظالم، وعلاوة على هذا حصول بعض حالات العفو عند وصول الحاكم الجديد إلى السلطة.[1]

وكتب النميري عن السلطان أبي عنان المريني فقال: «وأمر بإخراج أموال عظيمة من طيب كسبه، وتخير ذلك تخيرا دل على طهارة قلبه، وعين لكل بلد من بلاده قسطا معلوما، وحظا يبرز كتابه مرقوما. وأمرني أيده الله أن أكتب عنه إلى جميع الأقطار وعامة الأمصار، بأن جميع من هو في السجون من الضعفاء الذين عجزوا عن أداء ما عليهم من الديون فتؤدى ديونهم من ذلك المال، ويطلق سراحهم من الاعتقال... وأمر رضي الله أن يتصل ذلك العمل على الدوام، وتعاقب الليالي والأيام. وأخرج المعتقلين من بيوت كانت للأكباد صادعة، وفتحت أبواب لم تزل لأيدي أولي الأيد دافعة، ونسي تصور السجون وقد كانت حدودها جامعة مانعة، فلا يسمع السامعون إلا أدعية بموارد القبول شارعة، وشكرا لا تزال أخباره مستفيضة شائعة.[2]

كما وفرت الدولة للمسجونين الصدقات الوافرة داخل سجنهم في جميع بلاد المغرب، وكانت هذه الصدقات عبارة عن خبز مخبوز ينتفع به هؤلاء السجناء يوميا.

قال ابن جزي: «ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضا، ومنها كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع.»[3]

وصدر عن السلطان أبي عنان المريني أمره بالرفق بالمسجونين، ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم، ما هو اللائق بإحسانه، والمعهود من رأفته، وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار.[4]

وأما عن مصادر الإنفاق على المسجونين، فقد دأب السلاطين على أن يجروا عليهم ما يقوتهم في طعامهم وإدامهم وكسوتهم في الشتاء والصيف. بينما كان السجناء يتحملون جزء من تلك المصادر، إذ كان العامل يأخذ مثقالا وربع مثقال عن كل محكوم عليه، إضافة إلى

(1) السجن والسجناء ص:98.

(2) فيض العباب ص:164-165.

(3) تحفة النظار ج/2 ص:674-675.

(4) المصدر نفسه ج/2 ص:675.

بعض المغارم من كل سجين تدفعها عنه طائفة من التجار والصناع المعينين لهذا الغرض. وكان السلطان أبو عنان أحد السلاطين المرينيين الذين دأبوا على الإنفاق على السجناء لإطلاق سراحهم، قد كلف بذلك ابن الحاج النميري الذي كتب رسالة تأمر بأداء الديون عن السجناء الذين لم تسمح لهم ظروفهم المادية بتغطيتها. أما أجرة السجان فكان على السجين توفيرها، ما عدا في حالة تبرئة المتهم بدم. فآنذاك يوفرها القائم ضد المتهم. ودائما في سياق الإنفاق على السجون، يستفاد من إحدى النوازل أن إصلاحها أو بناها كان يتم اعتماداً على مال المخزن.(1)

وجاء في المعيار المعرب أن أموال الأحباس كانت تنفق على المسجونين باعتبارها إحدى أهم مصادر الإنفاق. فقد سئل الونشريسي عن وقف المسجونين عن إمكانية استفادتهم من مال الأحباس، فقال: «أما صرف غلات الأحباس بعضها في بعض فيجوز على وجه المسالفة بشرط أن يكون المسلف منه غنيا لا يحتاج إلى ما أسلف منه لا حالا ولا استقبالا، وأما ما وقف على المساكين كما ذكرتم، وعلى الحجاج والمسجونين، وعدموا. فأما المساكين فلا يعدمون هنا، بل جل أهل بلدتهم مساكين، فيفرق عليهم بالاجتهاد، وأما الحجاج وأهل السجون فتوقف غلات أحباسهم حتى يوجدوا.»(2)

كما تبرز لنا حقيقة قوامها أن العيش داخل نفس الفضاء السجني، يجعل السجناء يتجاوزون مراتبهم الاجتماعية، فبالسجن تختفي كل الألقاب وصيغ التراتبية، بما أن الكل يتجرع مرارة فقدان الحرية. كما أن القاضي أبا حاتم العاملي الذي اعتقل بسجن فاس المرينية، يتحدث عن وجوده إلى جانب سجناء من مختلف الشرائح الاجتماعية. وربما هذا لا ينسجم مع دعوات بعض الفقهاء إلى ضرورة الفصل بين السجناء، حسب نوعية التهمة المنسوبة إليهم.

ولا تسعفنا المادة التاريخية حول معرفة نوعية الأغدية المقدمة للسجناء، وإن كانت بعض اللقطات المتوافرة تفيد أنها كانت رديئة جدا، وعلى حسب ما ذكر كان يقدم للسجناء الخبز المخبوز كإعانة لهم.(3)

---

(1) السجن والسجناء ص:81-82.

(2) المعيار المعرب ج/7 ص:45.

(3) السجن والسجناء ص:85-86.

وفي مجال العبادات خصصت الدولة المرينية للسجناء داخل سجنهم، إماما راتبا يدخل عليهم أوقات الصلاة فيصلي بهم الصلوات الخمس.

وحددت الدولة لهم أوقات لزيارة الأهل والأحباب والأصدقاء، وهو من باب رعاية الجانب النفسي للمسجونين.[1]

وعرف عن السجن منقبة تعلم القرآن الكريم من طرف بعض الصلحاء الذين دخلوا السجن، وقد جادت علينا بعض النصوص المؤرخة في كتب التاريخ عن مناقب الشيخ أبي العباس أحمد المقري، حين حاصر السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المريني مدينة تلمسان فأدخله السجن ووجد بداخله خلائق لا تحصى فأرشدهم إلى الصلاة وأمرهم بقراءة القرآن الكريم، وكان عدد السجناء يفوق السبعمائة رجل، وكان الناس يقصدونه بالسجن لتجويد القرآن الكريم.[2]

واعتبرت المارستانات حسب لوتورنو سجنا للمرضى، وأن فكرة السجن مرتبطة بفكرة المستشفى، وكان يسجن فيه المريض الذي يعاني من اضطرابات نفسية. أما فيما يخص المنظومة الطبية للسجناء، فكانت الدولة المرينية هي التي تتكفل بتخصيص الواجب الصحي لهم.[3]

والمصادر التاريخية خلال فترة حكم الدولة المرينية، لم تسجل بين طياتها أية معطيات حول إعانة أهالي المسجونين. وهنا نطرح السؤال هل كانت الدولة تقدم منحا للأسر التي لا تجد من يعيلها والتي تعرض أربابها إلى قضاء فترة العقوبة داخل السجن؟ فيبقى هذا السؤال مطروحا حتى نعثر على نص صريح يجيب على هذا التساؤل.

(1) السجن والسجناء ص:83.
(2) السجن والسجناء ص:92.
(3) فاس في عصر بني مرين ص:79.

المبحث السابع: افتكاك الأسرى

منذ القرن السابع الهجري، نقلت الصليبية الحرب إلى شواطئ المغرب العربي، فكثر أسرى المسلمون لدى البرتغال، وإسبانيا، وإيطاليا، وكان واجبا على أولي الأمر أن يفتكوا أسراهم بكل الوسائل، بالإضافة إلى واجبات الخواص، ويشهد التاريخ أن أولي الأمر المغاربة بذلوا مجهودا مشكورا في هذا المجال، واستعملوا في ذلك ما وضعه الشرع الحكيم تحت أيديهم من موارد بيت المال. ومن هنا اندفع شعور التكافل بقوة الذاتية المغربية المسلمة، فوهبت هذه الذاتية ما تملك، فرادى وجماعات، لإنقاذ المسلمين من يد الصليبيين الحاقدة.(1)

وراعت الشريعة الإسلامية جانب البعد الإنساني، ولم تنس المحاربين تحت رايتها خصوصا إذا وقعوا في محك الأسر، بل وطالبت بفدائهم من قيود الأسر سواء بتدخل الدولة أم المحسنين.

كما حرصت الشريعة الحنفية بإكرام الأسرى غير المسلمين، وخصتهم بمعاملة حسنة أثناء فترة الأسر مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً﴾ [سورة الإنسان الآية:8]، وهذا ما دفع المستشرق غوستاف لوبون يعترف باحترام الأمة الإسلامية للأسرى بالمعاملة الحسنة والرفق والرحمة والتكريم.(2)

يقول المستشرق غوستاف لوبون: «فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم.»(3)

ويمكن القول إن نظرة الإسلام إلى الأسرى تتلخص في عنصرين أساسين هما: حسن المعاملة إذا كان مأسورا عند المسلمين، إيجاد المنفذ لافتداء أسرى المسلمين إذا كانوا أسرى عند الكفار.(4)

---

(1) الإحسان الإلزامي ص:546-618.

(2) الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة:1 سنة:2005 الصفحة:137.

(3) حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ص:14.

(4) مجلة كلية الدراسات الإسلامية مقال بعنوان: حروب المصالح من منظور السياسة الشرعية الأسر والأسرى نموذجا لقاسم محمد بن عبد الرحيم الطعامنة العدد:36 (بدون تاريخ) الصفحة:903.

وذكر الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية السابقة: «الأسير العبد من المسلمين إذا كان المشركون قد أجاعوا عبيدعم الذين أسلموا مثل بلال وعمار وأمه وربما سيبوا بعضهم إذا أضجرهم تعذيبهم وتركوهم بلا نفقة. والعبودية تنشأ من الأسر فالعبد أسير.[1]

وجاء في الجامع لأحكام القرآن أن الأسير الذي يؤسر ويحبس. فروى أبو صالح عن ابن العباس قال:

الأسير من أهل الشرك يكون في أيديهم. وقاله قتادة. وروي عن ابن النجيح عن مجاهد قال: الأسير هو المحبوس. وكذلك قال سعيد بن جبير وعطاء: هو المسلم يحبس بحق. قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه. وقيل إن الآية نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلا حسنا، فهي عامة.[2]

المطلب الأول: مفهوم الأسير

الفرع الأول: الأسير لغة

الأسير الأخيذ، وأصله من ذلك. وكل محبوس في قيد أو سجن أسير. يقال أسرت الرجل أسرا وإساراً، فهو أسير مأسور، والجمع أسرى وأسارى وأسرى.[3]

وجاء في القاموس المحيط: الأسير الأخيذ والمقيد والمسجون جمع أسرى وأسراء وأسرى.[4]

الفرع الثاني: الأسير اصطلاحا

عرفه الإمام الماوردي فقال: «الأسرى الرجال المقاتلون من الكفار إذا ظفر المسلمون بأسرهم أحياء.»[5]

(1) التحرير والتنوير ج/29 ص:384.

(2) الجامع لأحكام القرآن ج/21 ص:459-461.

(3) لسان العرب [مادة أَسَرَ] ج/4 ص:19.

(4) القاموس المحيط [مادة أَسَرَ] ص:54.

(5) الأحكام السلطانية ص:166.

وذكر الكاساني عن الإمام أبي حنيفة النعمان أنه قال: «الأسير مقهور في يد أهل الحرب، فصار تابعا لهم.» وقال أيضا الإمام الكاساني: «الأسير هو الذي أسر وصار مملوكا.»(1)

وعرفه فقهاء القانون الدولي: الأسير هو كل شخص يؤخذ لا لجريمة ارتكبها، وإنما لأسباب عسكرية.(2)

المطلب الثاني: افتكاك الأسرى في العهد المريني

أبانت الدولة المرينية عن مجهوداتها في جانب افتكاك الأسرى، وتخليصهم من الأسر الذي وقعوا فيه سواء في المعارك أو غيرها. وبذلت العطاءات الكبيرة والسخية لافتداء الأسرى سواء من أموالهم الخاصة أم من بيت المال، إضافة إلى مساهمة المحسنين في هذه البادرة الطيبة الحسنة والمباركة.

ففي العصر المريني استولى بنوا الأحمر الأندلسيين على مدينة سبتة، ونفوا منها إلى الجزيرة الخضراء الأشراف الحسنيين، الذين كان لهم صيت واسع بسبتة، نظرا لقيام هؤلاء الأشراف بالخدمات الدينية والعلمية للأمة، مع إلتزام الاستقامة، وفي عرض البحر أسر الإسبان هؤلاء الشرفاء، فأسرع السلطان المريني أبو سعيد بن عبد الحق، وافتدى رئيس الشرفاء وأباه بثلاثة آلاف دينار، وافتدى بقية الأسرى، بحمل من المال.(3)

يقول ابن مرزوق: « كان سيدنا الشريف الكبير الصالح التقي أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي شرف الحسني السبتي رضي الله عنه قد أسره العدو (الإسبان) في بحر الزقاق وولديه، وأظهر الله كرامة آل بيته (عليه الصلاة والسلام) بأن عاملهم النصارى بخير ولم يتعرضوا لإهانتهما ولا لضربهما بوجه، غير أنهم طلبوا فيهم الفداء بالمال، فلما رفعت القضية لمولانا السلطان أبي سعيد رحمه الله تطارح عليه ولده مولانا أبو الحسن في أن يفتكهم من

(1) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج/7 ص:133.
(2) مجلة كلية الدراسات الإسلامية مقال بعنوان: حروب المصالح من منظور السياسة الشرعية الأسر والأسرى نموذجا ص:902.
(3) الإحسان الإلزامي ص:618-619.

ماله، فأذن له، فشطط النصراني في الطلب إلى أن وقفوا على سبعة آلاف دينار من الذهب، فأخرجهما رضي الله عنه من ماله.»[1]

والظاهر أن الأوروبيين كانوا دائما يعقدون مسألة تحرير الأسرى، ويفضلون دائما أن يكون هذا التحرير بالمال وليس بتبادل أسير بأسير، حيث يتسنى لهم الاحتفاظ بالأسرى المسلمين إما كعبيد وإما أن تمنح لهم حريتهم مقابل تنصرهم، وفي كلتا الحالتين أمر خطير. وهذا هو الدافع الذي جعل المحسنين يقبلون على وقف مجموعة من العقارات لكي يصرف مدخولها في افتكاك الأسرى المسلمين والحيلولة دون بقائهم عبيدا أو متنصرين، ونملك وثيقة وقفية وردت ضمن الحوالات السليمانية والمؤرخة سنة 994هـ تشير إلى ثلاث وصايا للأوقاف على الأسرى:

1 -وصية المحسن الكبير الشيخ أبي مروان عبد الملك بن حيون المتوفى سنة 599هـ. وذلك بتخصيص الثلثين من العقارات الموقوفة على الأسرى والثلث الباقي على المساكين، وعند غلاء الأسعار تحول ثلثا الأسرى للمساكين ليستعينوا بها على الغلاء، وقد جعلها كلها رهن نظارة أوقاف القرويين. وتأتي في مقدمتها 24 حانوتا ثم 14 عرصة جنان، وفندق للتجارة ودار ونصف وربع حمام بالإضافة إلى فيض ماء.

2 -وصية السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس، وتتضمن هذه الوصية أرحتين وثلاثة حوانيت وعقارات أخرى وجميعها بمدينة فاس. واستمر العمل بهذه الوصية لمدة ستة قرون.

3 -وصية مجهولة الموصى بها وهي عبارة عن حانوت بمدينة فاس، وبدون شك كانت مختلف مداخيل هذه العقارات تفي بالغرض التي وضعت من أجله والدليل على ذلك استمرار العمل بهذه الوصيات لمدة تفوق ستة قرون، أي منذ سنة 599هـ تاريخ وفاة ابن حيون ومرورا بسنة 994هـ، ومرورا أيضا بسنة1115هـ وصولا إلى سنة 1219هـ وهو تاريخ كتابة الوقفية في الحوالة، وبذلك ساهمت مداخيل هذه العقارات في مصاريف افتكاك

(1) المسند الصحيح الحسن ص:150.

الأسرى بفاس منذ عهد الدولة المرينية ومرورا بالدولة الوطاسية والسعدية والعلوية إلى حدود حكم المولى سليمان.[1]

وتفيدنا نازلة أخرى من نوازل الونشريسي، أن امرأة أوصت بجزء من أملاكها لأحد الأسرى.[2]

كما نلاحظ أن بعض الموسرين في بلدة ما كانوا يوصون عند شعورهم بدنو أجلهم في حالة حدوث وباء بجزء من أملاكهم لفداء الأسرى وبعض جهات البر والخير.[3]

وجاء في فيض العباب أن السلطان أبا عنان المريني، وقع عزمه الشريف أن لا يترك بلداً من بلاده الساحلية إلا ويثبت فيها حبسا للافتداء، ويعده هنالك متأهبا للنداء، لأنه ربما أتى العدو بالأسرى في أجفانه، وطلب إحضار فديتهم أسرع من رجع أجفانه، لخوف من عدو آخر يطلبه ويرغب في إيحانه، ويسارع لتخضيعه وإقرانه(إبقائه في نفس المكان) وينوء عليه بالكلكل ضرابه وطعانه، أو إسراعا لانتهاز فرصة جعلها العزم في ضمانه، أو خوف نفاذ زاد يتعذر بيعه وإن أثمن فيه بحق أثمانه، فلا يؤلف للعدو ما يطلبه من المال ولا يستقضي إحضاره عن أولي الأصفاد والأغلال، إلا وقد انصرف العدو عن الساحل، وانكفأ بالعناة الذين أسلمتهم صدور الرماح إلى السلاسل، فتكاد النفوس تذهب عليهم حسرات، والقلوب تتصدع وجداً وزفرات. ولا يزداد الأسرى إلا شجونا محتوشة الأوار. (شدة العطش وقوة البأس)[4]

يبدو من كلام النميري أن السلطان أبا عنان خص أملاكا محبسة في سواحل بلاد المغرب لفداء الأسرى سواء من الإسبان أم البرتغال، وهي مزية ومبرة عظيمة من قبل السلطان، الذي حلت بركته بهذه المنقبة. ومن مزاياه أن أبا عنان كان يفتدي حتى الأسرى من الأقطار الأخرى ولا تدخل في مجال حكمه، بل كانت محبته للخير تتعدى الحدود. فقد افتدى مدينة طرابلس حين استولى عليها العدو بمقدار كبير من المال، ليسترجعها منهم.

---

(1) تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين ص:247-248.

(2) المعيار المعرب ج/10 ص:294.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:26.

(4) فيض العباب ص:169-170.

يقول ابن جزي: «حسب المتشوف إلى علم ما عند مولانا أيده الله ونصره من سداد القطر إلى المسلمين، ودفاع القوم الكافرين، ما فعله في فداء مدينة طرابلس إفريقية. فإنها لما استولى العدو عليها،

ومد يد العدوان إليها، ورأى أيده الله، أن يبعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى لبعد الأقطار، كتب إلى خادمه ببلاد إفريقية أن يفديها بالمال. ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه ذلك قال: الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا النزر اليسير. وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقية، وعادت المدينة إلى الإسلام على يده. ولم يخطر في الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا حتى جاء بها مولانا أيده الله مكرمة بعيدة، ومأثرة فائقة، قل في الملوك أمثالها وعز عليهم مثالها.»[1]

(1) تحفة النظار ج/2 ص:676.

المبحث الثامن: الرعاية الاجتماعية لركب الحج

يعد الحج ركنا من أركان الإسلام الخمسة، وهو فريضة على كل مسلم لمن استطاع إليها سبيلا. يقول تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [سورة الحج الآية:25]، فالحج هو قصد بيت الله الحرام. وصار لفظ الحج علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أقيم لذلك حتى يترسخ معنى التوحيد في النفوس، لأن للنفوس ميلاً إلى المحسوسات ليتقوى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس. فهذا أصل في سنة المؤثرات لأهل المقصد النافع.

وخطاب إبراهيم عليه السلام دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ الناس التوحيد وقواعد الحنفية. وقوله «رجالا وعلى كل ضامر» دلالة على اعتبار التوزيع بين راجل وراكب، إذ الراكب لا يكون راجلا ولا العكس. والمقصود منه استيعاب أحوال الآتين تحقيقا للوعد بتسيير الإتيان المشار إليه بجعل إتيانهم جوابا للأمر، أي يأتيك من لهم رواحل ومن يمشون على أرجلهم.[1]

وسئل النبي ﷺ «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال جهاد في سبيل الله، قيل ثم ماذا؟ قال: حج مبرور.»[2]

والحج اقترن بأفضل الأعمال مقارنة بالإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله، لأن عبادته تستوجب المشقة والعناء والجهد والصبر.

وقد ذهب القرطبي إلى أنه لا خلاف في جواز الركوب والمشي، واختلف في الأفضل منها، فذهب مالك والشافعي إلى أن الركوب أفضل اقتداء بالنبي ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب. وذهب غيرهم إلى أن المشي أفضل لما فيه من المشقة على النفس.[3]

---

(1) التحرير والتنوير ج/17 ص:243.

(2) رواه البخاري في صحيحه كتاب الحج باب فضل الحج المبرور رقم الحديث:1422 ج/1 ص:368.

(3) الجامع لأحكام القرآن ج/14 ص:363.

ونخص بالذكر أن رحلة الحج إلى بيت الله التي لاقت اهتماما كبيرا من قبل السلطات المرينية من سلاطين وأمراء، فكلما استقرت الأوضاع السياسية وقويت السلطة المركزية ازدادت العناية بركب الحج، وكبر حجمه، وتعددت طوائفه، كما كان لهذه الرحلات الحجية الآثار الاجتماعية. فرحلة الحج بطبيعتها ذات أهداف دينية في صميمها، فهي كغيرها تعد ظاهرة اجتماعية تدخل في نظام عام وفي إطار اجتماعي، مما أكسبها قوة وأضفى عليها صبغة المجد والاحترام والتقدير والسمعة الطيبة، حتى ولو اصطبغت بالصفة السلطانية، فهي لا يمكن أن تأتي عن طريق الفرد وحده، بل تنتج عن روح الجماعات وتفاعل الطبقات المختلفة في المجتمع السائد بين الناس، فالباعث لهذه الرحلة مهما ظهر دينيا محضا فقد امتزج بقوة اجتماعية قد تختفي وراءه في الظاهر ولكنها تظل تحركه وتنميه فيتعاونا معا على خلق الدافع للرحلة إلى الحج.[1]

المطلب الأول: مفهوم الركب والحج

الفرع الأول: الركب لغة

من رَكِبَ يَرْكَبُ رُكُوبًا، والركب في الأصل هو راكب الإبل خاص، ثم فأطلق على كل من ركب دابة. وقول علي كرم الله وجهه: ما كان معنا يومئذ فرس إلا فرس عليه المقداد بن الأسود، يصحح أن الركب ههنا ركاب الإبل، والجمع أركب وركوب.[2]

وقيل ركبه كسمعه، ركوبا ومركبا: علاه. الراكب للبعير خاصة جمع ركاب وركبان وركوب. والركب ركبان الإبل، اسم جمع أو جمع وهم العشرة فصاعدا، وقد يكون للخيل جمع أركب وركوبا. والرِّكاب، ككتاب: الإبل، واحدتها: راحلة جمع ركابات وركائب.[3]

وجاء في المعجم الوسيط الركاب للسرج: ما توضع فيه الرجل وهما الركبان والإبل المركوبة والركب العشرة فما فوق جمع أركب وركوبا.[4]

---

(1) مجلة كلية الآداب جامعة مصراته مقال بعنوان: رحلة الحج وأثرها في الصلات بين الدولتين المرينية والمملوكية من القرن 7-9هـ/13-15م لفتحية محمد الوداني العدد: 6 ص:331-332-333.

(2) لسان العرب [مادة ركب] ج/1 ص:428-430.

(3) القاموس المحيط [مادة ركب] ص:664.

(4) المعجم الوسيط [مادة رُكِبَ] ص:368.

الفرع الثاني: الحج لغة

الحج القصد. حج إلينا فلان أي قدم وحجه يحجه حجا: قصده. وحججت فلانا واعتمدته أي قصدته. ورجل محجوج أي مقصود. والحج قصد التوجه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسنة تقول حججت البيت أحجه حجاً إذا قصدته، وأصله من ذلك.[1]

وقيل الحج: القصد، والكف، والقدوم، وسبر الشجة بالمحجاج: للمسبار، والغلب. بالحجة وكثرة الاختلاف والتردد، وقصد مكة للنسك، وهو حاج وحاجج جمع حُجاج وحَجِيج وحج.[2]

الحج أحد أركان الإسلام الخمسة وهو القصد في أشهر معلومات إلى البيت الحرام للنسك والعبادة. وينقسم إلى قسمين الحج الأكبر هو الذي يسبقه الوقوف بعرفة. والحج الأصغر الذي ليس فيه وقوف بعرفة، ويسمى العمرة.[3]

الفرع الثالث: ركب الحج في الاصطلاح

ركب الحج هو الذي يضم مجموعات من الناس يسيرون متحدين أو متفرقين في البر أو البحر حتى الوصول إلى بلاد الحرمين. [4]

أما ركب الحج المغربي فينطلق من المغرب يترأسه أمير برسم خاص من سلطان البلاد.[5]

والركب المغربي يضم خمس ركاب: 1 -الركب السجلماسي.2 -الركب الفاسي.3 -الركب المراكشي. 4 - الركب الشنقيطي.5 - الركب البحري.[6]

---

(1) لسان العرب [مادة حجج] ج/2 ص:226.

(2) القاموس المحيط [مادة حجج] ص:331.

(3) المعجم الوسيط [مادة حَجْحَجَ] ص:157.

(4) موقع ميدان مقال بعنوان: طريق المعاناة قصص تاريخية عن مشاق رحلة الحج قديما لأحمد إبراهيم بتاريخ:2018/08/17 (بتصرف) www.midan.aljazeera.net

(5) رحلة العياشي الحجية الصغرى لأبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي يكر العياشي تحقيق عبد الله حمادي الإدريسي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2013 الصفحة:21.

(6) من حديث الركب المغربي لمحمد المنوني مطبعة المخزن تطوان (بدون رقم طبعة) سنة:1953 الصفحة:9.

المطلب الثاني: ركب الحج المغربي ورعايته في العهد المريني

مما لا شك فيه أن الكتب التاريخية خصوصا التي أرخت للدولة المرينية أولت عناية خاصة بالتاريخ لركب الحج المغربي، وواكبت تفاصيله منذ انطلاقه من المغرب في اتجاه الأراضي المقدسة مكة المكرمة، والمدنية المنورة، إلى غاية رجوع هذا الركب المغربي إلى الأراضي المغربية.

الفرع الأول: ركب الحج في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني

يرجعنا التاريخ إلى فترة السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، حين استولى على المغرب الأوسط وقضى على دولة بني عبد الواد، الذين كانوا يعوقون تقدم القوافل المتوجهة نحو مصر والمشرق العربي، وبذلك عندما نقل الحكم في المغرب الأوسط إلى المرينيين وجدت رغبة عند عامة الناس للقيام بالحج على اعتبار أن الحج من أركان الإسلام التي يتم بها إسلام المؤمن إذا توفرت لديه الاستطاعة، لهذا كان تحقيق هذه الرغبة بالنسبة له شيئا واجباً.[1]

يقول ابن خلدون: «لما استولى السلطان (يوسف بن يعقوب) على المغرب الأوسط بممالكه وأعماله، وهنأته ملوك الأقطار وأعراب الضواحي والقفار، وصلحت السابلة ومشت الرفاق إلى الآفاق، واستجد أهل المغرب عزما في قضاء فرضهم، ورغبوا من السلطان إذنه لركب الحاج في السفر إلى مكة.»[2]

أما الرعاية التي أولاها السلطان يوسف لركب الحج أنه أمر باستنساخ مصحف في غاية الصنعة وجعله وقفا على الحرم الشريف. وجعل لركب الحج حماية من آفات الطريق، وكتب كتابا لملك مصر يوصيه بأهل الركب خيراً. ومد يده السخية لركب الحج بالعطاء والمبرات التي تكفيهم لأداء فريضة الحج.

(1) مقال بعنوان: رحلة الحج وأثرها في الصلات بين الدولتين المرينية والمملوكية مجلة كلية الآداب جامعة مصراته ص:320-321.

(2) العبر ج/7 ص:298-299.

-(انظر أيضا) الاستقصا ج/3 ص:83.

يقول ابن خلدون: «فأمر باستنساخ مصحف رائق الصنعة، كتبه ونمقه أحمد بن الحسن الكاتب المحسن، واستوسع في جرمه وعمل غشاءه من بديع الصنعة، واستكثر فيه من معالق الذهب المنظم بخرزات الدر والياقوت... إلى أن قال: فسرح معهم حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال، وقلد القضاء عليهم محمد بن رغبوش من أعلام أهل المغرب، وخاطب صاحب الديار المصرية واستوصاه بحاج المغرب من أهل مملكته، وأتحفه بهدية من طرف بلاده استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة.»[1]

ويذكر لنا ابن أبي زرع الأموال التي بعثها السلطان يوسف بن يعقوب مع ركب الحج برسم التفريق على أهل مكة والمدينة المنورة.

يقول ابن أبي زرع: «وبعث أموالاً كثيرة برسم التفريق على أهل مكة والمدينة، وبعث إلى الملك الناصر بأربعمائة جواد من عتاق الخيل بجهازاتها برسم الجهاد وغير ذلك من النفائس والذخائر.»[2]

وبما أن هذا الركب كان أول بعثة مرينية، فقد أولى السلطان يوسف بن يعقوب المريني اهتماما بالغا وخاصا بتنظيم وتجهيز تلك البعثة.[3]

وكان هذا الركب يسمى بالركب الفاسي، لأنه كان يخرج من فاس ويرجع تأسيسه إلى أوائل الدولة المرينية كما سبق على يد السلطان يوسف بن يعقوب المريني، سنة 708هـ ثم استمر يذهب للمشرق حتى القرن المنصرم.[4]

الفرع الثاني: ركب الحج في عهد السلطان أبي الحسن المريني

في عهد السلطان أبي الحسن المريني ازداد الاهتمام بركب الحج، وتسخير الإمكانيات المادية الوفيرة له. وكان هذا دأب السلاطين خصوصا لضعفاء وفقراء الحجاج، الذين تشتاق نفوسهم لزيارة البقاع المقدسة.

(1) العبر ج/7 ص:299.

(2) الأنيس المطرب ص:387.

(3) مقال بعنوان: رحلة الحج وأثرها في الصلات بين الدولتين المرينية والمملوكية مجلة كلية الآداب جامعة مصراته. ص:321.

(4) من حديث الركب المغربي ص:9.

أعطى السلطان أبو الحسن المريني الركب الذي حج مع الأميرة مريم المرينية ما يأتي: لقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائده أربعمائة وكساوي متعددة ومراكب سنية- بغلات- ولشيخ الركب خمسمائة ولجماعة الضعفاء من الحاج ستمائة، ولما رافق أبو المجد ابن أبي مدين كاتب السلطان أبي الحسن وسفيره ركب عام 745هـ. كان شأنه عجيبا في الإنفاق على المستضعفين من الحجاج.

كما كانوا يؤسسون ببعض المدن زوايا ليجتمع فيها الحجاج حتى يخرجوا منها للالتحاق بالركب ومن هذا زاوية الحجاج التي كانت قائمة بمكناس لعهد بني مرين، ونحوها يوجد بفاس.[1]

ويذكر لنا الدكتور محمد المنوني صورة للكرم والإحسان الفائق والمتمثل في العطاءات والهدايا النقدية التي توهب من طرف ملوك المغرب لتوزع على أهل الحرمين الشريفين وهذه الهدايا هي التي عنيت بالصرة المغربية. وأول ما يذكر في هذا الباب أن السلطان أبا الحسن من بني مرين بعث مع ركب الأميرة مريم ثلاثة آلاف وثمانمائة دينار ذهبا برسم العطاء للعرب توزع على الفقراء والأيامى والضعفاء.[2]

وفي نفس السياق يورد صاحب الاستقصا أن أبا الحسن المريني أجزل العطاء والمنية السخية يقول: «وأعطى السلطان الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبا ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات، وللرسول المعين للهدية ألفا، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة والجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة ولشراء الرباع ستة عشر ألفا وخمسمائة ذهباً وذكر في الكتاب المذكور أن أبا الحسن أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك منها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية في مرات.»[3]

(1) من حديث الركب المغربي ص:10-11.

(2) المرجع نفسه ص:22-23.

(3) الاستقصا ج/3ص:129.

واقتداء بعمه السلطان يوسف بن يعقوب، كتب السلطان أبو الحسن مصحفا بخط يده لوقفه بالحرم الشريف قربة إلى الله وابتغاء للمثوبة.[1]

كما زود السلطان أبو الحسن المريني الركب بمبلغ كبير من الأموال التي عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وَقْفاً على الذين يتلون في المصحف عبر الدهور والعصور.[2]

وقد علق ابن خلدون على مهمة ابن أبي مدين الجديدة قائلا: «إنه قضى من وفادته ما حمل، وكان شأنه عجيبا في إظهار أبهة سلطانه، والانفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم.»[3]

ويتحدث ابن مرزوق عن ركب الحج في عهد السلطان أبي الحسن المريني، فيقول في مسنده: «كان عمل إمامنا رضي الله عنه في تمهيد سبيله ما هو مأثور عنه رضي الله عنه، وكان دأبه المعونة على الوجهة لهذا العمل، فكان يجهز الركوبات دائما من المغرب.»[4]

الفرع الثالث: ركب الحج في عهد السلطان أبي عنان المريني

اتسمت فترة حكم السلطان أبو عنان المريني بالكثير من المبرات الخالدة الذكر، والتي تميزت بألوان الرعاية المختلفة، والتي كان منها رعاية ركب الحج، وكانت اِلتفاتة روحية، أعطى فيها السلطان الغالي والنفيس في سبيل تحقيق أداء مناسك الحج، لمن رغب ولم يجد الموارد المالية التي تكفيه لأداء المناسك.

وفي نفس السياق سال مداد صاحب أدب الرحلة عن مواقف السلاطين التي رسمت البسمة على وجهوه المستضعفين بإرسالهم ضمن بعثات الحج وتشجيعا لهم في إتمام خامس

(1) الاستقصا ج/3 ص:129.

(2) رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة لعبد الهادي التازي مراجعة عباس صالح طاشكندي مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي مكة المكرمة (بدون رقم طبعة) سنة:2005 الجزء:1 الصفحة:117.

(3) المرجع نفسه ج/1 ص:124.

-أنظر أيضا: ورقات عن حضارة المرينيين ص:200.

(4) المسند الصحيح الحسن ص:385.

أركان الإسلام. ويذكر أن أبا عنان أعطى لابن الشاطر ألف دينار ليحج بها، فمر بها إلى تلمسان فصار يدفع منها شيئا فشيئا.[1]

الفرع الرابع: رعاية ركب الحج من الجهات غير الرسمية

في هذا المقام نجد مبادرات أخرى من طرف بعض المساهمين الذين ألفوا عمل وفعل الخير مساهمة منهم في إعانة ممن ليس له القدرة المالية لأداء فريضة الحج.

يقول الدكتور الحسن الشاهدي: «ونجد مبادرات أخرى لأطياف غير رسمية، مثل ما قامت عليه طريقة أبي محمد صالح [2] من دعوة اتباعها إلى حج بيت الله الحرام، فشيخ الطريقة هو الذي فتح الله طريق الحج من المغرب على يديه حتى حجه كل عاجز وقادر عليه. ولم يكتف هذا الشيخ بالدعوة إلى الحج والحث عليه في المغرب، بل قام أتباعه من بعده (في العهد المريني) بهذه المهمة خارج المغرب، فسهلوا الصعاب أمام الحجاج، وأمدوهم بما يحتاجون إليه في كل من مصر والشام.»[3]

ويضيف الكانوني أن أبا محمد صالح كان من دعاة الخروج لأداء فريضة الحج، فبدل الجهد في الحث على الحج وتسيير الناس إليه وبث الأصحاب في المراكز ليأخذوا بيد الضعفاء ويعينوهم على سلوك الطريق الآمن إلى الأماكن المقدسة حتى يبلغوا الأمنية من أداء الفرض الواجب.[4]

---

(1) أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني للحسن الشاهدي مطابع عكاظ الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1990 الجزء:1 الصفحة:70.

- (أنظر أيضا) نفح الطيب ج/5 ص:272.

(2) **أبو محمد صالح بن يناصرن** بن غيفان بن الحاج يحيى المجاري الدكالي. ينتسب إلى أسرة من أفخاذ بني نصر المجارين، ولد بآسفي سنة 550هـ/1150م، وبها توفي سنة 631هـ/1234م، وله من العمر 81 سنة، دفن بالرباط. تعلم مبادئ العلم في مسقط رأسه في المساجد والكتاتيب. أخذ العلم على القطب أبي عبد الله أمغار في رباط شاكر. هاجر إلى الإسكندرية لتلقي المزيد من العلم، وبقي بها مدة 20 سنة، ثم رجع إلى المغرب، كان ميالا للأتقياء وأقطاب التصوف وعلمائه محاولا الاقتداء بنهجهم في إطار الكتاب والسنة، وكان ذل علي يد شيوخ.

-المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح لأحمد بن إبراهيم الماجري تحقيق عبد السلام السعيدي منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية الطبعة:1 سنة:2013 الجزء:1 الصفحة:52-53-54-55-56.

(3) أدب الرحلة ج/1 ص:70.

(4) آسفي وما إليه قديما وحديثا ص:99-100.

ويمكن القول إن أتباع طريقة الشيخ صالح واصلوا من بعده في زمن بني مرين، نفس النهج بإعانة الحجاج الفقراء، وسهلوا الصعاب أمامهم، ليقوموا بأداء الشعيرة على أكمل وجه.

وتتنازل قطرات الحديث عن إعانة الحجاج المساكين في تلك الفترة، فلوتورنو يشير إلى فئة الفقراء الذين كانوا يذهبون إلى الحج مشيا، وقد يحتاجون إلى سنوات لأداء الفريضة والعودة إلى بلادهم، وقد كان منهم من لم يعد أصلاً.[1]

(1) فاس في عصر بني مرين ص:195.

المبحث التاسع: الرعاية الاجتماعية لأهل الذمة في العهد المريني

يمدنا الونشريسي بإشارات قيمة عن أهل الذمة وأوضاعهم في المجتمع المغربي، فيتضح من نوازل وفتاوى المعيار كثرة أعداد اليهود في المغرب، وأنهم كانوا ينعمون بتسامح تام ومودة من جانب جيرانهم المسلمين.(1)

وتشير إحدى النوازل أن أحد المسلمين كان له جار يهودي تربى معهم، وكانت علاقة الأسرة المسلمة بالجار اليهودي تتسم بالصداقة والود وحسن الجوار. يذكر الونشريسي عن القابسي حين سئل عن النازلة: «وأما جارك من أهل الذمة، فيستقضيك حاجة لا مأثم فيها، فتقضيها له، فلا بأس.»(2)

هذا الاختلاف الديني لا يحول دون البر والصلة والاحترام، كما لا يجوز الانتقام من أهل الذمة بإجبارهم على ترك دينهم، أو اضطهادهم في عقائدهم، وحسبهم أن يعترفوا بسلطان الدولة ويقدموا له الإخلاص حتى يكون لهم مالنا وعليهم ما علينا. هذه هي مبادئ التسامح الديني في الإسلام التي قامت عليها حضارتنا، وهي توجب على المسلم أن يؤمن بأنبياء الله ورسله جميعا، وأن يذكرهم بالإجلال والاحترام، وألا يتعرض لأتباعهم بالسوء، وأن يكون معهم على حسن المعاملة، رقيق الجانب، لين القول، يحسن جوارهم ويقبل ضيافتهم، وأوجب الإسلام على الدولة المسلمة أن تحمي أماكن عبادتهم، وألا تتدخل في عقائدهم، ولا تجور عليهم في الحكم، وتسويهم بالمسلمين في الحقوق والواجبات العامة، وأن تصون كرامتهم وحياتهم كما تصون كرامة المسلمين وحياتهم.(3)

المطلب الأول: مفهوم أهل الذمة

الفرع الأول: الذمة لغة

رجل ذمي معناه رجل له عهد، والذمة: العهد منسوب إلى الذمة، والذمة أهل العقد. والذمة الأمان. فالذمة العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وسمي أهل الذمة ذمة

(1) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:36.

(2) المعيار المعرب ج/11 ص:301.

(3) من روائع حضارتنا ص:131-132-133.

لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم. ولهذا سمي المعاهد ذميا، لأنه أعطي الأمان على ذمة الجزية التي تؤخذ منه.[1]

وفي القاموس المحيط الذمة: العهد والكفالة.[2]

وأهل الذمة: المعاهدون من أهل الكتاب ومن جرى مجراهم. ومنه الذمي: المعاهد الذي أعطى عهدا يأمن به على ماله وعرضه ودينه.[3]

الفرع الثاني: الذمة اصطلاحا

عرف الإمام القرطبي الذمة فقال: «هي كل حرمة يلزمك إذا ضيعتها ذنب.» [4]

ويروي أيضا الإمام القرطبي عن ابن العباس والضحاك وابن زيد أن الذمة العهد.[5]

وعرفها الشيخ الطاهر بن عاشور فقال: «الذمة ما يمت به من الأواصر من صحبة وخلة وجوار مما يجب في المروءة أن يحفظ ويحمى يقال في ذمتي كذا، أي ألتزم به وأحفظه.»[6]

ثم عرفها الكفوي فقال: «مختلف فيها فمنهم من جعلها وصفا وعرفها بأنها وصف يصير الشخص به أهلا للإيجاب له وعليه، والمراد بالذمة العقل. ومنهم من جعلها ذاتا وهو اختيار فخر الإسلام عليه بالرحمة، ولهذا عرفها بأنها نفس لها عهد فإن الإنسان يولد ولا ذمة صالحة للوجوب له وعليه بإجماع الفقهاء.»[7]

الفرع الثالث: أهل الذمة في القرآن الكريم والسنة النبوية

1 -من القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ اُللَّهُ عَنِ اِلذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِے اِلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمُۥٓ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمُۥٓۖ إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ اُلْمُقْسِطِينَۖ﴾ [سورة الممتحنة الآية:8]

---

(1) لسان العرب [مادة ذمم] ج/12 ص:221-222.

(2) القاموس المحيط [مادة ذمم] ص:597.

(3) المعجم الوسيط [مادة المذمم] ص: 315.

(4) الجامع لأحكام القرآن ج/10 ص:119.

(5) المصدر نفسه ج/10 ص:119.

(6) التحرير والتنوير ج/10 ص:124.

(7) الكليات ص:453.

مما جاد به الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير الآية الكريمة أن البر الذي ذكر في الآية هو حسن المعاملة والإكرام والقسط. وأن هذه الآية جواز لمعاملة أهل الذمة بالإحسان وجواز الاحتفاء بأعيانهم.[1]

وبين القرطبي معاملة أهل الذمة انطلاقا من الآية السالفة الذكر فقال: « لا ينهاكم الله على أن تبروا الذين لم يقاتلوكم، وهم خزاعة صالحوا النبي ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا، فأمر ببرهم والوفاء لهم إلى أجلهم، ثم قال وتعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة، وليس يريد به العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل. وأن القاضي إسماعيل بن إسحاق دخل عليه ذمي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فَتَلا هذه الآية عليهم.»[2]

2 -من السنة النبوية: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما.»[3]

وفي شرح الحديث عند ابن حجر أن الذمي منسوب إلى الذمة: وهي العهد ومنه: ذمة المسلمين جميعا. والمعاهد من أهل الذمة من له عهد مع المسلمين، سواء كان بعقد جزية أم هدنة من السلطان أم أمان من مسلم.[4]

المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية لليهود في العهد المريني

لم تضع الدولة المرينية أية عقبات أمام اليهود، فقد أتاحت لهم قدراً كبيراً من الحرية داخل نطاق الدولة، التي كان على رأسها السلطان، وكان هذا السلطان يستند في حكمه على مبدأ الوراثة. ويمكن التعرف على طبيعة علاقة سلاطين بني مرين مع اليهود من خلال ما

(1) التحرير والتنوير ج/28 ص:153.

(2) الجامع لأحكام القرآن ج/20 ص:409.

(3) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجزية باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم رقم الحديث: 2930 ج/2 ص:132.

(4) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج/22 ص:161-162.

تركه لنا المؤرخون والفقهاء. فقد صدرت الفتاوى بتحريم قتال الذميين واليهود منهم إذا لم ينقضوا العهد فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم إلا أن ينقضوا العهد.[1]

وكان لليهود حكم ذاتي في الجانب الديني وهذا ما يرويه لوتورنو عن طائفة اليهود في العهد المريني، يقول: «وقد كان لهم طائفة تتمتع بالحكم الذاتي الديني التام، على ألا يتسبب عن ممارستهم لطقوسهم الدينية أي مضايقة للسكان المسلمين.[2]

ولم يكن المجتمع المغربي في عهد بني مرين بأقل من غيره من المجتمعات الإسلامية تسامحا نحو اليهود. لذلك نجد منهم في هذا العصر أقلية كان لها دورها وتأثيرها المباشر وغير المباشر في الحياة المغربية. فاليهود تمتعوا بحقوقهم المادية والمعنوية في ظل حكم الدولة المغربية.

وعلى كل فقد عرفوا في كثير من نواحي المغرب ولاسيما فاس، وعاشوا جنبا إلى جنب مع المغاربة المسلمين كما نالوا عطف الرسميين وغيرهم من رؤساء بني مرين الذين قربوهم إليهم وأغدقوا عليهم عطفهم وأدخلوا بلاطهم ومجالسهم وأطلعوهم على أمورهم الخاصة.[3]

وقد ذكر المؤرخون أن أهل الذمة، خصوصا اليهود، عاشوا في المجتمعات الإسلامية عيشة كريمة محترمة لا يمسهم سوء ولا يصيبهم أذى إلا في أحوال نادرة، نظرا لما تمتعوا به في هذه المجتمعات من تسامح ديني واجتماعي، ولم يكن المجتمع المغربي في عهد بني مرين، بأقل من غيره من المجتمعات الإسلامية تسامحا نحو اليهود.[4]

ويمكن أن نقف عند جملة من المعاملات التي تدخل في الجانب الاجتماعي، وأقرها سلاطين بني مرين اتجاه طائفة اليهود في المغرب زمن حكمهم.

---

(1) اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين لعطا محمد شحاته ريه، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق الطبعة:1 سنة:1999 الصفحة:42.

(2) فاس في عصر بني مرين ص:112.

(3) مظاهر الثقافة المغربية ص:39-40.

(4) المرجع نفسه ص:38-39.

الفرع الأول: رعاية السلطان يعقوب بن عبد الحق لليهود

في هذا الجانب تشير المصادر التاريخية إلى أن السلطان يعقوب بن عبد الحق اهتم بفئة اليهود، بل وحذر من التعرض لهم، وجعل لهم رعاية تحت السلطة، وهذا الأمر يشير إليه بتفصيل صاحب الذخيرة السنية بقوله: «وفي ثاني شوال من هذه السنة (674هـ) قتل اليهود بفاس، قامت عليهم العامة بسبب جارية ادعت أن أحد اليهود افتضها قهراً في داره فقتل منهم أربعة عشر رجلا ولولا ما اتصل الخبر بأمير المسلمين وركب بنفسه في جماعة من حشمه وأمر بطرد العامة عن مواضع اليهود وكفهم عنهم لم يبق منهم أحد ثم أمر مناديا ينادي فنادى بالمدينة ألا يتعرض أحد ليهود الذمة.»[1]

وكان لليهود وضع داخل هذه الدولة من خلال خليفة بن حيون بن رقاصة المشرف على القصر السلطاني، وإمداده بكل ما تحتاجه عائلة السلطان.[2]

ويؤكد نفس الحدث صاحب روض القرطاس، حين قامت العامة على اليهود فقتل منهم أربعة عشر ألف يهودي، فقام السلطان أبو يوسف بكف العامة عنهم، ونادى منادي بأن لا يتعرض لهم أحد.[3]

فأنزل السلطان يعقوب بن عبد الحق اليهود الملاح حول فاس الجديدة، وأخرجهم من فاس الادريسية بعد نهب أمتعتهم وقتل منهم عدد كثير.[4]

ومن بين الرعاية أيضا التي لقيتها اليهود على يد السلطان يعقوب بن عبد الحق، رفع الظلم والاعتداء عنهم، وألغى المكوس على العامة ومنهم اليهود، وكذلك الرسوم التي كانت تدفع على الرتب والمناصب.[5]

---

(1) الذخيرة السنية ص:161.

(2) اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ص:38.

(3) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:322.

(4) ورقات عن حضارة المرينيين ص:47.

(5) اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ص:44.

الفرع الثاني: رعاية السلطان يوسف بن يعقوب لليهود

اعتنى السلطان يوسف بن يعقوب بالطائفة اليهودية، والتي تعتبر رعية من بقايا رعاياه في بلاد المغرب، وأوصلته عنايته الخاصة باليهود أن استخدم حاجبا يهوديا وهو خليفة بن حيون بن رقاصه وعنبر الخصي. رغم أن هذه الحجابة لم تدم طويلا لأن السلطان قام باعتقالهم بسبب الثقل الذي شكلوه داخل البلاط، فتخوف منهم بسبب أعمالهم المريبة.[1]

الفرع الثالث: رعاية السلطان أبي سعيد عثمان لليهود

السلطان أبو سعيد المريني من السلاطين الذين خصصوا لليهود أماكن لسكنى خاصة، قريبة من قصورهم وشملهم بالرعاية الحسنة.[2]

ففي عهده وصل التسامح مع اليهود ذروته، فقد أمر العامة بالكف عن اليهود والتعايش معهم كأبناء وطن، رغم اختلاف العقيدة. واستقبل المغاربة اليهود بروح من التسامح خصوصا اليهود المطرودين من الأندلس.[3]

الفرع الرابع: رعاية السلطان أبي الحسن المريني لليهود

إن السلطان أبا الحسن قاعدة شاذة عن غيره من ملوك بني مرين، حيث استغنى عن عنصر اليهود ولم يستخدمه ولم يقربه.[4]

رغم ذلك ورعاية لهم أصدر أبو الحسن المريني ظهيرا بخصوص أهل الذمة حدد فيه الضرائب التي يطالبون بها، وأصدر هذا الظهير بتاريخ 16 محرم 739هـ/1339م وقد جاء فيه ما يلي: «كما لا سبيل لهم «اليهود» إلى أن يكلفوا مغرما ملزماً ولا يطالبون بشيء من الوظائف والتكاليف أو تحرف بحرفة من الحرف، فيلزمه ما يلزم المسلمين في ذلك من غير حيف ولا طلب زائد.[5]

---

(1) اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ص:48.

(2) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم لألفرد بل ترجمة عبد الرحمان بدوي دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:3 سنة:1987 الصفحة:327.

(3) اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين ص:38-81.

(4) مظاهر الثقافة المغربية ص:40.

(5) ورقات عن حضارة المرينيين ص:121.

ورفع فيها أيضا تضعيف المخازن في الاختفاء، ولم يبق لذمي ولاية على مسلم في المجابي.[1]

وأسقط الجزية عن أهل الذمة خصوصا اليهود، يقول ابن مرزوق: «وصارت أخت الجزيات المضروبة على أهل الذمة بل أشد، فأسقط ذلك، وكان يجتمع فيه لا يحصى قدره.»[2]

ويمكن القول إن اهتمام الدولة المرينية بالطائفة اليهودية كمواطنين مغاربة رغم اختلاف العقيدة الدينية، دليل على قيم التسامح والوسطية والاعتدال مع غير المسلمين سواء كانوا يهود أم نصارى.

المطلب الثالث: الرعاية الاجتماعية للنصارى في دولة بني مرين

عاش النصارى في كنف الدولة المرينية كما عاش اليهود، في ود وسلام بين أفراد المسلمين في بلاد المغرب الأقصى.

وكان النصارى يمثلون فرقة ضمن فرق الجيش المريني وكان قائدهم يطلق عليه اسم قائد جند النصارى. وحرص السلاطين بني مرين على جمعهم في مكان واحد عرف بحي الملاح بالقرب من البلد الجديد. وكان لهم دورهم في الحياة السياسية وخاصة خلال عصر نفوذ الوزراء.[3]

ومن خلال تتبع المصادر التاريخية نجد أن هناك فرقة من الجند تقطن مراكش، والتي جنى عليها من قبل يوسف بن محمد بن أبي عياد الذي عقد له من قبل السلطان أبي ثابت المريني على مراكش. غير أنه خان العهد وتأبط شرا، فأجهز على هذه الفئة من النصارى بالقتل والسبي، فعلم بذلك السلطان فخرج له دفاعا عن هذه الفئة من النصارى، فألحق به الهزيمة، وتمكن من قتله وفئة من أتباعه فعلقت رؤوسهم على أبواب مراكش، انتقاما لقتلهم للنصارى.[4]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:285.

(2) المصدر نفسه ص:284.

(3) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس ص:318.

(4) الاستقصا ج/3 ص:93-94.

فقصة الحادثة دلالة على العناية التي أولاها المرينيون للنصارى خصوصا لما هضم حقهم واستعلي عليهم بغير ذنب.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان للنصارى المعاهدين أحباس على كنائسهم في بلاد المغرب، وكان القساوسة يستغلونها وينفقون من ريعها على مصالح كنائسهم، وما يتوفر من ذاك يأخذونه لأنفسهم.[1]

والملاحظ أن معظم أهل الفتوى المغاربة كانوا يرون أن المبنى من الكنائس القديمة لا يتعرض له، وإن كان يمنع من الأحداث فيه، ولكن إذا انتقل أهل الذمة في بلد الإسلام من موضع إلى آخر ولم يخرجوا عن العهد والذمة فسكنوا فيه وأرادوا إحداث كنيسة لإقامة شعائرهم الدينية فإنهم يمكنون من بنائها ولا يمنعون منها، وجدير بالذكر أنه وجد لأهل الذمة في المدن المغربية أحياء خاصة بهم، فنجد في داخل حواضر المغرب الكبيرة حيا للنصارى.[2]

(1) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:41.

(2) المرجع نفسه ص:40.

المبحث العاشر: إحداث السقايات العمومية زمن بني مرين

شكلت السقايات العمومية في العهد المريني عنصرا أساسا في حياة الإنسان باعتبار الماء المادة الحيوية والمطلوبة باستمرار لحياة الإنسان، فلولا الماء ما استطاع الإنسان العيش، فدور الماء مهم للغاية، لذلك عملت الدولة المرينية على إنشاء السقايات العامة في كل المدن المغربية، ولا تكاد تخلو مدينة من المدن منها.

فجهزت السلطة المدن بشبكات محكمة من القنوات داخل المدن وخارجها، وكانت هذه القنوات تبنى من الطوب، مغطاة تحت الأرض، ولاسيما الجزء الذي يكون خارج المدينة وهو الأنبوب الرئيسي الذي يصب في الأحواض، التي تستعمل في سقي البساتين وفي الصهاريج التي تزود سكان المدينة، عن طريق قنوات تصل الدور والمنازل والقصور والحمامات والفنادق والمساجد والزوايا والساحات العامة والأسواق.(1)

ويصف الحسن الوزان وصول الماء عن طريق الأنهار إلى مدينة فاس، عبر قنوات مخصصة توزع الماء إلى الفرع الجنوبي والآخر إلى الفرع الغربي لتصل إلى الفنادق والملاجئ والمدارس والمساجد والحمامات.

يقول الحسن الوزان: «ويدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر بالقرب من فاس الجديد جنوبا، ويدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، وبعد دخول الماء إلى المدينة يوزع بواسطة عدد من القنوات، تسوق معظمه لدور السكان ورجال الحاشية الملكية وسائر الأبنية الأخرى. فلكل جامع أو مسجد حقه في هذا الماء، وكذلك الفنادق والملاجئ والمدارس. وتجد قرب المساجد ميضات عامة وهي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنائف ذات أبواب قصيرة وفي كل كنيف مغسلة يخرج الماء إليها من الجدار ويسيل في ساقية رخامية، وفي وسط بناية الميضأة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع وعرضه أربعة، وطوله اثنا عشر ذراعا. وقد صنعت حوله الصهريج مجار تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض.»(2)

---

(1) تلمسان في العهد التلمساني ج/1 ص:149.

(2) وصف إفريقيا ج/1 ص:221-222.

وتميز نظام توزيع الماء بنظام فريد في أوساط المدن المغربية عهد بني مرين. ومثل هذا النظام كان بحاجة إلى صيانة مستمرة، وإلا كان يفقد قيمته. وكان في مقدمة هذه الأمور الحفاظ على القُنِيّ [1] المكشوف بحيث تظل صالحة للعمل، وهي القني التي كانت تنقل المياه مباشرة من النهر إلى مختلف الأحياء. فكان يجب أن تنظف بمواعيد معينة، خاصة بعد سقوط الأمطار الغزيرة، إذ كان النهر يحمل معه كميات من فضلات المعادن والخضار وحتى الحيوان. يضاف إلى ذلك أن قوة اندلاع الماء كثيرا ما كانت تحدث ثغرا في ضفاف القني وتستدعي القيام بأعمال الإصلاح والترميم. وكان لكل حي الحق في قدر معين من الماء يتم التحكم فيه بموزع خاص. وكان من اللازم أن تفحص هذه الموزعات فحصا منظما حتى يصل لكل حقه. ومتى وصلت المياه إلى الأحياء أو الأماكن الخاصة كانت تحمل عندئذ قني تسير تحت الأرض، هي من صنع خزّافي فاس، وكانت المياه تسير بقوة الجاذبية، إذ أن الانحدار في الأرض كان ييسر ذلك.[2]

وغالبا ما كان هناك خبراء في المياه من الفقهاء وكذلك خبراء في القُنِيّ كانا يعملان باستمرار كفرق دائمة، وكانوا يتقاضون أجورهم من الأوقاف. كما ظهر في العصر المريني السقاة الذين يحملون الماء إلى البيوت التي لا تصلها القني. كما كانوا يقدمون الماء إلى المارة في الأماكن العامة لإرواء عطشهم. وكانوا يكثرون التنقل في الأسواق والمزارات وحيث يجلس القصاصون وينتشر التجار. وكانوا يحملون الماء على ظهورهم في قربة مصنوعة من جلد الماعز. أما في حالة تزويد المساكن بالمياه فقد كانوا يحملونها في براميل من خشب ويحملونها على ظهور الحمير.[3]

المطلب الأول: السقايات عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني

في عهد السلطان يوسف بن يعقوب أحدثت ناعورة التي هي عبارة عن آلة مائية لرفع الماء من النهر بقصد جلب الماء للسقي. ففي سنة 685هـ بنيت قصبة تطاوين وفيها ركبت

(1) **القُنِيّ**: جمع قناة وهي الآبار التي تحفر في الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويسيح على وجه الأرض. وقيل كظيمة تحفر تحت الأرض.

-لسان العرب ج/15 ص:204.

(2) فاس في عصر بني مرين ص:72.

(3) المرجع نفسه ص:73-74.

الناعورة الكبرى على وادي فاس، شرع في عملها في رجب من السنة المذكورة ودارت في صفر من السنة بعدها.[1]

المطلب الثاني: السقايات عهد السلطان أبي الحسن المريني

يتحدث ابن مرزوق عن السقايات التي أحدثت في عهد السلطان أبي الحسن وكانت جمة كثيرة وكانت عنايته بالسقايات بالغة، حتى أن الفقيه الإمام نور الدين أبو الحسن بن فرحون اليعموري قال:» ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من مصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء، فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله.»[2]

وقد ساعدت هذه السقايات التي أنشأها أبو الحسن لتيسير شرب الماء والطهارة ولانتفاع بالماء وإغاثة اللهفان وسقي البهائم من الأنعام.

ويسترسل ابن مرزوق في كلامه بأن قال:» إن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وسقي الدواب بفاس وبلاد المغرب معظمها من بنائه رضي الله عنه وكذلك أكثر الميضات. وكان له على ذلك شدة حرص رغبة في ثوابه فالمواضع التي بفاس لا تحصى. وكان عمله في جلب الماء لداخل مدينة سلا وانفاقه في ذلك الأموال الطائلة حتى أوصله من الموضع المعروف بمرج حمام إلى الجامع الأعظم بداخل المدينة وذلك أميال. وكذلك عمل بتلمسان وغيرها، في مواضع لم يعد فيها جري الماء والانتفاع به. ولما دخل تونس لم يكن عنده أهم من النظر في رد مائها الجاري في التقديم إلى الجامع الأعظم جامع الزيتونة، فأمر بجمع الرصاص وعمله، وعين الطيفور الذي ينتقل لوسط الجامع وموضع الميضاة، فسبق قدر الله ونفد حكمه وقضاؤه فتعذر ذلك.»[3]

وبنى السلطان أبو الحسن المريني بفاس سقاية حين بنيت المدرسة بغرب جامع الأندلس بفاس، وجلب إليها الماء من عين خارج باب الحديد من أبواب مدينة فاس. ويذكر صاحب روض القرطاس مراحل بنائها والتي كانت سنة 721هـ بأمر من السلطان أبي الحسن فبنيت

(1) الاستقصا ج/3 ص:89.

(2) المسند الصحيح الحسن ص:417.

(3) المصدر نفسه ص:417-418.

على أتم بناء وأحسنه وأتقنه، وبنى حوله سقاية ودار وضوء وفندقا لسكنى الطلبة، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الحديد من أبواب مدينة فاس، وأنفق في ذلك أموالا جليلة تزيد على مائة ألف دينار.[1]

وآثار أبي الحسن المريني في إنشاء السقايات لم تنحصر في فاس بل امتدت إلى مكناس وسلا.[2]

يقول الناصري: «وله في هذه المدينة -يقصد مكناس- عدة آثار سوى الزاويتين من القناطر والسقايات وغيرها.»[3]

وقام أيضا بتوفير مياه الشرب لمدينة سلا بجلب الماء من عيون البركة التي تقع خارج مدينة سلا على أميال كثيرة، فقام ببناء هندسي ليأتي جريان الماء من النهر في ساقية اتخذت له، وكلما مر في سيره بطريق مسلوك فتحت له في أقواس.[4]

ويبدو أن عهد أبي الحسن المريني عرف وفرة في إنشاء السقايات وتجهيزها، وكان المقصود بذلك وجه الله الكريم والمنفعة الدائمة.[5]

المطلب الثالث: السقايات عهد السلطان أبي عنان المريني

نشير إلى سقاية المستشفى العناني في مكناس عن يسار مدخله في حي حمام الجديد، ويرجح أنها من آثار أبي عنان باني المستشفى.

ثم سبيل السويقة، ويعرف بسقاية سبع عنانب، تلميحاً لعدد أنابيبها، وكانت تعرف قديما بالسقاية الكبرى، وسقاية الجمعة، وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عال محمول على ثلاثة أساطين، ولا تزال تحتفظ بأثر الفن المعماري المريني، في زليج

---

(1) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:412.

(2) الحضارة العربية الإسلامية ص:237.

(3) الاستقصا ج/3 ص:177.

(4) المصدر نفسه ج/3 ص:177.

(5) مذكرات من التراث المغربي ص:79.

واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي بالنقش، وقد خصصت لأوقافها ترجمة على حدة ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغار بمكناس.[1]

المطلب الرابع: سقاية الجامع الكبير بالرباط

بخلاف سقاية القصبة التي بنيت في العصر الموحدي، توجد سقاية الجامع الكبير، وهي مرينية الإنشاء ولا تزال واجهتها تحتفظ بزخارفها المنقوشة على الحجر، ويبلغ طولها 10,26 مترا، وارتفاعها 2,62 مترا وعمقها 2,75 مترا وواجهتها من الحجر المنحوت المتناسق. ركبت حجارتها من ثلاثة أقواس مرفوعة على أربعة أعمدة من الحجر الصلب المنحوت، ركبت حجارتها الواحدة فوق الأخرى بإحكام واتقان. وتزداد من أعلاها بنقوش شبيهة بالنقوش التي تكسو باب القصبة بالودايا.[2]

ويبدو حسب المصادر التاريخية أن السقاية تم إنشاؤها حينما تم بناء الجامع الكبير أيام حكم الأمير عبد الحق بن محيو المريني أواخر القرن السابع الهجري.[3]

المطلب الخامس: سقايات مدينة فاس

توجد العديد من السقايات في مدينة فاس باعتبارها عاصمة الدولة المرينية، ومن هذه السقايات، سقاية ابن حيون أول حي المحفية، ثم سقاية سوق العطارين جوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجها كتابة تاريخية تذكر أن الآمر بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين على يد وزيره أبي زكريا يحي بن زيان الوطاسي وكمل تشييدها وفجر ماؤها أولى جمادى الأولى سنة840هـ/1436م ثم تلاشت وجددت سنة1090هـ/1680م هذا ويوجد في حوالة فاس السليمانية 44 ترجمة بتوصية السقايات، فترد التفاصيل هكذا:

-وصية سقاية رحبة صفاح العدوة.

-وصية سقاية حارة قيس.

(1) مذكرات من التراث المغربي ص:79.

(2) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:147.

(3) مقدمة الفتح من تاريخ الرباط ص:75.

-وصية سقاية تغر (كذا) بالفخارين.

-فيض نقير الصباغين.

-فيض ماء سقاية البليدة.

-فيض سقاية غدير الجوزاء.[1]

المطلب السادس: سقايات مدينة وجدة

رغم أن المصادر التاريخية لم تبح بالشيء الكثير عن سقايات مدينة وجدة، غير أننا نستنتج من ذلك أنه تم إنشاؤها حينما تم إعادة بناء المدينة التي أنشأ فيها المسجد والحمام والقصبة ودار لسكن السلطان، وكانت إعادة تهيئة المدينة على يد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني وفي هذا النبأ يتحدث المؤرخ السلاوي بقوله: «فبناها السلطان يوسف في هذه المرة وحصن أسوارها وبنى بها قصبة ودارا لسكناه وحماما ومسجدا.»[2]

والذي يتبين من قول المؤرخ السلاوي أنه لا وجود لبناء السقايات مع ما ابتناه السلطان للمدينة، ولكن المؤكد عندنا لا وجود للحمام والمسجد بدون وجود الماء والشاهد العيان الذي يقف اليوم قرب المسجد الكبير المريني بوجدة يجد السقاية بقربه وهذه دلالة على إحداث السقايات بوجدة، وتسمى اليوم (بثلاث سقاقي). ويبقى الأمر غامضا في المصادر التاريخية عن سقايات مدينة وجدة.

المطلب السابع: سقايات سلا

بنى يعقوب بن عبد الحق بمدينة سلا سقاية حينما أقام بقرب المسجد مدرسة، فأجرى الماء الجاري به من عيون البركة التي بغابة معمورة على مسافات من مدينة سلا حتى أوصله إليها وأجراه إلى مساجد سلا وسقاياتها وميضاتها. وكان جلب الماء في قنوات من طين مطبوخ لا زالت ظاهرة للعيان تحت سور الأقواس وحناياه التي يدخل منها إلى سلا.[3]

(1) مذكرات من التراث المغربي ص:78-79.

(2) الاستقصا ج/3 ص:76.

(3) الاتحاف الوجيز ص:60.

المبحث الحادي عشر: صدقات وإحسانات متنوعة

الصدقة هي تعامل مع الله عز وجل في إنفاق المال الذي سخره لعبده، حتى يتحقق منهج الله وسيادته في الأرض. فالتصدق هو الإنفاق في سبيل الله وهو مصدر تمويلي احتياطي، أوجبه الله تعالى، بجانب فريضة الزكاة. والإنفاق في سبيل الله يتخذ إحدى طريقتين: الأولى: الإنفاق لتلبية حاجات المجتمع ككل، ممثلا في الدولة، بما تقدمه الأخيرة من خدمات لفائدة المجتمع على مختلف المستويات، كالتعليم والتطبيب، وتوفير المواد الغدائية بالأسعار المناسبة. والثانية: الإنفاق لتلبية حاجة فئة أو أفراد من المجتمع، لا تتوفر لهم الكفاية.

وفي كلا النوعين إذا استجاب أفراد المجتمع لكلمة الله، فبها ونعمت، وإذا لم يستجب الأفراد كان للدولة أن تتدخل بمالها من سلطات، لفرض التمويل اللازم، فيفرض على كل مواطن حسب قدرته واستطاعته.[1]

ومن أهم ما رغب فيه الإسلام من الصدقات الصدقة الجارية -الدائمة- فقد جعل الإسلام لها جزءا متميزا عن غيرها من الصدقات، لبقاء أثرها، ودوام نفعها، فكان ثوابها دائما باقيا لصاحبها بعد موته ما بقي نفعها.[2]

والله تعالى ذكر في كتابه العزيز الآيات الدالة على فعل الخير والتصدق بما تجود به النفس على كل فقير ومسكين، وصاحب حاجة وابن السبيل وفي الرقاب. قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة الآية:260].

جاء في الآية الكريمة نوع من التحريض على الإنفاق في سبيل الله، الذي يثير في نفوس السامعين الاستشراف لما يلقاه المنفق في سبيل الله يومئذ بعد أن أعقب بدلائل ومواعظ وعبر. وقد شبه حال إعطاء النفقة ومصادفتها وما أعطي من الثواب لهم بحال حبة أنبتت سبع سنابل. وضاعف الأجر للمتصدق أضعافاً كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، لأنها تترتب على أحوال المتصدق وأحوال المتصدق عليه وأوقات ذلك وأماكنه.[3]

---

(1) الإحسان الإلزامي ص:531-532.

(2) مشكلة الفقر وكيفية علاجها ص:134.

(3) التحرير والتنوير ج/3 ص:41-42.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا طيبا- وإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل.»[1]

قال الإمام ابن حزم: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقيموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكاة بهم، ولا في سائر أموال المسلمين، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبِمَسْكَنٍ يُكِنهم من المطر والصيف والشمس، وعيون المارة.[2]

المطلب الأول: مفهوم الصدقة

الفرع الأول: الصدقة لغة

الصدقة: ما أعطيته في ذات الله للفقراء. والمتصدق: الذي يعطي الصدقة. والصدقة ما تصدقت به على المساكين، وقد تصدق عليهم. والمصدق القابل للصدقة والمتصدق الذي يعطي الصدقة.[3]

والصدقة ما يعطى على وجه القربى لله لا المكرمة. ونقول تصدق عليه أعطاه الصدقة.[4]

الفرع الثاني: الصدقة اصطلاحا

عرفها الشيخ الأصفهاني فقال: «الصدقة ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعله.»[5]

(1) رواه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب رقم الحديث:1321 ج/1 ص:339.

(2) المحلى لابن حزم ج/4 ص:281.

(3) لسان العرب [مادة صَدَقَ] ج/10 ص:196.

(4) المعجم الوسيط [مادة صَدَقَ] ص:510-511.

(5) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني مكتبة نزار مصطفى الباز (بدون رقم طبعة ولا تاريخ) الجزء:2 الصفحة:365.

المطلب الثاني: صدقات السلاطين المرينيين

تابع المرينيون طريق البر والإحسان في كل الميادين الاجتماعية وخاصة جانب الصدقات. وبذلك لم يبخلوا على أهل الاحتياج من العامة والخاصة، في مد جسور المودة والرحمة إليهم وكان ثباتهم على العطاء والكرم لا يكبح، فأرخوا سدال العطاء وأكرموا الفقير والبائس والعالم والرحالة، فكان عهدهم عهد العطاء بامتياز.

وسنقف في هذا المطلب على مجموعة من الصدقات والمبرات، التي وجهت للضعيف والمريض والمسكين بل تعدت إلى الحيوان والطيور.

الفرع الأول: صدقات السلطان يعقوب بن عبد الحق

كان السلطان يعقوب كثير البر والإحسان والصدقة، وهذا مما يذكر في مآثره الحميدة. يقول صاحب الإستقصا:» كان صواما قواما دائم الذكر كثير البر لا تزال سبحته في يده مقربا للعلماء مكرما للصلحاء. أجرى على المرضى والمجانين نفقات من بيت المال، وكذا فعل بالجذمى والعمي والفقراء رتب لهم مالا معلوما. وأجرى المرتبات على طلبة العلم، ابتغاء ثواب الله تعالى.«[1]

يقول ابن أبي زرع كتابه الأنيس المطرب:» ولما دخل حضرة مراكش أمن أهلها وقبائلها وأحسن إليهم وأفاض العدل فيهم.«[2]

ولما تم الصلح بين السلطان يعقوب بن عبد الحق ويغمراسن بن زياد، سر بذلك السلطان يعقوب سرورا عظيما، وتصدق بمال جليل شكرا لله تعالى.[3]

ولما انتصر السلطان يعقوب على الدون نونيو دي لارا أمر بإخراج الصدقات وأعتق الرقاب شكرا لله تعالى.[4]

(1) الاستقصا ج/3 ص:65.

(2) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:307.

(3) المصدر نفسه ص:314.

(4) المصدر نفسه ص:318.

وحينما فتح الله الجزيرة الخضراء على يد جيوش بني مرين، وجاءت البشرى تزف إلى السلطان يعقوب سجد شكرا وحمدا لله تعالى، ثم أمر بإخراج الصدقات وتسريح السجون، وعمل المفرجات وضرب الطبول في جميع بلاده.(1)

وأنشد الأديب البارع عبد العزيز المكناسي(2) قصيدة ذكر فيها غزوات السلطان يعقوب بن عبد الحق، وامتدح فيها قبائل بني مرين ورتبهم على منازلهم، وذكر فضائلهم وقيامهم بالجهاد وأمر الدين، وذكر قبائل العرب على اختلافها... فأنشدها بين يديه بمجلسه الفقيه عبد الرحمان الفاسي المعروف بالغرابلي، وأمير المسلمين يصغي إلى إنشادها، وجميع أشياخ بني مرين، حتى أتى على آخرها، وقبل يد السلطان فأمر للقارئ بمئاتي دينار، وأمر للناظم بألف دينار وخلع له ثيابا ومركوبا.(3)

ومن أبيات هذه القصيدة التي تشير إلى العطاء والصدقة قوله:

أبو يعقوب مولانا المرَجَّى ... لدفع الخطب إن أرسى ونابا

هو الملك الذي أعطى وأَقْنَى ... وصَيَّرَ طَعْم عيش مستطابا (4)

وفي سنة 684هـ/1285م لما بنيت زاوية تافرطست على قبر الأمير المرحوم عبد الحق تصدق عليه أمير المسلمين ولده(يعقوب) بمحرث أربعين زوجا.(5)

وتوصل أشراف آل البيت في عهد السلطان يعقوب بنفحات مالية من بيت المال، بحجة أن الإسلام ينص على حق آل البيت في موارد بيت المال، كمحتاجين أولا، وكأشراف ثانيا، وهكذا فرض السلطان يعقوب فريضة لعدة من أشراف المغرب. حيث اصطحب السلطان

(1) الأنيس المطرب ص:334.

(2) **عبد العزيز المكناسي الملزوزي:** هو أبو فارس عبد العزيز بن عبد الرحمان بن محمد ويعرف بعزوز الملزوزي نسبة إلى ملزوزة إحدى قبائل زناتة. وهو من أهل مكناس، يعتبر من أعظم شعراء العصر المريني، كان شاعر أبو يحيى بن عبد الحق، والمنصور يعقوب بن عبد الحق، والأديب الملحوظ في بلاطه، عايش وشاهد انهيار دولة الموحدين، وكيف أديل بنو مرين منهم وظهروا عليهم. توفي رحمه الله سنة 697هـ/1298م.

-ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة لعبد الله كنون تقديم الدكتور محمد بن عزوز دار ابن حزم بيروت الطبعة:1 سنة:2010 الجزء:2 الصفحة:947-949.

(3) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:364.

(4) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:366.

(5) المصدر نفسه ص:373.

يعقوب في غزوة له بالأندلس، عبد الواحد بن عبد الرحمان من الشرفاء الطاهرين بمكناس، ولما عاد السلطان من الغزوة، منتصرا أجرى له ببلدة مكناس، الجرايات السنوية والشهرية، التي توارثتها ذريته من بعده.[1]

الفرع الثاني: صدقات السلطان يوسف بن يعقوب

لما تم الأمر للسلطان الجديد يوسف بن يعقوب واستقامت له الخلافة، أحسن إلى الفقهاء والصلحاء، وأخرج الصدقات إلى الضعفاء، وتصدق بترك الفطرة على الناس. وحينما أمر صلحاء المغرب بالمشي إلى الحجاز، بعث أموالا كثيرة برسم التفريق على أهل مكة والمدينة.[2]

وتعدى إحسان السلطان يوسف بن يعقوب وصدقاته إلى الأسر الشريفة، وبعض حفدة الأولياء خصوصا أسرة الأمغاريين الحسنيين لأصولهم الشريفة نسباً، وفخر الصنهاجيين الجداليين الساكنين في المغرب بالناحية المعروفة الآن بصنهاجة أزمور، بعين الفطر. وقد رسم لهؤلاء الأمغاريين بسبب نسبهم الرفيع وشرف بيتهم مع كمال ما لهم من الصلاح من شفوف مزيتهم، يأخذون في كل عام من مال المخزن المستفاد جمعه من صنهاجة على الوجه المرضي شرعا مرتبهم الذي هو مائة دينار من الذهب العين المنعم به عليهم من الجانب المولوي اليوسفي العبد الحقي يقبضونها ممن كان ولي صنهاجة كائنا من كان ويقسمونها على ما جرت عادتهم في ذلك إعانة لهم على ما هم به.

وعلى هذا يكون أبو يعقوب يوسف، قد أنعم على هؤلاء الأمغاريين بقدر من المال معلوم في العام.[3]

---

(1) الإحسان الإلزامي ص:616.

(2) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:375-376.

(3) مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط لمحمد القبلي دار توبقال للنشر الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1987 الصفحة:98-99.

وشملت أعطيات السلطان يوسف بن يعقوب المريني وصدقاته فئة الجنود والعسكر، فكان يجزل لهم العطاء.. وهذا ما أكده ابن خلدون إذ قال: «واعترض عساكره وأجزل أعطياتهم وأزاح عللهم.»[1]

الفرع الثالث: صدقات السلطان أبي سعيد عثمان المريني

نقف في هذا المقام على ما كتبه المؤرخ الناصري عن مبرات السلطان أبي سعيد، فحين عم قحط سنة 711هـ بالمغرب فاستسقى الناس وخرج السلطان أبو سعيد ماشيا على قدميه لإقامة سنة الاستسقاء وذلك يوم الأربعاء 24 شعبان من السنة المذكورة، وتقدمت أمامه الصلحاء والفقهاء والقراء يدعون الله تعالى، وقدم بين يدي نجواه صدقات، وفرق أموالا.[2]

الفرع الرابع: صدقات السلطان أبي الحسن المريني

تميز السلطان أبو الحسن عن غيره من سلاطين بني مرين بمبراته وصدقاته المتنوعة لكل فئات المجتمع الذي ساد تحت حكمه وسلطته، حتى قال عنه بعض المشارقة في حقه: «ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواء نواله وطابت نسماته واشتهرت عزماته.»[3]

ويحكي لنا صاحب مآثره ابن مرزوق وكاتب سيرته فيقول: «كان يؤتى بثياب الصوف التلمسانية الخالصة، فيتخير أجودها ويعطيه لجالسه، ويتخير لنفسه أدناها.»[4]

وكان عطاؤه للشرفاء، وخصوصا الواردين عليه من الحرمين من الحسنيين، فهو مما لا يدخل تحت الحصر. وكان الشريف إذا ورد المغرب ثم عاد منه، يصير نزهة وأعجوبة في البلاد التي يمر عليها. وأما سائر شرفاء بلاده كسائر الجوطيين رضي الله عنهم الأدارسة الأصلاء والداخلين في ترجمتهم وهم الصلحاء الصرحاء بالمغرب، كشرفاء مراكش من بني عمهم، وأولاد بركات، والقضاة والحسنيين بسبتة وأولاد أبي الشرف، السادة الكبراء وأمثالهم من

---

(1) العبر ج/7 ص:292.
(2) الاستقصا ج/3 ص:178.
(3) المصدر نفسه ج/3 ص:175.
(4) المسند الصحيح الحسن ص:129.

اشتهر نسبه، والتلمسانيين القاضي أبو علي السبتي، وكالفقهاء العلويين، فلكل منهم جرايات كافية ومرتبات شهرية على قدرهم ذكورهم وإناثهم مع الكسوة الجارية في سابع المولد.[1]

يقول الجزنائي: «وقد بالغ مولانا أبو الحسن رحمه الله في الإحسان لجميع الشرفاء القرباء منهم والبعداء، وبعث قاضي حضرته الأشهر، وعالمه الأكبر إبراهيم بن عبد الرحمان بن أبي يحيى رحمه الله لسائر بلاده مميزا لأعيانهم، ومختبرا لأنسابهم، حتى ثلج صدره بصميم نسبهم، وصريح حسبهم.»[2]

وحين يصيب البلاد القحط، ويمنع القطر من الأرض، يخرج أبو الحسن إلى محاويج أهل البلاد عموما، زرعه المختزن الخاص به، فيقيم به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجذب.[3]

وكان أبو الحسن المريني يختص خواصه والفقهاء والطلبة بطعامه، ويحضر هؤلاء طعامه غداء وعشاء، وهذا جراية من طعامه.[4]

كما عمل على تمهيد طرق المسافرين، بأن أسكن أهل الوطن في خيام وأقطع لهم من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثواباً على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاجون إليه المسافرون.[5]

وكان دأب السلطان أبي الحسن المريني، إذا أنعم الله عليه بنعمة قابلها بالشكر والصدقة، فيسجد لله شكرا ويخرج الصدقات.[6]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:151-152.
(2) جنى زهرة الآس ص:29.
(3) المسند الصحيح الحسن ص:191.
(4) المصدر نفسه ص:327.
(5) المسند الصحيح الحسن ص:429.
(6) المصدر نفسه ص:446.

ومن صدقاته على أهل العلم، ما جاد به في مدينة تلمسان، رفع منزلة ابني الإمام، واختصهما بالشورى في بلدهما، وكان يستكثر من أهل العلم في دولته، ويجري لهم الأرزاق، ويعمر بهم مجلسه.[1]

وفي الأعياد الدينية كان السلطان أبو الحسن المريني يتصدق على كل فقير ومسكين ومحتاج، خصوصا عيد المولد النبوي، الذي كان يكثر فيه الصدقة وأعمال البر.

وقد أورد لنا الونشريسي كلاما للشيخ ابن مرزوق(781هـ)، يقول فيه: «في جنا الجنتين في شرف الليلتين: سمعت شيخنا الإمام أبا موسى بن الإمام رحمة الله عليه وغيره من مشيخة المغرب، يحدثون فيما أحدث في ليالي المولد في المغرب، وما وضعه العزفي في ذلك، واختاره في ذلك ولده الفقيه أبو القاسم وهما عن الأيمة، فاستصوبوه واستحسنوه ما قصده فيها والقيام بها، وقد كان نقل عن بعض علماء المغرب إنكاره، والأظهر في ذلك عندي ما قاله بعض الفضلاء من علماء المغرب أيضا وقد وقع الكلام في ذلك فقال ما معناه: لا شك أن المسلك الذي سلكه العزفي مسلك حسن، إلا أن المستعمل في هذه الليلة الصلاة على النبي ﷺ والقيام بإحياء سنته، ومعونة آله، ومساهمتهم وتعظيم حرمتهم، والاستكثار من الصدقة وأعمال البر، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، ونصر المظلوم.»[2]

ونستنتج مما أورده الونشريسي أن الاحتفال بالمولد النبوي كان يلقى اهتماما كبيرا من قبل ولاة الأمر وسائر طبقات المجتمع المغربي، فيكثر فيه الصدقات على الفقراء والمساكين واليتامى وإعداد أطعمة لهم.[3]

كان السلطان أبو الحسن المريني يقدم العطايا لقواد العسكر والقضاة والأئمة والخطباء والحاشية في كل من عيد الفطر، وعيد الأضحى، والمولد النبوي، فيعطي هؤلاء في ليلة عيد الأضحى مائة من الغنم لكل واحد، ورأسا للنفر من الجند، وفي ليلة المولد يوزع مائة

(1) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون تحقيق محمد بن تاويت الطنجي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1951 الصفحة:46.

(2) المعيار المعرب ج/11 ص:279-280.

(3) جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية ص:44.

ألف دينار على الفقهاء والأشراف والطلبة والحفاظ، ومن يحضر المولد من العلماء والقضاة وغيرهم ممن يقوم بمهمة في ليلة عيد المولد، فيأخذ كل منهم من عشرة إلى مائة دينار.[1]

كما كان السلطان أبو الحسن المريني يقدم إحسانات وصدقات للجيش فلهم إقطاعات وإحسانات من رأس السنة إلى رأس السنة. وللأشياخ الكبار على السلطة يكون لكل واحد منهم في كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع، ويتحصل له من القمح والشعير والحبوب في تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق، ولكل واحد مع الإقطاع الإحسان في رأس كل سنة وهو حصان بسرجه ولجامه، وسيف ورمح محليان، وسبنية وهي بقجة قماش، فيها ثوب طرد وحش مذهب إسكندري، طوله ثمانون ذراعا. وللأشياخ الصغار فلهم نصف مما للأشياخ الكبار.[2]

ومن باب كبح جباح أيدي ظلم القضاة أو أخذهم لرشوة أو الطمع في المال الحرام، كان السلطان يخصهم ببعض العطايا الزائدة عن مرتباتهم فكان لقاضي القضاة في كل يوم مثقال من الذهب، وله أرض يسيرة يزرع بها ما تجيء منه مؤونته وعليه دوابه. وأما كاتب السر وهو الفقيه الإمام العالم أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي فله في كل يوم مثقالان من الذهب. وكان أبو الحسن يطلق الصدقات من المحارث والأرض للفقهاء والعلماء والفقراء، والحسباء وهم أرباب البيوت.[3]

وأجرى أبو الحسن المريني جراية للمحدث أبو الفضل محمد حين غلبه الدين، فأجرى له جراية من مجبي فاس مبلغها مائة دينار وخمسون ديناراً فضة في كل شهر إلى أن توفي في عقب شوال سنة 748هـ.[4]

الفرع الخامس: صدقات السلطان أبي عنان

نهج السلطان أبو عنان نهج أسلافه وآبائه في مجال البر والإحسان والصدقة، فكان خير خلف لخير سلف. قال ابن جزي: «اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أمورا لم تخطر

(1) المغرب عبر التاريخ ج/2 ص:147-148.
(2) ورقات عن حضارة المرينيين ص:564-565.
-(أنظر أيضا) صبح الأعشى ج/5 ص:204-205.
(3) ورقات عن حضارة المرينيين ص:568-569.
(4) جنى زهرة الآس ص:62.

في الأوهام. ولا اهتدت إليها السلاطين. فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده.[1]

ومنها التصدق بما يجتمع في مجابي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراما لذلك اليوم وقياما بحقه، ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم، ومنها كسوة اليتامى والصبيان يوم عاشوراء، ومنها صدقته للزمنى والضعفاء بأزواج الحرث، ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم.»[2]

وفي سبيل الصدقة أمر أبو عنان بإخراج أموال عظيمة من طيب كسبه، وتخير ذلك تخيرا دل على طهارة قلبه، وعين لكل بلد من بلاده قسطا معلوما، وحظا يبرز كتابه مرقوما.[3]

وعمل أبو عنان على تعميم فوائد الأحباس، بأن توزع على المساكين والضعفاء حتى يعم الخير على كل أهل البلاد. يقول صاحب فيض العباب: «وأمر مولانا أمير المؤمنين أيده الله أن يعمل بفوائد تلك الأحباس، طعاما يعم الظاعن والمقيم من الناس، وأن توسع معايش المساكين أولي الإفلاس، والضعفاء الذين لجأوا إلى الملك العظيم الإيناس. وخص ذووا المراتب والخدام بالبر والإكرام.»[4]

وتشير المصادر أن أبا عنان المريني أسهب في مبراته وصدقاته وإحسانه وهباته، فقد أنعم على ناظر القرويين بمرتب وسع عليه فيه ليستعين به على قيام بشعائر الإسلام.[5]

وتحرك قلم ابن بطوطة بذكر إحسان أبي عنان المريني فقال: «وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى، قد ضم الله به نشر الدولة المرينية، وشفى ببركته بعد إشفائها البلاد المغربية، وأفاض الإحسان على

(1) تحفة النظار ج/2 ص:675.
(2) المصدر نفسه ج/2 ص:675.
(3) فيض العباب ص:164-165.
(4) فيض العباب ص:171-172.
(5) الاستقصا ج/3 ص:206-207.

الخاص والعام، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام، فتشوقت النفوس إلى المثول ببابه... إلى أن قال: وغمرني من إحسان مولانا أيده الله تعالى بما أعجزني شكره، والله ولي مكافأته.»[1]

وكان أبو عنان -بالإضافة إلى ما سبق- يهتم كثيرا برجال التصوف والصلاح ويبحث عنهم أينما كانوا فيحل بجانبهم، ويستعطفهم ويكرمهم ويتصدق عليهم.[2]

وأجرى أبو عنان الأرزاق السنية والصدقات والعطاءات السخية للأشراف من آل البيت. ويشير الجزنائي أن أبا عنان المتوكل حدا حدو أبيه واقتدى به في بر أشراف آل البيت. يقول: «واقتدى المستعين رحمه الله بأبيه المرحوم في برهم والأنس بقربهم، فنما جرايتهم، وقرب مكانتهم، وقضى حاجتهم، وعلا منازلهم، وراعى وسائلهم، وأجرى لهم الأرزاق السنية، وتعهدهم بالصلات المرضية.»[3]

كما فرض للشرفاء الحسنيين آل أمغار مائة دينار سنوية، تدفع لهم من جباية الدولة بالناحية وأصدر ظهيرا مؤكدا في الموضوع.[4]

وكان السلطان أبو عنان يجل شرفاء سبتة، ففرض للشريف أبي العباس السبتي العطاء الجزل، وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرة فاس، لحضور المولد السعيد. وكان هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثون دينارا من الذهب العين في رأس كل شهر. ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبتة نحو ثلاثين قبرا، في روضتهم المنسوبة إليهم.[5]

وقام أبو عنان بإلغاء ضريبة التضييق التي كانت تؤخذ من الرعية قهرا.[6]

---

(1) تحفة النظار ج/2 ص:667-670.

(2) فيض العباب ص:127.

(3) جنى زهرة الآس ص:29.

(4) الإحسان الإلزامي ص:616.

(5) أزهار الرياض ج/1 ص:39-42.

(6) مجلة المناهل مقال بعنوان: تطور الفلاحة بمكناس من عصر المرابطين إلى أواخر العصر المريني لإبراهيم القادري البوتشيش إصدار وزارة الشؤون الثقافية الرباط المغرب العدد:38 السنة:15 دجنبر 1989 الصفحة:220.

وكان هذا الإلغاء بمثابة صدقة على الرعية، وسياسة حلم وبر وإحسان ولينة وإعفاء. ومن عظيم صدقاته على النساء أنه أجرى على إحدى أختي أبي سحان مسعود الأبله التي كانت بمكناس جارية كانت تتعيش منها طول حياتها.[1]

الفرع السادس: صدقات السلطان أبي العباس أحمد المريني

رغم أن السلطان أبا العباس المريني أراد أن يلغي سياسة الصدقات والعطاءات للأشراف، غير أن الرأي العام، وعلى رأسهم بعض العلماء، عارضوا هذه السياسة الجديدة، الشيء الذي دفع القاضي محمد بن السكاك المكناسي بتأليف كتاب سماه «نصح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقول آل البيت الكرام»، بَيَّن فيه مضار عدم العناية بآل البيت، وحذر من عواقب المسلك الجديد. وكان من ذلك أن اقتنع السلطان أحمد المريني أهمية العودة إلى السياسة الشرفية، وهكذا كتب بمناسبة حصول الدولة على غنائم من حرب الصليبيين إلى شرفاء سجلماسة، أن يحضروا ليأخذوا نصيبهم من هذه الغنائم، منبها أن من لم يحضر لا حق له في الاحتجاج.[2]

الفرع السابع: صدقات السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المريني

لم يسجل لنا التاريخ في حدود ما بلغته عن صدقات السلطان أبي سالم غير ما أمر به ابن القباب أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمان بالذهاب إلى غرناطة سنة 762هـ لمباشرة صدقة عهد بها السلطان لبعض الربط.[3]

المطلب الثالث: صدقات عامة الناس في العهد المريني

ساهم أهل الفضل والإحسان بطرق متعددة في إثراء الصدقات وبسطها على المحتاجين والفقراء، حسب ظروف وأوضاع المجتمع. ونقف في هذا المطلب على مجموعة مما أفاءت به المصادر التاريخية عن بعض المتصدقين.

---

(1) السلسل العذب والمنهل الأحلى لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي تحقيق محمد الفاسي مجلة معهد المخطوطات العربية سنة: محرم 1384هـ/مايو1964 المجلد:10 الجزء:1 الصفحة:40.

(2) الإحسان الإلزامي ص:616.

(3) الإحاطة ج/1 ص:72.

يذكر ابن مرزوق أن عبد الله ابن عامر بن خالد بن عقبة اشترى دارا، بجوار السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد فأعطاهم الدار والمال جميعا.[1]

وكان أبو العباس أحمد بن مرزوق وجيها سريا موسعا عليه، كثير الصدقات وأعمال البر، له جرايات على الطلبة وأهل الدين والخير. وكانت له مطامير من قمح وفحم، وكان يعد اللحم المدخر، المعروف بالمسني، وبالخليع، والزيت فإذا كان يوم الثلج، فتح مطمورة من القمح وأخرى من الفحم، ويتصدق بالزرع والفحم والإدام طول يومه، فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ من المطمورتين. وكان له كل يوم خبز الصدقة، وثيابا في كل سنة.[2]

ويشير لوتورنو إلى باب الصدقة والمعونة والبر والإحسان، اتجاه الشخص المريض أو المعوز الذي تأتيه المعونة والصدقة من أقاربه أو أصدقائه، إذ كانوا يعتبرون ذلك واجبا لا سبيل إلى الجدل حوله.[3]

وتحدثنا المصادر التاريخية عن شخص الفقيه المحدث أبو الفضل محمد، وكان حسن السمت قليل الضحك، مولع بقضاء حاجات الناس من عرف ومن لم يعرف، تارة بنفسه وتارة بماله، حاجات من قصده. وكان الناس يتوسلون به عند الخلفاء والأمراء وغيرهم في حاجاتهم لمنزلته الكريمة عندهم، وكان أكثر تسبباته في الحراثة والزارعة والغراسة، وكسب أملاكا كثيرة، وكان كثير الإنفاق لنفسه وحاشيته ولاسيما في الولائم والمواسم.[4]

وكان لإمام جامع القرويين مسؤولية مسك وقبض حسابات الهبات والأموال التي تقدم للجامع لفائدة الأطفال الصغار، ويوزع الإيرادات الموقوفة على الفقراء، سواء كانت نقودا أو حبوبا، فتفرق على مساكين المدينة بمناسبة كل عيد بمقادير متفاوتة حسب تكاليفهم العائلية. وتقدر مداخيل الجامع بمقدار مائتي مثقال في اليوم الواحد، يصرف أكثر من نصفها فيما ذكر.[5]

(1) المسند الصحيح الحسن ص:191.

(2) المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق تحقيق سلوى الزاهري مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2008 الصفحات:188-190-191.

(3) فاس في عصر بني مرين ص:86.

(4) جنى زهرة الآس ص:61.

(5) وصف إفريقيا ج/1 ص:224-225.

ونجد أيضا الصناع والتجار الذين كانوا يغدقون الأموال من باب الصدقة على مسجد القرويين والتي كانت تخصص للمساواة والترفيه على الإنسان، والرفق بالحيوان، وإدخال السرور على المرضى.[1]

وكانت هناك أوقاف وصدقات تصرف في شراء أواني تعطى للصبيان الصغار، إذا كسروا الأواني الفخارية وخافوا من أوليائهم، فتقدم لهم هذه المنحة لإعادة شراء ما تكسر منهم. يقول الدكتور عبد الهادي التازي: «ووقف الناس أوقافا يصرف كراؤها في شراء أواني الفخار تعطى للصبيان الصغار إذا تكسرت وخافوا متابعة أوليائهم، بباب الحفاة سواء في القرويين أو جامع الأندلس.»[2]

وظهرت الصدقات السخية لتحد من تفشي ظاهرة التسول، التي كانت من أسبابها كثرة الهجرة من المناطق المجاورة. وصف صاحب كتاب «فاس قبل الحماية» هذه الظاهرة وطريقة علاجها وكيفية تعامل الموسرين وغيرهم من أهل المدينة مع هؤلاء المتسولين فقال: «يلتزم الفاسيون تماما بهذه الفريضة الخيرية. فللكثير منهم متسولوهم الخاصون الذين يأتون إليهم كل يوم، طالبين منهم ما يسدون به رمقهم. وقد يبخرون كذلك عتبة البيت الكريم بمجمرة العطور يحملونها معهم في تجوالهم، ولكل حي متسوله أو متسولوه العاديون، ولكل فاسي غني زبناؤه من الفقراء، ويستفيد هؤلاء المساكين بمناسبة الأعياد الدينية أو الاحتفالات العائلية من الطعام الفاخر الذي يقدم إليهم بكل سخاء. ويقيم متسولون آخرون من مقعدين وعميان بالخصوص في مركز قار بباب مسجد، أو في ضواحي ضريح مولاي إدريس أو في زقاق يمر به الراجلون.[3]

ومن الشخصيات التي برزت في عمل البر والخير والصدقات زمن بني مرين، الشيخ الصالح أبو محمد عبد العزيز الصنهاجي السلاوي، الغريق في الخير والصلاح، فهو صالح بن

---

(1) جامع القرويين ج/2 ص:456-457.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:457.

(3) الحالة الاجتماعية بفاس في القرن 12هـ من خلال الحوالات الإسماعيلية لعبد الحق ابن المجدوب الحسني دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:2006 الجزء:2 الصفحة: 131-132.

صالح، لين الانقياد للخير، فكان يطعم الطعام على الفقراء، ويبذل الجهد في قضاء حاجات المسلمين، وله خصائص وحالات، تأخذ بمجامع القلوب، فتقلب الأعيان للخير.[1]

ومن الشيوخ الذين برزوا أيضا في إعمال الخير والبر والإحسان الشيخ أبو عبد الله بن موسى الحلفاوي، كان له إذن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسم به أدواء الفساد، وقمع الأشرار، عالي الهمة، شديد الحزم، وله شأن معروف مع السلطان أبي عنان وحكاية مشهورة إذ كان يعظمه ويؤثره ويعنيه على الأخذ على أيدي المعتدين المرتكبين ما نهى عنه الدين والإيثار على الضعفاء والمساكين، وربما تكفلت صدقته بجميع مؤن المحتاج من قوت ومن لباس مستوفى الجزئيات في الدفعة الواحدة، فيكفيه السؤال طويل مدة، ليمتعه بالانتفاع بنفسه من توجه لعبادة أو استنهاض لكسب، ويصل تحنت عبادته بالطواف على الفقراء المحتاجين في الحضرة، ويتفقد بالفواكه الرطبة واليابسة في أوانها من تميل إليها نفسه فلا توصله المرتبة إليها، يبتاع منها الكثير متى أظل زمانها وتمكن إبانها، ويضعها في حانوته بالحلفاويين من فاس، ويحتمل نهاية ما يقدر على رفعه على رأسه، فيقصد به المظان إلى أن يفرغ الوعاء، فيعيد امتلاءه فيلحق تلطفه الضعفاء بالأغنياء، في استطعام شهوات ما أنعم الله به على خلقه ورزقهم من طيباتها.[2]

ونجد أيضا في قائمة أهل البر والإحسان الشيخ الصالح أبي إسحاق إبراهيم بن عباد، من أهل الاختصاص وأهل الإخلاص، وله قدم في الإيثار، فإنه آثر بأكثر ميراثه من والده، وما زال دأبه السخاء بما كان يكتسب بعد ذلك، ويصنع الطعام من كسبه للفقراء والضعفاء من ذوي الدين والفضل.[3]

المطلب الرابع: الإحسان لأهل الربض

يقوم في خارج فاس من جهة الغرب ربض يضم نحو خمسمائة كانون خلال العهد المريني. وهناك يقطن فقراء القوم كسائقي الجمال والسائقين وحطابي القصر، إلا أنه توجد به

(1) السلسل العذب ص:49. -(أنظر أيضا) درة الحجال ج/3 ص:121.

(2) السلسل العذب ص: 55.

(3) المصدر نفسه ص:67-68.

دكاكين عديدة وكل فئات الصناع. كما يقطن فيه جميع المشعوذين والموسيقيين من الدرجة السفلى، وتكثر فيه البغايا، وهن قبيحات خسيسات.

وهناك ربض آخر يسكنه المجذومين يحتوي على مائتي دار تقريبا، ولهم رئيسهم الديني الذي يجمع دخل الأملاك العديدة الموقوفة عليهم لوجه الله من طرف الأعيان وغيرهم من المحسنين. ويقدم لهؤلاء المرضى كل ما هو ضروري لهم بحيث لا يحتاجون إلى شيء.(1)

وكان الناس يحبسون على سكان الربض أملاكا عديدة لوجه الله ولتنفق عليهم فيعيشون هناك في أرغد عيش.(2)

المطلب الخامس: الإحسان زمن الوباء

حث الإسلام على التضافر والتعاون وعلى الإنفاق التطوعي، خصوصا إذا حلت بالأمة أزمات من قبيل الوباء. فشجع على الإحسان العمومي وتعزيز التضامن بين فئات المجتمع، وتفعيل الجانب الخيري لتخطي المحنة. ولعل هذا الأمر وقع زمن الدولة المرينية وإن كانت المصادر التاريخية لم تفصل الشيء الكثير عن قضية الوباء وكيف تعامل المجتمع والسلطة في القضاء عليه؟ ولا كيف تعاملوا معه من الجانب الإحساني؟

وكما يقال: «الأزمة تولد الهمة» فإن الأوبئة والطواعين كغيرها من الأزمات الطبيعية تخلق اهتماما كبيرا داخل أي مجتمع تحدث فيه.(3)

ومما يؤكد أن الوباء أصاب المغرب زمن العهد المريني ما قاله ابن بطوطة في رحلته، بعد رجوعه من تونس ودخل مدينة تازة فعلم خبر وفاة أمة بالوباء يقول: «ووصلت إلى مدينة تازة، وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى.»(4)

---

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:277-278.

(2) حياة الوزان الفاسي ص:90.

(3) المجاعات والأوبئة ص:227.

(4) تحفة النظار ج/2 ص:670.

وأشار ابن مرزوق إلى الفقيه والمفتي أبو عبد الله الرندي الذي كان ملازما للسلطان أبي الحسن المريني والذي توفي سنة 740هـ بالوباء.[1]

ونظرا لتفشي الوباء في زمن بني مرين، ارتفعت أسعار المواد الغذائية الأساسية وهذا ما يؤكده صاحب الإستقصا فيقول:» في سنة 694هـ كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم عم ذلك بلاد المغرب وإفريقية ومصر فكانت الموتى تحمل اثنين وثلاثة وأربعة على المغتسل وبلغ القمح عشرة دراهم للمد والدقيق ست أواق بدرهم، وأمر السلطان يوسف بتبديل الصيعان وجعلها على مد النبي ﷺ وكان ذلك بالحضرة على يد الفقيه أبي فارس عبد العزيز الملزوزي.»[2]

ووجدت أوقاف مخصصة لزمن الوباء لتكون كمديد للمساعدة في تلك الظروف القاسية والصعبة، فخصصت أوقاف لتعويض الفقراء أيام غلاء الأسعار، وهي فكرة تضامنية اجتماعية وبادرة إحسانية من طرف السلطات المرينية.[3]

وخصصت أيضا أوقاف ومبرات إحسانية للمصابين بالوباء والأمراض المزمنة، وتخصيص حارات لهم.[4]

وفي ختام هذا المطلب يتأكد لنا أن الرفق بهؤلاء المحتاجين بلغ ذروته في العهد المريني، وكان القصد الأول والأخير هو مساعدتهم على إعادة الثقة بأنفسهم، وإدماجهم في المجتمع الذي يشعر بشعورهم، ويعمل على تحقيق التكافل معهم، هذا وبالتمعن في الحوالات نجد الاهتمام بهذه الفئة من خلال الوصايا المتعددة، وقد سبق ذكرها.[5]

المطلب السادس: الإحسان للحيوانات والطيور

لقد حرص الإسلام على الإحسان للحيوانات والطيور، ودعا إلى الرفق والرحمة، ومعاملتهم معاملة كريمة، بعيدة عن القسوة والتعذيب، وتحميلها ما لا تطيق. فالله تعالى

(1) المسند الصحيح الحسن ص:261.

(2) الاستقصا ج/3 ص:90-91.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:458.

(4) المرجع نفسه ج/2 ص:458.

(5) الحالة الاجتماعية بفاس ج/2 ص:60.

كتب الاحسان في كل شيء. ولقد تعددت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، التي دعت إلى الإحسان والرفق في التعامل مع الحيوان والطير. ومن الآيات التي وضحت العناية بالحيوانات والطير وأنهم أمم مثل البشر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي اِ۬لَارْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ اَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي اِ۬لْكِتَٰبِ مِن شَےْءٍ ثُمَّ إِلَيٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام الآية:39].

فَسر الشيخ الطاهر بن عاشور الآية الكريمة بأنها تنبيه للمسلمين على الرفق بالحيوان فالإخبار بأنها أمم أمثالنا تنبيه على المشاركة في المخلوقية وصفات الحيوانية كلها وقوله «ثم إلى ربهم يحشرون» إلقاء للحذر من الاعتداء عليها بما نهى الشرع عنه من تعذيبها وإذا كان يقتص لبعضها من بعض وهي غير مكلفة فالاقتصاص من الإنسان لها أولى بالعدل.[1]

وذكر القرطبي أنهم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به.[2]

وجاءت السنة النبوية الشريفة بأحاديث زاخرة عديدة ومتنوعة في الحث على الإحسان للحيوان والطير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش

فوجد بئرا، فنزل فيها، فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر، فملأ خفه فأمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. فقالوا: يا رسول الله ﷺ وإن لنا في البهائم لأجر؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر.»[3]

فالعموم هنا مخصوص بالحيوان المحترم وهو ما لم يؤمر بقتله فيحصل الثواب بسقيه، ويلحق به إطعامه وغير ذلك من وجوه الإحسان.[4]

---

(1) التحرير والتنوير ج/7 ص:218.

(2) الجامع لأحكام القرآن ج/8 ص:370.

(3) رواه أبو داود في سننه كتاب الجهاد باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم رقم الحديث:2550 ج/4 ص:201.

(4) عون المعبود على شرح سنن أبي داود للشيخ أبي عبد الرحمان شرف الحق العظيم الآبادي الصديقي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة:1 سنة:2005 الصفحة:1169.

دل الحديث النبوي الشريف على حق الحيوان في الحياة وعلى حقه في رفع الألم والمعاناة عنه بدليل المغفرة لذلك الرجل بفعل سقاية الكلب، وهذا ما يدل على أن ما قام به من فعل طاعة الله، كما أن الحديث اعتبر الإحسان إلى كل ما فيه روح فعلا مثابا عليه وفي هذا تحضيض على ذلك الفعل.[1]

فإن من أعظم ما تتشوف إليه النفس الطاهرة وأعظم أمنية يتمناها المرء في حياته لتكون له ذخرا ليوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم هي مرضاة الله عز وجل فهي غاية أهل الفضل والتقوى. وللحصول على هذه الغاية مسالك وطرق ومن الواضح بل من السهل الميسور على المؤمن الذي يرتجي ارضاء مولاه أن يكتسي بالسعي وراء ما يحبه الخالق ويرضاه، ومن ذلك السعي على إغاثة الحيوان والطير.[2]

ويمكن التأكيد أن الفترة التاريخية للدولة المرينية تميزت بهذه المبرة العظيمة، ووجدت محسنين أحيوا هذه الفضيلة وسارعوا إلى إنجازها تقربا وزلفة إلى العلي القدير. بل وتعدت هذه الصورة النمطية إلى صورة الحس بالمسؤولية. فقد كان يرى بعض الناس في خدمة الحيوان وحتى الطير، التي لا تستطيع البوح عن معاناتها ولا جوعها وعطشها أو مرضها، هي مسؤولية معلقة على أكتافه، ونصّب نفسه جندا مسخرا لتحقيق حقوقها وتسهيل أعبائها.

ولم تسعفن المصادر التاريخية في مسألة العناية بالحيوانات والطيور في العهد المريني بالمعلومات الوافرة لتبقى جد محصورة. وهذا ما أكده الدكتور محمد المنوني بقوله: «وينتهي بنا المطاف إلى إشارات جد قليلة عن إسعاف الحيوان والإحسان إليه.»[3]

ونقف عند الشيخ محمد بن موسى الحلفاوي الإشبيلي (ت758هـ) الذي سبق ذكره في باب الصدقة والإحسان، فهذا الرجل الولع بفعل الخير والإحسان ويقف عليه بنفسه، كان

(1) المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية مقال بعنوان: حقوق الحيوان وضماناتها في الفقه الإسلامي لأحمد القرالة المجلد:5 العدد:1 سنة:1430هـ/2009م الصفحة:25.

(2) المجلة الزيتونية مقال بعنوان: الإسعاف الخيري الإسلامي لمحمد الشاذلي بن القاضي بتاريخ: محرم-صفر 1361هـ/ يناير-فبراير 1942م الجزئان:1-2 المجلد:5 الصفحة:25.

(3) مذكرات من التراث المغربي ص:81.

يرفق بالمتخذ من الحيوان والمألوف، وأعد لذلك دارا يجمعهم فيها ويناولهم بيده، وكان لا تبصر له بطانة ولا تعرف له عن اجتهاده مهلة، دائم الاشتغال، متوالي العمل.(1)

ودفع به الرفق بالحيوان المتخذة والأليفة في دار خاصة ويطعمها بيده تقربا وزلفة إلى الله عز وجل.(2)

ويتحدث محمد بن أبي غالب المكناسي المعروف بابن السكاك (ت818هـ) عن جمع من القطط شاهدهم مجتمعين على موزع يفرق عليهم لحما، ويعدل في قسمته بينهم.(3)

وخصص ريع عدد من الفدادين لشراء الحبوب لتغذية الحيوانات العجماء التي لا تملك التعبير عن حاجاتها، ولعلاج الحيوانات التي تتعرض للأمراض.(4)

وكان في حوز مدينة فاس بلاد موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور، حتى يلتقطونها -كل يوم- من المرتفع المعروف بكدية البراطيل، عند باب الحمراء داخل باب الفتوح، وأيضا عند كدية البراطيل خارج باب الجيسة.(5)

وخصص جانب من المارستانات لمعالجة الطير المجروح والمريض، وكان كل من أتى بأحد هذه الطيور جريحة وعالجها بالماستان ينال لقاء ذلك مكافأة. وإضافة إلى هذه المهنة الإنسانية لمؤسسة المارستان كانت أيضا تعتبر ملجأ للطير المعروف باسم اللقلاق «بلارج» حتى إذا انكسر أو أصيب بأي أذى، فإنه يحمل إلى المستشفى.(6)

وكانت الطيور المريضة وغيرها التي توجد ساقطة فيؤتى بها إليه فتطعم وتسقى وتعالج بما يناسب حتى تصح فتطير أو تموت فتستريح.(7)

(1) السلسل العذب ص:55.

(2) مذكرات من التراث المغربي ص:81.

(3) المرجع نفسه ص:81.

(4) جامع القرويين ج/2 ص:457.

(5) مذكرات من التراث المغربي ص:81.

(6) المرجع نفسه ص:73.

(7) آسفي وما إليه ص:107.

المبحث الثاني عشر: الحوالات الحبسية

المطلب الأول: مفهوم الحوالة في اللغة والاصطلاح

الفرع الأول: الحوالة لغة

جاء في لسان العرب الحوالة تحويل ماء من نهر إلى نهر. والحائل المتغير اللون. يقال: رماد حائل ونبات حائل. وحال الشيء حولا وحؤولا وأحال بمعنى تحول وفي الحديث من أحال دخل الجنة يريد من أسلم لأنه تحول من الكفر عما كان يعبد إلى الإسلام. وحال الشخص يحول إذا تحول، وكذلك كل متحول عن حاله.[1]

وقيل الحوالة من الحول: السنة. جمع أحوال وحؤول وحوول، وحال الحول: تمَّ. واسم الحوالة كسحابة وعليه استضعفه وعليه الماء: أفرغه.[2]

الفرع الثاني: الحوالة اصطلاحا

الحوالات في شكلها المادي عبارة عن دفاتر ذات حجم كبير، وصفحات متعددة، تسجل بها الأوقاف. فهي إحصاء مضبوط للممتلكات العقارية ودخلها، وما ينفق من هذه المداخيل على المشاريع الاجتماعية المختلفة، وكذا على المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب القرآنية وغيرها كما يوجد بها وثائق متنوعة المواضيع، فضلا عن نصوص بإثبات ملكيات المحبسين لموقوفاتهم وكذلك لفظ المحبس الذي يختلف مضمونه من محبس لآخر، والذي لا يمكن بحال من الأحوال تجاوزه، ولذلك يجد المتصفح لهذه النصوص، عبارة لا تكاد تبرح نصوص التحبيس هاته ويتعلق الأمر ب (ومن بدل أو غير فالله حسيبه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).[3]

(1) لسان العرب [مادة حول] ج/11 ص:188.

(2) القاموس المحيط [مادة حول] ص:421-422.

(3) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:26.

وفي سياق منظومة الحوالات الحبسية يقول الدكتور محمد المنوني: «وتمتاز الحوالات الوقفية بما تقدمه من صور للأخلاق الشعبية في ميدان البر والإحسان مضمون تحبيسات الأفراد على مختلف المشاريع الإنسانية.»[1]

وتحدث الدكتور عمر الجيدي عن سبب تسميتها بالحوالة بقوله: «والمضمون أنها سميت بالحوالات لأنها حولت إلى وثائق فريدة، وضمت إلى ديوان شامل لها، ولعلها آتية من الحول بمعنى العام، لملاحظة أنها تتجدد في كل سنة في أكثر الظروف التي مرت بها الأوقاف. كما أنها تعرضت باستمرار للمراجعات والمتابعات الأمر الذي يدل على اشتقاقها من الحلول أو من التحويل، لأن وثائق التحبيس حولت ونقلت إليها أي إلى هذه السجلات.»[2]

ويذكر الدكتور عمر الجيدي عن الأستاذ الجليل سعيد أعراب بأن الحوالات الحبسية هي وثائق للتحبيس حولت ونقلت إليها، وكان كلما تجمعت أملاك وأوقاف دَوَّنَها القاضي بنفسه أو أمر بعض العدول البارزين لديه بتدوينها.[3]

المطلب الثاني: أهمية الحوالات

مما لا ريب فيه أن أهمية الحوالات تكمن في أهمية الوقف والحفاظ عليه صيانة له من التلف والعبث استمرارا لتعاليم ديننا الحنيف.[4]

جاء في جواب الونشريسي عن دور الحوالة في كيفية المحاسبة في الأحباس ما يلي: «المحاسبة أن يجلس الناظر والقابض والشهود وتنسخ الحوالة كلها من أول رجوع الناظر إلى آخر المحاسبة، وتقبل وتحقق ويرفع كل مشاهرة أو مسانهة أو إكرام، أو صيف أو خريف، وجميع مستفادات الحبس حتى يصير ذلك كله نقطة واحدة، ثم يقسم على المواضيع، لكل حقه، ويعتبر المرتبات وما قبض من تخلص ومن لا، وينظر في المصير، ولا يقبل ذلك إلا

(1) المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث لمحمد المنوني منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1983 الجزء:1 الصفحة:8.

(2) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: الحوالات الحبسية مصدر أساسي للتعرف على التاريخ الحضاري للمغرب لعمر الجيدي العدد:242 ربيعا لأول/نونبر 1984 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

(3) المقال نفسه.

(4) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:29.

جموع شهود الأحباس وكذلك جميع الإجازات من لقط الزيتون وآلة ونفض، ويطلب كل واحد بخطته، ومن أفسد شيئا لزمه غرمه، ومن ضيع شيئا من ذلك من شهود الأحباس وجب القيام به عليهم، وتعجيل ذلك، وكذلك يجب على الناظر وهو المطلوب به، وإلا فلا يجوز تركه، فإن تركه كان مضيعا.»[1]

ويضيف الشيخ المكي الناصري كلاما في غاية الأهمية حول الحوالات الحبسية باعتبارها ركيزة تقف عليها أعمال البر والخير والإحسان، واستمرارا للمنشآت الخيرية. يقول الشيخ الناصري: «إن الأوقاف الإسلامية في المملكة الشريفة، تراث خالص للمسلمين المغاربة، تركه السلف ضمانة مادية لاستقرار الإسلام واستمرار تعاليمه بين المغاربة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولما عرف ملوكنا، قدس الله أرواحهم، قدسية الأوقاف وحرمتها الدينية، وتيقنوا أنها خير ضمانة ثابتة تحفظ مصير الملة الإسلامية مما يتهددها من أخطار، جعلوا أنفسهم أكبر حراسها، وأحرص الناس على حفاضها من عدوان الأيدي الأثيمة، وكانوا يعتبرون النظر في الأوقاف من اختصاصات القضاة الشرعيين الموكول إليهم تطبيق الشريعة والذود عن العقيدة فكان النظار بمنزلة نواب عن القضاة يدبرون الأوقاف تحت إشرافهم ومراقبتهم الشرعية وكانوا ملزمين أمامهم وأمام الملوك وجماعة المسلمين، بصرف مداخيلها طبقا لإرادة الواقفين.»[2]

ويسترسل المؤرخ الناصري كلامه قائلا: «واعتبر ملوك الدولة المغربية الأوقاف الإسلامية تراثا خاصا لجماعة المسلمين، وتخصيص مداخيلها وأوفارها للقيام بشعائر الإسلام وتعليم الدين ومواساة البؤساء والغرباء، فكانت تنفق على المساجد والمدارس والملاجئ والمارستانات، وأحيانا ينفق منها على تحصينات الثغور، وإنارة الدروب، وتنظيف الشوارع وتوزيع المياه العذبة، وكانوا يأذنون بالإنفاق من أحباس جهة على جهة أخرى متى كانت المصلحة الإسلامية تقتضي ذلك، ولاسيما إذا طالبت به جماعة المسلمين.[3]

ولما كثرت الأوقاف بالمملكة المغربية وخشي عليها الضياع والنسيان، أمر النظار في كل جهة من الجهات بإحصاء الأوقاف وتسجيلها في دفاتر خصوصية رسمية، تكون وثيقة

---

(1) المعيار المعرب ج/7 ص:302.

(2) الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية ص:17.

(3) المرجع نفسه ص:21.

قانونية وتاريخية بين أيدي الأجيال القادمة، حتى يتعرفوا منها أملاك الأحباس ومقاصد المحبسين، وكان من ذلك ما يسمى بالحوالات.[1]

فأهمية الحوالات الحبسية في تاريخ المغرب تتجلى في الحفاظ على الأسماء المغمورة للأفراد والأسر والخطط المندثرة، فضلا عن بعض العادات، وتوضيح نقط تاريخية.[2]

ويتحدث الدكتور عبد الحق بن المجذوب الحسني عن أهمية الحوالات في تاريخ المغرب فيقول: «كذلك تحفظ هذه المستندات بمعلومات عن النظام الإداري بقطاع الأوقاف وأسماء القائمين بها ومرتباتهم، فضلا عن الأنظمة الدينية والتعليمية والاجتماعية للمساجد والمدارس والمؤسسات الاجتماعية المندثرة، هذا إلى أن كثيرا من وثائق هذه الحوالات يثبت بها تسلسل عدد من العائلات المتعددة، مضافا لذلك بعض لوائح الكتب الموقوفة على المؤسسات التعليمية، ومجموعات من الفتاوى مذيلة بأسماء المفتين، وقد كان أول اهتمام معاصر بهذا اللون من الوثائق.»[3]

هذا وإن الخزانة العامة بالرباط لتتوفر على مجموعة كبيرة من أصول هذه الحوالات وصورها، يجد فيها الباحث في ميدان الحوالات خاصة والمهتم بقضايا الوقف عامة ما يشفي غليله ويروي ظمأه، الشيء الذي يؤكد من ناحية أخرى على محافظة المغرب على آثاره الأصيلة واعتنائه بهذا التراث العظيم الذي يبرز مدى اهتمام المغرب عبر عصوره بمواطنيه بكل طبقاتهم وفي جميع قضاياه وفي مقدمة ذلك، المجال الديني والاجتماعي.[4]

ويستنتج أن هذه الحوالات تشتمل على ذخائر تاريخية نفيسة، ومواضيع فقهية هامة ونماذج باهرة من التعاون الإنساني والتكافل الاجتماعي والتضامن الديني، مما يؤكد أن أسلافنا رحمهم الله كانوا سباقين إلى تثبيت الحضارة المغربية المثالية المستمدة من روح الإسلام ونظمه الرائدة. ويتبين من خلال الحوالات مدى اهتمام الملوك المغاربة عبر التاريخ في إنشاء الحوالات وتنظيم الحالات الاجتماعية لرعاياهم، فبقيت بسبب الحوالات الأحباس

---

(1) الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية ص:17.

(2) المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ج/1 ص:8.

(3) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:30.

(4) المرجع نفسه ج/1 ص:42

مصونة، وأهداف المحبسين مطبقة دون تبديل أو تغيير، فهم كما هو الشأن فيهم قد دلوا على الخير فيهم، وصانوا الأمة من كل ضير، وبوأوها مكانا رفيعا.[1]

المطلب الثالث: الحوالات المرينية

الفرع الأول: وصف الحوالة المرينية

تقع الحوالة المباركة في 596 صفحة مرقمة، غير أن هذه الأرقام خاصة بالصفحات المكتوبة التي يعتريها اضطراب في بعض الأحيان فتضم رقمين عوض رقم واحد. مقياسها 5,44 سنتم على 17 عرضا و8 سنتم ارتفاعا. خضعت هذه الحوالة نظرا لقدمها للترميم، وكانت مجموعة أوراقها تميل إلى اللون الأصفر، متآكلة في معظمها، مبعثرة، خطها غير واضح، يكتنفها الغموض والضبابية في كثير من الصفحات.[2]

وكانت الحوالات تعتمد على القلم الرومي في معظمها، وبعضها كان يكتب بالغباري (نسبة للغبار الذي يذر عليها أثر الكتابة). هذا الغباري الذي اقتبسه الأوروبيون، ويحمل عندهم كما هو معروف اسم الأرقام العربية. كما أن الحوالات تعرض باستمرار للمراجعات والمتابعات الأمر الذي يدل على الرقابة الدائمة على السجلات. وسائر الحوالات كانت تتهيأ في شهر ذي الحجة، لتكون جاهزة في غرة محرم تماما على نحو ما يتم في تحضير الميزانيات الحالية بفارق واحد: تلك تعتمد على التاريخ القمري، وتعتمد الميزانية اليوم على التاريخ الشمسي.[3]

والمتصفح لهذه الحوالات ليجد صعوبة عند لمس أوراقها أو قَلْبِها، فهي من ناحية تحدث صوتا كالذي تحدثه الأوراق عند انكماشها في اليد ورميها، ومن ناحية ثانية يتعذر على المتصفح لها في كثير من الأحيان قراءة نصوصها أو فهم محتوياتها فهي من جهة مكتوبة بخط دقيق جدا غير واضح، ومن جهة أخرى بأسلوب تواضع الأقدمون عليه وشق على المتأخرين فهم أبعاده هذا فضلا عن وجود أرقام غير مفهومة قيل إنها بالقلم الفاسي.[4]

(1) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:50-51.

(2) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:55.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:459-460.

(4) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:56.

خطت هذه الحوالات بأقلام مختلفة فيها الكتابة الجيدة الجميلة المتقنعة، وبها الكتابة المتوسطة وكذا المتواضعة جدا، سجلت الكتابة الجميلة في الصفحات الأولى وغيرها، غير أنها دقيقة جدا، وغير واضحة الشيء الذي يُتعب النظر. وخلاصة القول، تعتبر الحوالات المرينية أقدم الحوالات وهي موجودة بنظارة القرويين بفاس، وأثقلها وزنا وأغزرها نصوصا ومعلومات، وأكثرها صفحات.[1]

وهذه الحوالات كانت تثبت ملكية المحبسين لما سبلوه وما إلى ذلك من الوثائق المرتبطة بالأوقاف. ومع أن الكثير من الحوالات قد ضاعت بفعل التقادم، وعوادي الزمن المختلفة، فإن ما بقي منها يؤكد استخدامها في العصر المريني. وتعد حوالة أحباس مدينة تازة من أقدم الشواهد التي وصلتنا لأنها ترجع إلى العقد الأولى من القرن الثامن الهجري. وارتباطا بأوقاف المدارس، نجد حوالة خاصة بأحباس المدارس القديمة بفاس، مما يبين أهمية وحجم الأملاك الموقوفة عليها.[2]

الفرع الثاني: المضامين الاجتماعية للحوالات الحبسية المرينية

إن موضوعات ومضامين الحوالات الحبسية المرينية جد متنوعة ومختلفة، لذا سنقتصر في هذا المقام على ما جاء ضمن الحوالات من عمل اجتماعي، والتي تميل إلى جانب البر والإحسان والمبرات الخيرية. وموازاة مع الحوالات الحبسية والكتابات الوقفية خلال العهد المريني، شرع في تدبير وتسيير كل مؤسسة إلى موظف يعرف بالناظر، فهو الذي تعهد إليه أمور تعمير المؤسسة وتسيير غلاتها ورباعها، واستخلاص محاصيلها، وصرفها بطريقة دقيقة ومضبوطة تبعا للأغراض والأبواب المحددة من قبل المحبس ولم يكن اختيار الناظر اعتباطا، بل يخضع لجملة من المعايير، يأتي في مقدمتها الاستقامة والنزاهة والكفاية وأصالة الرأي، وهي صفات تسمح للناظر بالقيام بمسؤولياته بكل تفان وإخلاص.[3]

(1) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:56.

(2) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني للحاج موسى عوني بتاريخ:1434هـ/يناير2013م العدد:404 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب.www.habous.gov.ma

(3) المقال نفسه.

وبناء على هذه المعطيات تم تدوين الحوالات الحبسية حسب ما جاد به المحبس حتى تكون مصونة ومؤرخة.

ومن جملة ما كتب في الحوالات وما جمعناه من المراجع ما يلي:

1 -حوالة الناظر أبي العباس أحمد محمد اللمطي، وتضمنت الحوالة الربع المخصص ريعه لمكة المعظمة، علاوة على اشتمالها على بعض حوانيت الموثقين وفندق الشماعين.

2 -حوالة مباركة، لعقد الكراء والتزامه في ربع الأحباس بمدينة فاس، المحوطة بالله تعالى، على يد الناظر الفقيه المعدل أبي العباس أحمد بن الشيخ الناقد الكاتب المرفع أبي عبد الله محمد بن الشيخ اللمطي أجمل الله خلاصه، لقبض علي بن عبد الله المكناسي أحد قباض الحبس في حينه، وهي تبتدئ كذلك بدكاكين سماط العدول، ابتداء من الخارج من سوق الشماعين يساراً.

3 -حوالة تحتوي على عقد أكرية الحبس على مؤذني الليل بصومعة القرويين بأواقي الدراهم النقرة على يد مزوارهم الفقيه المؤقت محمد بن الشيخ التاجر بن عبد الله محمد المنافي الشهير بالمشاط أوساط ذي الحجة.

4 -حوالة في عهد محمد البرتغالي، وقد أثبتت في صدرها ما كان أوصى به السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز، وكذلك عبد الحق على الأسرى، وتنص الوصية على رجوع المداخيل لجامع القرويين إذا لم يكن ثمة أسرى.[1]

5 -حوالة تشير إلى خمس لقاء أجرة القبض من الأجزية والغلات، وتبقى الأربعة أخماس لكل من الناظر والشهود والكتاب.

6 -وهناك حوالات تضمنت وصايا ومنها: وصية الشيخ ابن رحمون، وصية تحبيس ابن على مكة المكرمة، وصية تحبيس مختلفات السيد أحمد المساوي على الضعفاء والمساكين، وجعل النظر في ذلك لخطيب القرويين كائنا من كان.

(1) جامع القرويين ج/2 ص:460.

7 -حوالة تعيين الحوانيت ومقدار ما بها من أحباس المؤسسات الدينية، وما للزوايا والمدارس.

8 -حوالة الرباع التي بجانب القرويين وما انضاف إليها من المؤسسات الدينية.

9 -حوالة محاصة مدرسة العطارين، وما بقي لها بعد خصم الصوائر.(1)

10 -حوالة وقف وتحبيس، ففي 29 من شهر رمضان عام 720هـ وقف المحسن الفاضل الوزع الزاهد الخاشع أبو مدين شعيب المغربي العثماني المالكي قرية عين كارم من قرية مدينة القدس الشريف، وقنطرة أم البنات بالمدينة نفسها على المغاربة المقيمين بالقدس والقادمين إليها، وعند انقراضهم، فيرجع وقفا على من يوجد من المغاربة في مكة المشرفة والمدينة المنورة، فإذا انقرض الجميع -والدوام لله- فيرجع وقفاً على الحرمين الشريفين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.(2)

11 -حوالة تحبيس ووقف في اليوم الثالث من شهر ربيع عام 730هـ حبس العابد الخاشع الزاهد المجاهد عمر بن عبد الله المصمودي المغربي الدور الثلاثة الموجودة بحارة المغاربة، بجميع حقوقها ومرافقها على الواردين من المغاربة لبيت المقدس، وقف لا يوهب ولا يرهن ولا يبطل، ومن بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم.(3)

12 -كما ذكرت لنا الحوالات جرد لما اشتملت عليه أوقاف المرضى والمحتاجين ومنها: وصية على المساكين لا تتحدث الوثيقة عن صاحبها. وصية على المساكين وصى بها أحد المحسنين المدعو العريف. ست وصايا من الخواص بعضها على الضعفاء وأخرى على المرضى والجذماء، والقاطنين ببرج الكوكب. وصية العبد حقية لقضاء الديون، ووصية أبي فارس عبد العزيز المريني على الأسرى، وأخرى على هؤلاء الآخرين مجهول الموصي بها، ووصيتا ابن كيسة وابن عطو على المساكين، وكذا ابن اللب، ووصية ابن الأشقر. ووصية كل من

(1) الحالة الاجتماعية بفاس ج/1 ص:58-59-60-62.
(2) الحالة الاجتماعية بفاس ج/2 ص:44.
(3) المرجع نفسه ج/2 ص:59-60.

الحاج عبابو والحكيم وابن عميرة والديناري والقبايلي والكناني وابن جسار والخيارية على المساكين.[1]

وعلى هذا يمكننا القول إن هذه الإجراءات التنظيمية والتوثيقية تعتبر شاهد عيان على مدى حرص المرينيين على ضبط الوقف وتقنينه، وعلى اهتمامهم بمصالح المستفيدين والمنتفعين منه، كما تعد الحوالات والكتابات الوقفية وثائق تاريخية وقانونية بين يدي الأجيال المتعاقبة تساعد على معرفة أملاك الوقف وتحديد مواقعها وانتشارها في المجالات الحضرية والقروية، وأهداف المحبسين ورغباتهم وشروطهم، فهي إذن من الأدوات التي تضمن صيانة التراث الوقفي ورعايته واحترام مقاصد المحبسين.[2]

(1) الحالة الاجتماعية بفاس ج/2 ص:59-60.

(2) مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني للحاج موسى عوني.

المبحث الثالث عشر: ساعات الوقت المائية

لقد كان المغاربة كمسلمين متشبثين بالعقيدة يتحمسون لكل ما من شأنه أن يضمن لهم أداء العبادات في أوقاتها المضبوطة. إن اليوم يحتوي على خمس مواقيت للصلاة، ولا بد لكي يحقق المسلم ما يصبو إليه أن يؤدي فريضته في الوقت المعين. ومن هنا فتح باب الاجتهاد على مصراعيه للذين يتوسلون للوصول إلى معرفة الأوقات سواء بالساعات الرملية أو الساعات الشمسية أو الساعات المائية.[1]

لذلك وجه المرينيون عناية خاصة لانتظام الساعات وآلات التوقيت لضبط أوقات الصلاة وإعلام الناس مواقيت اليوم لسير الحياة العامة فخصصوا (دويرة) للمؤقتين تتصل بصومعة القرويين لضبط عملهم.[2]

والدويرة كما سماها الدكتور عبد الهادي التازي بالغريفة متحف علمي وثائقي يفوق التصور، ومما يزيد في قيمتها ومكانتها أنها إلى الآن لم تدرس كما يجب الدرس، لأنها ظلت بمنأى من عيون الباحثين والمنقبين حتى في الفترات التي تعرضت فيها القرويين لأعمال الترميم الكبرى. وإن في إبراز ما أثار انتباه الدكتور عبد الهادي التازي لهذه الغرفة ما فيها إلى الآن من آثار ساعة مائية فريدة التركيب.[3]

ويبدو أن العلماء المؤقتين في العهد المريني استطاعوا إنشاء ساعات مائية ليهتدوا بها في أوقات الصلاة والحياة اليومية، وكان إنجاز هذه الساعة بمثابة مبرة اجتماعية، ساعدت إلى حد ما إلى ضبط الحياة الخاصة والعامة، وتنظيم العلاقات الاجتماعية اليومية.

ومن أقدم الساعات التي عرفها التاريخ بالمغرب، ساعات عصر الأدارسة وزناتة، وقد ظلت على حالها بقبة الصومعة بجانب القرويين تلك القبة التي شيدها الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي سنة 345هـ إلى أن شهدت مولد ابتكار جديد في صدر الدولة المرينية.[4]

---

(1) مذكرات من التراث المغربي مقال بعنوان: الساعات المائية بالمغرب لعبد الهادي التازي ج/3 ص:54.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:397.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:322.

(4) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:395.

المطلب الأول: ساعة ابن الحباك سنة685هـ

ترجع ساعة المعدل أبي عبد الله محمد بن الحباك للأيام التي تولى فيها قضاء فاس الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي الصبر أيوب بن كنون، فقد اقترح القاضي المذكور على المعدل المذكور نصب ساعة مائية تعرف الناس أوقات النهار والليل، سواء في الأيام المشمسة والغائمة. وهكذا الساعات الشمسية والرملية، لم تعد كافية، ولاسيما بعدما وصل من أخبار عن الساعة المائية للمدرسة المستنصرية ببغداد. فبرهن ابن الحباك على مقدرته العلمية عندما نصب محراب مدرسة الصفارين على أحسن وجه، ولهذا لبى ابن الحباك رغبة القاضي وصنع صحنا من فخار بالقبة العليا، المنار الثاني من الصومعة وملأه بالماء، وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس ذا خطوط وثقاب، يخرج الماء من ذلك المجرى بقدر معلوم إلى أن يصل إلى الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار، فتعرف بذلك الأوقات كلها.[1]

وما يؤكد هذا القول ما رواه الجزنائي في كتابه زهرة الآس فقال: «ولم تزل كذلك إلى أن ولي القضاء الفقيه الخطيب محمد بن أبي الصبر أيوب بن يكنول، فعمل في أيامه المعدل محمد ابن الحباك بدنا من فخار بالقبة العليا وفيه الماء، وجعل على وجه الماء طنجيرا من نحاس فيه خطوط فتعلم بذلك أيضا أوقات الليل والنهار في أيام الغيم ولياليها.»[2]

ومما تمتاز به تلك الساعة عن الساعات المائية التي سبقتها، بأنها كانت أصغر حجما، وأبسط تركيبا، بحيث إنها كانت- بالنسبة إلى الساعات العصرية- كما لو كانت ساعة يد إذ كان في المستطاع نقلها من جهة إلى أخرى.[3]

المطلب الثاني: ساعة محمد بن عبد الله الصنهاجي سنة717هـ/1317م

أحدثت هذه الساعة سنة 717هـ على يد أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصنهاجي، ورسم هندستها، أبو عبد الله محمد بن الصدينية القرطسوني. وصنعت الساعة المائية بالغرفة أيام السلطان أبي سعيد عثمان المريني.[4]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:323.
(2) جنى زهرة الآس ص:50-51.
(3) جامع القرويين ج/2 ص:323.
(4) المرجع نفسه ج/2 ص:323.

وتم إنشاء الساعة داخل الغرفة المطلة على باب الصومعة (الزناتية)، والغرفة كانت قد بنيت سنة 685هـ وهي السنة التي تتناسب زمن وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق.[1]

غير أن الدكتور عبد الهادي التازي سماها بالغريفة ويؤرخها بعام 688هـ وقوله إنها عوضت القبلة العليا التي لا تفي بالحاجة، وتعرف إلى الآن بالغريفة على طريق التصغير.[2]

فهذه الساعة الأولى التي عرفتها الغريفة والتي تضافرت الجهود من المعدلين والموقتين، واحتلت مكانا بارزا من وصف الجزنائي في جنى زهرة الآس.[3]

وجاء وصف الجزنائي على النحو التالي: «أما المنجاة التي صنعت بهذه الغرفة لمعرفة الأوقات فإن الشيخ المعدل محمد بن عبد الله الصنهاجي النطاع أحدثها هناك، ورسمها له محمد بن الصدينية القرطسوني، وتطوع بعض المسلمين بالإنفاق فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة. وذلك أنه جعل في ركن الغرفة عن يسار المستقبل جبحا من خشب الأرز، وجعل في داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلى من الآخر، وجعل الماء في الأعلى منهما، وبأسفله أنبوب من نحاس مموه بالذهب محكم العمل يهبط منه في البدن الأسفل بقدر معلوم، وجعل الجبح مفطسا، ورسم بجانبي التفطيسة بروج الأفلاك والأشهر العجمية والساعات ودقائقها، وجعل في الوسط مسطرة رسم فيها أيضا ساعات ودقائقها وأوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة في خارج من الجبح يجري في حفر التفطيسة المذكورة طالعا وهابطا، وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الأسفل طلع طرف الغلور الخارج من التفطيسة، وطلعت بطلوعه المسطرة، وكلما طلعت بطول الأزمان ظهر فيها الوقت المطلوب، فإذا تم النهار والليلة المقبلة له رد الماء من البدن الأسفل للبدن الأعلى، وعلق المسطرة كما كانت.»[4]

غير أن الساعة تعرضت للإهمال، لعدم صيانتها والنظر في شؤونها، إلى أن تقدم النظر في التوقيت وشؤون الآذان أبو عبد الله بن العربي سنة747هـ، فقام هذا الشيخ بتجديد الساعة على وجه متقن يفوق الترتيب الأول.[5]

---

(1) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:396.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:322.

(3) المرجع نفسه ج/2 ص:323.

(4) جنى زهرة الآس ص:51.

(5) جامع القرويين ج/2 ص:323.

وقد تطوع بعض المؤمنين بالإنفاق على المشروع من مالهم الخاص.[1]

المطلب الثالث: ساعة الأسطرلاب لابن العربي سنة747ه/1346م

منذ أن عهد بالنظر في الأوقات والرعاية للمؤذنين إلى أبي عبد الله محمد بن محمد بن العربي، قام بتحديث المنجانة، في صدر حكم السلطان المتوكل أبي عنان المريني.[2]

حيث فكر أن ينصب على الواجهة الشمالية لذلك المجن شبكة أسطرلاب، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات الليل والنهار بتحريك خيوط الأسطرلاب ورسومه، وهكذا ربط بحكمته وابتكاره بين الأسطرلاب والساعة المائية. وتؤطر دائرة الأسطرلاب أربع صفائح تكون مربعا، طول الصفيحة 71 سنتيما وعرضها لا يتجاوز خمسة سانتيمات، كل واحدة تثبت بخمسة مسامير. وكتب على الأسطرلاب جميع شهور السنة من شهر يناير إلى شهر دجنبر وكذلك أسماء الأبراج الإثني عشرة. ورسم وسط الأسطرلاب البعد في الشمال عن خط الاستواء وخطوط الساعات من الأولى إلى الإثني عشرة. وكان الأسطرلاب يتصل بساعة الصنهاجي بلولب مركزي يربط بينه وبينها.[3]

وقد ذاع صيت الساعة وشاع وسط المدينة، وكان هذا مدعاة دون شك تشجيعا من السلطان أبي عنان الذي صعد الصومعة لأول مرة، ووقف على الساعة المذكورة وما اتصل بها وقد استحسن ذلك، وأنعم على الناظر فيه بمرتب وسَّع عليه فيه، ليستعين بذلك على التفرغ للعلم. مما دفع بالسلطان أبي عنان إلى التفكير في إنشاء ساعة مائية كبرى في أحد شوارع فاس العامة بجوار مدرسته العظيمة لتكون خدمة اجتماعية.

يقول الجزنائي: «ولقد صعد مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبر في المدينة وترتيبها، ووقف على المنجانة وما اتصل بها فاستحسنه وأنعم على الناظر فيه بمرتب ووسع فيه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام وذلك في سنة 749ه. وأمر نَظرَ الله ووجهه بأثر ذلك أن يجعل بأعلى الصومعة المذكورة صارٍ وينشر فيه علم أبيض في أوقات صلاة النهار وفنار فيه سراج زاهر لأوقات صلات الليل ليستدل بذلك من بعد عن المدينة ولم

(1) جامع القرويين ج/2 323.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:396-397.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:324.

يسمع النداء، وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقات وبما يتعلق بها من وجوب الصلوات، ويتركب عليها من الحقوق في وجوه شتى من العادات والعبادات.»[(1)]

ونظم الفقيه محمد بن عبد الرحمان نظما يسر الوغى فقال:

سر فاس لفارس قد بدا في وضع إدريس بالمنار حسامه

فهم الغز للنـــداء فأورى ناره معلما وشال علامـــه

وقال الشاعر عبد الواحد الزيتوني:

رفع الفنار أبو عنـان فارس أعلى المنار وزاد فيه علامـا

شهر الآذان بذلك شهرة رافع لظهور دين الله فيه حسامـا [(2)]

المطلب الرابع: ساعة المدرسة البوعنانية

نقل السلطان أبو عنان فكرة إنشاء الساعات وآلات التوقيت خارج المساجد والمدارس، وقد أسلفنا أن المدرسة البوعنانية قد تميزت منفردة باشتمالها على منبر وصومعة كمسجد ومدرسة ثم ها هي تتميز بوجود المنجانة خارجها.[(3)]

يقول الدكتور عبد الهادي التازي: «مما حمله على التفكير في إنشاء ساعة مائية كبرى في أحد الشوارع العامة بجوار مدرسته العظيمة.»[(4)]

ويتحدث الجزنائي عن الساعة ويصفها وصفا دقيقا ويقول: «وقد صنع مولانا المتوكل أبو عنان رحمه الله منجانة بطيقان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة التي أحدثها بسوق القصر من فاس، وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتنفتح طاق، وذلك في أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى عام 758هـ على يد مؤقته علي بن أحمد التلمساني المعدل.»[(5)]

(1) جنى زهرة الآس ص:52.
(2) جنى زهرة الآس ص:52.
(3) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:397.
(4) جامع القرويين ج/2 ص:324.
(5) جنى زهرة الآس ص:53.

وقد تعاطف الأدباء والشعراء مع الساعة المائية الكبرى، بإبراز جماليتها وكيفية اشتغالها بعبارات شعرية ولوحة فنية رائعة الذوق والحس. ومما جاء في مدح الساعة ما يلي:

روح من الماء في جسم من الصفر ... مولد بلطيف الحسن والنـظـر

مستعبر لم يغب عن عينه سكـن ... ولم يبث من ذوي ضغن على حذر

وفي أعاليه حسبان يفضلـه ... للناظرين بلا ذهن ولا فكر

إذا بكى دار في أحشائه فلـك ... خاف المسير، وإن لم يبك لم يدر

مترجم عن مواقيت يخبرنـا ... بها، فيوجد فيها صادق الخبر

تقضي بها الخمس في وقت الوجوب ... والغيم غطى على والشمس ستر

وإن سهرت لأوقات تؤرقـني ... عرفت مقدار وقت السهد والسهر

مجدد كل ميقـات تخيـره ... نور التميز للأسفار والحضر

ومخرج لك بالأجزاء ألطفهـا ... من النهار وقوت الليل والسحر

نتيجة العلم والأفكـار صوره ... يا حبذا بدع الأفكار في الصور[1]

والخروج بفكرة الساعات إلى المدارس وغيرها من المنشآت العامة لتظهر للناس قد عرفت تطورا ملحوظا أواخر الدولة المرينية، وصدر الدولة الوطاسية، إذ يستنتج الدكتور عبد الهادي التازي وجود ساعة مائية ببداية سوق الشماعين من جهة القرويين بالزنقة المعروفة بدرب المنجانة، فقد جرى ذكرها على لسان الناس فلعلها نصبت في ذلك المكان منجانة على غرار منجانة أبي عنان بالطالعة.[2]

وكانت تحتوي على ثلاث عشرة طاسة، موضوعة على سنادات من خشب الأرز، وثمة اثنتا عشرة نافذة صغيرة تقع فوق هذه الطاسات، وهذه السندات مجوفة فهي بمثابة أنابيب تمر منها الطنجات الصغيرة التي تقع على الطاسات، ويكون من نتيجة ذلك أن تسقط الكرة على الطاسة، فتحدث رنة، وتكون إشارة إلى بداية كل ساعة من ساعات النهار. ونظام وقوع الطنجات على الطاسات هو نفسه الذي نقرأ عنه عند تتبعنا للحديث عن الساعات المائية التي كانت معروفة في العصر الوسيط سواء فيها الذي تحدث عنه بالمغرب أو المشرق، مثل

(1) جنى زهرة الآس ص:53.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:397.

ساعة جامع الكتبية بمدينة مراكش، التي ذكرها العمري في مسالك الأبصار وساعة دمشق التي تحدث عنها ابن جبير وغيرها.[1]

المطلب الخامس: ساعة عبد الرحمان بن سليمان اللجائي سنة 763هـ/1361م

صنع أبو زيد عبد الرحمان بن سليمان اللجائي ساعة مائية لطيفة في 21 محرم سنة 763هـ الموافق ل 20 نونبر 1361م بأمر من السلطان أبي سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن. ويتلاءم تصميمها مع كثير من التصميمات الساعاتية التي وصفت في المؤلف الطريف الذي كتبه المعدل الجزري.[2]

ويمكن القول إن الساعات المائية قامت بدور اجتماعي باعتبارها أداة لمعرفة الوقت بصفة عامة، ومعرفة أوقات الصلاة بصفة خاصة، خصوصا إذا كان الغيم والمطر، والذي يصعب فيه تحديد الوقت، فكان لصناعة الساعة المائية مخرج من الصعوبات التي كانت تواجه في فترة حكم الدولة المرينية.

المطلب السادس: ساعة مائية في الشارع العام

من خلال تتبع الحديث في مختلف الحوالات الوقفية القديمة، وبخاصة التي تعود إلى أواخر دولة بني مرين ودولة الوطاسيين، يستطيع المرء أن يستنتج أنه كانت هناك ساعة مائية في بداية سوق الشماعين من جهة القرويين، في أعلى المسافة التي تفصل بين درب الفحل والزنقة التي تليها إلى سوق القيسارية، وكانت تعرف باسم زنقة السعاة. فعلى غرار منجانة التلمساني الذي أمر السلطان أبو عنان بنصبها في الشارع العام من الطالعة قبالة باب المدرسة البوعنانية، نصبت ساعة هناك مماثلة.[3]

ويتحدث الدكتور عبد الهادي التازي على أن أحد الخبراء في تاريخ مدينة فاس كان تحدث إلى الأستاذ بيل «bel»عن ساعة مدفونة في جدار قرب برج القرويين فهل الأمر يتعلق

(1) جامع القرويين (أنظر التعليق رقم:43) ج/2 ص:345.

(2) المرجع نفسه ج/2 ص:325.

(3) جامع القرويين ج/2 ص:326-327.

بمنجانة زائدة على المنجانة المعروفة بالغريفة؟ لأن كتب التاريخ تظل صامتة حول الموضوع إذا استثنينا حجج الوقف القديمة، وإن الذي يعرف الظروف التي عاشتها مدينة فاس إبان انتقال الحكم من بني وطاس إلى السعديين، لا يستبعد مثل هذا الصمت، ومع ذلك ما تزال بنا حاجة إلى المزيد من الوثائق التي تثبت أو تنفي وجود ساعة مائية في هذه الجهة.[1]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:327.

المبحث الرابع عشر: برج النفارين سنة 840هـ

حاول كثير من المؤرخين أن يرجعوا تأسيس البرج إلى تاريخ محدد، فمنهم من أرجعه إلى عهد الموحدين، ومنهم من نسبه إلى السلطان أبي عنان المريني نفسه عندما سن العلم والفانوس، وبالرجوع إلى الحوالات الحبسية والنوازل الفقهية، يتبين أن البرج إنما تم تشييده في أواخر دولة بني مرين، فقد نعتته حوالة من سنة 893هـ بأن «»البرج الحديث البناء للتنبيه»» في ليالي رمضان من أجل السحور والإفطار.[1]

ولعل دور البرج هو من باب الإحسان والبر، لأن النفارين المتطوعين كانوا يقومون بهذه الخدمة باستعمال النفار من أعلى البرج، إما للإعلان عن وقت الإفطار وغروب الشمس، أو للإيذان بدخول وقت السحور، فتكون إشارة النفار دالة على ذلك.

وقد استعمل أهل الأندلس هذه العادة، والتي اقتنع المغاربة بتقبلها عادة النفار، بيد أنهم عوض أن

يسنوها عند الغروب جعلوها علامة على وقت السحر ابتداء وانتهاء. وينتصب البرج على مقربة من صومعة القرويين منفصلا عن الجامع، شبه منارة بدون قبة، تحمل اسم برج.[2]

(1) جامع القرويين ج/2 ص:327.

(2) جامع القرويين ج/2 ص:327.

المبحث الخامس عشر: الحمامات المرينية

الاغتسال في الحمامات ظاهرة قديمة، عرفته الشعوب القديمة كالمصريين والكنعانيين واليونانيين الرومانيين، وقد وصلت هذه العادة إلى سلوك المسلمين مبكرا، لأن الإسلام يحث على الاغتسال والطهارة، وأصبحت هذه المؤسسة الاجتماعية مرتبطة ارتباطا عضويا بالنظافة وبفريضة الوضوء، ولذا اعتبرها الفقهاء من الأماكن الدينية، لأن الطهارة لا يستغني عنها المسلمين ولا يمكنهم أداء فريضتهم إلا بها. فكان المسلمون يترددون باستمرار على الحمامات لتطهير أجسامهم وتنظيفها، وكانت الحمامات في أغلب الأحيان تلحق بالبناءات الدينية والاجتماعية بما في ذلك بيوت الله.(1)

من خلال دراسة الحمامات من حيث التخطيط يتضح لنا أنها سارت على نهج التقاليد الأموية المبكرة المتأثرة بالعمارة الرومانية، غير أن البنائين المغاربة قد ابتكروا وسائل جديدة في أنواع التغطية وابتكروا تصميمات خاصة بالأسقف ونظام قاعات الاستقبال. ولا زال الحمام المغربي إلى اليوم يحتفظ بالعناصر التي استقرت عليها الحمامات المرينية القائمة إلى اليوم، بفضل ما حبس عليها من الأملاك وبفضل تحبيس بعضها الآخر، مما ضمن سلامة بقائها.(2)

ويصف الحسن الوزان حمامات مدينة فاس فيقول:» في فاس مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير وبعضها كبير، وكلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات، أو بالأحرى ثلاث قاعات، وفي خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلا يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم ويتركونها هناك. وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا أنها كبيرة جدا. وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج ليتبرد الماء إذا كان ساخنا جدا، ومن تم نفد من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه. ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة ليعرق بعض الوقت، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء، ويغترف منه بحذق في دلاء من خشب. ولكل مستحم

(1) تلمسان في العهد الزياني ج/1 ص:139-140.

(2) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:254.

الحق في أخد دلوين من الماء الساخن، يسخن الماء بالزبل، ويعمل عند الحمامين غلمان وبغالون يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل من الاصطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة، ثم يجعلوه أكداسا ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يستعمل كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات. ويستعمل الحمام للرجال والنساء، للرجال أوقات معينة، ويخصص باقي اليوم للنساء. ومعظم هذه الحمامات ملك للمساجد والمدارس تؤدي لها كراء مرتفع يبلغ المائة والمائة والخمسين مثقالا، أو أقل أو أكثر بحسب حجم المكان.»[1]

وتحتفظ مدينة رباط الفتح بآثار حمام مريني هو حمام العلو الذي بناه وحبسه السلطان أبو عنان المريني على ضريح والده وعلى إطعام المساكين بشالة. ويعد أقدم حمام بالرباط ولا يزال يؤدي وظيفته حتى اليوم. وقد سجل تحبيسه على لوحة مربعة من الرخام محفوظة اليوم بالجامع الكبير دليلها كانت محفوظة بشالة ثم نقلت إلى الجامع. والحمام صغير المساحة بسيط في تخطيطه وبنيانه مجرد من الزخارف والتنميقات، ولكنه متقن البناء محكم الصنعة.[2]

ويرجع حمام مدينة وجدة إلى العصر المريني، وعلى حسب ما ذكرت المصادر التاريخية، أنه شيد مع بناء المسجد والمدرسة، في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف المريني سنة 696هـ/1296م يوم أعيد بناء المدينة. وهو يقع في نفس الجهة التي بني فيها المسجد الكبير، ويعتبر الحمام من أقدم الحمامات في وجدة، غير أن المصادر لم تتحدث عنه بشكل مسهب، ولا عن مواصفاته غير ما يقف عليه الناظر بنفسه. وكان يسمى باسم سيدي يحيى لأن الماء الذي يُستحم به كان يأتي من واحة سيدي يحيى، يقول صاحب روض القرطاس: «فنزل على وجدة فأمر ببنائها فبنبت وحصنت أسوارها، وبنى قصبة وداراً ومسجداً وحماماً.»[3]

(1) وصف إفريقيا ج/1 ص:229-230.

(2) مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي ص:148.

(3) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص:385.

وحين بنى السلطان يوسف مدينة المنصورة إبان حصاره الطويل الذي فرضه على تلمسان، والذي استمر ثماني سنوات وثلاثة أشهر، فشيد فيها القصور والحمامات والفنادق والأسواق، وسماها تلمسان الجديدة.[1]

وفي هذا الجانب يتحدث ابن خلدون فيقول: «وأمر باتخاذ الحمامات والمارستانات، وابتنى مسجداً جامعاً.»[2]

وكذلك يوجد حمام آخر بالقرب من باب العقبة بشرق المدينة، حمام سيدي بومدين بالعُباد، لا يزال هذا الحمام يقوم بوظيفته إلى اليوم، له سقيفة تتكون من زاوية قائمة وقاعة مستطيلة الشكل، يبلغ طولها ثمانية أمتار. وعرضها ستة أمتار، وثلاثة غرف متوازية، مسقفة بسقف أسطواني الشكل.[3]

ومع أن حمام المخفية بفاس وحمام جبل طارق غير مؤرخين لكن يتفقان مع أسلوب حمامات القرن الثامن الهجري.[4]

---

(1) البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لابن مريم التلمساني تحقيق عبد القادر بوباية دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2013 الصفحة: 186 (أنظر حاشية التحقيق).

(2) العبر ج/7 ص:293.

(3) تلمسان في العهد الزياني ج/1 ص:140.

(4) تاريخ العمارة الإسلامية ج/4 ص:254.

خاتمة

بعد هذه الرحلة المستفيضة، كان لابد من تسجيل أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث وهي كالتالي:

-شهد العهد المريني نهضة حقيقية في مجال الرعاية الاجتماعية تضافرت فيها جملة من العوامل، أهمها إسهام الدولة وأهل البر والإحسان، في تشكيل لحمة موحدة، قصد التخفيف على أهل الحاجة والعوز.

-اهتمام المرينيين بإنشاء المؤسسات الدينية والمتمثلة في بناء المساجد والزوايا، والتي عُدَّت مكانا لاستقطاب الناس دينا ودنيا.

-انتشار العلوم الدينية، وعلوم الآلة وعلوم الطب والفلك وغير ذلك من العلوم التي ازدهرت في العهد المريني.

-تطور البيئة الثقافية والعلمية عند المرينيين، نظرا لاهتمامهم بتشييد المدارس والخزانات والكتاتيب، وتشجيع السلاطين للعلماء والفقهاء والإنفاق عليهم. وتزويد المدارس بالخزانات العلمية لأجل المطالعة والبحث العلمي.

-توفير الظروف الملائمة للإبداع الثقافي والفكري، مما ساعد على ظهور علماء أفذاذ في مختلف المجالات ساهموا في بناء الصرح العلمي لدولتهم.

-وضع قاعدة فكرية متنوعة في كل المدن المغربية والمتمثلة في توفير المدارس على نحو لم يسبق له مثيل.

-التشجيع المادي والأدبي والعناية الفائقة التي خضع لها العلماء وطلبة العلم، من قبل السلاطين المرينيين.

-الاهتمام بالمنظومة الصحية، وهي مقاربة هامة ذات بعد إنساني وجيه ومؤثر اجتماعي، ومن مظاهره، تشييد المارستانات للتداوي والعلاج، والخدمة المجانية للتطبيب، وإشراف السلطة على تشجيع دراسة الطب وتعلم فنونه وقد هيئت لذلك كل الظروف الملائمة.

-التخفيف من نسبة الفقر وذلك بإسعاف الطبقات المعوزة، وإجراء الامدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس، فقد تنافست السلطة وأهل البر في هذه المظاهر الإحسانية.

-امتداد أثر الوقف إلى مجالات مختلفة اجتماعية، علمية، ثقافية، صحية، اقتصادية، وعسكرية.

-ظهور صياغة توثيقية للأحباس، فيما اصطلح عليه بالحوالات الحبسية في العهد المريني، وكانت متضمنة لاسم الواقف وتاريخ تحبيس الموقوف.

توصية:

استوقفني طويلا موضوع الأحباس والأوقاف في العهد المريني، وحرك في نفسي التوسع فيه، وتخصيصه بجهد علمي بحثي مستقل، عسى أن يتحقق بإذن الله.

فهرس الآيات القرآنية

[سورة البقرة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَءَاتَي اَلْمَالَ عَلَيٰ حُبِّهِۦ ذَوِے اِلْقُرْبِيٰ وَالْيَتَٰمِيٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ اَلسَّبِيلِ	176	38
۞لَّيْسَ اَلْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ اَلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنِ اِلْبِرُّ مَنَ اٰمَنَ	176	363-62
يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٖ	213	357
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ اِلْيَتَٰمِيٰ قُلِ اِصْلَٰحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ	218	357
مَّثَلُ اُلذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِے سَبِيلِ اِللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ اَنۢبَتَتْ سَبْعَ	260	420

[سروة آل عمران]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَلَن تُكْفَرُوهُۖ وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِالْمُتَّقِينَۖ	115	65
اَلذِينَ يُنفِقُونَ فِے اِلسَّرَّآءِ وَالضَّرَّآءِ وَالْكَٰظِمِينَ	134	49

[سورة النساء]

الآية	رقمها	الصفحة
وَإِذَا حَضَرَ اَلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ اُلْقُرْبِيٰ وَالْيَتَٰمِيٰ وَالْمَسَٰكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُۖ	8	363
۞لَّا خَيْرَ فِے كَثِيرٖ مِّن نَّجْوِيٰهُمْ إِلَّا مَنَ اَمَرَ بِصَدَقَةٍ اَوْ مَعْرُوفٍ	113	40

[سورة المائدة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَتَعَاوَنُواْ عَلَي اَلْبِرِّ وَالتَّقْوِيٰۖ	3	53

[سورة الأنعام]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِے اِلَارْضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ اَمْثَالُكُمۖ	39	441

[سورة الأعراف]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّ اَ۬لَارْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَۖ	127	98
إِنَّ رَبَّكُمُ اُ۬للَّهُ اُ۬لذِے خَلَقَ اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ فِے سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اَ۪سْتَوِيٰ	53	194

[سورة التوبة]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّمَا اَ۬لصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ	60	377-367-34

[سورة هود]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٖۖ	46	42

[سورة يوسف]

الآية	رقمها	الصفحة
۞قَالَ رَبِّ اِ۬لسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِے إِلَيْهِ	33	388
فَلَبِثَ فِے اِ۬لسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَۖ	42	388

[سورة الحج]

الآية	رقمها	الصفحة
وَأَذِّن فِے اِ۬لنَّاسِ بِالْحَجِّ يَاتُوكَ رِجَالا وَعَلَيٰ كُلِّ ضَامِر	25	397
وَافْعَلُواْ اُ۬لْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَۖ۩	75	65-39

[سورة النور]

الآية	رقمها	الصفحة
فِے بُيُوتٍ اَذِنَ اَ۬للَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اَ۪سْمُهُۥ	36	189
إِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَيٰٓ أَمْر جَامِع لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّيٰ يَسْتَٰذِنُوهُۖ	60	22

[سورة الروم]

الآية	رقمها	الصفحة
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ	53	353

[سورة الأحزاب]

الآية	رقمها	الصفحة
النَّبِيءُ أَوْلَى بِالْمُومِنِينَ مِنَ انفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ	6	378

[سورة سبأ]

الآية	رقمها	الصفحة
إِلَّا مَنَ امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ	37	39

[سورة الحجرات]

الآية	رقمها	الصفحة
إِنَّمَا الْمُومِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ	10	52

[سورة الذريات]

الآية	رقمها	الصفحة
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ	19	41

[سورة الممتحنة]

الآية	رقمها	الصفحة
لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ	8	407

[سورة المزمل]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا	18	40

وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرا وَأَعْظَمَ أَجْراۚ	18	350

[سورة الإنسان]

الآية	رقمها	الصفحة
وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينا وَيَتِيما وَأَسِيراً	8	391

[سورة الليل]

الآية	رقمها	الصفحة
فَأَمَّا مَنَ اَعْطِيٰ وَاتَّقِيٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنِيٰ	5-6-7-8-9-10	49

[سورة الضحى]

الآية	رقمها	الصفحة
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فَـَٔاوِيٰ	6	357
فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْۖ	9	357

[سورة البينة]

الآية	رقمها	الصفحة
وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُوتُواْ	5	56

[سورة الإخلاص]

الآية	رقمها	الصفحة
قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌۖ	1	248

فهرس الأحاديث النبوية

[صحيح الإمام البخاري]

طرف الحديث	الصفحة
إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث...(الأدب المفرد)	50
إن شئت حبست أصلها...	65
إن لجسدك عليك حقا...	321
أنا واكافل اليتيم في الجنة...	43
أنا وكافل اليتيم في الجنة...	357
أي الإسلام خير...؟	42
سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل...؟	397
الساعي على الأرملة والمسكين	34
الساعي على الأرملة والمسكين...	379
المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص...	53
المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص...	350
من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب...	44
من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب...	421
ما من مومن إلا وأنا أولى الناس به...	378
من يشتري بئر رومة فيكون...	50
من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة...	408

[صحيح الإمام مسلم]

طرف الحديث	الصفحة
أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل...	57
ابن جدعان كان في الجاهلية يصل...	33
الساعي على الأرملة والمسكين...	43
مثل المومن في توادهم وتراحمهم...	59

من بنى مسجدا لله بنى الله له...	44

[مسند الإمام أحمد]

طرف الحديث	الصفحة
العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم...	380

[سنن الإمام أبي داود]

طرف الحديث	الصفحة
إن المسألة لا تصح إلا لثلاثة فقر...	374
بينما رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش...	437

[سنن الإمام الترمذي]

طرف الحديث	الصفحة
أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم...	58
إن الناس لكم تبع وإن رجالا...	55

[سنن الإمام ابن ماجة]

طرف الحديث	الصفحة
إن مما يلحق المؤمن من عمله...	42

[السنن الكبرى الإمام البيهقي]

طرف الحديث	الصفحة
لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا...	31

فهرس الأبيات الشعرية

البيت الشعري		الصفحة
كَانَتْ قريش بيضة فَتَفَقَّأَتْ	فالمخُّ خَالِصُهُ لعبد مَنَـافِ	31
المفْضِلُون إذا المحول ترادفت	والقائـلون هَلُمَّ للأضياف	32
ولم تزل زناتة مع العرب	مجاورين في مراعيهم حقب	90
أيها السائل عن أحسابنا	قيس عيلان بنو العز الأول	91
قدمت مرين إلى بلاد المغرب	والسعد يصحبها لنيل المطلب	96
في عام عشرة وستمائة	أتوا إلى الغرب من البرية	96
تشاغلوا باللهو والخمور	واحتجبوا عن أوكد الأمور	97
وانقرضت دولة عبد المومـــن	من غربنا وحالهم لم يؤمن	108
فوجه المنصور يوسف ابنه	للسوس مع نول يريد أمنـه	113
فالمرسلات تسوق العاديـات إلى	غزو العداة وتجويز صباحا مساء	119
قدحت يد الأشواق من زند	وهفت بقلبي زفرة الوجد	156
ورقيمة الأعطاف حاليـــة	موشية بوشائع البـرد	156
الله يوم بدار الملك مر بـــه	من العجائب لم يجر في خلـدي	159
تعب من تبع ملاح ذا لزمان	أهمل يا فلان لا يلعب الحسن فيك	160
لو كان ما بين تونس الغرب	وبلاد الغرب سد السكندر	160
عقيدتنا أن ليس مثل صفاته	ولا ذاته شيء عقيدة صائب	168
هذا محل الفضل والإيثار	والرفق بالسكان والزوار	226

ليس لما قرت به العين ثمن	لا بأس بالغالي إذا قيل حسن	254
اقتضى أَمْيَرُ أمير المسلمين	هذه السنة في أسعد حين	255
لا بأس بالغالي إذا قيل حسن	ليس لما قرت به العين الثمن	257
نزه جفونا منك في مدرسة	أربت على كل سنى ونزهة	258
بناني كم يقيم لدي دينا	الإسلام أمير المسلمينا	269
يا شاعرا قد خبرناه ففاض لنا	بالشعر والكتب من تلقاه بحران	333
لما بدا لي في حمى مكناسة	مثوى الذين مضوا من الأتراب	333
أما الفقير كانت حلوبته	وفق العيال فلم يترك له سبد	366
قضى كل ذي دين فوفى غريمه	وعزة ممطول مغنى غريمها	375
إذا أرملوا زدا عقرت مطية	تجر برجليها السريح المخد ما	380
أبو يعقوب مولانا المرَجَّى	لدفع الخطب إن أرسى ونابا	423
سر فاس لفارس قد بدا في	وضع إدريس بالمنار حسامه	453
رفع الفنار أبو عنان فارس	أعلى المنار وزاد فيه علاما	453
روح من الماء في جسم من الصفر	مولد بلطيف الحسن والنظر	454

فهرس الأعلام

الأعلام **الصفحة**

[أ]

-إبراهيم بن عبد الرحمان التسولي.............................249

-إبراهيم بن أبي الحسن المريني الملقب بأبي سالم................156

-الأثبج..119

-أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن المريني الملقب بأبي العباس......156

-أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي..........................344

-أحمد بن محمد بن عمر أبو العباس الملقب بابن عاشر......... 172

-أحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجي........................333

-إدريس بن أبي عبد الله بن أبي حفص الملقب بأبي دبوس......104

[ح]

-الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي.....................256

[خ]

-الخلط..119

[ذ]

-ذنته..121

[ر]

-رياح..119

[ز]

-زناتة...90

[س]

-سليمان بن أبي عبد الله بن يوسف المريني الملقب بأبي الربيع....199

[ش]

-شعيب بن الحسين الأندلسي الملقب بأبي مدين..............201

-الشريشي أبو عبد الله....................................343

[ص]

-صالح بن يناصرن أبو محمد...............................404

[ع]

-عائشة بنت الجيار..348

-عبد الله بن علي بن محمد الملقب بأبي محمد بن أشقيلولة.......120

-عثمان بن أحمد بن أبي سالم...............................135

-عبد الحق بن أبي سعيد المريني...............................147

- عبد العزيز المكناسي الملزوزي.............................423

-العاصم...119

-علي بن أبي غالب.......................................346

-علي بن عثمان بن يعقوب المريني الملقب بأبي الحسن.........124

-علي بن هيدور التادلي..................................345

[غ]

-غانية...84

[ف]

فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني الملقب بأبي عنان....124

[ل]

-لسان الدين بن الخطيب...............................346

[م]

-محمد بن أحمد بن يعلا الملقب بالشريف..................252
-محمد بن سليمان الجزولي...............................246
-محمد الشريشي الملقب بأبي عبد الله.......................343
-محمد بن علي بن عبد الرزاق الجزولي......................172
-محمد بن علي الفخار الملقب بأبي عبد الله الألبيري..........262
-محمد بن عمر بن الفتوح...............................307
-محمد بن الفقيه بن الأحمر..............................120
-محمد بن القاسم القرشي الأندلسي.......................349
-محمد بن يحيى العزفي..................................343
-محمد بن مرزوق.......................................128
-مصباح بن عبد الله اليالصوتي............................249
- المعافري بن مروان أبو عبد الله............................345

-المفضل بن محمد العذري.................................246

[ي]

-يحيى بن أبي عمرو عبد العزيز الملقب بأبي زكريا الحاجي.....223

-يعقوب المنصور الموحدي...............................329

-يغمراسن بن زياد.....................................85

-يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني..................124

فهرس البلدان والأماكن

البلدان والأماكن **الصفحة**

[أ]

-أبدة.....121

-إشبيلية.....122

-أصيلا.....114

-أفراك.....228

-إفريقية.....70

-الأندلس.....71

-آنفا.....265

[ب]

-بحر الروم.....70

-برقة.....70

-بياسة.....121

-البيمارستان.....322

[ت]

-تازا.....71

-تكريكرة.....75

-تلمسان.....72

-تاهرت...71

[ج]

-جبل درن...71

-جبل زلاغ...74

-جبل طارق...117

-جبل الفتح...128

-الجزيرة الخضراء...117

[ر]

-رندة...116

[ز]

-زاوية القوجة...224

-زاوية المشاورين...224

-زَويلة...71

[س]

-سبتة...114

-سجلماسة...71

-سوس...71

[ش]

-شريش...123

[ط]

-طريف..117

-طنجة..71

[ع]

-العقاب..81

[غ]

-غرناطة..116

[ق]

-قرطبة..122

-قرمونة..123

-القيروان..124

[م]

-المدور..121

-مربلة..117

-المسجد الكبير..200

-المشعلة..97

-مكناسة..101

[ن]

-النكور..74

-نهر أبي رقراق..73

-نهر أم الربيع..73

-نهر إيناوون..73

-نهر ملوية..75

-نهر ملولو..75

-نهر ورغة..74

-نهر بو نصر..74

[هـ]

-هنين..205

[و]

-وجدة..112

-وادي سبو..73

فهرس المصادر

القرآن الكريم برواية الإمام ورش

[أ]

1 -إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لابن زيدان عبد الرحمان السجلماسي تحقيق علي عمر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة الطبعة:1 سنة:2008.

2 -الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب تحقيق يوسف علي الطويل دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2003.

3 -الأحكام السلطانية والولايات الدينية للماوردي تحقيق أحمد مبارك البغدادي مكتبة دار ابن تيمية الكويت الطبعة:1 سنة:1989.

4 -أحكام الأوقاف لأبي بكر الشيباني تحقيق محمد عبد السلام شاهين دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1999.

5 -إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي دار ابن حزم بيروت الطبعة:1 سنة:2005.

6 -أدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي تحقيق محمد كريم راجح دار اقرأ بيروت الطبعة:4 سنة:1985.

7 -الأدب المفرد للبخاري تحقيق فؤاد عبد الباقي المطبعة السلفية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1375.

8 -الأدلة البينة في مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع تحقيق وتقديم الطاهر بن محمد المعموري الدار العربية للكتاب (بدون رقم طبعة) سنة:1984.

9 -أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد بن محمد المقري تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ومحمد تاويت وعبد السلام هراس وسعيد أعراب

مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة القاهرة صندوق مشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية (بدون رقم طبعة) سنة:1939.

10 -الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مراكشي مجهول من القرن 12م نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد دار النشر المغربية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1985.

11 -الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس الناصري تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري دار الكتاب الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1997.

12 -الإتحاف الوجيز تاريخ العدوتين لمحمد بن علي الدكالي تحقيق مصطفى بوشعراء منشورات الخزانة العلمية الصبيحية سلا مطبعة المعارف الجديدة الطبعة:2 سنة:1996.

13 -الأم للشافعي تحقيق رفعت فوزي عبد المطلب دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة الطبعة:1 سنة:2001.

14 -الانتصار لوساطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيها لإبراهيم بن محمد العلائي الشهير بابن دقماق المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

15 -أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1965.

16 -الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع الفاسي دار المنصورة للطباعة والوراقة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1972.

17 -أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات لابن الخطيب تحقيق محمد كمال شبانة مطبعة فضالة المحمدية المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1977.

[ب]

18 -بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني الحنفي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:2 سنة:1986.

19 - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني الحنفي المطبعة الجالية مصر (بدون رقم طبعة) سنة:1910.

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني الحنفي دار الكتاب العربي لبنان الطبعة:2 سنة:1974.

20 -البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1990.

21 -البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم الشريف المليتي المديوني وقف على طبعه واعتنى بمراجعته الشيخ محمد بن أبي شنب طبع في المطبعة الثعالبية الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:1908.

-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم الشريف المليتي المديوني تحقيق عبد القادر بوباية دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2013.

22 -بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من أستاذ ومدرس وطبيب لمؤلف مجهول تحقيق محمد بن تاويت مطبعة تطوان الرباط العدد:9 سنة:1964.

23 -البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد دار الغرب الإسلامي تونس الطبعة:1 سنة:2013.

24 - البيان والتحصيل لأبي الوليد ابن رشد القرطبي تحقيق أحمد الشرقاوي إقبال ومحمد حجي دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:2 سنة:1988.

[ت]

25 -التبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي مراجعة سعيد عبد الفتاح عاشور تحقيق نجوى مصطفى ولبيبة إبراهيم كامل مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2002.

26 -التبيان في تفسير القرآن للطوسي دار إحياء التراث العربي بيروت تحقيق أحمد حبيب قيصر (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

27 -تبين الحقائق شرح الكنز الدقائق لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي بحاشية الشيخ الشلبي مكتبة إمدادية ملتان باكستان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

28 -تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي طبعة جامعة أوكسفورد (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

29 -تحفة الألباب ونخبة الاعجاب لأبي حامد الغرناطي تحقيق إسماعيل العربي دار الآفاق الجديدة المغرب الطبعة:1 سنة:1991.

30 -تخريج الدلالات السمعية للخزاعي تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1985.

31 -ترتيب الأعلام على الأعوام للزركلي تحقيق زهير ظاظا فهرسة وترتيب محمد نزار وتميم وهيثم نزار تميم دار الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر لبنان الطبعة:1 سنة:2006.

32 -ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض تحقيق محمد بن تاويت الطنجي طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية الطبعة:2 سنة:1983.

33 -تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي تحقيق محمد ماضور المكتبة العتيقة تونس الطبعة:2 (بدون تاريخ).

34 -التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات تحقيق أحمد التوفيق مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:2 سنة:1997.

35 -التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا لابن خلدون تحقيق محمد تاويت الطنجي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1951.

36 -تفسير البحر المحيط لأبي حيان تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1993.

37 - تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي. تحقيق جلال الأسيوطي. دار الكتب العلمية بيروت. الطبعة:1. سنة: 2008.

38 -تفسير ابن كثير تحقيق سامي بن محمد سلامة دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض الطبعة:2 سنة:1999.

39 -تفسير الكشاف للزمخشري تحقيق خليل مأمون شيحا دار المعرفة بيروت الطبعة:3 سنة:2009.

40 -التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة لمحمد مرتضى الحسين الزبيدي تحقيق محمد حجازي الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية القاهرة الطبعة:1 (بدون تاريخ).

41 - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لابن مسكويه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1985.

42 -تهذيب الألفاظ لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت تحقيق فخر الدين قباوة مكتبة لبنان الطبعة:1 سنة:1998.

43 -تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن محمد الأزهري تحقيق محمد علي النجار الدار المصرية للتأليف والترجمة مصر (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن محمد الأزهري تحقيق علي حسن الهلالي ومحمد علي النجار المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر الدار المصرية للتأليف القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

44 -التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف بن المناوي (ت952هـ) تحقيق عبد الحميد صالح حمدان عالم الكتب القاهرة الطبعة:1 سنة:1990.

[ج]

45 -جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي المكناسي دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1973.

46 -الجامع لأحكام القرآن لأبي بكر القرطبي تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة:1 سنة:2006.

47 -جامع الأمهات أو مختصر ابن الحاجب لابن الحاجب المالكي تحقيق أبو الفضل بدر العمراني دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2004.

48 -جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر تحقيق أبو الأشبال الزهري دار ابن الجوزي دمام الطبعة:1 سنة:1994.

49 -جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري تحقيق بشار عواد معروف وعصام فارس مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر بيروت الطبعة:1 سنة:1994.

50 -جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب تحقيق ماهر ياسين الفحل دار ابن كثير دمشق الطبعة:1 سنة:2005.

51 -الجامع الكبير للترمذي تحقيق بشار عواد معروف دار الغرب الإسلامي الطبعة:1 سنة:1996.

52 - الجامع لشعب الإيمان للبيهقي تحقيق عبد العالي عبد الحميد حامد مكتبة الراشد الرياض الطبعة:1 سنة:2003.

- الجامع لشعب الإيمان للبيهقي تحقيق مختار أحمد الندوي مكتبة الرشد الطبعة:1 سنة:2003.

53 -جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط الطبعة:2 سنة:1991.

[ح]

54 -الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية مجهول المؤلف تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة دار الرشاد الحديثية الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1979.

55 -حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني دار السعادة مصر (بدون رقم طبعة) سنة:1996.

56 -حواشي تحفة المنهاج بشرح المنهاج لابن حجر مطبعة مصطفى محمد المكتبة التجارية الكبرى مصر (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[خ]

57 -اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار لمحمد بن القاسم السبتي تحقيق عبد الوهاب بن منصور الرباط الطبعة:2 سنة:1983.

58 -الخرشي على مختصر سيدي خليل لمحمد أبو عبد الله الخرشي المطبعة الأميرية الكبرى المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1317هـ.

[د]

59 -درة الحجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي تحقيق محمد الأحمدي أبو النور مكتبة التراث القاهرة الطبعة:1 سنة:1971.

60 -الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم تحقيق حسين مؤنس مطبعة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة:1957.

61 -الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب لابن فرحون تحقيق محمد الأحمدي أبو النور دار التراث للطبع والنشر القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[ذ]

62 -الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع الفاسي دار المنصور للطباعة والوراقة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع الفاسي اعتنى بنشره الشيخ محمد بن أبي شنب طبع بمطبعة جول كربونل في الساحة الدولة الجزائر سنة:1339هـ/1920م.

[ر]

63 -رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة تحقيق محمد عبد المنعم العربان ومصطفى القصاص دار إحياء العلوم بيروت الطبعة:1 سنة:1987.

- رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة تحقيق طلال حرب دار الكتب العلمية بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:2010.

64 -رحلة ابن خلدون لعبد الرحمان بن محمد الحضرمي الشلبي تحقيق محمد بن تاويت دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2004.

65 -رحلة العبدري لأبي عبد الله محمد العبدري تحقيق علي إبراهيم الكردي تقديم شاكر الفحام دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع دمشق الطبعة:1 سنة:1999.

66 -رحلة العياشي الحجية الصغرى لأبي سالم عبد الله بن أبي بكر العياشي تحقيق عبد الله حمادي الإدريسي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2013.

67 -رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار لابن عابدين تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع الرياض طبعة خاصة سنة:2003.

68 -الرسالة التبوكية (زاد المهاجر) لابن القيم الجوزية تحقيق محمد عزيز شمس دار عالم الفوائد طبعة مجمع الفقه الإسلامي جدة (بدون تاريخ).

69 -الرسالة القشيرية للقشيري تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف مطابع مؤسسة دار الشعب القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1989.

70 - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للإمام السهيلي تحقيق عبد الرحمان الوكيل دار الكتب الإسلامية مصر الطبعة:1 سنة:1967.

71 -روضة النسرين في دولة بني مرين لابن الأحمر الطبعة الملكية (بدون رقم طبعة) سنة:1962.

72 -روض الطالبين لأبي زكريا النووي تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع طبعة خاصة سنة:2003.

73 -الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري تحقيق إحسان عباس مكتبة لبنان بيروت الطبعة:2 سنة:1984.

74 -الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون لمحمد بن غازي العثماني تحقيق عبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط الطبعة:2 سنة:1988.

[س]

75 -سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لأبي الفور محمد البغدادي الشهير بالسويد دار إحياء العلوم بيروت (بدوت رقم طبعة ولا تاريخ).

76 -السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية لمحمد بن محمد عبد الله الموقت المراكشي مراجعة وتعليق أحمد متفكر مطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة:3 سنة:2011.

77 -السلسل العذب والمنهل الأحلى لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي تحقيق محمد الفاسي مجلة معهد المخطوطات العربية سنة:1964.

78 -سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لأبي عبد الله الكتاني تحقيق عبد الله الكتاني حمزة بن محمد الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2004.

79 -سنن أبي داود تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل دار الرسالة العالمية سوريا الطبعة:1 سنة:2009.

80 -سنن ابن ماجة تحقيق فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية القاهرة.

81 -السنن الكبرى للبيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:2 سنة:2003.

[ش]

82 -شرح الزركشي على مختصر الخرقي للزركشي تحقيق عبد الله بن عبد الرحمان مكتبة العبيكان الرياض الطبعة:1 سنة:1993.

83 -شرح سنن أبي داود لابن رسلان شهاب الدين الرملي تحقيق خالد الرباط ومجموعة أخرى دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث الفيوم مصر الطبة:1 سنة:2010.

84 -شرح فتح القدير لابن همام الحنفي تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2003.

85 -شرح سنن ابن ماجة للسيوطي تحقيق رائد بن أبي علفة بيت الأفكار الدولية الأردن الطبعة:1 سنة:2007.

[ص]

86 -صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي المطبعة الأميرية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1915.

87 -صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد إسماعيل البخاري تحقيق محمد عبد القادر عطا دار التقوى للتراث القاهرة الطبعة:1 سنة:2001.

88 -صحيح مسلم تحقيق فؤاد عبد الباقي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1991.

[ع]

89 -العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم لابن خلدون تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار دار الفكر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:2000.

90 -العدة شرح العمدة لبهاء الدين بن إبراهيم المقدسي تحقيق أحمد علي بن علي دار الحديث القاهرة (بدون رقم طبعة) سنو:2003.

91 -عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم الجوزية تحقيق إسماعيل بن غازي مرحبا دار عالم الفوائد بمكة المكرمة الطبعة:3 سنة:1438هـ.

92 -عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين بن أحمد العيني دار الفكر بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

93 -عون المعبود على شرح سنن أبي داود لأبي عبد الرحمان شرف الحق العظيم الآبادي الصديقي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة:1 سنة:2005.

[ف]

94 -فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني تحقيق عبد العزيز بن عبد الباز وفؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب المكتبة السلفية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد دار الرسالة العالمية دمشق الطبعة:1 سنة:2013.

95 -فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان القنوجي تحقيق عبد بن إبراهيم الأنصاري المكتبة المصرية بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1992.

96 -فتوح مصر وأخبارها لأبي القاسم عبد الرحمان بن عبد الحكم تحقيق عبد المنعم عامر الذخائر القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

97 -فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب لابن الحاج النميري دراسة وإعداد محمد بن شقرون دار الغرب الإسلامي لبنان الطبعة:1 سنة:1990.

[ق]

98 -القاموس المحيط للفيروز آبادي تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد دار الحديث القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2008.

99 -قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي بن عطية تحقيق محمد إبراهيم الرضواني مكتبة دار التراث القاهرة الطبعة:1 سنة:2001.

100 -قواعد الأحكام في إصلاح الأنام لعز الدين بن عبد السلام تحقيق فريه كمال حماد وعثمان جمعة ضميرية دار القلم دمشق (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

101 -القوانين الفقهية لابن جزي الغرناطي تحقيق ماجد الحمودي دار ابن حزم بيروت الطبعة:1 سنة:2013.

[ك]

102 -كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم المطبعة السلفية القاهرة الطبعة:4 سنة:1969.

103 -كتاب القبس في شرح موطأ مالك لأبي بكر بن العربي تحقيق محمد عبد الله دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1992.

104 -كتاب المجموع شرح المهذب للنووي تكملة الشيرازي تحقيق محمد نجيب المطيعي مكتبة الرشاد جدة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

105 -كشاف القناع عن متن الإقناع للبهوتي عالم الكتب بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1983.

106 -الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل لابن قدامة المقدسي تحقيق محمد فارس ومسعد عبد الحميد السعدي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1994.

107 - الكليات لأبي البقاء الكفوي تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة:2 سنة:1998 الصفحة:616.

[ل]

108 -لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت الطبعة:1 (بدون تاريخ).

[م]

109 -المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لمحمد بن القاسم القيرواني المعروف بابن أبي دينار مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية تونس الطبعة:1 سنة:1286هـ.

110 -المبسوط للسرخسي دار المعرفة بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1989.

111 -مجموع فتاوى ابن تيمية تحقيق عامر الجزار وأنور الباز دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة مصر الطبعة:3 سنة:2005.

112 -المحلى بالآثار لأبي محمد بن حزم الأندلسي تحقيق عبد الغفار سليمان البندالي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2003.

113 -مختصر العلامة خليل للشيخ خليل بن إسحاق تحقيق أحمد نصر دار الفكر الطبعة الأخيرة سنة:1981.

114 -المدخل لابن الحاج العبدري مكتبة دار التراث القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

115 -مدراج السالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم الجوزية تحقيق المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة:1 سنة:2003.

116 - المدونة الكبرى للإمام مالك برواية سحنون عن ابن القاسم دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:1994.

117 -مسالك الممالك للاصطخري المعروف بالكرخي طبع في مدينة ليدن مطبعة بريل سنة:1870.

118 -مسند الإمام أحمد بن حنبل تحقيق محمد صدقي محمد جميل العطار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة:1 سنة:2009.

119 -المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق تحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بوعياد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:1981.

120 - المشترك وضعا والمفترق صقعا لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، عالم الكتب بيروت الطبعة:2 سنة:1986.

121 - المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي. تحقيق صلاح الدين الصنهاجي. المكتبة العصرية. صيدا لبنان. الطبعة: 1. سنة: 2006.

-المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي مطبعة الاستقامة القاهرة الطبعة:1 سنة:1949.

122 -معجم البلدان لشهاب الدين البغدادي تحقيق فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية بيروت لبنان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

123 -معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الفكر (بدون رقم طبعة) سنة:1979.

124 -معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب تحقيق محمد كمال شبانة مكتبة الثقافة الدينية القاهرة طبعة:2002.

125 -المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط ودار الغرب بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1981.

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي دار الكتب العلمية بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

126 -المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري دار الكتاب الإسلامي القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

127 -المغني لابن قدامة المقدسي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وعبد الله التركي دار عالم الكتب الرياض الطبعة:3 سنة:1997.

128 -مغني المحتاج إلى معرفة معاني الألفاظ المنهاج لابن الخطيب الشربيني تحقيق محمد خليل دار المعرفة بيروت الطبعة:1 سنة:1997.

129 -مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة لابن القيم الجوزية تحقيق علي حسن عبد لحميد الحلبي دار ابن عفان الطبعة:1 سنة:1996.

130 -المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني مكتبة نزار مصطفى البار (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

131 -مقدمة ابن خلدون تحقيق عبد الله محمد الدرويش دار يعرب دمشق الطبعة:1 سنة:2004.

132 -مقال مقنعة السائل عن المرض الهائل لابن الخطيب تحقيق حياة قارة دار الأمان الرباط الطبعة:1 سنة:2015.

133 - المناقب المرزوقية لأبي عبد الله محمد بن مرزوق تحقيق سلوى الزاهري مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2008.

134 -المنهاج في شرح صحيح مسلم للإمام النووي مؤسسة قرطبة الطبعة:1 سنة:1994.

135 -المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح لأحمد بن إبراهيم الماجري تحقيق عبد السلام السعيدي منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية الطبعة:1 سنة:2013

136 -المهذب في فقه الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي تحقيق محمد الزحيلي دار القلم دمشق ودار الشامية بيروت الطبعة:1 سنة:1996.

137 -مواهب الجليل لشرح مختصر خليل لأبي عبد الله الحطاب تحقيق زكريا كميرات دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ودار الكتب العلمية بيروت طبعة خاصة سنة:2003.

- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل لأبي عبد الله الحطاب تحقيق محمد يحيى بن محمد اليعقوبي الشنقيطي دار الرضوان نواكشوط الطبعة:1 سنة:2010.

[ن]

138 -نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير الإفراني تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1998.

139 -نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي مكتبة الثقافة الدينية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2002.

140 -نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك لأبي فارس الملزوزي المطبعة الملكية الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1963.

141 -نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1968.

142 -نفاضة الجراب في علالة الاغتراب للسان الدين بن الخطيب نشر وتعليق أحمد مختار العبادي دار النشر المغربية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

143 -نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2004 الجزء:30 31- الصفحة:9.

144 -نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس القلقشندي تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب اللبناني بيروت الطبعة:2 سنة:1980.

145 -نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لابن شهاب الدين الرملي تحقيق علي بن علي الشبراملسي أحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:3 ستة:2003.

146 -النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى لأبي عيسى الوزاني تحقيق محمد سيد عثمان دار الكتب العلمية بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

147 -نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكي عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة دار الكاتب طرابلس الطبعة:2 سنة:2000.

[و]

148 -الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم الجوزية تحقيق عبد الرحمان بن حسن بن قايد دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

149 -وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:2 سنة:1983.

150 -وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1972.

فهرس المراجع

[أ]

1 -الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية للمكي الناصري طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1992.

2 -الأحباس ودورها في تنمية المؤسسات التعليمية بالمغرب المريني والسعدي القرنان الثامن والتاسع الهجري لمحمد الشريف جامعة عبد الملك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان المغرب.

3 -الإحسان الإلزامي في الإسلام وتطبيقاته في المغرب لمحمد الحبيب التجكاني طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1990.

4 -أحكام المعسر في الفقه الإسلامي لعبد الله حسن حميد الحذيفي مكتبة نزار مطبعة الباز مكة المكرمة الطبعة:2 سنة:2005.

5 -أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني للحسن الشاهدي مطابع عكاظ الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1990.

6 -الأزهر جامعا وجامعة لعبد العزيز الشناوي مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة الطبعة:1سنة:1983.

7 - أساسيات العمل في الخدمة الاجتماعية لسماح سالم ونجلاء صالح عالم الكتب الحديث، الأردن الطبعة:1 سنة: 2010.

8 -آسفي وما إليه قديما وحديثا للكانوني حقوق الطبعة محفوظة الطبعة:1 (بدون تاريخ).

9 -أصول العمل الخيري في الإسلام ليوسف القرضاوي دار الشرق القاهرة الطبعة:2 سنة:2007.

10 -إفريقيا لمارمول كربخال ترجمة محمد حجي دار النشر المعرفة (بدون رقم طبعة) سنة:1989.

11 -الإمارة الغورية في المشرق لعبد الستار درويش دار عالم للثقافة والنشر والتوزيع (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

12 -الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة لمحمد عبده حتامله مطابع الدستور التجارية الأردن (بدون رقم طبعة) سنة:2000

13 -الأوقاف والحيات الاجتماعية في مصر لمحمد محمد أمين دار الكتب والوثائق القومية (بدون رقم طبعة) سنة:2014.

14 -إيران والعراق في العصر السلجوقي لعبد المنعم محمد حسين دار الكتب اللبنانية بيروت الطبعة:1 سنة:1989.

[ب]

15 -البحث العلمي في التراث الإسلامي معوقات شروط أولويات أسس البحث لعبد العزيز فارح مطبعة أنفدو برانت فاس الطبعة:1 سنة:2008.

16 -باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان لمحمد بن رمضان شاوش ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:2011.

[ت]

17 -تحفة اليتيم واللقيط لمحمود أحمد أبو مسلم مكتبة الألوكة (بدون رقم طبعة) سنة:2015.

18 -التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية لمحمد منير مرسي دار المعارف طبعة منقحة سنة:1987.

19 -التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها لأحمد شلبي طبعة جامعة القاهرة الطبعة:6 سنة:1978.

20 - التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني دار المعارف مصر (بدون رقم طبعة) سنة:1968.

21 -تراث الإسلام لحسن نافعة وكليفورد بوزورث ترجمة حسن مؤنس إحسان صدقي العمد مراجعة فؤاد زكريا عالم المعرفة للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والكويت عدد:12 سنة:1978.

22 -تاريخ إفريقيا الشمالية لشارل أندري جوليان ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة الدار التونسية تونس (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

23 -تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي لمصطفى بنعلة منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب دار أبي رقراق للطباعة والنشر الطبعة:1 سنة:2007.

24 -تاريخ البيمارستانات في الإسلام لأحمد عيسى مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2012.

25 -تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط للحسين أسكان منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية مكتبة المعارف الجديدة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:2004.

26 -تاريخ التعليم في الأندلس لمحمد عبد الحميد عيسى دار الفكر العربي الطبعة:1 سنة:1982.

27 -تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:1 سنة:1998.

28 -تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر سلسلة المشاريع الوطنية للبحث رئيس المشروع صالح بن قربة الأعضاء: سامية بوعمران وخالف محمد نجيب منشورات المركز الوطني والبحث في الحركة الوطنية وثورة الأول من نونبر 1954 الجزائر سنة:2007.

29 -تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لمحمد عبد الرحيم غنيمة مطبعة مولاي الحسن تطوان (بدون رقم طبعة) سنة:1953.

30 - تاريخ خزائن الكتب بالمغرب لأحمد شوقي بنبين ترجمة مصطفى طوبي المطبعة والوراقة الوطنية مراكش الطبعة:1 سنة:2003.

31 -تاريخ رباط الفتح لعبد الله السوسي مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر سلسلة التاريخ 9 الرباط سنة:1979.

32 -تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى لعثمان إسماعيل مطبعة المعارف الجديدة الرباط الطبعة:1 سنة:1993.

33 -تاريخ الفكر الأندلسي لآنجل جنثالث بالنثيا ترجمة حسين مؤنس مكتبة الثقافة الدينية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

34 -تاريخ مدرسة ابن يوسف بمراكش لرشيد العقاقي وسمير آيت أومغار مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال مراكش نشر بدعم من وزارة الثقافة.

35 -تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس لعبد العزيز سالم مؤسسة شبانة الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

36 -تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني لمحمد عيسى الحريري دار القلم للنشر والتوزيع الكويت الطبعة:2 سنة:1987.

37 -تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب لعبد الحي الكتاني تحقيق أحمد شوقي وعبد القادر سعود المكتبة الحسنية الرباط الطبعة:2 سنة:2005.

38 -التصوف في مصر والمغرب لمنال عبد المنعم جاد الله منشأة المعارف الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1997.

39 -التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر الهجري لعبد اللطيف الشاذلي مطابع سلا مدينة سلا (بدون رقم طبعة) سنة:1989.

40 -تطور المآذن في الجزائر لعبد الكريم عزوف مكتبة زهراء الشرق مصر الطبعة:1 سنة:2006.

41 -تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر تونس (بدون رقم طبعة) سنة:1984.

42 -تفسير الشعراوي لمحمد متولي الشعراوي مطابع دار أخبار اليوم راجعه أحمد عمر هاشم (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

43 -التقرب إلى الله تعالى فضله طريقه مراتبه لعبد الله سراج الدين مكتبة دار الفلاح حلب الطبعة:2 سنة:1997.

44 - التكافل الاجتماعي في الإسلام لأحمد عبده عوض دار ألفا للنشر والتوزيع، الطبعة:1سنة: 2008.

45 - التكافل الاجتماعي في الإسلام لعبد العال أحمد عبد العال الشركة العربية للنشر والتوزيع القاهرة (بون رقم طبعة) سنة:1997.

46 -التكافل الاجتماعي في الإسلام لمحمد أبي زهرة طبعة جديدة دار الفكر العربي القاهرة سنة:1991.

47 -التكافل الاجتماعي في ضوء الشريعة الإسلامية ليوسف القرضاوي مكتبة وهبة القاهرة الطبعة:1 سنة:2009.

48 -تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ليحيى بوعزيز مكتبة عاصمة الثقافة العربية الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:2006.

49 - تلمسان في العهد الزياني لعبد العزيز فيلالي موفم للنشر والتوزيع الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:2002.

50 -تنظيم الإسلام للمجتمع لمحمد أبو زهرة دار الفكر العربي القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

51 -تنمية الموارد البشرية والمالية في المنظمات الخيرية لسليمان بن علي العلي تقديم يوسف القرضاوي مؤسسة أمانة تركيا الطبعة:1 سنة:1996.

52 -التيارات الفكرية في العهد المريني لمحمد المنوني فصل من مجلة الثقافة العربية العدد:5 مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية فاس (بدون رقم طبعة) سنة:1972.

[ج]

53 -جامع القرويين لعبد الهادي التازي دار نشر المعرفة الرباط الطبعة:1 سنة:1972.

54 -جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي لكمال سيد أبو المصطفى مركز الإسكندرية للكتاب القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:1996.

[ح]

55 -الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني لحميد تيتاو مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:2009.

56 -الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (بدون رقم طبعة) سلسلة التاريخ:2 سنة:1976.

57 -الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيد دار الكتاب العربي بيروت الطبعة:5 (بدون تاريخ).

58 -الحضارة الإسلامية في المغرب لحسن السايح دار الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء الطبعة:2 سنة:1986.

59 -الحضارة العربية الإسلامية في المغرب (العصر المريني) لمزاحم علاوي الشاهري مركز الكتاب الأكاديمي الموصل (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

60 -حضارة العرب لغوستان لوبون ترجمة عادل زعيتر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2012.

61 -حفائر شالة الإسلامية لإسماعيل عثمان عثمان دار الثقافة بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1978.

62 -حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والإسلام لخالد محمد الشنيبر البيان مركز البحوث والدراسات الرياض الطبعة:1 سنة:1435هـ.

63 -حقوق الأيتام واللقطاء في الإسلام لعبد الله بن ناصر السدحان مركز النشر والإعلام السعودية (بدون رقم طبعة) سنة:2009.

64 -الحالة الاجتماعية بفاس في القرن 12هـ من خلال الحوالة الإسماعيلية لعبد الحق بن المجذوب الحسني دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:2006.

65 -حياة الوزان الفاسي وآثاره لمحمد المهدي الحجوي المطبعة الاقتصادية الرباط (بدون قم طبعة) سنة:1935.

[خ]

66 -الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية لمحمد ضياء الدين الريس دار المعارف مصر الطبعة:3 سنة:1969.

67 -خزائن الكتب العربية في الخافقين لإلفيكنت فيليب دي طوازي مؤسسة دار الحكمة اللبنانية لبنان (بدون رقم طبعة) سنة:1947.

68 -الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية لمحمد مفتاح مكتبة الرشاد المغرب (بدون رقم طبعة) سنة:1997.

69 -الخلق الحسن في ضوء الكتاب والسنة للقحطاني مؤسسة الجريسي للتوزيع الرياض (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[د]

70 -دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي لسوادي عبّد محمد وصالح عمار الحاج المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة الطبعة:1 سنة:2004.

71 -دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي لعز الدين عمر أحمد موسى دار الشروق بيروت الطبعة:1 سنة:1983.

72 - دراسات في تاريخ المغرب العربي لحسن علي مكتبة الشباب (بدون رقم طبعة) سنة:1978.

73 - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس لأحمد مختار عبادي مؤسسة جامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

74 -دور الأوقاف في النهضة العلمية بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين 7و9هـ 13-و15م لزوالي أمال جامعة مولاي الطاهر كلية العلوم الإنسانية سعيدة.

75 -دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ليوسف القرضاوي مكتبة وهبة القاهرة الطبعة:1 سنة:1995.

76 -دور نظام الوقف الإسلامي في التنمية الاقتصادية المعاصرة لأحمد محمد عبد العظيم الجمل دار السلام للطباعة والنشر القاهرة الطبعة:1 سنة:2007.

77 -دور الوقف في التنمية لمجمع الفقه الإسلامي الهند دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2007.

78 -دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية لسعيد بورقبة طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية مطبعة فضالة المحمدية (بدون رقم طبعة) سنة:1996.

79 -دولة الإسلام في الأندلس العصر الثالث عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الثاني عصر الموحدين لمحمد عبد الله عنان مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة:2 سنة:1990.

80 -الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها لعلي محمد الصلابي دار المعرفة بيروت (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

81 -دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي دار البيارق عمان الأردن (بدون رقم طبعة) سنة:1998.

[ذ]

82 - ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة لعبد الله كنون تقديم الدكتور محمد بن عزوز دار ابن حزم بيروت الطبعة:1 سنة:2010.

[ر]

83 -رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية لعبد الهادي التازي مراجعة عباس صالح شكندي مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي مكة المكرمة (بدون رقم طبعة) سنة:2005.

84 -الرحيق المختوم لعبد الرحمان المباركفوري دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة الطبعة:21 سنة:2010.

85 -رسائل موحدية تحقيق ودراسة أحمد عزاوي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة سلسلة نصوص ووثائق رقم:2 الطبعة:1 سنة:2001.

86 -الرعاية الاجتماعية في الإسلام لمحمد بن أحمد صالح مكتبة الإسكندرية مصر الطبعة:1 سنة:1999.

87 -روائع الوقف في الحضارة الإسلامية لراغب السرجاني نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع مصر الطبعة:1 سنة:2010.

[س]

88 -سبتة الإسلامية دراسة في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين) لمحمد الشريف منشورات جمعية تطاون أسمير الرباط الطبعة:2 سنة:2006.

89 -السجن والسجناء نماذج من تاريخ المغرب الوسيط لمصطفى نشاط طبعة المجلس الوطني لحقوق الإنسان (بدون رقم طبعة) سنة:2012.

90 -سقوط الدولة الموحدية دراسة تحليلية في الأسباب والتداعيات للصديقي عبد الجبار كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان سنة:2014.

91 -سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ومقارنتها بالأنظمة الحديثة لعبد الله جمعان سعيد مكتبة المدارس الدوحة قطر الطبعة:1 سنة:1983.

[ش]

92 -شعر العميان الواقع والخيال المعاني والصور الفنية لنادر مصاروه دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2008.

[ص]

93 - صفحات من التاريخ الإسلامي دولة الموحدين. لعلي محمد الصلابي. دار البيارق. عمان. سنة: 1998.

[ع]

94 -العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي مكتبة وهبة القاهرة الطبعة:24 سنة:2014.

95 -عبير الزهور في تاريخ الدار البيضاء وما أضيف إليها من أخبار آنفا والشاوية عبر العصور لهاشم المعروفي مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1987.

96 -العرب في العصر الجاهلي لديزيره سقال دار الصداقة العربية بيروت الطبعة:1 سنة:1995.

97 -العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان لبوداوية مبخوت كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم التاريخ جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان رسالة لنيل شهادة الدكتوراه سنة:2006.

98 -عمارة المكتبات في الإسلام لعبد الوهاب مصطفى ظاهر مركز دراسة العمارة الإسلامية موسوعة

موسوعة العمارة في الإسلام منشور على شبكة الألوكة.

99 - العمل الاجتماعي في الإسلام لمصطفى بنحمزة مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، سلسلة دفاتر المركز (3) الطبعة:1 (بدون تاريخ).

100 -العمل الاجتماعي والخيري التنظيم -التحديات -المواجهة. لعلي بن إبراهيم نملة بيسان للنشر والتوزيع بيروت لبنان الطبعة:2 سنة:2014.

[ف]

101 -الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس لعبد الواحد دنون دار الكتب الوطنية ليبيا الطبعة:1 سنة:2004.

102 -فتح العرب للمغرب لحسين مؤنس مكتبة الثقافة الدينية (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

103 -الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم لألفرد بِلْ ترجمة عبد الرحمان بدوي دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ليبيا (بدون رقم طبعة) سنة:1969.

- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم لألفرد بِلْ ترجمة عبد الرحمان بدوي دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة:3 سنة:1987.

104 -فاس في عصر بني مرين لروجيه لوتورنو ترجمة الدكتورة نقولا زياد مكتبة لبنان ومؤسسة غرنكلين للطباعة والنشر بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1967.

105 -فاس قبل الحماية لروجيه لوتورنو ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1992.

106 -فضل كفالة اليتيم لعبد الله بن ناصر السدحان مركز النشر والإعلام السعودية (بدون رقم طبعة) سنة:1431هـ.

107 -فقه الزكاة ليوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة:2 سنة:1973.

108 -فقه الزكاة على ضوء الكتاب والسنة لمحفوظ إبراهيم فرج الدر المصرية اللبنانية الطبعة:1 سنة:2009.

109 -فقه السنة لسيد سابق الفتح للإعلام العربي القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

110 -فقه الفقراء والمساكين في الكتاب والسنة لعبد السلام الخرشي مؤسسة الرسالة دار المؤيد بيروت الطبعة:1 سنة:2002.

111 -الفن الإسلامي لجورج مارسييه ترجمة عبلة عبد الرزاق وعاطف عبد السلام المركز القومي للترجمة القاهرة العدد:2648 الطبعة:1 سنة:2016.

112 -فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريط المطبعة الجديدة فاس الطبعة:1 سنة:1346هـ.

113 -في التاريخ العباسي والأندلسي لأحمد مختار العبادي دار النهضة العربية بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1971.

114 -في عالم المكفوفين لأحمد الشرباصي مطبعة النهضة مصر بالفجالة القاهرة الطبعة:1 سنة:1956.

[ق]

115 -القرض الحسن في الفقه الإسلامي لمحمد نور الدين أردنية أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفقه والتشريع كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية نابلس فلسطين سنة:2010.

116 -قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصر الوسيط لحسن أحمد محمود دار الفكر العربي القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[ك]

117 - الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية لرشيد بورويبة ترجمة إبراهيم شيوح الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (بدون رقم طبعة) سنة:1979.

118 -كتاب الوقف لعبد الجليل عبد الرحمان عشوب دار الآفاق العربية القاهرة الطبعة:1 سنة:2000.

[م]

119 -مؤسسات الزكاة وتقسيم دورها الاقتصادي دراسة تطبيقية لمحمد عبد الحميد محمد فرحان مؤسسة الحامد (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

120 -مؤسسة الزوايا بالمغرب لمحمد ضريف منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي (بدون رقم طبعة) سنة:1992.

121 -المجتمع الإسلامي لمحمد أمين المصري مكتبة دار الأرقم الكويت الطبعة:1 سنة:1980.

122 -المجتمع لروبيرت ماكفير وشارلز ييج ترجمة علي أحمد عيسى مكتبة النهضة المصرية القاهرة (بدون رقم طبعة) سنة:2000.

123 -مجتمع المؤمنين من هدي القرآن لعبد الكريم غلاب الطبعة:1 سنة:1988.

124 -المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط لمزدور سمية جامعة منتوري قسنطينة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجزائر سنة:2009.

125 -مجمل تاريخ المغرب لعبد الله العروي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة:2 سنة:2000.

126 -المحكم في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب لمحمود عبد العزيز الزعبي أمانة عمان الكبرى عمان (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

127 -مدارس السلطان أبي الحسن مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا دراسة أثرية وفنية للعربي لقريز جامعة أبي بكر بلقايد كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية تلمسان سنة:2011.

128 -مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي لسحر سيد عبد العزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1996.

129 -مدينة سلا في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري لحمدي عبد المنعم محمد حسين مؤسسة شباب الجامعة القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

130 -مدينة المنصورة المرينية بتلمسان لعبد العزيز محمود لعرج زهراء الشرف القاهرة الطبعة:1 سنة:2006.

131 المدينة المنورة معالم وحضارة، محمد السيد الوكيل، دار القلم، دمشق، الطبعة:1 سنة:1996.

132 -مذكرات من التراث المغربي مطبعة الكتابة الفوتوغرافية الرباط سنة الطبع فبراير 1985.

133 -مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط لمحمد القبلي دار توبقال للنشر الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1987.

134 -المساجد لحسين مؤنس عالم المعرفة العدد:37 إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت يناير 1981.

135 -مساجد وجدة العتيقة لبدر المقري مطبوعات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الأول وجدة سنة:2011.

136 -مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ليوسف القرضاوي مؤسسة الرسالة طبعة جديدة سنة:1985.

137 -مشاهدات لسان الدين الخطيب في بلاد المغرب والأندلس لأحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (بدون رقم طبعة) سنة:1983.

138 -المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث لمحمد المنوني منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس الرباط (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

139 -المطرب بمشاهير أولياء المغرب لعبد الله التليدي دار الأمان الرباط الطبعة:4 سنة:2004.

140 -ماضي القرويين ومستقبلها لمحمد عبد الحي الكتاني ضبط وتعليق عبد المجيد بوعاري دار الكتب العلمية بيروت الطبعة:1 سنة:2006.

141 -مظاهر الثقافة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله دار سلمى الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:1957 القسم الأول.

142 - مظاهر الثقافة المغربية دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني لمحمد بن شقرون دار الثقافة الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1985.

143 -مظاهر الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله تقديم علال الفاسي الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1957.

144 -معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا دار مكتبة الحياة بيروت (بدون رقم طبعة) سنة:1985.

145 -المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية مكتبة الشروق الدولية مصر الطبعة:4 سنة:2004.

146 -معطيات الحضارة المغربية لعبد العزيز بن عبد الله دار الكتب العربية الرباط الطبعة:3 سنة:1963.

147 -معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس دار الرشاد القاهرة الطبعة:5 سنة:2000.

148 -معالم من تاريخ وجدة لقدور الورطاسي مطبعة الرسالة الرباط (بدون رقم طبعة) سنة:1972.

149 -المغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات دار الرشاد الحديثية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:2000.

150 -المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني لعلي حامد الماحي دار النشر المغربية الدار البيضاء (بدون رقم طبعة) سنة:1986.

151 -المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي طبعة جامعة بغداد الطبعة:2 سنة:1993.

152 -مفهوم العمل وأحكامه العامة في الإسلام لصادق مهدي سعيد مؤسسة الثقافة العمالية بغداد (بدون رقم طبعة) سنة.1983.

153 -مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور تحقيق ودراسة محمد الحبيب بن خوجة طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر سنة:2004.

154 -مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لمحمد بوجندار منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط مطبعة الأمنية الرباط الطبعة:1 سنة:2012.

155 -من حديث الركب المغربي لمحمد المنوني مطبعة المخزن تطوان (بدون رقم طبعة) سنة:1953.

156 -من روائع حضارتنا لمصطفى السباعي دار الوراقة للنشر والتوزيع بيروت الطبعة:1 سنة:1999.

157 -موجز تاريخ سلا لكينيت براون ترجمة محمد جبيدة وأناس لعلو مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2001.

158 -ميلاد مجتمع لمالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[ن]

159 -النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون دار الكتاب الطبعة:2 سنة:1960.

160 -النظم الإسلامية لحسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن مكتبة النهضة المصرية القاهرة (بدون رقم طبعة ولا تاريخ).

[و]

161 -الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة:1 سنة:2005.

162 -ورقات عن حضارة المرينيين لمحمد المنوني مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:3 سنة:2000.

163 -الوافي في الأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن تاويت دار الثقافة الدار البيضاء الطبعة:3 سنة:1983.

164 -الوقف الإسلامي بين النظرية والتطبيق لعكرمة سعيد صبري دار النفائس الأردن الطبعة:2 سنة:2011.

165 -الوقف الإسلامي ما بين القرنين 7 9-هـ/13 15-م ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعبيد بوداود مكتبة الرشاد للطباعة والنشر الجزائر الطبعة:1 سنة:2001.

166 -الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده لأحمد الريسوني دار الكلمة للنشر والتوزيع القاهرة الطبعة:1 سنة:2014.

167 -الوقف وبنية المكتبة العربية ليحيى محمود ساعاتي مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض الطبعة:2 سنة:1996.

168 -الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي لسليم هاني منصور مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت الطبعة:1 سنة:2004.

169 -الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع لمحمد بن أحمد بن صالح مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض الطبعة:1 سنة:2001.

170 - وقفات في تاريخ المغرب دراسة مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب منشورات كلية الآداب بالرباط مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة:1 سنة:2001

[ي]

171 -اليتيم في القرآن والسنة لعز الدين سيد علي بحر العلوم دار الزهراء للطباعة والنشر بيروت الطبعة:2 (بدون تاريخ).

172 -اليهود في بلاد المغرب الأقصى لعطا علي محمد شحاته ريه دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق الطبعة:1 سنة:1999.

فهرس المجلات

1 -المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية بحث بعنوان: حقوق الحيوان وضماناتها في الفقه الإسلامي لأحمد القرالة المجلد الخامس العدد:1 سنة:1413هـ.

2 -مجلة التراث العلمي العربي بحث بعنوان: رعاية المسنين في التراث الإسلامي لأحلام محسن حسين العدد:38 سنة:2018.

3 -مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإسلامية) بحث بعنوان: أحكام رد القرض في الفقه الإسلامي لسامي محمد أبو عرجة ومازن مصباح المجلد:13 العدد:2 سنة يونيو2005.

4 -مجلة جامعة تكريت كلية التربية قسم التاريخ بحث بعنوان: الثقافة والتعليم في العصر المريني لعدنان محمود عبد الغني الشاوي عدد:8 نونبر 2015.

5 -مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات بحث بعنوان: المدرسة اليوسفية في مدينة غرناطة لشامخ زكريا علاونة العدد:42 سنة:2017.

6 - مجلة دعوة الحق مقال لإبراهيم حركات بعنوان: الحياة الدينية في عهد بني مرين. العدد الثاني السنة السابعة (جمادى الثاني 1383هـ - نونبر1963م)

7 -مجلة دعوة الحق بحث بعنوان: الفكر المغربي في عصر بني مرين لحسن السايح العددان:8 9- السنة السادسة ذي الحجة محرم 1383هـ/مايو يونيو1963.

8 - مجلة دعوة الحق مقال بعنوان: الحوالات الحبسية مصدر أساسي للتعرف على التاريخ الحضاري للمغرب عمر الجيدي العدد:242 ربيع الأول نونبر 1984.موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

9 -المجلة الزيتونية بحث بعنوان:الإسعاف الخيري لمحمد الشاذلي بن القاضي محرم صفر1361هـ/يناير -فبراير1942م الجزئان 1 2- المجلد:5.

10 -مجلة القرويين الصادرة عن عمادة جامعة القرويين بحث بعنوان: دور المكتبة الإسلامية مثال خزانة القرويين بفاس لمحمد بنشريفة العدد:3 سنة:1991م/1412ه.

11 -مجلة كلية الآداب جامعة مصراته بحث بعنوان: رحلة الحج وأثرها في العلاقات بين الدولتين المرينية والمملوكية من القرن 7 9-ه/13 15-م لفتيحة محمد الوداني العدد:6.

12 -مجلة كلية التربية للبنات بحث بعنوان: المؤرخ الوزير ابن الخطيب شيخ علماء غرناطة لمحمد البشير العامري وزينة داود سالم المجلد:27 العدد:27 سنة:2016.

13 -مجلة كلية الدراسات الإسلامية بحث بعنوان: حروب المصالح من منظور السياسة الشرعية الأسر والأسرى نموذجا لقاسم محمد عبد الرحيم الصعامنة العدد:36.

14 -مجلة مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة بحث بعنوان: ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية لأحمد شوقي بنين.

15 -مجلة منار الإسلام بحث بعنوان: العمل الخيري الإسلامي لكمال عبد المنعم محمد العدد:384 سنة:32 ذي الحجة 1428ه/دجنبر2006م.

16 -مجلة المناهل بحث بعنوان: تطور الفلاحة بمكناس من عصر المرابطين إلى أوائل العصر المريني لإبراهيم القادري البوتشيش إصدار وزارة الشؤون والثقافة الرباط المغرب العدد:38 سنة:15 دجنبر1985.

فهرس الندوات

1 -مداخلة بعنوان: الأحباس العلمية عند المغاربة والأندلسيين لحسن الوراكلي مؤتمر: أثر الوقف الإسلامي في النهضة العلمية بجامعة الشارقة يومي 9 10- مايو 2010

2 -مداخلة بعنوان: المدارس الطبية في المغرب والأندلس لعبد اللطيف حطاف ندوة المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو بتاريخ 13 15- نونبر 2006

3 -مداخلة بعنوان: النمو الحضري بمدينة مراكش في العهد المريني والسعدي للأستاذ أحمد هوزلي. أشغال الملتقى الثاني مراكش خلال العصر المريني والسعدي مطبعة إدو يسعدن العدد:8 سنة:1990.

4 -مداخلة بعنوان: الوقف التعليمي وأثره في دعم التعليم الشرعي وتطويره لعبد الكريم بناني مؤتمر كلية الشريعة الدولي فاس بتاريخ 20 شتنبر 2017.

5 - مداخلة بعنوان: الوقف على المسجد في المغرب والأندلس وأثره في التنمية والتوزيع لمحمد أبو أجفان، دراسات في الاقتصاد الإسلامي: بحوث مختارة من المؤتمر الدولي الثاني للاقتصاد الإسلامي، جامعة الملك عبد العزيز معهد الاقتصاد الإسلامي تاريخ النشر:31 دجنبر 1985.

فهرس المواقع الإلكترونية

1 -مقال بعنوان: إطلالة على ذاكرة مكناس المدرسة البوعنانية لعيسى الكامحي بتاريخ 29 يوليوز 2012. موقع: www.meknespress.com

2 -مقال بعنوان: أقدم جامعة في التاريخ مبحث: مكتبة القرويين وأهميتها العلمية لأحمد الظرافي صحيفة دنيا الوطن الإلكترونية فلسطين بتاريخ 25 يونيو2008. موقع:

http://pulpitalwatanvoice.com

3 -مقال بعنوان: تازة المدرسة المرينية معلمة تاريخية تندب حضها بسبب الإهمال بتاريخ 27 مايو 2014 موقع أجيال www.ajialpress.com

4 - مقال بعنوان: تاريخ البيمارستانات في المغرب للدكتور بشير بنجلون العدد:3 مجلة الجمعية المغربية للتواصل الصحي موقع www.tawasoul.ma

5 - مقال بعنوان: تعرف على المارستان المغربي الذي علم الغرب أصول الطب النفسي لسكينة توزاني على موقع نون بريس www.nonpress.com

6 - مقال بعنوان: ثريا المسجد الأعظم بتازة العليا إبهار السلاطين ونزهة المصلين لمحمد الراجي بتاريخ 23 مارس 2018 موقع www.hespress.com

7 - مقال بعنوان: جوانب من تاريخ المؤسسات الاجتماعية والخيرية بالحضرة المرينية لعزيز فردان بتاريخ 19 مايو 2018 موقع www.albahboha.com

8 - مقال بعنوان: الحياة الدينية في عهد بني مرين مجلة دعوة الحق العدد:64 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

9 - مقال بعنوان: خزانة الجامع الكبير بمدينة فاس لمحمد العرائش مجلة دعوة الحق العدد:234 سنة 1989 موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

10 - مقال بعنوان: دور الوقف في دعم الحركة العلمية بمدينة فاس خلال العصر المريني لموسى الحاج عوني مجلة دعوة الحق عدد:404 صفر 1413هـ/يناير 2013م موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب www.habous.gov.ma

11 -مقال بعنوان: الرعاية الاجتماعية في الدولة الرومانية لرفاح العياصرة بتاريخ 16 أكتوبر 2019 موقع العربي. www.e3arabi.com

12 -مقال بعنوان: الزوايا والمجتمع من خلال أدوارها ووظائفها لبوشتى عريبة بتاريخ 23 أبريل 2015 موقع: www.alwan.org

13 -مقال بعنوان: طريق المعاناة قصص تاريخية عن مشاق رحلة الحج قديما لأحمد إبراهيم بتاريخ:2018/08/17 (بتصرف) موقع ميدان www.midan.aljazeera.net

14 - مقال بعنوان: عندما نافست الزوايا السلاطين في ملء البطون لاستقطاب العقول لمحمد شقير بتاريخ:13دجنبر 2017 موقع هسبريس www.hespress.com

15 - مقال بعنوان: المارستان القديم بسلا موقع: يكيبيديا الموسوعة الحرة ar.wikipedia.org

المحتويات

إهداء 5
مقدمة 7
فصل تمهيدي: فقه العمل الاجتماعي في الإسلام........ 19
المبحث الأول: مفهوم العمل الاجتماعي 19
المطلب الأول: مفهوم العمل........ 19
المطلب الثاني: مفهوم الاجتماعي 21
المطلب الثالث: التعريف الاصطلاحي للعمل الاجتماعي 23
المبحث الثاني: العمل الاجتماعي في ثقافة المجتمعات قبل الإسلام وفي ظل الإسلام 25
المطلب الأول: العمل الاجتماعي في ثقافة المجتمعات قبل الإسلام........ 25
المطلب الثاني: العمل الاجتماعي في صدر الإسلام 33
المبحث الثالث: مشروعية العمل الاجتماعي ومقاصده وشروطه 38
المطلب الأول: مشروعية العمل الاجتماعي........ 38
المطلب الثاني: مقاصد العمل الاجتماعي........ 48
المطلب الثالث: شروط العمل الاجتماعي........ 56
الباب الأول:
المغرب الأقصى ودولة بني مرين
الفصل الأول: الموقع الجغرافي وسكان بلاد المغرب 70
المبحث الأول: الموقع الجغرافي لبلاد المغرب........ 70
المطلب الأول: التقسيمات الجغرافية لمدن المغرب الأقصى........ 72
المطلب الثاني: المميزات الطبيعية لأقاليم المغرب الأقصى 76
المبحث الثاني: سكان بلاد المغرب........ 78
الفصل الثاني: بداية دولة بني مرين 81
المبحث الأول: نظرات عامة لأوضاع الدولة الموحدية قبيل قيام الدولة المرينية 81
المطلب الأول: الصراع على العرش........ 82
المطلب الثاني: حركات التمرد والنزاعات القبائلية 83
المطلب الثالث: التعرض للكوارث والأوبئة........ 86
المطلب الرابع: الهزائم المتتالية على يد الممالك النصرانية بالأندلس........ 86
المبحث الثاني: قيام دولة بني مرين........ 89
المطلب الأول: نسب بني مرين........ 90
المطلب الثاني: موطن بني مرين 93

المطلب الثالث: عوامل تأسيس الدولة المرينية 95
المطلب الرابع: مرحلة تأسيس الدولة المرينية 99
المطلب الخامس: مرحلة توسيع الدولة المرينية 109
الفصل الثالث: النظام الاقتصادي والاجتماعي والفكري في دولة بني مرين 126
المبحث الأول: النظام الاقتصادي 126
المطلب الأول: النظام المالي 126
المطلب الثاني: مداخيل الدولة المرينية 131
المبحث الثاني: النظام الاجتماعي 143
المطلب الأول: شاكلة السكان في عهد بني مرين 143
المطلب الثاني: مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد الدولة المرينية 149
المبحث الثالث: الحياة الفكرية 161
المطلب الأول: العودة للمذهب المالكي 163
المطلب الثاني: المذهب الأشعري 168
المطلب الثالث: التصوف في العهد المريني 170
المطلب الرابع: العلوم المتعددة في العهد المريني 174

الباب الثاني:

العمل الاجتماعي في عهد بني مرين

الفصل الأول: المؤسسات الدينية 188
المبحث الأول: بناء الجوامع والمساجد 188
المطلب الأول: بناء جوامع ومساجد فاس 190
المطلب الثاني: إصلاح صومعة المسجد الأعظم وبناء مسجد القصبة بمكناس 195
المطلب الثالث: بناء وترميم بعض مساجد مراكش 197
المطلب الرابع: بناء الجامع الكبير بالرباط 198
المطلب الخامس: توسيع المسجد الجامع بتازة وتجديده 199
المطلب السادس: بناء المسجد الكبير بوجدة 200
المطلب السابع: بناء مسجد القصبة العليا بآسفي 201
المطلب الثامن: بناء مسجد أبي مدين شعيب بتلمسان (العباد) 201
المطلب العاشر: تجديد وإصلاح جامع عدوة الأندلس 204
المطلب الحادي عشر: بناء مسجد هنين 205
المطلب الثاني عشر: بناء المسجد العتيق بسبتة 205
المطلب الثالث عشر: الزيادة بمسجد شالة العتيق 205
المبحث الثاني: الوقف على المساجد 207
المطلب الأول: أوقاف جامع القرويين 208

المطلب الثاني: الأوقاف على جوامع فاس 209
المطلب الثالث: التحبيس على مسجد تازة 210
المطلب الرابع: التحبيس على مسجد أبي مدين........................ 210
المطلب الخامس: التحبيس على مسجد سيدي الحلوي 210
المطلب السادس: التحبيس على مسجد مستغانم 211
المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمسجد في العهد المريني........................ 212
المطلب الأول: دور المسجد في الحياة العلمية 212
المطلب الثاني: انطلاق سفر السلطان من المسجد 215
المطلب الثالث: المسجد مأوى الغرباء والمسافرين 215
المطلب الرابع: إقامة عقد الزواج داخل المسجد 216
المطلب الخامس: الاحتفال بالمولد النبوي في المسجد........................ 216
المطلب السادس: المسجد دار للقضاء وحلف اليمين 218
المبحث الرابع: بناء الزوايا في العهد المريني 220
المطلب الأول: بناء الزوايا في مدينة سلا 222
المطلب الثاني: بناء الزاوية القديمة والجديدة بمكناسة 224
المطلب الثالث: زاوية أبي سعيد عثمان بخلوة شالة........................ 225
المطلب الرابع: الزاوية المتوكلية بفاس الجديد 226
المطلب الخامس: زاوية سبتة........................ 228
المطلب السادس: زاوية تافرطاست 228
المطلب السابع: زاوية سيدي الحلوي بتلمسان 228
المطلب الثامن: زاوية عبد الله اليابوري داخل أسوار شالة........................ 229
المبحث الخامس: الوقف على الزوايا وخدماتها الاجتماعي 230
المطلب الأول: دور الزاوية في الحياة العلمية 232
المطلب الثاني: الزاوية دار لإطعام المحتاج ومأوى للغرباء والطلبة والفقراء والهاربين 234
المطلب الثالث: الاحتفال بالمولد النبوي........................ 239
المطلب الرابع: كفالة الزوايا للأرامل والمسنين........................ 240
الفصل الثاني: المؤسسات التعليمية........................ 243
المبحث الأول: بناء المدارس العلمية 243
المطلب الأول: مدارس مدينة فاس........................ 245
المطلب الثاني: المدرسة العظمى بطالعة سلا 255
المطلب الثالث: مدارس مكناسة 256
المطلب الرابع: مدارس بتازة........................ 259
المطلب الخامس: مدرسة مراكش العجيبة........................ 261

المطلب السادس: مدرسة آنفا 264
المطلب السابع: المدرسة الجديدة بسبتة 265
المطلب الثامن: المدرسة المرينية بالرباط 266
المطلب التاسع: المدرسة المرينية بوجدة 266
المطلب الحادي عشر: مدرسة شالة 268
المطلب الحادي عشر: مدرسة العباد بتلمسان 268
المطلب الثالث عشر: مدرسة سيدي الحلوي 270
المبحث الثاني: أوقاف المدارس المرينية 272
المطلب الأول: أوقاف مدرسة الحلفاويين 273
المطلب الثاني: أوقاف مدرسة الصهريج والسبعيين 273
المطلب الثالث: أوقاف مدرسة العطارين 274
المطلب الرابع: أوقاف المدرسة المصباحية 274
المطلب الخامس: أوقاف المدرسة البوعنانية أو المتوكلية 274
المطلب السادس: أوقاف مدرسة الوادي 275
المطلب السابع: أوقاف مدرسة الشهود أو القاضي بمكناسة 275
المطلب الثامن: أوقاف المدرسة العظمى بطالعة سلا 275
المطلب التاسع: أوقاف مدرسة العباد بتلمسان 275
المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمدارس 278
المطلب الأول: مجانية التعليم في المدارس المرينية 278
المطلب الثاني: المدارس المرينية ودورها في دعم العلم الشرعي 279
المطلب الثالث: المدارس مأوى لطلبة العلم 280
المطلب الرابع: حصول الطالب على عمل في وظائف الدولة 281
المطلب الخامس: تخصيص المدارس رواتب لطلبة العلم 282
المبحث الرابع: كتاتيب الصبية ودورها العلمي في المجتمع المريني 284
المطلب الأول: أهمية الكتاب في تعليم الصبية 286
المطلب الثاني: نظام الكتاب 287
المطلب الثالث: احتفالات الكتاب 291
المطلب الرابع: أهم الكتاتيب في العهد المريني 292
المبحث الخامس: الخزانات العلمية في العهد المريني 294
المطلب الأول: خزانة الكتب الملكية 295
المطلب الثاني: الخزانات العامة 301
المطلب الثالث: خزانات الجوامع أو المساجد 306
المطلب الرابع: خزانات المدارس 310

المبحث السادس: الدور الاجتماعي للخزانات العلمية 314
المبحث السابع: أوقاف الخزانات العلمية 316
المطلب الأول: التحبيس على خزانة يعقوب بن عبد الحق بمدرسة الحلفاويين 317
المطلب الثاني: تحبيس أبي الحسن المريني على المدارس........ 317
المطلب الثالث: التحبيس على خزانة أبي عنان بالقرويين 318
المطلب الرابع: تحبيس الكتب على مسجد السوق الكبير........ 319
المطلب الخامس: تحبيس بعض العلماء لكتبهم........ 320
الفصل الثالث: الرعاية الصحية........ 321
المبحث الأول: بناء المارستانات وتشييدها........ 324
المطلب الأول: مارستانات مدينة فاس 324
المطلب الثاني: مارستانات مدينة سلا........ 328
المطلب الثالث: مارستان مراكش 329
المطلب الرابع: المارستان العزيزي بالرباط........ 330
المطلب الخامس: مارستان المنصورة قرب تلمسان 331
المطلب السادس: مارستان آسفي 332
المطلب السابع: مارستان مكناس 332
المطلب الثامن: مارستان تازة........ 334
المطلب التاسع: العيون السخنة للتداوي 334
المبحث الثاني: أوقاف المارستانات 337
المبحث الثالث: الدور الاجتماعي للمارستانات........ 339
المبحث الرابع: أطباء المارستانات 342
المطلب الأول: الطبيب أبو عبد الله الشريشي 343
المطلب الثاني: الطبيب محمد بن يحيى العزفي 343
المطلب الثالث: الطبيب أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي الفاسي 344
المطلب الرابع: الطبيب أبو عبد الله بن مروان المعافري........ 345
المطلب الخامس: الطبيب علي بن هيدور التادلي الفاسي 345
المطلب السادس: الطبيب علي بن أبي غالب الإدريسي 346
المطلب السابع: الطبيب لسان الدين بن الخطيب 346
المطلب الثامن: الطبيبة عائشة بنت الجيار 348
المطلب التاسع: الطبيب الأندلسي محمد بن القاسم القرشي المالقي........ 349
المطلب العاشر: نظارة المارستان 349
المطلب الحادي عشر: أطباء السلاطين........ 349
الفصل الرابع: الرعاية الاجتماعية في عهد بني مرين 350

المبحث الأول: رعاية الشيوخ المسنين 352
المطلب الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي للشيخ المسن 352
المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للشيخ المسن في العهد المريني 353
المبحث الثاني: رعاية اليتيم 357
المطلب الأول: مفهوم اليتيم 358
المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية لليتيم في عهد بني مرين 360
المبحث الثالث: رعاية الفقراء والمساكين 363
المطلب الأول: مفهوم الفقير والمسكين 364
المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية للفقراء والمساكين في العهد المريني 367
المبحث الرابع: قضاء الديون عن المدين 373
المطلب الأول: مفهوم الغارم 375
المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للغارم في العهد المريني 376
المبحث الخامس: رعاية الأرامل والمكفوفين 379
المطلب الأول: مفهوم الأرملة 380
المطلب الثاني: مفهوم المكفوف 381
المطلب الثالث: الرعاية الاجتماعية للأرامل والمكفوفين في العهد المريني 383
المبحث السادس: رعاية المسجونين 385
المطلب الأول: مفهوم المسجون 386
المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية للمسجونين في العهد المريني 387
المبحث السابع: افتكاك الأسرى 391
المطلب الأول: مفهوم الأسير 392
المطلب الثاني: افتكاك الأسرى في العهد المريني 393
المبحث الثامن: الرعاية الاجتماعية لركب الحج 397
المطلب الأول: مفهوم الركب والحج 398
المطلب الثاني: ركب الحج المغربي ورعايته في العهد المريني 400
المبحث التاسع: الرعاية الاجتماعية لأهل الذمة في العهد المريني 406
المطلب الأول: مفهوم أهل الذمة 406
المطلب الثاني: الرعاية الاجتماعية لليهود في العهد المريني 408
المطلب الثالث: الرعاية الاجتماعية للنصارى في دولة بني مرين 412
المبحث العاشر: إحداث السقايات العمومية زمن بني مرين 414
المطلب الأول: السقايات عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني 415
المطلب الثاني: السقايات عهد السلطان أبي الحسن المريني 416
المطلب الثالث: السقايات عهد السلطان أبي عنان المريني 417

المطلب الرابع: سقاية الجامع الكبير بالرباط 418
المطلب الخامس: سقايات مدينة فاس........ 418
المطلب السادس: سقايات مدينة وجدة........ 419
المطلب السابع: سقايات سلا 419
المبحث الحادي عشر: صدقات وإحسانات متنوعة........ 420
المطلب الأول: مفهوم الصدقة 421
المطلب الثاني: صدقات السلاطين المرينيين........ 422
المطلب الثالث: صدقات عامة الناس في العهد المريني 431
المطلب الرابع: الإحسان لأهل الربض 434
المطلب الخامس: الإحسان زمن الوباء........ 435
المطلب السادس: الإحسان للحيوانات والطيور 436
المبحث الثاني عشر: الحوالات الحبسية 440
المطلب الأول: مفهوم الحوالة في اللغة والاصطلاح 440
المطلب الثاني: أهمية الحوالات........ 441
المطلب الثالث: الحوالات المرينية 444
المبحث الثالث عشر: ساعات الوقت المائية........ 449
المطلب الأول: ساعة ابن الحباك سنة685ه 450
المطلب الثاني: ساعة محمد بن عبد الله الصنهاجي سنة717ه/ 1317م 450
المطلب الثالث: ساعة الأسطرلاب لابن العربي سنة747ه/ 1346م........ 452
المطلب الرابع: ساعة المدرسة البوعنانية 453
المطلب الخامس: ساعة عبد الرحمان بن سليمان اللجائي سنة 763ه/ 1361م........ 455
المطلب السادس: ساعة مائية في الشارع العام........ 455
المبحث الرابع عشر: برج النفارين سنة 840هـ 457
المبحث الخامس عشر: الحمامات المرينية........ 458
خاتمة 461
فهرس الآيات القرآنية 463
فهرس الأحاديث النبوية 467
فهرس الأبيات الشعرية 469
فهرس الأعلام 471
فهرس البلدان والأماكن 475
فهرس المصادر 479
فهرس المراجع........ 496
فهرس المجلات 514

فهرس الندوات.. 516
فهرس المواقع الإلكترونية 517

هذا الكتاب

برز الإسلام إلى الناس بمشروعه الحضاري، واستند إلى قدسية الوحي، واعتمد قدرته الفائقة على مخاطبة الكيان البشري وعلى تحريك طاقة النفس المؤمنة إلى القيام بالعمل الاجتماعي، الذي ينبني على دعائم وأسس ومبادئ، وفق شروط محكمة ومضبوطة، في منظومة القيم والتعاون بين كل مقومات المجتمع. والعمل الاجتماعي في الإسلام بمفهومه العام ودلالاته الواسعة كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وإن كان العمل الاجتماعي قد ظهر قبل الإسلام عند أهل الكتاب الذين تعاملوا مع الوحي، غير أنه لم يكن مكتملا، ولما جاء الإسلام قعّد للعمل الاجتماعي، وتعامل معه بأصوله وقواعده، وبمنهج حكيم ورشيد، ليستمر عبر العصور ويكون ثابتا غير متغير، فالخير في المجتمع الإسلامي لا ينقطع حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الشريعة الإسلامية جاءت بنظام شامل، وميزتها أنها كذلك فقاربت جميع قضايا الإنسان، والخاطئ كل من ظن أن الشريعة جاءت قصد التعبد فقط، بل قاربت كل قضايا الإنسان فخصت عنايتها بالعمل الاجتماعي وصانته وجعلت منه منظومة منضبطة وفق شروط يلتزم بها أفراد المجتمع ومكوناته. لقد أصل القرآن الكريم العمل الاجتماعي وبذلك جاءت الآيات الكريمة واضحة الدلالة مفسرة المعاني ومرتبة لشعائره وأحكامه، ومن العمل الاجتماعي ما يدخل في باب الوجوب والإلزام، وما يدخل في باب التطوع، فهو بحر واسع ومداده لا يفنى مادامت خيوط الخير معلقة بأثواب أهل الخير والإحسان.